بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة الخليل

كلّيّة الدّراسات العُليا

قسم أُصول الدّين: تخصّص (التّفسير وعلوم القرآن)

القضايا العِلْميّة في تفسير "معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر" للشّيخ عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميدانيّ، دراسة ونقد.

إعداد الطّالب

باسم فارس أبورميلة

الرّقم الجامعيّ: (21419002)

إشراف

الأستاذ الدّكتور حسن عبد الرّحمن السّلواديّ

قُدّمت هذه الرّسالة استكمالاً لمتطلّبات درجة الماجستير في أُصول الدّين، تخصّص التّفسير وعلوم القرآن، بكلّيّة الدّراسات العُليا والبحث العِلْميّ في جامعة الخليل

1440هـ - 2019م

القضايا العِلْميّة في تفسير "معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر" للشّيخ عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميدانيّ، دراسة ونقد.

إعداد الطّالب

باسم فارس أبورميلة

الرّقم الجامعيّ: (21419002)

نُوقشت هذه الرّسالة يوم الأربعاء

التّاسع من ربيع الأوّل لعام 1441هـ - السّادس من تشرين الثّاني لعام 2019م، **وأُجيزت**.

أسماء أعضاء لجنة المناقشة:

1. أ.د حسن عبد الرّحمن السّلواديّ -مُشرفاً ورئيساً-. التّوقيع: .....

2. د. عطيّة الأطرش -مُناقشاً داخليّاً-. التّوقيع: .....

3. د. إسماعيل نواهضة -مُناقشاً خارجيّاً-. التّوقيع: .....

إهداء

إلى الّذين حفزوا هِمَمي إلى العلوم الشّرعيّة، ووقفوني عليها.

إلى الّذين وجّهوني إلى العِلْم والدّعوة والإرشاد.

إلى الّذين بذلوا لي ما في وُسعهم تربيةً وتعليماً، وراحةً وطمأنينةً.

إلى والديّ رضوان الله -تعالى- عليهما.

إلى زوجتي وأولادي بارك الله -تعالى- لي فيهم، ونفعني بهم، الذين لم يألوا جُهدًا في دعمي ومُساندتي؛ حتّى تخرج هذه الرّسالة في أجمل صورة وأبهى مَنظر.

جمعني الله -تعالى- وإيّاهم في الفردوس الأعلى مع النّبيّين والصّدّيقين والشّهداء والصّالحين،

وحَسُن أُولئك رفيقاً.

شُكر وتقدير

الحمد لله –تعالى– الذي تتمّ بنعمته الصّالحات، فله الحمد حمداً طيّباً مُباركاً فيه، كما ينبغي لجلال وجهه، وعظيم سلطانه، وأشكره –سبحانه– أن ألهمني فكرة البحث في تفسير الشّيخ عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميدانيّ: معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر، واستخراج القضايا العِلْميّة منه، ودراستها.

وانطلاقاً من قول الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم–: [لا يشكرُ الله من لا يشكرُ النّاس][1]. وعِرفاناً بالفضل لأهله، أتقدّم بالشّكر الجزيل إلى أُستاذي المُشرف: فضيلة الأستاذ الدّكتور حسن عبد الرّحمن السّلواديّ، الذي حباني بعطفه، ومنحني من وقته الثّمين ما لا أقدر على الوفاء به، والذي مَدّني من فيض عِلْمه بكثير من النّصائح والإرشادات التي استفدت منها كثيراً؛ فضلاً عن مُتابعته الحثيثة للرّسالة. وأسأل الله –تعالى– أن يمدّه بطول العُمُر وحُسن الخاتمة، وأن يجزيه عنّي وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء. كما أتوجّه بالشّكر والعرفان إلى فضيلة عضوي المناقشة: فضيلة الدّكتور عطيّة الأطرش، وفضيلة الدّكتور إسماعيل نواهضة، على تكرّمهما عليّ بقبول المناقشة، وتشريفهما لي بالنّظر فيها، وأسعد بما يتحفني به فضيلتهما من شأنه تقويم عثاري، وهدايتي للجادّة فيه، وأسأل الله –تعالى– أن يجزيهما عنّي كلّ خير، ويجعل جهدهما في تقويم هذه الرّسالة في موازين حسناتهما.

أمّا والديّ، فيعجز اللّسان عن شُكرهما، على ما زرعاه في قلبي من حُبّ لله –تعالى–، ولرسوله –صلّى الله عليه وسلّم–، وعلى ما قدّماه لي من دعاء ومُساندة. وأمّا زوجتي وأولادي، فلهم منّي الشّكر والتّقدير، لما قدّموه لي من راحة وطمأنينة، وتشجيع، وتحفيز.

والشّكر موصول إلى جامعتنا الغرّاء –جامعة الخليل– ممثّلة بواسطة عقدها، ونواة نشأتها –كلّيّة الشّريعة– حرصها الله –تعالى–، وأدام عزّها، وأخصّ بالذّكر منها: قسم أصول الدّين، بالقائمين عليه كافّة، على ما يبذلونه من جهود، ويُهيّئونه من أسباب؛ للنّهوض والصّعود بأمانة العلم والبحث والتّعليم. والشّكر موصول –أيضاً– إلى كلّيّة الدّراسات العليا؛ حيث وافقت لي على موضوع الرّسالة، وأتاحت لي الفرصة في البحث والدّراسة، ويسّرت لي سبيل العِلْم، وإكمال دراسة الماجستير.

وإنّني لأضرّع إلى الله العليّ القدير أن يتقبّل منّي هذا الجهد المتواضع، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يمنّ عليّ بالقبول.

إنّه نعم المولى ونعم النّصير، والحمد لله ربّ العالمين

الطّالب: باسم فارس أبورميلة

---

(1) رواه أبو داوود من حديث أبي هريرة –رضي الله عنه–، وصحّحه شعيب الأرنؤوط بقوله: إسناده صحيح. أبو داوود، سليمان: **سُنن أبي داوود**، ج7، ص188، كتاب الأدب، باب في شكر المعروف، حديث رقم: 4811.

المحتويات

إهداء.....أ
شكر وتقدير.....ب
المحتويات.....ت
ملخّص الرّسالة.....ح
المُقدّمة.....ذ
الفصل الأوّل: حياة الشّيخ عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميدانيّ.....1
المبحث الأوّل: عصره، وأهمّ مظاهر الحياة فيه.....3
المطلب الأوّل- الأحوال السّياسيّة في عصره.....3
المطلب الثّاني- الحالة الاجتماعيّة والاقتصاديّة.....6
المطلب الثّالث- الحالة الثّقافيّة.....8
المبحث الثّاني: حياته الشّخصيّة.....10
المطلب الأوّل- اسمه ونسبه، ومولده ونشأته، ولقب عائلته وشهرته.....10
المطلب الثّاني- عقيدته وأخلاقه.....12
المطلب الثّالث- شخصيّته والعوامل المؤثّرة فيها.....14
المطلب الرّابع- مرضه ووفاته.....20
المبحث الثّالث: حياته العِلْميّة والدّعويّة.....22
المطلب الأوّل- طلبه للعِلْم، ومسيرته العِلْميّة والدّعويّة.....22
المطلب الثّاني- مِحْنَته.....24
المطلب الثّالث- شيوخه ومَنْ تأثّر بهم.....25
المطلب الرّابع- مُؤلّفاته.....28
الفصل الثّاني: مدخل إلى تفسير الشّيخ عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميدانيّ "معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر".....34
المبحث الأوّل: مصادر الشّيخ في تفسيره.....37

المبحث الثّاني: المنهج العامّ للشّيخ في تفسيره.....57
المبحث الثّالث: طريقة تفسير القرآن الكريم حسب ترتيب النّزول.....70

المبحث الرّابع: موقف الشّيخ من طريقة تفسير القرآن الكريم حسب ترتيب النّزول، ومُناقشته.....75

الفصل الثّالث: الشّيخ عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميدانيّ والتّفسير العِلْميّ للقرآن الكريم....81

المبحث الأوّل: مفهوم التّفسير العِلْميّ للقرآن الكريم.....82
المطلب الأوّل- التّعريف بالتّفسير العِلْميّ.....82
المطلب الثّاني- تاريخ التّفسير العِلْميّ.....86
المطلب الثّالث- اهتمام العلماء بالتّفسير العِلْميّ في العصر الحديث.....87
المطلب الرّابع- أبرز المؤلّفات في التّفسير العِلْميّ.....89
المبحث الثّاني: الفرق بين الحقيقة العِلْميّة والنّظريّة العِلْميّة.....91
المبحث الثّالث: العلاقة بين التّفسير العِلْميّ والإعجاز العِلْميّ.....96

المبحث الرّابع: موقف العلماء من التّفسير العِلْميّ.....99

المبحث الخامس: ضوابط التّفسير العِلْميّ.....106

الفصل الرّابع : التّفسير العِلْميّ عند الشّيخ عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميدانيّ.....110

المبحث الأوّل: التّفسير العِلْميّ لآيات الله -تعالى- في السّماء والأرض.....111

المطلب الأوّل- معنى خلق السّماء والأرض في اللّغة والاصطلاح.....111

المطلب الثّاني- الآيات الكونيّة الثّلاث المتعلّقة بالسّماء.....116

المطلب الثّالث- التّفسير العِلْميّ لآيات خلق الشّمس والقمر.....129

المطلب الرّابع- التّفسير العِلْميّ لآيات خلق النّجوم والكواكب.....136

المطلب الخامس- التّفسير العِلْميّ لآيات خلق الأرض.....139

المطلب السّادس- التّفسير العِلْميّ لآيات خلق الرّياح والجبال.....146

المبحث الثّاني: التّفسير العِلْميّ لآيات الله -تعالى- في الإنسان.....160
المطلب الأوّل- التّفسير العِلْميّ لآيات خلق الإنسان.....160

المطلب الثّاني- التّفسير العِلْميّ لآيات مراحل خلق الإنسان.....167

المطلب الثّالث- التّفسير العِلْميّ لآيات الظّلمات الثّلاث.....171

المطلب الرّابع- التّفسير العِلْميّ لآيات تكوين جنس الجنين.....174

الفصل الخامس: تقويم ومُقارنة.....183

المبحث الأوّل: مكانة الشّيخ عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميدانيّ العِلْميّة.....184

المبحث الثّاني: القيمة العِلْميّة لتفسيره.....186

الخاتمة.....191

قائمة المصادر والمراجع.....195

فهرس الآيات القرآنيّة.....209

فهرس الأحاديث النّبويّة.....214

مُلخّص الرّسالة

تُعدّ القضايا العِلْميّة في القرآن الكريم خير شاهد على أنّ القرآن الكريم تنزيل من لدن الله –تعالى–، وأنّه حقّ لا ريب فيه، وبخاصّة في هذا العصر؛ حيث التّقدّم العِلْميّ والتّكنولوجيّ الهائل، وقد جاءت هذه الدّراسة مُحاولة مُتواضعة لاستخلاص القضايا العِلْميّة من تفسير "معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر"، للشّيخ عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميدانيّ.

وقد كشفت الدّراسة عن جوانب مُهمّة في حياته، من حيث: عصره، وأهمّ مظاهر الحياة فيه، وحياته الشّخصيّة، والعِلْميّة، والدّعويّة. وشرحت طريقة تفسير القرآن الكريم حسب ترتيب النّزول، وأقوال العلماء فيها، وأدلّتهم، وموقف الشّيخ منها، ومناقشته. إضافة إلى بيان مصادر الشّيخ في التّفسير، وبخاصّة كتابه "قواعد التّدبّر الأمثل" الذي بنى تفسيره عليه. كما تتبّعت المنهج العامّ الذي سار عليه في التّفسير.

وقد بيّنت الدّراسة المقصود من التّفسير العِلْميّ، وموقف العلماء منه، وعرّجت على تاريخه، وأبرز المؤلّفات فيه، وذكرت العلاقة بينه وبين الإعجاز العِلْميّ، والفرق بين الحقيقة العِلْميّة والنّظريّة العِلْميّة. وتناولت موقف العلماء من التّفسير العِلْميّ، من: مُؤيّدين، ومُعارضين، ومُعتدلين، وأدلّة كلّ منهم، مع المناقشة والتّرجيح؛ وصولاً إلى استخلاص القضايا العِلْميّة في تفسير الشّيخ –رحمه الله تعالى–، وتأصيل القواعد والضّوابط التي يتوجّب على المفسّرين والباحثين اتّباعها عند تفسيرهم للقضايا العِلْميّة في القرآن الكريم.

وبيّنت الجانب العِلْميّ لآيات الله –تعالى– في خلق كلّ من: السّماء والأرض، والشّمس والقمر، والنّجوم والكواكب، والرّياح والجبال. كما بيّنت الجانب العِلْميّ أيضاً لآيات الله –تعالى– في خلق الإنسان، وتناولت مراحل خلقه، وبيان المقصود بالظّلمات الثّلاث التي يكون فيها الجنين، وهو في بطن أُمّه، وقضيّة تحديد جنس الجنين.

ومن ثمّ بيّنت مكانة الشّيخ عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميدانيّ العِلْميّة، وثناء العلماء والتّلاميذ عليه، والقيمة العِلْميّة لتفسيره.

وقد ظهر لي من خلال البحث أنّ تفسير الشّيخ –رحمه الله تعالى– زاخر بالعلوم الكثيرة والمعاني الجليلة، فهو تفسير موسوعيّ، إلّا أنّه لا يخلو من انتقادات رغم إيجابيّاته الكثيرة، فهو مع اهتمامه بالمأثور والمناسبات والوَحدة الموضوعيّة والقراءات المتواترة واللّغة وغيرها، إلّا أنّه قد استخدم طريقة تفسير القرآن الكريم حسب ترتيب النّزول الظّنّيّ في تفسيره؛ إضافة إلى خروجه عن النّصّ أحياناً باستطرادات لا طائل منها، وعدم توثيقه لكلام العلماء أحياناً.

وقد خُتمت هذه الدّراسة بعدد من النّتائج والتّوصيات، والله –تعالى– وليّ التّوفيق.

Abstract

Scientific Issues in the Holy Quran is an excellent witness that it's a revelation from Allah, the all mighty, and it is a truth without any doubt, especially in the present time of great scientific progress and massive technological developments. This study is a modest attempt to draw the scientific issues from the Interpreting "Ma`arij at-Tafakkur wa Daqa`q at-Tadabbur" by Abdul-Rahman al-Midani.

The study reveals many important features of Al-Maidani's life such as his time, the main aspects of everyday life then. It also covers his personal, scientific and preaching life. The interpretation of the Holy Quran by means of the contexts of revelation is also covered by the study, along with comments of specialized scientists in the field supported by their evidences, the sheikh (Al-Midani)'s point of view about the subject especially through his book "Qawa'ed al-tadabur" (The ideal basics of contemplation) based on which he set his interpretation. It also traces the general approach which he used in his interpretation.

The study shows what is meant by the scientific interpretation, the scientists' point of view about it, it's history and the main writings about it and its relationship with the scientific miraculous. The difference between the scientific reality and the scientific theory. The scientists' attitudes toward it as supporters, opponents and neutrals, along with the evidence of each. Discussion about each party and weighting is covered as well in order to reach a conclusion about the scientific issues in the sheikh-(Al-Midani)'s book (may Allah's mercy be upon him), and to set a firm foundation for the bases and criterions which interpreters and researchers should follow when interpreting scientific issues in the Holy Quran.

Scientific aspects of Allah's miracles are also shown in the creation of the heavens and Earth, the sun and the moon, the stars and the planets, the winds and the mountains. Moreover, Allah's miracles in the creation of man through stages of development of the embryo is also mentioned by explaining what is meant by the three darknesses in which the fetus passes through while in his mother's womb.

The study highlights the scientific rank of the sheikh-(Al-Midani), the commendation of him by his students and other scientists.

Through this study, it was revealed to me that the interpretation of the sheikh-(Al-Midani) is full of great knowledge and lofty meanings. It's an encyclopedic interpretation, but still it contains some contradictions along with advantages. For example, he is interested in (the inherited) knowledge,

the occasions, the objective unity, the retraced rehearsing (readings) and the language, he uses a methodology based on uncertain contexts of revelation. And sometimes he would go off line by unnecessary digression, in addition to the lack of documentation of some scientists in his book.

Finally, the study concludes with a number of results and recommendations. And Allah the Arbiter of success.

بسم الله الرّحمن الرّحيم

المُقدّمة:

"الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله –تعالى– فلا مُضلّ له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أنْ لا إله إلّا الله –تعالى– وحده لا شريك له، وأنّ محمّدًا عبده ورسوله؛ أمّا بعد"[1]:

فإنّ جانب التّفسير العِلْميّ لآيات القرآن الكريم، هو جزء رئيس من قضيّة التّفكّر والتّدبّر التي أمرنا الله –تعالى– بها، فالمسلم مأمور بأن يتدبّر آيات الله الكريمة، وأن يُعمل عقله وفكره ووجدانه في فقه معانيها وفهم مدلولاتها، كما أنّه مأمور بتدبّر مخلوقات الله –تعالى– وتأمّل دقائق صنعه وإتقانها، فإذا كان القرآن كتاب الله –تعالى– المقروء، فإنّ الكون وما فيه، كتاب الله –تعالى– المنظور. وأيّ شيء أولى من أن يتدبّر الإنسان في نفسه والكون من حوله.

ولمّا كان من فضل الله –تعالى– عليّ أن جعلني أحد طلّاب الدّراسات العُليا في قسم أُصول الدّين، تخصّص تفسير القرآن الكريم وعلومه في مرحلة الماجستير في جامعة الخليل، رغبت في دراسة مناهج التّفسير قديماً وحديثاً؛ للتّعرّف إلى منهجهم في فهم كتاب الله –تعالى–، وتدبّره على الوجه الأمثل، ثمّ لاختيار ما نحتاج إليه في عصرنا الحاضر. وحين أردت اختيار موضوع للرّسالة، أحببت انتقاء تفسير من التّفاسير المعاصرة، ينفرد بطريقته، ويتّسم بالشّموليّة والاعتدال؛ كي أقف على دراسة حياته، ومنهجه في التّفسير، ومعرفة ما قيل فيه من استحسان، وما سُجّل عليه من مآخذ، مع مُقارنته بتفاسير أخرى سابقة ولاحقة لمعرفة قيمته العِلْميّة. وقد رأيت أنّ تفسير "معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر"، للشّيخ عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميدانيّ، جدير بالبحث والدّراسة، وبعد استخارة الله –تعالى–، ثمّ استشارة أهل العِلْم، اخترت الكتابة في موضوع القضايا العِلْميّة فيه، وجعلت موضوع رسالتي بعنوان: **"القضايا العِلْميّة في تفسير "معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر" للشّيخ عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميدانيّ، دراسة ونقد**؛ حيث استفاد الشّيخ ممّن سبقوه، وأبدع في كثير ممّا عرض له، كما أنّ الاهتمام بالعلوم العصريّة في تفسيره أضحى مَشهداً جليّاً فيه؛ بيد أنّني قصرت رسالتي على ثلاث قضايا عِلْميّة بارزة، أخذت حيّزاً كبيراً من تفسيره، وهي: السّماء والأرض والإنسان، وما يتعلّق بها من أُمور، وذلك لاحتواء تفسيره على قضايا عِلْميّة كثيرة تضيق هذه الرّسالة عن التّفصيل فيها.

وقد قرأت تفسيره كاملاً في أثناء مرحلة تحضيري لخطّة البحث، وتتبّعت الآيات القرآنيّة والموضوعات التي لها علاقة بالجانب العِلْميّ في تفسيره؛ حتّى تكوّنت عندي فكرة واضحة عن موضوع الرّسالة، وصنّفت

---

(1) رواه مُسلم من حديث ابن عبّاس –رضي الله عنه–. النّوويّ، يحيى: **صحيح مُسلم بشرح الإمام النّوويّ**، م3، ج6، ص130، كتاب الجُمُعة، باب تخفيف الصّلاة والخُطبة، حديث رقم: 868.

الآيات –بداية– حسب موضوعاتها، ثمّ رصدت أقوال الشّيخ حولها، مُتتبّعاً ما فيها من جوانب عِلْميّة. ولمّا وجدت أنّ هذه القضايا الثّلاث: السّماء والأرض والإنسان، قد استوعبها الشّيخ في تفسيره، عمدت إلى الآيات المتعلّقة بها، فذكرتها، ثمّ درستها دارسة نقديّة.

مُشكلة الدّراسة وأسئلتها:

تُحاول هذه الدّراسة الإجابة عن السّؤال الرّئيس الآتي: ما موقف الشّيخ عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميدانيّ من القضايا العِلْميّة في تفسيره: معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر؟ ويتفرّع عن هذا السّؤال أسئلة فرعيّة عدّة تدور حولها الدّراسة، أذكر منها:

1. هل يتّسق تفسيره للقضايا العِلْميّة مع منهجه العامّ في التّفسير؟
2. هل التزم المفسّر بالقواعد العامّة التي اعتبرها مرجعيّة لتفسيره في معالجة القضايا العِلْميّة؟
3. ما منهجه في التّعامل مع القضايا العِلْميّة، وما موقفه منها؟
4. هل وضع قواعد وضوابط لتفسير القضايا العِلْميّة المقبول منها والمردود؟
5. هل نجح المفسّر في تحقيق أهدافه من خلال اعتماده في تفسيره على طريقة ترتيب الآيات حسب نزولها؟

أهداف الدّراسة:

تهدف هذه الدّراسة إلى تحقيق الأهداف الآتية:

1. بيان حياة الشّيخ عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميدانيّ، والتّعريف بتفسيره: معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر.
2. بيان منهجه في التّعامل مع القضايا العِلْميّة في تفسيره، ومُناقشة ما ذكره في صورة نقديّة.
3. إبراز مكانة الشّيخ العلميّة بين أقرانه، مثل: محمّد راتب النّابلسيّ، وزغلول النّجّار، وعبد المجيد الزّنداني، وعبد الدّائم الكحيل.
4. التّعرّف إلى طريقة الشّيخ عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميدانيّ في تفسيره للسّور حسب نزولها، وبيان موقف العلماء منها، والوقوف على أدلّة كلّ من: المؤيّدين والمعارضين والمعتدلين، ومعرفة الرّاجح منها.
5. إبراز مكانة التّفسير العِلْميّ للقرآن الكريم؛ لاسيّما في خضمّ التّطوّر العِلْميّ الذي يشهده العالم في شتّى المجالات.

أسباب اختيار الدّراسة:

1. الرّغبة في معرفة علم من أعلام التّفسير المعاصرين، الذي له أثر بالغ في اليقظة الإسلاميّة المعاصرة.
2. كثرة مُصنّفات الشّيخ عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميدانيّ، ومُؤلّفاته، وتنوّع فنونها وانتشارها، وبخاصّة تفسيره: معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر.
3. الاطّلاع على تفسيره، وإبراز القضايا العِلْميّة فيه، ومدى عنايته بها –موضوع الدّراسة–.
4. ربط هذه القضايا العِلْميّة التي ذهب إليها في تفسيره بالمكتشفات العِلْميّة الحديثة المتعلّقة ببعض آيات القرآن الكريم.
5. دراسة بعض آراء الأعلام المشهورين في تفسير القضايا العِلْميّة كما وردت في القرآن الكريم.
6. التّعرّف إلى طريقة تفسير السّور القرآنيّة حسب نزولها، ومدى إسهامها في إثراء حركة التّفسير في العصر الحديث.
7. لم أجد –حسب عِلْمي– رسالة عِلْميّة أفردت هذا الموضوع بدراسة مستقلّة وافية.

لهذه الأسباب ولغيرها اخترت موضوع دراستي.

أهمّيّة الدّراسة:

تنبُع أهمّيّة هذه الدّراسة من كونها تتعاطى مع مسألة التّفسير العِلْميّ للقرآن الكريم، من خلال تفسير الشّيخ عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميدانيّ –معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر–، ومدى إسهام هذا النّمط من التّفسير في ترسيخ العقيدة الإسلاميّة في نفوس النّاشئة؛ لاسيّما أنّنا نعيش في عصر يَعتدّ بالعِلْم طريقاً للنّهضة والتّقدّم؛ فضلاً عن أنّها تهتمّ بمناقشة ما ذكره الشّيخ من قضايا عِلْميّة في تفسيره الذي لا يستغني عنه مُنشغل بهذا العِلْم.

الدّراسات السّابقة:

هناك دراسات مُتنوّعة حول الشّيخ عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميدانيّ، تناولت: حياته والتّعريفَ بمؤلّفاته، ومنهجَه في تفسيره –معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر–، وآراءَه العقديّة وغيرها، ولكنّني لم أجد أحداً –في حدود عِلْمي– كتب في القضايا العِلْميّة التي شغلت حيّزًا ليس بالقليل في تفسيره، ولم يصدر مُصنّف مُفرد فيه. ومن بين الدّراسات التي بحثت منهج الشّيخ تحليلاً ونقداً، وتطرّقت لموضوع التّفسير العِلْميّ بشكل إجماليّ مُقتضب غير وافٍ بالغرض؛ دون دراسة عِلْميّة مُؤصّلة لموضوع القضايا العِلْميّة في تفسيره – معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر–، الذي هو موضوع الرّسالة والبحث:

1. **بحث منشور في مجلّة دراسات بعنوان: منهج عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ في تفسيره –معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر–**، إعداد: جهاد محمّد النّصيرات وآخرون؛ مجلّة الدّراسات، علوم

الشّريعة والقانون، المجلّد 40، العدد 2، سنة 2013م، ص474-498؛ حيث تضمّن هذا البحث مُحاولة لتتبُّع منهج الشّيخ في تفسيره، مع تعريف به وبتفسيره، وبكتابه: قواعد التّدبّر الأمثل، الذي بنى تفسيره عليه.

2. **منهج عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ في التّفسير**، إعداد الطّالب: نادي حسن عليّ صبرا، رسالة ماجستير في التّفسير، الجامعة الأردنيّة، الأردنّ، 2006م؛ حيث قام بالتّعريف بالشّيخ، مُتطرّقاً إلى حياته العِلْميّة، ومُؤلّفاته، ومُبيّناً منهجه في التّفسير.

حدود الدّراسة:

تقتصر هذه الدّراسة على ذكر القضايا العِلْميّة في تفسير: معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر، للشّيخ عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميدانيّ، ودراستها دراسة نقديّة. وتجدر الإشارة إلى أنّ هناك فرقاً بين مجرّد الإشارات العِلْميّة الكثيرة التي يذكرها الشّيخ، وتناوله للآية نفسها –أو جزء منها– تناولاً عِلْميّاً، وهذا ما رَكّزت عليه الدّراسة دون الأوّل.

منهج الدّراسة:

سأتّبع –بإذن الله– منهجاً استقرائيّاً وصفيّاً تحليليّاً، وذلك كما يأتي:

1. القراءة الفاحصة والمُتأنّية لتفسير الشّيخ عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميدانيّ: معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر.
2. تتبُّع القضايا العِلْميّة التي نصّ عليها الشّيخ في تفسيره، ثمّ النّظر في مدى مُوافقته لضوابط التّفسير العِلْميّ ووجوهه.
3. ذكر أمثلة وشواهد تُبيّن المنهج الذي سار عليه الشّيخ، في تفسير القضايا العِلْميّة من خلال تفسيره.
4. النّظر في ترجيحاته ومُناقشتها وفق ما قرّره العلماء.
5. تصنيف الآيات القرآنيّة ذات المضامين العِلْميّة حسب موضوعاتها.
6. رصد أقوال الشّيخ وتتبّعها وتتبّع ما فيها من جوانب عِلْميّة.
7. تتبّع بعض كتب التّفسير حول الآية القرآنيّة ذات المضامين العِلْميّة، وبخاصّة تلك التي لأصحابها بعض الغوص في الجانب العِلْميّ –موضوع الرّسالة–، مثل: تفسير القرطبيّ، وتفسير الزّمخشريّ، وتفسير طنطاوي جوهريّ، وتفسير ابن عاشور، وتفسير سيّد قُطُب، وغيرها.
8. تتبّع كتب العِلْم الحديث، حول الآية القرآنيّة ذات المضامين العِلْميّة، لأرصد ما كتبوا.
9. الخُلوص إلى المقارنة بين ما ذهب إليه الشّيخ، وما ذهب إليه غيره من أئمّة التّفسير، وما جاءت به الكتب العِلْميّة الحديثة، ممّا يتفّق مع شروط قبول التّفسير العِلْميّ للآيات القرآنيّة الكريمة.

كما أنّني:

1. جمعت الآيات والأحاديث والآثار الّتي تتعلّق بالمبحث أو المطلب.
2. عَزَوْت الآيات إلى مواضعها من القرآن الكريم في الهامش.
3. قُمت بتخريج الأحاديث من مصادرها الّتي رواها فيها أصحابُها بأسانيدهم في الهامش.
4. عرضت الآراء في حالة الاختلاف عرضاً واضحاً دون ميل إلى رأي دون الآخر، ثمّ قمت ببيان الرّأي الرّاجح مع التّدليل عليه.
5. ترجمت للأعلام الذين أنقل أقوالهم، أو ورد ذكرهم في متن الرّسالة في الهامش، وتركت التّرجمة لمن اتّسعت شهرتُهم من: الصّحابة، والتّابعين، وأصحاب الكُتب السّتّة والسّنن، والفقهاء الأربعة، والمفسّرين والمشهورين.
6. شرحت الكلمات الغريبة الّتي وردت في أثناء الكلام، وضبطها في الهامش.
7. قدّمت قائمة المحتويات على المقدّمة؛ لتكون أسهل تناولًا، ثمّ ذيّلت الرّسالة بفهارس عِلْميّة، للآيات القرآنيّة والأحاديث النّبويّة.

محتوى الدّراسة:

اشتملت الدّراسة على: **مُقدّمة، وخمسة فصول، وخاتمة**، تفصيلها على الشّكل الآتي:

المُقدّمة، وتشتمل على: مُشكلة الدّراسة وموضوعها، وأهدافها، وأسباب اختيار موضوعها، وأهمّيّتها، والدّراسات السّابقة، وحدودها، ومنهجها، وخطّتها.

الفصل الأوّل: حياة الشّيخ عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميدانيّ، ويشتمل على تمهيد، وثلاثة مباحث:

المبحث الأوّل: عصره، وأهمّ مظاهر الحياة فيه.

المبحث الثّاني: حياته الشّخصيّة.

المبحث الثّالث: حياته العِلْميّة والدّعويّة.

الفصل الثّاني: مدخل إلى تفسير الشّيخ عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميدانيّ –معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر–، ويشتمل على تمهيد، وأربعة مباحث:

المبحث الأوّل: مصادر الشّيخ في تفسيره.

المبحث الثّاني: المنهج العامّ للشّيخ في تفسيره.

المبحث الثّالث: طريقة تفسير القرآن الكريم حسب ترتيب النّزول.

المبحث الرّابع: موقف الشّيخ من طريقة تفسير القرآن الكريم حسب ترتيب النّزول، ومُناقشته.

الفصل الثّالث: الشّيخ عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميدانيّ والتّفسير العِلْميّ للقرآن الكريم، ويشتمل على خمسة مباحث:

المبحث الأوّل: مفهوم التّفسير العِلْميّ للقرآن الكريم.

المبحث الثّاني: الفرق بين الحقيقة العِلْميّة والنّظريّة العِلْميّة.

المبحث الثّالث: العلاقة بين التّفسير العِلْميّ والإعجاز العِلْميّ.

المبحث الرّابع: موقف العلماء من التّفسير العِلْميّ.

المبحث الخامس: ضوابط التّفسير العِلْميّ.

الفصل الرّابع: التّفسير العِلْميّ عند الشّيخ عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميدانيّ، ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأوّل: التّفسير العِلْميّ لآيات الله تعالى في السّماء والأرض.

المبحث الثّاني: التّفسير العِلْميّ لآيات الله تعالى في الإنسان.

الفصل الخامس: تقويم ومُقارنة، ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأوّل: مكانة الشّيخ عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميدانيّ العِلْميّة.

المبحث الثّاني: القيمة العِلْميّة لتفسيره.

ثمّ تأتي الخاتمة مشتملة على أهمّ النّتائج والتّوصيات، ثمّ المصادر والفهارس في النّهاية.

أودّ أن أُذكّر القارئ بأمرين، الأوّل: ألّا يتوقّع أن تأتي مثل هذه الرّسالة المتواضعة بإجابة نهائيّة على كلّ التّساؤلات العِلْميّة المتعلّقة بموضوعها، فمثل هذا الأمر لم يتحقّق على أيدي كبار علماء الأمّة، وغاية ما يُطمح إليه هو تقديم تصوّر عِلْميّ متوازن يستند إلى الحقيقة العِلْميّة المطابقة للقضايا العِلْميّة في القرآن الكريم. **والآخر:** أن يجد العذر لكاتب هذه الرّسالة إذا وجد فيها ما لا يتّفق مع وجهة نظره، فرأي الإنسان محكوم بما أُتِيحَ له من معرفة، وما آتاه الله –تعالى– من فَهْم، وهو ما يتفاوت النّاس فيه.

أسأل الله –تعالى– أن أكون قد وُفّقت فيما طرقته من فصول ومباحث، فما كان فيه من صواب فمن الله –تعالى–، وبِمَنِّه وفضله، وما كان فيه من خطأ فمردّه لي؛ إذ إنّه عمل بشريّ، يعتريه النّقص الذي يعتري البشر. وقال عبد الرّحيم بن عليّ البيسانيّ[1]: "إنّي رأيت أنّه لا يكتبُ إنسان كتاباً في يومه، إلّا قال في غده: لو غُيِّر هذا لكان أحسن، ولو زِيد هذا لكان يُستحسن، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل، ولو تُرك هذا لكان أجمل. وهذا من أعظم العِبَر، وهو دليلٌ على استيلاء النّقص على جملة البشر"[2].

كما أسأله –تعالى– أن يتغمّد الشّيخ عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميدانيّ برحمته، وأن يجزيه خيراً على ما قدّمه لطلّاب العِلْم من مُؤلّفات، والتي كان آخرها تفسيره: معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر، الذي استخدم فيه كلمة التّدبّر بدلاً من كلمة التّفسير. وأن يهدينا إلى سواء السّبيل، وأن ينفع بهذه الرّسالة الأُمّة، وسلام على المرسلين، والحمد لله ربّ العالمين.

---

(1) **هو**: عبد الرّحيم بن عليّ بن السّعيد اللّخميّ، المعروف بالقاضي الفاضل. وزير من أئمّة الكتّاب. ولد بعسقلان (فلسطين). وُلّي أبوه القضاء في بيسان فنسب إليها. ولم يُعرف عنه أنّه تولّى القضاء، ولعلّ لفظة القاضي كانت تستعمل للدّلالة على المكانة الثقافيّة، أكثر من دلالتها على ممارسة صاحبها لمهنة القضاء. تُوفّي سنة 596هـ. **يُنظر**: الزّركليّ، خير الدّين: **الأعلام**، ج3، ص346. **يُنظر**: الموسوعة الفلسطينيّة، **ترجمة عبد الرّحيم بن عليّ البيسانيّ**، على الرّابط الآتي: http://www.palestinapedia.net

(2) **قلت**: هو الذي شهّر هذه الكلمة، وتداولها النّاس عنه منسوبة إلى العماد الأصفهانيّ. والصّواب نسبتُها إليه –للقاضي الفاضل عبد الرّحيم بن علي البيسانيّ– ، بعثَ بها إلى العماد وهو يعتذر إليه عن كلام استدركه عليه. **يُنظر**: حاجي خليفة، مصطفى: **كشف الظّنون عن أسامي الكتب والفنون**، ج1، ص19.

الفصل الأوّل

حياة الشّيخ عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميدانيّ

المبحث الأوّل: عصره، وأهمّ مظاهر الحياة فيه.

المبحث الثّاني: حياته الشّخصيّة.

المبحث الثّالث: حياته العِلْميّة والدّعويّة.

تمهيد:

الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ عَلَم من أعلام الدّعوة الإسلاميّة المعاصرين، وصاحب تفسير يقوم على تفسير آيات القرآن الكريم حسب نزولها، بأُسلوب سهل ميسور يتسابق إلى قراءته الطّلّاب قبل العلماء.

ومن المعروف الثّابت أنّ الظّروف التي تُحيط بشخص ما، والبيئة التي يعيش فيها، لهما دخل كبير في تكييف حياته، وطبعها بطابع خاصّ، فالشّخصيّة إنّما تتكوّن وتبرز من خلال تلك البيئة التي تنشأ في ظلّها، وتتأثّر بما يكون فيها من أحوال سياسيّة واجتماعيّة واقتصاديّة وثقافيّة، تُشكّل في مجموعها عناصر مُهمّة في تكوين الشّخصيّة، وإبرازها، وتحديد اتّجاهها؛ لذا فإنّه من الضّروريّ للباحث الدّارس لشخصيّة من الشّخصيّات أن يدرس الظّروف والبيئة المحيطة بتلك الشّخصيّة؛ حتّى يقف منها على العوامل التي أثّرت فيها، وكان لها أثر في تكييف حياتها، وتحديد سلوكها، واتّجاهها، والشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ واحد من الشّخصيّات التي برزت في النّصف الأخير من القرن العشرين، وكان له أثر في الحياة المعاصرة، وشأن بين النّاس على اختلاف مِلَلِهم وطبقاتهم، فهو من مشاهير العلماء، والمفسّرين، ودعاة الإصلاح، وشارك في كثير من المؤتمرات والنّدوات والمحاضرات، واشتغل بالتّدريس والتّأليف.

وقبل الشّروع بترجمة الشّيخ، سأرسم صورة واضحة لأهمّ مظاهر الحياة في عصره، ذاكراً من خلالها الظّروف والبيئة المحيطة به التي كانت تقف خلف ظهوره وبروزه ونبوغه، سائلاً الله –تعالى– أن تكون هذه خطوة من خطوات إيقاظ وعي الأُمّة، من خلال معرفة رجالها الذين ضحّوا بالغالي والنّفيس من أجل رفعتها وإعزاز شأنها.

المبحث الأوّل

عصر الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ، وأهمّ مظاهر الحياة فيه

تمهيد:

لمّا كان لروح العصر الذي عاشه الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ أثر واضح في سلوكه، وفي تحديد هُويّته وشخصيّته، كان من الضّروريّ أن يسبق دراسة شخصه ومنهجه في التّفسير وموقفه من التّفسير العِلْميّ، دراسة عصره الذي عاش فيه، ورسم ملامح بارزة لمختلف مظاهر الحياة في ذلك العصر، من بداية القرن العشرين إلى نهايته؛ لأنّ ما حصل خلال هذه الفترة من أحوال كان له انعكاس على حياته، وتأثير على خطّ سيره، وتحديد لاتّجاهه.

فقد وُلد الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ في فترة عصيبة، تُعدّ بحقّ من أعظم فترات التّاريخ أثراً في الأُمّة الإسلاميّة عامّة، وفي سوريا خاصّة؛ حيث عاصر النّصف الثّاني من القرن العشرين وأربع سنوات من القرن الحادي والعشرين. هذه الفترة هي فترة الاستعمار، ولا أُريد أن أتحدّث عن ويلاته ومصائبه؛ لأنّ ذلك ليس موضعه هنا، ولولا أنّ الشّيخ قد عاش ظلام الاستعمار وظلمه لما أشرت إليه، وسأشرع في الكلام عن هذه الفترة المؤلمة في البلاد الإسلاميّة عامّة، وفي سوريا بلد الشّيخ على وجه الخصوص.

المطلب الأوّل– الأحوال السّياسيّة في عصره:

تعاظم نفوذ كثير من الدّول الغربيّة واشتهرت في العالم، وآتت ثمارها في كلّ قطاعات الحياة العِلْميّة والتّطبيقيّة والاقتصاديّة، وتطلّعت إلى بسط نفوذها على الشّرق الأوسط عن طريق الغزو الحربيّ والتّوسّع الاستعماريّ، بحجّة انتشال الأُمم والشّعوب من الجهل والتّخلّف...، وذلك بعد تدهور الدّولة العثمانيّة[1] وانحلالها، وسيطرت على الشّرق سيطرة لا مثيل لها في التّاريخ.

(**1**) الدّولة العثمانيّة هي من أكبر الدّول الإسلاميّة التي شهدها التّاريخ، ومن أشدّها بأساً وأعزّها جُنداً. سُمّيت بالعثمانيّة نسبة إلى عثمان بن أرطغرل، الذي تولّى الحكم بعد وفاة أبيه سنة 1299م، وكانت مُرتبطة بالإسلام والجهاد في سبيل الله وقائمة عليهما، وقامت بفتوحات كبيرة وعظيمة توّجها السّلطان محمّد الفاتح بفتح القسطنطينيّة سنة 1453م. **يُنظر**: الشّنّاويّ، عبد العزيز: **الدّولة العثمانيّة دولة إسلاميّة مُفترى عليها**، ج1، ص34-35، 43-44، 63. وقد كان للدّولة العثمانيّة دور مهمٌّ للغاية في نشر الإسلام في أُوروبا، كما قدّمت خدمات جليلة للعرب والمسلمين، يأتي في مُقدّمتها حماية الشّرق العربيّ والإسلاميّ من الغزو الاستعماريّ لمدّة ثلاثة قرون كاملة؛ حيث تصدّت للمُخطّطات الصّليبيّة البرتغاليّة منذ القرن السّادس عشر الميلاديّ، ومنعت تغلغله إلى الحجاز لتنفيذ مُخطّط صليبيّ بالغ القسوة والوحشيّة، كان يهدف إلى الزّحف إلى مكّة المكرّمة واقتحام المسجد الحرام وهدم الكعبة المشرّفة، ثمّ موالاة الزّحف منها إلى المدينة المنوّرة لنبش

وقد وصل هذا النّفوذ الاستعماريّ ذروته، وصار يُخطّط للسّيطرة على العالم الإسلاميّ؛ لإضعافه، ونهب ثرواته، وكسر شوكته، فاجتمعت كلمتهم، وتوحّد صفّهم على غزوه، وانتزاع الحكم من الدّولة العثمانيّة، رغم وجود الاختلاف فيما بينهم. (وقد تمخّض عن ذلك: التّفاهم بين دول الاستعمار على تركة الرّجل المريض، فبعد أن كان الغرض من المسألة الشّرقيّة انتزاع الأقطار المسيحيّة من أملاك الدّولة العثمانيّة، أصبح الغرض منها، هو: تقسيم أقطارها جميعاً، وتبادل الحصص المتّفق عليها فيما بينهم، وصاحبها على قيد الحياة)[1]. يقول الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ: "إنّه مهما اختلف الاستعماريّون فيما بينهم على المصالح، اختلافاً قد يصل إلى قيام حروب طاحنة فيما بينهم، فإنّهم كانوا مُتّفقين اتّفاقاً كاملاً على مُخطّط كيديّ مُوحّد ضدّ الأُمّة الإسلاميّة، وكانت أعمالهم مُتشابهة في البلدان التي استعمروها من بلدان العالم الإسلاميّ"[2].

(وبناء على ذلك، فقد احتلّت فرنسا سوريا سنة 1920م وفق مُؤتمر سان ريمو، الذي كان من مُقرّراته وضع سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسيّ، ووضع فلسطين والأُردنّ والعراق تحت الانتداب البريطانيّ، فأحكمت فرنسا قبضتها على سوريا، واستقرّت فيها، وتوطّد أمرها بعد أن أفشلت كلّ نضال شعبيّ فيها، واستولى المستعمرون الفرنسيّون على أجهزة الحكم والإدارة كافّة، وفرضوا الحكم العسكريّ عليها، واشتدّ ساعد الجالية الفرنسيّة، وتضخّم عددها، ونَفَذَ أمرها، وعلت كلمتها، واعتبرت البلاد السّوريّة وطناً لها، ووضعت أبناءها الأصليّين ومصالحهم بدرجة الإهمال، وصارت النّظم كلّها مبنيّة على التّقاليد الغربيّة مُستخفّة بالدّيانة الإسلاميّة والتّقاليد السّوريّة، وصار ابن البلد مهيناً ساقط الاعتبار، وأصبحت لغته مهجورة، حيث حارب الفرنسيّون اللّغة العربيّة بضراوة، وجعلوا حظّها في التّعليم بمدارس الحكومة دون حظّ

قبر الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم-، ثمّ استئناف الزّحف الآثم إلى بيت المقدس والاستيلاء على المسجد الأقصى، وبذلك تقع المساجد الثّلاثة الكبرى في الإسلام تحت سيطرة البرتغاليّين. كما لا يمكنني الحديث عن مآثر الدّولة العثمانيّة دون أن أذكر موقفها من محاولات اليهود المتكرّرة لاستيطان فلسطين؛ فعندما فتح السّلطان سليم الأوّل مصر في عام (923هـ-1517م) أصدر على الفور فرماناً بمنع اليهود من الهجرة إلى سيناء، ولمّا تولّى ابنه سليمان القانونيّ عرش الدّولة في عام (926هـ-1520م) أكّد استمرار العمل بفرمان والده؛ ممّا يدلّ على يقظة الدّولة العثمانيّة وتنبُّهِهَا المبكّر للطّموح اليهوديّ في الاستيلاء على هذه المنطقة. **يُنظر**: ياغي، إسماعيل: **الدّولة العثمانيّة في التّاريخ الإسلاميّ الحديث**، ص235-237، 246-249. **أقول**: من هنا صارت الدّولة العثمانيّة هدفاً لأعداء الإسلام من اليهود خاصّة، ومن الصليبيّين عامّة، الذين أخذوا يتآمرون عليها، ويكيلون لها الضّربات، في الوقت الذي كان هناك العديد من الأخطاء التي تفشّت في جسدها، وتسبّب ذلك في تضعضع بنيانها.

(**1**) **يُنظر**: العقّاد، عبّاس: **عبقريّ الإصلاح والتّعليم الأستاذ الإمام محمّد عبده**، ص9-10.

(**2**) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **أجنحة المكر الثّلاثة وخوافيها**، ص181.

اللّغة الفرنسيّة، وجعلت اللّغة الفرنسيّة رسميّة مكان اللّغة العربيّة، ففرضوا اللّغة الفرنسيّة والثّقافة الفرنسيّة، وأهملوا شأن اللّغة العربيّة)[1].

وبعد أن تحقّق للمستعمر ما أراد، وبسط نفوذه في سوريا، بدأ يُفكّر في طريقة تُمكّنه من العيش فيها بسلام، وتضمن له تحقيق أهدافه وغاياته، وليس له طريق لتحقيق ذلك سوى الوُلُوج إلى مُعتقدات المسلمين، وتغيير مفاهيمهم، وتصوّراتهم، وفصلهم عن دينهم، وتشويه التّراث الإسلاميّ، والتّشكيك في الإسلام؛ حتّى يُبعد المسلمين عن دينهم وعقيدتهم؛ فأخذ يفكّر بكلّ حيلة ووسيلة شرعيّة أو غير شرعيّة؛ لتوهين عقيدة المسلمين، وتفكيك الرّوابط الإسلاميّة وتجزئة المجتمع المسلم، وطمس هُويّته الإسلاميّة بطمس تعاليمه وشعائره، وإظهار البدع والخرافات، والتّشجيع على ارتكاب الكبائر والمحرّمات.

كما انتشرت الجمعيّات التّبشيريّة، وانضمّت حركة الاستشراق مع حركة التّبشير؛ لتكوّنا مِعول هدم للإسلام وتنصير المسلمين، وقد ذكر الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ أنّ اليهود كانوا وراء ذلك كلّه؛ حيث يقول: "ولو عرف كثير من الملاحدة أنّ اليهود المقنّعين يحرثون على أكتافهم وظهورهم مزارع سياستهم، ولا يدفعون لهم مُقابل ذلك إلّا الغرور بالنّفس والأجر اليسير، والفحش الكثير، والخمر والحشيش، والمواعيد الكاذبة، والأوهام الخادعة، لاستقام تفكيرهم، وتيقّظت بصائرهم، ولرجعوا إلى صفوف المؤمنين بالله، يُكافحون الإلحاد ومَنْ يُغذّيه أو يدفع إليه"[2]. ويقول أيضاً: "إنّما الخوف كلّ الخوف من تمكين اليهود في العالم؛ لأنّهم هم الذين يعملون للسّيطرة على العالم كلّه، وامتلاك كلّ مُقدّراته، وإسقاط كلّ الدّول والشّعوب، وقد حقّقوا من مخطّطاتهم الشّيء الكثير، حتّى وصلوا الآن إلى عتبة تحقيق حُلُمهم الأكبر"[3]. نعم، نجح المستعمر في ذلك، وحقّق كثيراً ممّا أراد، فانسلخ كثيرون عن دينهم، وشُوّهت صورة الإسلام أمام بعض المسلمين، وأمام هذا الواقع المؤلم ظهر مَنْ يُنادي باتّباع الغرب، والأخذ عنه، غثّه وسمينه، وكان من نتيجة ذلك ظهور صيحات تُنادي بالوطنيّة[4].

(**1**) **يُنظر**: مجموعة من العلماء والباحثين: **الموسوعة العربيّة العالميّة**، ص236. **يُنظر**: ديب، كمال: **تاريخ سوريّة المُعاصر من الانتداب الفرنسيّ إلى صيف 2011م**، ص41.

(**2**) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **صراع مع الملاحدة حتّى العظم**، ص12.

(**3**) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **الكيد الأحمر**، ص5.

(**4**) أودّ أن ألفت النّظر إلى أنّ لفظ (الوطنيّة) لفظ مُولّد مُستحدَث، استحدثه المحتلّ عندما احتلّ بلاد المسلمين، "وكان الغرض من ذلك تفتيت الوَحدة الإسلاميّة، وتقسيمها إلى قوميّات وأجناس تتصارع فيما بينها، وذلك يمكّن للمُستعمر أن يصل إلى ما يريد". أبو زيد، بكر: **مُعجم المناهي اللّفظيّة وفوائد في**

وفي المقابل ظهر مَنْ أخذ على عاتقه مَهمّة الدّفاع عن الإسلام، والوقوف في وجه الأفكار والمبادئ الهدّامة، وتوعية المسلمين وتفهيم حقيقة الإسلام والدّعوة إلى التّمسك به، ونبذ حضارة الغرب وثقافته، ودفع حملات التّشويه والتّضليل، ومُواجهة المستعمر وتحدّيه، وكان من هؤلاء العلماء الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميّدانيّ الذي وفّقه الله –تعالى– ليصول ويجول في مضمار العِلْم والفكر، –وسأُبيّن هذا في الفصول القادمة إن شاء الله تعالى–.

هذا هو الجوّ العامّ للحالة السّياسيّة في سوريا، والتي أدركها الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ؛ حيث لم يكن في مَعزل عن تلك الأحوال السّياسيّة؛ بل كان يُمارس نشاطه العِلْميّ والتّعليميّ في خضمّ تلك الأحوال العصيبة، كما تبيّن ذلك من خلال تولّيه رئاسة مُديريّة التّعليم الشّرعيّ التّابعة لوزارة الأوقاف في بلده، ثمّ عزله، وتغيير أحواله، ممّا استدعاه إلى السّفر إلى المملكة العربيّة السّعوديّة، ليتعاقد مع كلّيّة الشّريعة في جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة. **–كما سيظهر لاحقاً في المبحث الثّالث: حياته العِلْميّة والدّعويّة–.**

المطلب الثّاني– الحالة الاجتماعيّة والاقتصاديّة:

لا شكّ في أنّ وضع النّاس في المجتمع وما يسودُهم من عادات وتقاليد، وما يحكم مُعاملاتهم وعلاقاتهم، يخضع –بصورة مباشرة– لما يعيشه هذا المجتمع من ظروف سياسيّة، داخليّة كانت أم خارجيّة. ومن البديهيّ أن تتأثّر الحياة الاجتماعيّة بالحياة السّياسيّة التي تُحيط بها، فاستقرار الأحوال الاجتماعيّة مرهون باستقرار الأحوال السّياسيّة، واختلاط المسلمين بغيرهم من الكفّار سيكون له أثره في سلوك الفريقين، وقد اختلط بالمسلمين الفرنسيّون الذين لا يعرفون أخلاقاً ولا فضيلة، فظهرت عادات غريبة. ولقد لوحظ فيما سبق الفوضى السّياسيّة التي عمّت البلاد، وكيف سُلب منها أمنُها، فابتعد النّاس عن دينهم، وتغيّرت قيم العقيدة والأخلاق والثّقافة بدعوى المدنيّة والتّطوّر أو التّقدّم. في ظلّ هذا الواقع السّياسيّ المرير غير المستقرّ، لا يمكن أن تكون الحياة اجتماعيّة كانت أم اقتصاديّة مُستقرّة وادعة.

ولقد اتّجهت السّلطة الاستعماريّة الفرنسيّة إلى تغيير أحكام الأحوال الشّخصيّة الإسلاميّة في سوريا، وإحلال قوانين مدنيّة غير إسلاميّة محلّها، واتّخذت لذلك وسائل مُختلفة شتّى، إذ أصدرت قراراً بقانون يتعلّق بالأحوال الشّخصيّة، ليُطبّق على الرّعايا السّوريّين جميعاً مُسلمين وغير مُسلمين، واشتُهر هذا القانون في حينه باسم قانون الطّوائف. "وقد تضمّن هذا القانون أحكاماً تُناقض أحكام الشّريعة الإسلاميّة، فيما

الألفاظ، ص76. يقول الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ: (وشعار الوطنيّة من المكائد التي انخدع بها جمع غفير من المسلمين، حتّى استلّ أعداؤهم منهم مُعظم حقوقهم ومُقدّراتهم). **يُنظر**: الميدانيّ، عبد الرّحمن: **كواشف زيوف**، ص260.

يتعلّق بالأحوال الشّخصيّة، إذ يُسمح بموجب أحكام هذا القانون لأيّ رجل من أيّة طائفة أن يتزوّج بأيّة امرأة، دون أن يستطيع أولياء المرأة الاعتراض على هذا الزّواج بمخالفته أحكام الشّريعة الإسلاميّة، إلى غير ذلك من موادّ تقنينيّة مُسايرة للقوانين المطبّقة في فرنسا[1]. وضجّ علماء المسلمين من هذا القانون، وتحرّكت الجماهير المسلمة بقيادة علمائها ثائرة عليه، مُستنكرة له، تُطالب بإلغائه فوراً، وتُنذر بقيام ثورة، واضطرّت السّلطات المستعمرة إلى إلغائه قبل أن يوضع موضع التّنفيذ، والذي أثار الحركة وقادها في حينها سماحة الشّيخ حسن حبنّكة الميدانيّ، وقد أيّدته الجماهير المسلمة، وكتب الله له النّصر في المعركة، وتمّ إلغاء قانون الطّوائف"[2].

وقد وجّه المبشّرون أعمالهم التّبشيريّة إلى المرأة المسلمة الملتزمة بآداب الإسلام البعيدة عن الاختلاط في مجتمعات الرّجال "لِما لها من تأثير على الأُسرة، وعلى المجتمع كلّه بوجه عامّ، فأسّسوا جمعيّات نسائيّة، كجمعيّة الشّابّات المسيحيّات، وأسّسوا مدارس للبنات على نسق المدارس التي أسّسوها للذّكور، ووجّهوا عنايتهم لفتح المدارس الدّاخليّة؛ لأنّ فرص التّأثير فيها أكثر، وشجّعوا التّعليم المختلط، وفتحوا دوراً خاصّة بالطّالبات تُشرف عليها طائفة من المبشّرات، وأقاموا الأندية النّسائيّة والمخيّمات الكشفيّة النّسائيّة، ثمّ ما زالوا يتدرّجون في كسر الحواجز بين الذّكور والإناث، حتّى شاعت المجتمعات المختلطة بين المسلمين والمسلمات. وصفّق المبشّرون كثيراً ابتهاجاً وسروراً حينما فتحت المرأة المسلمة أبوابها، ونزعت عنها جلبابها؛ لأنّ ذلك قد أتاح لهم كلّ الفرص الملائمة -للتّغلغل عن طريقها إلى داخل الأُسرة المسلمة-، كي يبثّوا ما يريدون بثّه من تعاليم تُمليها عليهم مَهمّاتهم التّبشيريّة"[3].

الحالة الاقتصاديّة: قد جَنَت سوريا من مجهودها الحربيّ ضدّ إسرائيل مُساعدات اقتصاديّة جمّة من العرب وشهدت نهضة اقتصاديّة خلال الأعوام 1974م-1976م. (ولكن تلك الفورة الاقتصاديّة كانت سبباً أيضاً في تعميق الهوّة الطّبقيّة وولادة مظاهر سلبيّة؛ حيث استطاعت نسبة محدودة من النّاس، لها نفوذ في الدّولة أن تحصد ثورات وتقتني عقارات، وتتمتّع بكماليّات بشكل لم يره السّوريّون في السّابق، ما أثار حسد أغلبيّة المواطنين وحقدهم، وفتح أعين الشّعب على تلك الفئة النّافذة من الحزبيّين، والنّفعيّين،

(**1**) **أقول:** إنّ زواج المسلمة من غير المسلم دون استثناء كتابيّ كان، أو غير ذلك، حرام شرعاً، ويُعدّ من الفواحش العظيمة التي نهى الله -تعالى- عنها، وهو زواج باطل شرعاً وقانوناً؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ البقرة: 221.

(**2**) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **أجنحة المكر الثّلاثة وخوافيها**، ج1، ص294.

(**3**) نفسه، ج1، ص72-73. **يُنظر:** نفسه، ج1، ص413-421.

والوصوليّين، الذين أفسدوا الدّولة وأهدروا الأموال)[1]. كما أدّى الوضع الدّاخليّ في سوريا، في النّصف الثّاني من السّبعينيّات إلى مُضاعفات اقتصاديّة خطيرة، تمثّل في إفقار أصاب أكثر من نصف السّكّان، وبطالة، وهجرة رجال الأعمال، وتراجع في الصّناعات والزّراعات؛ فضلاً عن ابتعاد النّاس عن دينهم، وتغييب الأخلاق بدعوى المدنيّة والتّطوّر. وهكذا أرى أنّ الحياة الاجتماعيّة في هذه الفترة كانت تسودها اضطرابات كثيرة، وذلك بسبب الفوضى السّياسيّة التي عمّت البلاد **–كما أشرت من قبل–**.

المطلب الثّالث– الحالة الثّقافيّة:

كانت الحياة الثّقافيّة في عصر الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ ضعيفة المستوى، نظراً إلى الغزو الثّقافيّ الذي واكب الغزو الاستعماريّ، والسّعي إلى إضعاف المسلمين، وتأويل ما في الإسلام من مبادئ ونظم، وتحريفه بما يوافق مدنيّتهم الحديثة. وكان من نتيجة ذلك قلّة المدارس والمعاهد والجامعات، ولم يبق لطلّاب العلوم مجال يتعلّمون فيه سوى ما يُسمّى (بالكتاتيب)، التي كانت تُعنى بطالب العِلْم منذ طفولته، وتُحفّظه القرآن وعلومه، ثمّ ينتقل بعد ذلك إلى حلقات الجوامع، أو مُلاحقة العلماء والتّتلمذ عليهم.

وبعد أن استقرّ الاستعمار الفرنسيّ في سوريا، رأى أنّه لا اطمئنان له فيها ما لم يُتبع استعماره بانقلاب فكريّ وغزو ثقافيّ؛ لأنّ سيوف الغزو الثّقافيّ أمضى بكثير من سيوف الغزو العسكريّ، ولتحقيق هذه الغاية أحدث انقلاباً جذريّاً في برامج التّعليم ومناهج دور العِلْم بداية، ثمّ وضع مُخطّطاً جديداً يكفل له إيجاد أجيال من المسلمين تُدين بالإسلام، وتقول بقوله، وتفعل بفعله، ولكن لا تَمُتُّ إليه إلّا بصلة الانتماء الاسميّ، في الوقت الذي تتنكّر فيه للإسلام في العقيدة والسّلوك.

كما اتّبع الاحتلال الفرنسيّ سياسة تذويب عروبة سوريا، ففرض اللّغة الفرنسيّة والثّقافة الفرنسيّة، وأهمل اللّغة العربيّة، وحاول القضاء على اللّغة العربيّة في المدارس وغيرها بكلّ الوسائل الممكنة؛ لأنّها أساس الوَحدة العربيّة والأخوّة الإسلاميّة، فهي عامل التّرابط بين الدّين والتّراث الرّوحيّ والتّاريخيّ، وكلّ أسباب القوّة الفكريّة في العالم العربيّ. ويُجلّي لنا الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ ذلك، فيقول: "إنّ مُحاربة اللّغة العربيّة الفصحى واللّغات الإسلاميّة الأُخرى، إنّما هي مُحاولة لطمس علومها وآدابها بمُختلف الوسائل، بُغية صرف المسلمين عن مصادر التّشريع الإسلاميّ وسائر التّراث الإسلاميّ، وبُغية تجزئة المسلمين. وقد اتّخذت هذه المحاربة صوراً ماكرة مُتعدّدة، استُخدم فيها أُسلوب النّصيحة حيناً، والتّسلّل بما يُسمّى (عِلْم اللّغات العامّة) حيناً آخر، وهذا التّسلّل دخل إلى الدّراسات الجامعيّة"[2]. ثمّ يضيف قائلاً: "وقد عانيت ألماً

(**1**) **يُنظر**: ديب، كمال: **تاريخ سوريّة المُعاصر من الانتداب الفرنسيّ إلى صيف 2011م**، ص550–551.

(**2**) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **أجنحة المكر الثّلاثة وخوافيها**، ج1، ص48. **يُنظر**: نفسه، ج1، ص354–359.

شديداً حينما رأيت بعض أبناء المسلمين المنتسبين إلى هذه المدارس يُحسن التّكلّم باللّغة الإنجليزيّة أو الفرنسيّة أكثر ممّا يُحسن التّكلّم بالعامّيّة الشّائعة في مجتمعه العربيّ؛ فضلاً عن اللّغة العربيّة الفصيحة، لُغة قومه ولُغة دينه ولُغة القرآن المجيد، وزاد ألمي كثيراً حينما طلبت من أحدهم أن يقرأ سورة الفاتحة فلم يُحسن قراءتها؛ لأنّه لم يتعلّمها ولم يُكلّف حفظها فيما سلف من عُمُره. والأشدّ من كلّ ذلك ما يتعلّمه هؤلاء التّلاميذ في هذه المدارس من أكاذيب وأضاليل وتشويهات مُتعمّدة للحقائق عن الرّسول محمّد –صلّى الله عليه وسلّم–، وعن القرآن الكريم، وعن الحديث الشّريف، وعن التّاريخ الإسلاميّ، وعن مقاصد الشّريعة، وعن أحكامها، وعن كلّ ما يتعلّق بالإسلام والمسلمين عرباً أو غير عرب"[1].

إنّ هذه الفكرة الخبيثة إنّما هي بمثابة خنجر مسموم حاول المبشّرون والمستعمرون أن يغمسوه في قلب الإسلام، ولكنّ الله –تعالى– حمى الشّعوب العربيّة من شرّها، فقامت النّهضات المباركة التي تبنّت نشر العربيّة الفصحى، وكان الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ بثقافته الإسلاميّة، وجُهوده في نشرها هنا وهناك يُقاوم الثّقافة الأجنبيّة، والمبادئ والنّظم الهدّامة، والشّعارات البرّاقة المزيّفة، والمفاهيم الخاطئة التي سرت في جسم الأُمّة سريان النّار في الهشيم، ويقف حاجزاً منيعاً دون انتشارها، وسدّاً حصيناً يصدّها ويجعل مهمّتها صعبة جدّاً وغير مأمونة؛ حيث كرّس حياته للدّعوة إلى الله –تعالى– وتربية الأجيال، وتأليف الكتب، ومُقارعة المبشّرين والمستشرقين والملحدين، والحفاظ على مبادئ الإسلام ومُثُلِه العُليا ومقاصدِه الكبرى، والتّصدّي للغزو الفكريّ؛ حتّى لقّبه أحد زملائه من الأساتذة الفضلاء بعد أن قرأ كتبه "بأبي الغزو الفكريّ والثّقافة الإسلاميّة"[2]. **–كما سيظهر لاحقاً–**.

(**1**) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **أجنحة المكر الثّلاثة وخوافيها**، ج1، ص81.

(**2**) الجرّاح، عائدة: **عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ العالم المُفكّر المُفسّر، زوجي كما أعرفه**، ص46.

المبحث الثّاني

حياة الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ الشّخصيّة

تمهيد:

بعد أن تعرّضت لعصر الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ، وبيّنت أهمّ مظاهر الحياة فيه، فقد ارتأيت أن أَدَع مجالًا لدراسة حياته الشّخصيّة، وما يتعلّق بها من أُمور. ففي هذا العصر الذي وصفت فيه حالة الأُمّة الإسلاميّة عامّة وسوريا خاصّة، عاش الشّيخ ونشأ وترعرع، وفي أحضان أُسرته الكريمة تربّى وقضى أجمل أيّام حياته، فلا جرم أن يشغلا دوراً كبيراً في تكوين شخصيّته تنشئةً وتوجيهاً، وعقيدةً وأخلاقاً...

من أجل ذلك، كان عليّ –وأنا أَصِف حياة الشّيخ– أن أتعرّف إلى أُسرته وأهل بيته، الذين كان لهم الفضل الأكبر –بعد الله سبحانه– في توجيهه الوجهة الصّحيحة، وسلوكه طريق العِلْم وأهله، والوقوف على مَعالم شخصيّته.

المطلب الأوّل– اسمه ونسبه، ومولده ونشأته، ولقب عائلته وشُهرته:

أوّلاً: اسمه ونسبه: هو: الشّيخ "عبد الرّحمن بن حسن بن مرزوق بن عُرابي بن غُنَيْم حبنَّكة الميدانيّ"[1].

ثانياً: مولده ونشأته: وُلد الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ في العشرينيّات من القرن الماضي، "عام (1345هـ-1927م) في حيّ (الميدان) من مدينة دمشق، وهذا الحيّ يمتدّ جنوب المدينة، ويُعدّ من أحيائها العريقة، المحافظة على التّقاليد العربيّة الأصيلة، والمواريث الدّينيّة والأخلاقيّة الكريمة، ذلك الحيّ الذي يتميّز بالأصالة العربيّة، ويُعرف بشجاعة ونخوة وبطولة رجاله، ومواقفهم الصّامدة، وسخائهم، وكرم ضيافتهم، وحُسن نجدتهم"[2]. لذا كان لِحَيِّه –الميدان– أثر كبير في تكوين شخصيّته فكراً وخُلقاً وسلوكاً، لاسيّما أنّها تمتاز بتلك الخصال. "وكان ميلاده في أثناء غياب والده، الذي كان يومئذ مع إخوانه المجاهدين لاجئاً إلى الأُردنّ عقب توقّف الثّورة السّوريّة، ولـمّا علم بولادته أطلق عليه اسم عبد الرّحمن"[3]، "ولـمّا

---

(1) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **الوالد الدّاعية المُربّي الشّيخ حسن حبنّكة الميدانيّ قصّة عالم مُجاهد حكيم شجاع**، ص35. الجرّاح، عائدة: **عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ العالم المُفكّر المُفسّر، زوجي كما أعرفه**، ص11. المجذوب، محمّد: **علماء ومُفكّرون عرفتهم**، ج3، ص59. يوسف، محمّد خير: **تتمّة الأعلام للزّركليّ**، ج1، ص138.

(2) الجرّاح، عائدة: **عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ العالم المُفكّر المُفسّر، زوجي كما أعرفه**، ص11.

(3) المجذوب، محمّد: **علماء ومُفكّرون عرفتهم**، ج3، ص59.

هدأت الأوضاع عاد إلى دمشق، وجمع طائفة من علماء الشّام على عقيقة له"[1]. (وهو أكبر إخوته الذّكور السّبعة، وترتيبه في الأُسرة الثّاني؛ حيث أنجبت أُمّه اثني عشر ولداً، سبعة ذكور أكبرهم الشّيخ عبد الرّحمن، وخمس إناث ماتت كبراهنّ وهي في سنّ الرّضاع)[2].

وقد نشأ الشّيخ عبد الرّحمن في كنف والديه في بيت جدّه الحاج مرزوق، ويُرجع الفضل في تربيته وتأديبه وتعليمه إلى الله –تعالى–، ثمّ إلى والده –الشّيخ حَسَن–؛ إذ يُشير إلى ذلك في مُقدّمة بعض كتبه، فيقول: "والشّكر لله على ما تفضّل به عليّ وعلى والدي –فضيلة العلّامة الشّيخ (حَسَن حبنّكة الشّهير بالميدانيّ) الدّمشقيّ– حفظه الله وجزاه عنّي وعن المسلمين خير الجزاء، ولوالدي يعود فضل تربيتي وتأديبي، وتعليمي علوم الإسلام، وانتظامي في سلك طلّاب علوم الشّريعة الإسلاميّة في مدرسته الشّرعيّة، التي أسّسها وربّى طلّابها وعلّمهم بنفسه؛ حتّى آتت أُكُلَها طيّبة مباركة"[3]، وكان يحوطه بعنايته ورعايته، ويُعدُّه ليكون خليفة له في العِلْم والدّعوة. ويقول –أيضاً–: "أذكر أنّه كتب لي خطبة مُحبَّرة، وأنا في نحو الرّابعة عشر من عُمُري، وكلّفني أن أخطبها في النّاس وأُصلّي بهم صلاة العيد، في مكانه في جامع مَنجك، الذي كان يقصده المسلمون من أنحاء مُختلفة في حيّ الميدان وغيره من دمشق، لاسيّما في صلاة العيد. وكنت يومئذ في أوائل تفرّغي لطلب العِلْم، وحضر هو بنفسه الخطبة والصّلاة، ونالت إعجاب جمهور المصلّين؛ لأنّهم رأوا أمراً لم يألفوه من أمثالي من أحداث الأسنان، وكانت هذه الخطبة لي من أوائل الخطب المنبريّة التي خطبتها، لاسيّما في عيد الأضحى"[4].

ثالثاً: لقب عائلته وشُهرته: لقب عائلته، هو: حبنّكة، (وهذا اللّقب يرجع إلى عرب بني خالد الذين لهم منازل في بادية حماة من أرض الشّام، وقد وفدت هذه العائلة إلى حيّ الميدان قادمة من حماة)[5]. (ولعلّ لفظ (حبنّكة) تحريف بدويّ للفظ حبَكَهُ أو حَبَّكَهُ، بمعنى: وثَّقَهُ. وقيل: إنّ أصل العبارة: حبُّ اللُّقا، أي: حبُّ اللّقاء في الحرب، ويبدو أنّ اللّفظ من تحريفات عرب البادية، –والله أعلم–)[6].

---

(1) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **الوالد الدّاعية المُربّي الشّيخ حسن حبنّكة الميدانيّ قصّة عالم مُجاهد حكيم شجاع**، ص50.

(2) **يُنظر**: الجرّاح، عائدة: **عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ العالم المُفكّر المُفسّر، زوجي كما أعرفه**، ص12.

(3) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **العقيدة الإسلاميّة وأُسسها**، ص9.

(4) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **الوالد الدّاعية المُربّي الشّيخ حسن حبنّكة الميدانيّ قصّة عالم مُجاهد حكيم شجاع**، ص142–143.

(5) **يُنظر**: نفسه، ص35. **يُنظر**: الجرّاح، عائدة: **عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ العالم المُفكّر المُفسّر، زوجي كما أعرفه**، ص12. **يُنظر**: المجذوب، محمّد: **علماء ومُفكّرون عرفتهم**، ج3، ص59. **يُنظر**: يوسف، محمّد خير: **تتمّة الأعلام للزّركليّ**، ج1، ص138.

(6) **يُنظر**: الميدانيّ، عبد الرّحمن: **الوالد الدّاعية المُربّي الشّيخ حسن حبنّكة الميدانيّ قصّة عالم مُجاهد حكيم شجاع**، ص35.

وأمّا شُهرته، فهي: الميدانيّ، فقد أجمعت على هذه الشّهرة المصادر التي ترجمت له، وبها عُرِف بين أهل العِلْم قديماً وحديثاً، وذلك "نسبة إلى حيّ الميدان الذي كان يسكنه"[1]، وبالتّالي دخلت هذه الشّهرة في لقب والده الشّيخ حَسَن وعائلته. يقول الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ: "فقد بَدَأتْ منذ التحق بمدرسة ابتدائيّة وسط مدينة دمشق، وهو ابن ثماني أو تسع سنين، إذ سأله شيخها عن اسمه؟ فقال له: حَسَن حبنَّكة، فصَعُبَ على شيخ المدرسة واسمه (شريف اليعقوبيّ)[2] أن ينطق بلفظ (حبنَّكة) فقال له: أين تسكن؟ قال: في حيّ الميدان، فقال له: أنت حَسَن الميدانيّ، فعُرف منذ ذلك الحين بهذه الشّهرة، ولصقت به لقباً، ودُوّنت رسميّاً في دائرة النّفوس، فصار لقب أُسرته ولقب كلّ عائلة أبيه: (حبنَّكة الشّهير بالميدانيّ)"[3]. وقد غلبت هذه الشّهرة على الشّيخ حتّى صار لا يُعرف إلّا بها.

المطلب الثّاني– عقيدته وأخلاقه:

لم يلتزم الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ في العقيدة مذهباً مُعيّناً من مذاهب أهل الاعتقاد؛ بل كان مذهبه مذهب أهل السّنّة والجماعة، وطريقة السّلف الصّالح؛ حيث يقول عن نفسه: "لم ألتزم مذهباً مُعيّناً من مذاهب أهل الاعتقاد، إلّا مذهب أهل السّنّة والجماعة بشكل عامّ، وطريقة السّلف الصّالح هي الطّريقة التي رأيتها أقرب لسلامة الفطرة، وصفاء الفكرة، وبُعدها عن التّعقيدات الفلسفيّة المتشعّبة التي تكثر متاهاتها وكبواتها"[4].

وقد أخذت العقيدة جُلّ اهتمامه وتركيزه وسيطرت على حياته؛ إذ تصف زوجته ذلك، قائلة: "لعلّ الاهتمام الأوّل المسيطر على حياة الشّيخ، هو: عقيدته الرّاسخة التي حاول تأصيلها وتأسيسها بمعانٍ إيمانيّة اعتقدها، وجعلها نوره الذي يهتدي به، وركّز عليها، فكانت دوافعه في مسيرة حياته كلّها. ذلك لقناعته التّامّة بأنّ سبب الخلل والانحراف الأساسيّين في سلوك النّاس يرجع إلى تعطيل الدّافع الإيمانيّ تعطيلاً تامّاً،

---

(1) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **الوالد الدّاعية المُربّي الشّيخ حسن حبنّكة الميدانيّ قصّة عالم مُجاهد حكيم شجاع**، ص35.

(2) **هو**: محمّد الشّريف بن محمّد الصّدّيق بن محمّد الحسن. عالم مُشارك، فقيه مالكيّ، داعية كبير، صوفيّ نقشبنديّ، من كبار أولياء عصره. شارك في تأسيس نهضة عِلْميّة في دمشق وبيروت. انتفع به خلق كثير صاروا أعلاماً في عصرهم، من أشهرهم: الشّيخ محمّد سعيد البرهانيّ، الشّيخ محمّد صالح الفرفور، والشّيخ حسن حبنّكة الميدانيّ. تُوفّي سنة 1362هـ-1943م. **يُنظر**: الصّوّاف، محمّد: **موسوعة الأُسر الدّمشقيّة**، ج3، ص663-664.

(3) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **الوالد الدّاعية المُربّي الشّيخ حسن حبنّكة الميدانيّ قصّة عالم مُجاهد حكيم شجاع** ، ص35-36.

(4) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **العقيدة الإسلاميّة وأُسسها**، ص6.

أو ضعفه في جذور نفوسهم"[1]. وقد تمثّل هذا الاهتمام في تأليفه لكتاب: العقيدة الإسلاميّة وأُسسها، الذي كان أوّل كُتب الشّيخ، وباكورة أعماله وإصداراته، ما يعني أنّ هذه العقيدة مثّلت أولويّة بالنّسبة إليه.

أخلاقه: أوّل ما يلمسه المرء ويحسّه –وبخاصّة إذا كان ممّن عَرَفَ الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ، وعاش مع تراثه الممتع النّافع– أنّه أمام عالم عامل، وداعية مُخلص صادق، ومُربٍّ فاضل، أفنى عُمُره في مُحاربة كلّ شرّ ورذيلة، والدّعوة إلى التّخلّق بكلّ خير وفضيلة. فلم يكن الشّيخ ممّن يتكسّبون بدعوتهم، أو يطلبون بها عرضاً زائلاً، وإنّما كان صاحب رسالة سامية، عاش حياته مُبلّغاً لها ومُنافحاً عنها. فلا غرو إذن أن يكون على درجة عالية من الأخلاق الفاضلة، والخصال الحميدة، بشهادة كلّ من عايشه وسعد بصُحبته. كما لا يفوتنا التّنبيه إلى أنّ هذه الأُسرة الطّيّبة التي نشأ الشّيخ بين أحضانها، وما لقيه منها من رعاية وحُسن توجيه –وبخاصّة والده– كان لها أكبر الأثر في تحلّيه بجميل العادات، ومحاسن الأخلاق.

ويمكن لنا أن نسجّل بعض هذه الصّفات التي كان مُتخلّقاً بها، وذلك من خلال شهادة تلاميذه، وأصحابه ومَنْ عرفوه، وكذلك من خلال ما يظهر من مُطالعة سيرته ومُؤلّفاته، فلعلّ ذلك يكون باعثاً على التّحلّي بمثل أخلاق هذا الإمام الفاضل. **وقد أشارت زوجته إلى جملة منها**[2]:

1. الأخذ بالأيسر ما لم يكن إثماً، أخذاً بتوجيهات السّنّة المطهّرة، وعدم التّشديد في الأُمور كلّها.
2. الرّفق واللّين في التّربية، وحُسن الخُلُق والعشرة، والتّواضع الجمّ.
3. التّغاضي والتّسامح في تعامله مع النّاس، وتحاشيه لألفاظ الفحش في الكلام.
4. القيام بعمل ما يدعو غيره إليه؛ ليكون لهم أُسوة حسنة، ولئلّا ينطبق عليه قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[3].
5. الزّهدُ وعدم التّعلّق بالدّنيا وزينتها، والابتعاد قدر المستطاع عن الشّهرة والأضواء، وإخلاصه الشّديد طلباً لمرضاة الله –تعالى– في عمله.

هذا مُجمل ما وصفته به زوجته رفيقة دربه وحافظة سرّه ومُزكّية خلقه، ولاشكّ في أنّه ناتج عن حُسن عشرة وطول مُلازمة للشّيخ، إضافة إلى أنّ مَنْ يُقارن أخلاق الشّيخ عبد الرّحمن بأخلاق أبيه –حَسَن–

---

(1) الجرّاح، عائدة: **عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ العالم المُفكّر المُفسّر، زوجي كما أعرفه**، ص30.

(2) **يُنظر**: نفسه، ص34-40.

(3) سورة البقرة: الآية (44).

يجدهما مُتطابقة تماماً؛ "فمَنْ أشْبَهَ أباه فما ظَلَمَ"[1]. كما أنّ هذه الصّفات التي تحلّى بها الشّيخ والتي اقتبسها من القرآن الكريم والسّنّة المطهّرة، هي التي دعته إلى تأليف كتاب عظيم النّفع سمّاه: الأخلاق الإسلاميّة وأُسسها، ويقع في مجلّدين كبيرين؛ ليكون مرجعاً لطلّاب العِلْم على اختلاف درجاتهم؛ **إذ يُعرّف الخُلُق بقوله:** "صفة مُستقرّة في النّفس -فطريّة أو مُكتسبة-، ذات آثار في السّلوك محمودة أو مذمومة. فالخُلق منه ما هو محمود، ومنه ما هو مذموم. والإسلام يدعو إلى محمود الأخلاق، وينهى عن مذمومها"[2].

وأخيراً، فإنّه ليس بغريب على الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ أن يجمع بين هذه الأخلاق الفاضلة، ويتحلّى بكلّ هذه الخصال الحميدة، ذلك أنّ "الأخلاق الفاضلة تتلازم وتتصاحب غالباً"[3]، ومن شاء أن يقف على المزيد من فضائله، ومكارم أخلاقه، ومحاسن طباعه، فعليه بمُؤلّفاته وكُتبه، فإنّ ما رسمه فيها من منهج مُتكامل لِما ينبغي أن يتخلّق به المسلم الحقّ في دينه ودنياه، لم يكن إلّا صورةً حقيقيّة، ومرآة صادقة لأخلاقه، فما من خُلّة حميدة أو خُلُق فاضل دعا إليه، إلّا وهو مُتخلّق به وعامل بمقتضاه، وكتابه: الأخلاق الإسلاميّة وأُسسها، خير دليل على ذلك.

المطلب الثّالث- شخصيّته والعوامل المُؤثّرة فيها:

أوّلاً: سمات شخصيّته: إنّ الدّارس لسيرة الشّيخ عبد الرّحمن حبنكّة الميدانيّ في مُختلف مراحل حياته، والمطّلع عليها، والقارئ لكتبه ومُؤلّفاته، والمتتبّع لآرائه وأفكاره وآثاره...، يستطيع أن يتخيّل له صورة واضحة جليّة، تبدو فيها ملامح شخصيّته، وتبرز فيها العوامل المختلفة التي أثّرت فيها. وبحكم دراستي لشخصيّة الشّيخ واطّلاعي على مُعظم ما كُتب عنه أو قيل فيه، صار في وسعي أن أرسم معالم هذه الصّورة، ثمّ أُبرزها أمام الأعين بكامل أوصافها -قدر المستطاع- دون زيادة أو نقص، لاسيّما أنّ شخصيّته تشعّ نوراً، وتتدفّق ورعاً، وتسمو تواضعاً، وتجلّ اعتزازاً بكلمة الله -تعالى-، وتصمد دفاعاً عن الإسلام وأهله. **وسأتحدّث فيما يأتي عن أهمّها وأبرزها:**

(**1**) أي لم يضع الشّبه في غير موضعه؛ لأنّه ليس أحد أولى به منه بأن يشبهه، ويجوز أن يُراد فما ظلم الأب، أي لم يظلم حين وضع زَرْعَه حيث أدّى إليه الشّبه، وكلا القولين حَسَن. الميدانيّ، أحمد: **مجمع الأمثال**، ج2، ص300.

(**2**) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **الأخلاق الإسلاميّة وأُسسها**، ج1، ص10.

(**3**) ابن قيّم الجوزيّة، محمّد: **الفروسيّة**، ص500.

1. **الرّبّانيّة:** ولعلّها أبرز خصائص شخصيّته الإسلاميّة وأعظمها، فمنطلقات شخصيّته من الله –تعالى–، وغاياتها إلى الله –تعالى–، ووسائلها لا تحيد عن شرع الله –تعالى–. فهو ربّانيّ الغاية والوجهة، وربّانيّ المصدر والمنهج؛ فأمّا كونه ربّانيّ الغاية والوجهة، فلأنّه جعل غايته الأخيرة وهدفه البعيد هو حُسن الصّلة بالله –تعالى–، والحصول على مرضاته، وبالتّالي هي غاية الإنسان، ووجهته، ومُنتهى أمله وسعيه، وكدحه في الحياة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾[1]، وكونه ربّانيّ المصدر والمنهج، أي أنّ المنهج الذي رسمه للوصول إلى غاياته وأهدافه، منهج ربّانيّ خالص، مصدره وحي الله –تعالى– إلى خاتم رسله محمّد –صلّى الله عليه وسلّم–، وما كُتبه ومُؤلّفاته إلّا خير دليل على ذلك.
2. **الاتّزان والاعتدال:** من أهمّ سمات شخصيّته الإسلاميّة –أيضاً– أنّها مُتوازنة مُعتدلة، تجمع بين الجوانب المادّيّة والرّوحيّة جمعاً عادلاً مُتّزناً، لا تطغى ناحية على ناحية، ولا تجنح إلى التّفريط أو التّقصير، ولا إلى الإفراط أو الغلوّ، ولا تُرجّح كفّة على أُخرى، توازن بين مُتطلّبات الحياة ورضا الله –تعالى–، (فتراه خير النّاس لأهله، وأَفكههم معهم، يُعطي كلّ ذي حقّ حقّه من أفراد أُسرته وأرحامه، فهو معهم يُطبّق ما يُرشد إليه النّاس؛ إذ يسعهم بحُسن خُلُقه، ويُوقّر كبيرهم، ويرحم صغيرهم، ويُحسن التّعامل مع مراهقيهم وشبابهم، ويتفهّم نفسيّة المرأة ويتعامل معها بحسبها؛ أمّا الأطفال فلهم منه النّصيب الأوفى مُلاطفة ومُداعبة وتوجيهاً وتسلية)[2]. (وتراه يُوطّن نفسه على جعل عمله خالصاً لوجه الله –تعالى–، فحياته كلّها تدور في فلك خدمة دينه والدّعوة إليه، فهو لا يفتر عن الكتابة، وتلبية المؤتمرات، وإلقاء المحاضرات والنّدوات العِلْميّة...)[3]، وتراه –أيضاً– يُكثّف جُهوده في تأسيس العقيدة الإسلاميّة، وتعميق جذورها في نفوس الأجيال الإسلاميّة، والعمل بوعي تامّ للذّبّ عن الإسلام من وافدات الغزو الفكريّ، إلى غير ذلك من أُمور...
3. **التّميّز والتّفرّد:** هذه الخاصّيّة أجدها بارزة واضحة في شخصيّته، ونابعة من طبيعته، يعرفها كلّ من لقيه، أو حضر مجلسه، أو استمع درسه، أو قرأ كتبه، أو حتّى سمع عنه، **وتبدو هذه الخاصّيّة جليّة فيما يأتي:**

أ. **اللّغة العربيّة:** فعندما قرأت بعض مُؤلّفات الشّيخ، وبخاصّة تفسيره –معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر– رأيت جزالة ألفاظه، وقوّة تعابيره، فكلماته عذبة سهلة مُنسابة كانسياب

---

(1) سورة الانشقاق: الآية (6).

(2) **يُنظر:** الجرّاح، عائدة: **عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ العالم المُفكّر المُفسّر، زوجي كما أعرفه**، ص39.

(3) **يُنظر:** نفسه، ص22–23.

الماء الصّافي الزّلال، وأساليبه متينة مُحكمة، وتراكيبه رصينة مُتلاحمة. وليس أدلّ على ذلك من كتابه: البلاغة العربيّة وأُسسها وعلومها وفنونها، الذي يظهر فيه تمرّسه وتمكّنه من اللّغة العربيّة وأساليبها.

ب. **العِلْم والدّعوة:** (فالعِلْم بالنّسبة إليه غذاء الرّوح، ومَعين الوجدان، ينام معه ويصحو عليه، فهو لا يُرى إلّا قارئاً أو كاتباً، مُتعلّماً أو مُعلّماً، مُتحدثاً أو مُناقشاً، فإذا كان خارج نطاق البحث العِلْميّ الجادّ، التفت إلى الشّعر والأدب عامّة، وأدب المجالس خاصّة)[1]. **أمّا الدّعوة إلى الله –تعالى–** ففيها ثمرة من ثمرات تلك الصّفات النّفسيّة التي تحلّى بها، (فكان منهجه الدّعويّ منهجاً صالحاً مُصلحاً، مُلتزماً بالقرآن الكريم والسّنّة الشّريفة، مُهتدياً بهداياتهما، بعيداً عن الغلوّ أو التّقصير أو التّعصّب، حريصاً على جمع كلمة المسلمين على الخير، والبُعد عن التّفريق وأسبابه. ولهذا كان يصبر على جهل الجاهل، ويُرشد المخطئ بعبارات تُقرّبه ولا تُبعده، ولا يميل مع أحد الفريقين المختلفين، وإنّما يميل مع الحقّ والصّواب ويلتمسه حيث كان، دون أن يُسفّه المخالف، ودون أن ينسى إسداء النّصيحة المناسبة الهادية للخير بالتي هي أحسن)[2]. وبهذا المنهج أثّر في النّاس تأثيراً حسناً بالغاً، على اختلاف طبقاتهم، ومذاهبهم، ومشاربهم؛ فانتفع به وبأسلوبه السّمح الحكيم، القاصي والدّاني، والعالم والمتعلّم، والدّاعية والمدعوّ.

ت. **التّربية العَمَليّة في الدّعوة:** حيث كان والده –الشّيخ حَسَن– يُكلّفه والطّلّاب بإعداد الدّروس والخُطب والمواعظ، وكتابة المحاضرات، وإلقائها أمامه في المسجد، وهو حديث السّنّ؛ ممّا يجعله يتمرّس بالخطابة والوعظ والتّوجيه في مُواجهة النّاس؛ "الأمر الذي جعل منه رجلاً دعويّاً مُتمكّناً، ذا خلفيّة عِلْميّة تربويّة رفيعة المستوى"[3]. وذلك ليُعدّه خليفة له في العِلْم والدّعوة.

ث. **المُؤلّفات المُتنوّعة:** فقد جمع الشّيخ في مُؤلّفاته بين القديم والحديث، والتّخصّص الدّقيق مع بعض العلوم الدّنيويّة الأخرى، والشّموليّة مع التّحليل والتّركيز، كما أنّه كان

---

(1) **يُنظر:** الجرّاح، عائدة: **عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ العالم المُفكّر المُفسّر، زوجي كما أعرفه**، ص21.

(2) **يُنظر:** نفسه، ص16–40.

(3) نفسه، ص16.

"يتحرّى في مُؤلّفاته المواءمة التّحليليّة بين المفهومات الإسلاميّة الصّحيحة، وبين الحقائق التي توصّلت إليها العلوم الكونيّة المختلفة، والأُسس العقليّة السّليمة"[1].

ج. **الجهاد الفكريّ**: (فكان يُوجّه المسلمين ويُثقّفهم ويُبصّرهم، لاسيّما بخطورة الغزو الفكريّ، ومكايد أعداء الإسلام بشتّى صورهم وأشكالهم؛ وذلك ضمن مُحاضرات وندوات وتعاون مُستمرّ مع وسائل الإعلام التّلفزيونيّة والإذاعيّة والكتابيّة)[2]. وسلسلة كتبه في الغزو الفكريّ خير دليل على ذلك.

ح. **التّواضع**: وهو خُلق في الشّيخ قد شهد له به القريب والبعيد، ولم يكن تواضعه قاصراً على اللّقاءات العِلْميّة أو التّربويّة أو الاجتماعيّة، وإنّما تجاوز ذلك إلى التّواضع في إبداء الرّأي، وفي الإدلاء بالعِلْم، وإلى المشاورة في المسائل العِلْميّة والدّعوية برغبة صادقة في البحث عن الحقّ والصّواب. وتمثّل هذا التّواضع في (رجوعه إلى الرّأي المخالف له متى ما تبيّن له الصّواب بالدّليل والنّظر، فكثيراً ما يتغيّر رأيه تبعاً للدّليل وتطلّباً للصّواب، دون تعصّب لمذهبه الشّافعيّ الذي درسه)[3]. ولهذا يقول: "فالحقّ أحقّ أن يُتّبع أَيّن كان، والتّعصّب الأعمى ليس من شأن المسلم، إنّما شأنه البحث عن الحقّ حيث كان، والتّمسّك به، انتصاراً له، لا انتصاراً لقائله، إلّا أن يكون الله ورسوله، إذ لا يصدر عنهما إلّا الحقّ"[4]. (فضلاً عن احترامه لآراء الآخرين ومُناقشتها مُناقشة موضوعيّة وبجدّيّة تامّة، ولو كانت آراؤهم ضحلة أو حتّى لا تستحقّ المناظرة، ولا يلجأ إلى أُسلوب المراوغة والغوغائيّة)[5].

خ. **الابتكار والتّجديد**: يحرص الشّيخ على استخراج ما لم يُسبق إليه في كلّ بحث يُعالجه، لاسيّما الموادّ التي يُسند إليه تدريسها، (ويسأم التّكرار، ويُؤثِر من الإنتاج ما يحمل العطاء الفكريّ المتجدّد، وأوثقه صلة بنفسه ذلك الذي يكلّفه بحثاً وتتبّعاً وتأمّلاً؛ لأنّه بطبيعته يسأم المكرّر، ويستهويه الجديد المبتكر)[6].

---

(1) الجرّاح، عائدة: **عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ العالم المُفكّر المُفسّر، زوجي كما أعرفه**، ص29.

(2) **يُنظر**: نفسه، ص19.

(3) **يُنظر**: نفسه، ص27.

(4) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **الصّيام ورمضان في السّنّة والقرآن**، ص9-10.

(5) **يُنظر**: الجرّاح، عائدة: **عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ العالم المُفكّر المُفسّر، زوجي كما أعرفه**، ص27.

(6) **يُنظر**: المحذوب، محمّد: **علماء ومُفكّرون عرفتهم**، ج3، ص62.

4. **الإنسانيّة**: إنّ الإنسانيّة من أبرز معالم شخصيّته الإسلاميّة، وهي من أكبر آيات التّسامح الإسلاميّ والشّعور بالمسؤوليّة الإنسانيّة العالميّة، فشخصيّته إنسانيّة محضة تريد الخير للإنسانيّة جمعاء، مُتسامية عن الاعتبارات الطّائفيّة والمذهبيّة والقبليّة والقوميّة، لا مكان عندها لتعصّب أو عصبيّة.
5. **الزّهد**: اتّسمت شخصيّته بالزّهد من الدّنيا وزينتها والرّضا باليسير منها، (والبعد قدر المستطاع عن الشّهرة والأضواء، والإخلاص الشّديد في طلب العِلْم مرضاة لله –تعالى–، والتّواضع الجمّ في كلّ أُمور حياته)[1].

هذه هي أبرز سمات شخصيّة الشّيخ وأهمّها، وليس من شكّ في أنّ الإحاطة الكاملة بجوانب الموضوع تتطلّب صفحات لا يتّسع لها المقام هنا. كما أنّ هذه الشّخصيّة لم تأت من فراغ؛ بل كان هناك عوامل أثّرت فيها، وأسهمت في تكوينها.

ثانياً: العوامل المُؤثّرة في شخصيّة الشّيخ العِلْميّة والدّعويّة:

من خلال الاستعراض السّابق لحياة الشّيخ وجدت أنّ هناك عوامل مُهمّة أثّرت في شخصيّته العِلْميّة والدّعويّة، **من أهمّها ما يأتي:**

1. **استعداده الشّخصيّ وما كان يتمتّع به من ذكاء وفطنة وجدّ ومُثابرة منذ سنوات عُمُره الأولى**، والتي ظهرت آثارها بعد ذلك من خلال اجتهاده في طلب العِلْم، ومِن ثمّ القيام بالدّعوة والتّعليم.
2. **أُسرته ومكانتها العِلْميّة**: نشأ الشّيخ وسط أُسرة عميقة التّديّن، ومُستقيمة النّهج والخُلُق، ممّا كان له أثره البالغ في اتّجاه ابنها إلى العِلْم، وقصر اهتمامه عليه.
3. **البيئة**: من الواضح أنّ الشّيخ تأثّر بالبيئة التي ترعرع بين جنباتها، فهو في فكره وكتاباته ممّن يؤمنون ويُعوّلون على أهمّيّة عامل البيئة في إصلاح المسالك، والحفاظ على سلامة النّفوس من الأوضاع التي من شأنها إفساد الفطرة وإيذاء الرّوح، ونراه يشير إلى ذلك بقوله: "إنّ الإنسان الذي ينخرط في بيئة تُدرّبه على النّظام الكامل حينما يقوم بعبادته لربّه في الصّلاة وبخاصّة صلاة الجماعة، يسهل عليه أن يتلقّى تعليمات تنظيميّة في مُختلف أنواع السّلوك في الحياة. والإنسان الذي يجد

(1) **يُنظر**: الجرّاح، عائدة: **عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ العالم المُفكّر المُفسّر، زوجي كما أعرفه**، ص39–40.

نفسه في بيئة لهجتها الصّدق، وخُلُقها الأمانة والوفاء بالعهد، والصّدق بالوعد، يصعب عليه جدّاً أن يخرج على هذا الأسلوب من السّلوك في الحياة، وإن كانت نفسه نزّاعة إلى ذلك،"[1].

4. **الثّقافة الواسعة:** ومن العوامل التي يجب أن تُذكر كذلك في هذا المقام، لأثرها البارز في التّكوين الفكريّ للشّيخ، شغفه بمطالعة ومُتابعة ما يجري في العالم على كلّ صعيد، وإنّ القارئ لمؤلّفاته يُلاحظ بيسر تامّ أثر هذا التّعامل وصداه في عطائه الفكريّ. ومن الأمثلة على ذلك ردّه على صاحب كتاب (نقد الفكر الدّينيّ)[2]، في كتاب سمّاه: صراع مع الملاحدة حتّى العظم، دَحَض فيه جميع مُغالطاته وأكاذيبه وادِّعاءاته الباطلة عن الإسلام، التي حاول من خلالها أن يستر وجه الحقّ الدّينيّ الذي تصدّى لمحاربته علناً، وتزيين وجه الباطل الإلحاديّ الذي حمل لواء مُناصرته والتّبشير به؛ إذ يقول: "جادلت هذا الإنسان فيما كتب فقرة فقرة، وفكرة فكرة، وبيّنت عُوار هذه الفكرة، وتهافتها الفكريّ، وسقوطها، وتضليلها من خلال عباراته"[3]. ويبدو لي أنّ هذا التّوجه في فكر الشّيخ، إنّما هو ثمرة من ثمرات تأثّره بالقرآن الكريم بقوّة في شتّى المسائل التي تعرّض لها، والقضايا التي عالجها.

5. **ظاهرة الاستعمار:** لا من شكّ أنّ الأوضاع السّياسيّة التي عاشتها سوريا والعالم الإسلاميّ منذ مطلع القرن العشرين الميلاديّ، كانت من أهمّ المؤثّرات في صياغة وتوجيه البناء الفكريّ للشّيخ، فكان لا بدّ أن يكون لانعكاساتها المختلفة المتناقضة صدى واضح وقويّ في عطاء الشّيخ الفكريّ والثّقافيّ والمعرفيّ.

ممّا تقدّم نخلص إلى أنّ العوامل التي كان لها تأثيرها وبصماتها في التّكوين الفكريّ للشّيخ في عمومها، إنّما هي عوامل تربويّة وثقافيّة واجتماعيّة وسياسيّة وعقديّة وإنسانيّة؛ بيد أنّه يمكن القول إنّ المؤثّرات الإسلاميّة خاصّة منها: الوعي بالقرآن الكريم، واستلهام حقائقه، هي التي كان لها أثرها الحاسم في تشكيل وبلورة فكره الإسلاميّ والإنسانيّ على السّواء، وهي التي منحته كذلك تلك المسحة الجماليّة البديعة،

---

(1) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **الحضارة الإسلاميّة**، ص81.

(2) **هو:** صادق جلال العظم، مُفكّر سوريّ علمانيّ. كتب في الفلسفة، ولديه دراسات ومُؤلّفات عن المجتمع والفكر العربيّ المعاصر. وهو عضو في مجلس الإدارة في المنظّمة السّوريّة لحقوق الإنسان. تُوفّي سنة 2016م. **يُنظر:** موقع ويكيبديا الموسوعة الحرّة: **ترجمة صادق جلال العظم**، على الرّابط الآتي: https://ar.wikipedia.org

(3) **يُنظر:** الشّبكة العنكبوتيّة على موقع (يوتيوب): **مُقابلة مع الشّيخ عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميدانيّ**، على الرّابط الآتي: https://www.youtube.com

والخصائص المتميّزة، حتّى غدا النّاس نحوه: إمّا مُحبّ يواليه ويناصره، أو عدوّ يحترمه، ويقدّر إخلاصه وعمله ونزاهته، وآخرون بين هؤلاء وهؤلاء.

المطلب الرّابع– مرضه ووفاته[1]:

ابتلى الله –تعالى– الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ بمرض سرطان القولون الذي امتدّ إلى الكبد، وقد أُجريت له عَمليّة جراحيّة لاستئصال الظّاهر منه، ثمّ العلاج بالكيماويّ مُدّة ستّة أشهر للمتابعة والمراقبة، وقد اشتدّ المرض بالشّيخ في سنة 1421هـ–2000م، من آثار العَمَليّة الجراحيّة الموجعة، وخشي أولاده والأطبّاء أن تُجرى له عَمليّة جراحيّة أُخرى لما خَلَفَ من السّرطان؛ خوفاً من أن يكون ضررها أكثر من نفعها، بالنّظر إلى شيخوخته، وكبر سنّه، وضعف جسمه، وسوابق العَمَليّات الجراحيّة التي أُجريت له.

وقد كان الشّيخ رغم تقدّم المرض فيه يُجاهد نفسه ليكتب ما يَمُنّ الله –تعالى– من تدبّر لكتابه العزيز، وكان يلتقط السّاعات التي يستطيع العمل فيها في تفسير القرآن الكريم التقاطاً، وهو طريح الفراش، مُلتجئاً إلى الله –تعالى– بالدّعاء أن يُعينه ويَمُدّه بالمعونة، ويَهبه القوّة على إتمام ما بدأه من تفسير، مع الفهم السّديد لمراد الله –تعالى– من آيات كتابه العزيز، وهو يتقلّب بين مسكنه في مكّة المكرّمة وكُبريات المستشفيات في جدّة. كما ابتُلي الشّيخ –أيضاً– بوفاة زوجته عائدة راغب الجرّاح الحلّاق، في يوم 1423/5/14هـ الموافق 2002/7/24م؛ حيث كانت تُعاني من مرض خبيث نُقلت على إثره إلى باريس لتلقّي العلاج.

وبعد هذا الجهد الجهيد، والعمل المتواصل الدّؤوب، في التّعلّم والتّعليم، والصّبر والمصابرة، حتّى كَلَّ الجسد وضعُفت القُوى، وبعد القراءة والكتابة والتّأليف، وتخريج الأجيال، ونصح الأُمّة؛ فلا بدّ للإنسان من رحيل عن الدّنيا. قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[2]؛ لتُوفّى النّفوس أعمالها، وتُعطى للنّاس أُجورها كاملة غير منقوصة، ويُضاعَف لمن يشاء، ويُؤجَر الصّابرون بغير حساب. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[3]. وفي أُولى ساعات صباح يوم الأربعاء الخامس والعشرين من جمادى الآخرة 1425هـ، الموافق الحادي عشر من آب 2004م، ودّعت الأُمّة الإسلاميّة إمامها وخطيبها وحافظها الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ، عن عمر ناهز الثّمانين عاماً، وذلك بعد أن شعر بأوجاع مُؤلمة في المدّة الأخيرة من حياته. (وشُيّعت جنازته عصر يوم الأربعاء، وكانت جنازة حافلة مشهودة خرج فيها آلاف

---

(1) **يُنظر**: الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، خاتمة المجلّدات (7–9، 12–15).

(2) سورة آل عمران: الآية (185).

(3) سورة الزّمر: الآية (10).

المشيّعين من العلماء والكُبراء والعامّة، تملؤهم الحسرة وتمُضُّهُم الأحزان، وصُلّي عليه في جامع الأمير مَنْجَك في حيّ الميدان، وأبّنه بعد الصّلاة شيخ قرّاء الشّام محمّد كريّم راجح[1]، ثمّ وُوري الثّرى بمقبرة الجورة في الميدان)[2].

رحم الله الشّيخ رحمة واسعة، ونفع بعلمه الغزير، وتراثه القرآنيّ الوفير، وجزاه عن دعوته وجهاده خير ما يُجزي المحسنين، وأخلف في الأُمّة أمثاله، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله -العليّ العظيم-، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

(1) **هو**: الشّيخ محمّد كريّم بن سعيد بن كريّم راجح. القارئ المقرئ، المفسّر، الفقيه، اللّغويّ، الأديب، الخطيب. شيخ قُرّاء الشّام. يحمل إجازات عديدة في القراءات، وأهمّ الإجازات التي حصل عليها بالسّند المتّصل من علماء القراءات في أساليب القراءات العشر، والتي أقرّها شيخ القرّاء في وقته الشّيخ أحمد الحلوانيّ. **يُنظر**: موقع رابطة علماء الشّام: **ترجمة محمّد كريّم راجح**، على الرّابط الآتي: http://www.rocham.org. **يُنظر**: موقع مُلتقى أهل التّفسير: **ترجمة محمّد كريّم راجح**، على الرّابط الآتي: https://vb.tafsir.net

(2) **يُنظر**: موقع ويكيبديا الموسوعة الحرّة: **ترجمة عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميدانيّ**، على الرّابط الآتي: https://ar.wikipedia.org

المبحث الثّالث

حياة الشّيخ عبد الرحمّن حبنّكة الميدانيّ العِلْميّة والدّعويّة

تمهيد:

حظي الشّيخ بعناية والده الشّيخ حَسَن، وبشيوخ أجلّاء وعلماء فضلاء كان لهم تأثير واضح في علمه وثقافته، وقد عُرفوا بالتّقوى والورع والإخلاص، وبغزارة العِلْم وسعة الاطّلاع، -وسيأتي ذكرهم لاحقاً عند الحديث عن شيوخه، إن شاء الله تعالى-.

(وقد تخرّج الشّيخ من مدرسة والده -معهد التّوجيه الإسلاميّ- عام 1367هـ-1947م، وكان أبوه قد عهد إليه بالتّدريس فيها وهو ابن خمس عشرة سنة، ثمّ أُسند إليه بعد تخرّجه تدريس عدد من العلوم، منها: الفقه، والأُصول، والتّوحيد، والمنطق، والبلاغة، وغيرها من العلوم الشّرعيّة والعربيّة والعقليّة التي قد تمرّس بها في المدرسة)[1]؛ الأمر الذي دفعه نحو مُطالعات كثيرة ومُتنوّعة، زوّدته بثروة عِلْميّة غزيرة، وخبرة رفيعة المستوى ومُتنوّعة الاتّجاهات، جعلته ينطلق في كتاباته ومُحاضراته في أجواء ذات أُسس عِلْميّة معرفيّة راسخة، ساعدته على التّنوّع في إبداعه العِلْميّ في مواضيع شتّى، **-وسأذكر ذلك وأبيّنه في هذا المبحث بصورة جليّة، مُستعيناً بالله تعالى-.**

المطلب الأوّل- طلبه للعِلْم، ومسيرته العِلْميّة والدّعويّة:

كان بيت الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ أوّل بيئة فتح عليها عينيه، إذ كان ذلك البيت مثابة لطلّاب العِلْم الشّرعيّ، لا تكاد حلقاته تخلو منهم ليل نهار. لهذا نجده قويّ العزيمة في تحصيل العِلْم، جادّ الرّغبة فيه. وأستطيع أن أُقسّم حياة الشّيخ العِلْميّة والدّعويّة إلى مرحلتين؛ بحيث تشمل الأولى: نشأته العِلْميّة حتّى سفره إلى المملكة العربيّة السّعوديّة. والثّانية: سفره وانتقاله إلى العمل في المملكة العربيّة السّعوديّة.

المرحلة الأولى: تُمثّل بدايات نشأته العِلْميّة في أحضان أُسرته، فقد تلّقى العِلْم في المدرسة الشّرعيّة التي أسّسها والده -الشّيخ حَسَن-، وسمّاها (معهد التّوجيه الإسلاميّ)، وكان نظام التّعليم فيها فريداً مُتميّزاً، على طريقة علماء المسلمين الأقدمين، والدّراسة فيها دراسة موضوعيّة، يتدرّج فيها الطّلّاب من مبادئ العلوم إلى أعلى المستويات. وهذا ما أكّده الشّيخ في المقابلة التي أُجريت معه في برنامج (علماء

(1) **يُنظر:** الجرّاح، عائدة: **عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ العالم المُفكّر المُفسّر، زوجي كما أعرفه**، ص18.

مُبدعون)، بأنّ تأسيسه العِلْميّ كان في مدرسة الوالد، وذلك قبل خروجه إلى مصر، والتّعرّف إلى علماء الأزهر[1]؛ (حيث التحق بكلّيّة الشّريعة في الأزهر الشّريف عام 1370هـ، وحاز منها على الشّهادة العالية التي تُعادل: ليسانس في الشّريعة، ثمّ حاز على الشّهادة العالميّة مع إجازة في التّدريس التي تُعادل: ماجستير في التّربية وعِلْم النّفس. وبعد تخرّجه من الأزهر صار أُستاذاً في ثانويّات دمشق الشّرعيّة والعامّة، إضافة إلى التّدريس في معهد والده –الشّيخ حَسَن–، وتولّى رئاسة مُديريّة التّعليم الشّرعيّ التّابعة لوزارة الأوقاف، ومن أهمّ ما أنجزه في إبّان إدارته: تأسيس عدد من المدارس الشّرعيّة في بعض المحافظات السّوريّة، مع تأسيس ثانويّتين شرعيّتين للإناث في دمشق وحلب لأوّل مرّة. ثمّ أصبح عُضواً من أعضاء هيئة البحوث في وزارة التّربية والتّعليم في سوريا، وبقي فيها إلى أن انتقل إلى العمل في المملكة العربيّة السّعوديّة، بعد حرب 1967م)[2].

المرحلة الثّانية: وتبدأ هذه المرحلة برحلته العِلْميّة إلى المملكة العربيّة السّعوديّة؛ (إذ عمل أُستاذاً في جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة في الرّياض لمدّة سنتين، ثمّ انتقل إلى مكّة المكرّمة، فعمل أُستاذاً في جامعة أُمّ القرى قرابة ثلاثين عاماً، وقد أُسند إليه في هذه الجامعة تعليم موادّ مُختلفة، دينيّة ودعويّة، وإنسانيّة وعقليّة، بالإضافة إلى قيامه بالتّوجيه والتّثقيف العامّ وتبصير المسلمين)[3]. "واستقرّ وضعه مُدرّساً في كلّيّة الدّعوة وأُصول الدّين، إلى جانب بعض الموادّ في قسم الدّراسات العُليا، والإشراف على بعض رسائل الماجستير والدّكتوراة"[4]. "ولما بلغ عُمُره سبعين عاماً، قضى نظام السّنّ بإعفائه من العمل الرّسميّ الأكاديميّ في جامعة أُمّ القرى، وفي هذه الأثناء اختير عُضواً في المجلس التّأسيسيّ لرابطة العالم الإسلاميّ في مكّة المكرّمة، والتي كان والده –سماحة الشّيخ حَسَن– عُضواً فيها حتّى وافاه الأجل. واختير –أيضاً– عُضواً في مجلس هيئة الإغاثة الإسلاميّة العالميّة العُليا والتّنفيذيّة. وبعد تفرّغه من العمل الأكاديميّ الرّسميّ اتّجه بما يملك من صحّة ووقت، وقوّة وجُهد؛ لتدبّر كتاب الله الذي كان قد بدأ به قبل ذلك، وفق المنهج الذي هداه الله إليه في كتابه: قواعد التّدبّر الأمثل لكتاب الله –عزّ وجلّ–، ووفق ترتيب النّزول"[5].

---

(1) **يُنظر**: الشّبكة العنكبوتيّة على موقع (يوتيوب): **مُقابلة مع الشّيخ عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميدانيّ**، على الرّابط الآتي:

https://www.youtube.com

(2) **يُنظر**: الجرّاح، عائدة: **عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ العالم المُفكّر المُفسّر، زوجي كما أعرفه**، ص18–19.

(3) **يُنظر**: الشّبكة العنكبوتيّة على موقع (يوتيوب): **مُقابلة مع الشّيخ عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميدانيّ**، على الرّابط الآتي:

https://www.youtube.com. **يُنظر**: الجرّاح، عائدة: **عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ العالم المُفكّر المُفسّر، زوجي كما أعرفه**، ص19.

(4) المجذوب، محمّد: **علماء ومُفكّرون عرفتهم**، ج3، ص61.

(5) الجرّاح، عائدة: **عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ العالم المُفكّر المُفسّر، زوجي كما أعرفه**، ص19–20.

وممّا له صلة بمسيرته العِلْميّة والدّعويّة، مُشاركاته في خدمة الفكر والأدب ومُختلف القضايا الإسلاميّة، ومُساهماته في البرامج الإذاعيّة في المملكة العربيّة السّعوديّة؛ فضلاً عن مشاركته في كثير من المؤتمرات والنّدوات العِلْميّة والأدبيّة، منها: (مُؤتمر التّعليم الإسلاميّ، ومُؤتمر الأدب الإسلاميّ في لكهنؤ في الهند، ومُؤتمر الدّعوة والدّعاة في المدينة المنوّرة)[1]، وغيرها.

المطلب الثّاني– مِحْنَته:

بدأت مِحْنَة الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ حينما انتقل إلى العمل في وزارة الأوقاف السّوريّة عام 1960م، حيث أُسندت إليه إدارة التّعليم الشّرعيّ فيها، فحقّق من خلالها خدمات للإسلام والمسلمين، وقدّم إنجازات عديدة كان يصبو إليها، مثل: تأسيس عدد من المدارس الشّرعيّة في بعض المحافظات السّوريّة، مع تأسيس ثانويّتين شرعيّتين للإناث. وكان وجود الشّيخ في هذا القسم من وزارة الأوقاف فرصة صالحة لإعطائه جرعة جديدة من النّشاط الذي هو أحوج ما يكون إلى مثله، بعد أن انصرفت جهود المسؤولين عن التّعليم إلى الجانب المدنيّ الصّرف، الذي لا يكاد يتّصل بتعاليم الوحي إلّا من بعيد. الأمر الذي جعله يواجه نظاماً مُنهاراً للتّعليم الشّرعيّ مُقارنة بالتّعليم المدنيّ، لذا بدأ بخطوات ثلاث ليردّ للتّعليم الإسلاميّ مكانته الطّيّبة: (**الأولى**: رسم هيكل ينطلق منه إلى التّكامل، **والثّانية**: طائفة من المناهج والأنظمة العِلْميّة، **والثّالثة**: مشروع قانون يضمن للتّعليم الشّرعيّ وضعاً كريماً يعدل نظيره المدنيّ من حيث الملاك والحقوق وما إليها)[2]؛ ولكنّ السّلطات الحزبيّة لم تستطع الصّبر على مُشاهدة هذا التّطوّر الصّاعد، لاسيّما بعد الذي وُوجهت به من عناية غير مُتوقّعة بالمدارس الشّرعيّة؛ لذلك أسرعت السّلطات الحزبيّة للوقوف بوجه هذا التّطوّر الذي يتنافى مع تصوّراتها، (فاعتقلت والده –الشّيخ حَسَن –، وأخاه –الدّكتور محمّد–، وعمّه –الشّيخ صادق–، وأصدرت مراسيم إلغاء جمعيّة الوالد –جمعيّة التّوجيه الإسلاميّ–، ومُصادرة مدارسه ومبانيها، وتسريحه –الشّيخ عبد الرّحمن– من وظيفته في وزارة التّربية)[3]. وذلك بسبب اغتياظها من الحفاوة التي منحتها الجماهير السّوريّة على اختلاف طبقاتها لوالده الشّيخ حَسَن، حين عودته من الحجّ عام 1966م؛ حيث (جرى له احتفاء ما شهدته دمشق لرئيس مُنتخب، ولا لسلطان مُرتقب، فأدركت الدّولة البعثيّة الأهداف الشّعبيّة من هذه الحفاوة، وأنّها بمثابة استفتاء جماهيريّ مُضادّ لسلطتها)[4].

---

(1) **يُنظر**: المجذوب، محمّد: **علماء ومُفكّرون عرفتهم**، ج3، ص62.

(2) **يُنظر**: نفسه، ج3، ص60.

(3) **يُنظر**: الميدانيّ، عبد الرّحمن: **الوالد الدّاعية المُربّي الشّيخ حسن حبنّكة الميدانيّ قصّة عالم مُجاهد حكيم شجاع**، ص287–288.

(4) **يُنظر**: نفسه، ص270–274.

كانت مِحْنَة غامرة مُلئت في أثنائها السّجون بكبار العلماء والشّباب من دُعاة الإسلام، ولم تنجلِ الغمّة إلّا عام 1967م. وشاء الله –تعالى– أن ينجو الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ من الاعتقال الذي فرضته السّلطة على أبيه وذويه، على الرّغم من الجهود التي بذلتها للقبض عليه؛ حيث أُتيحت له فرصة البحث عن ملاذ يُنقذه من ذلك الجوّ الرّهيب، عن طريق التّعاقد مع كلّيّة الشّريعة بالرّياض، التّابعة لجامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة في المملكة العربيّة السّعوديّة. ويُوضّح الشّيخ ذلك بقوله: "بلغني أنّ الدّولة قرّرت القبض عليّ، فتواريت عن الأنظار، وحماني الله بحمايته، وبقيت مُختبئاً حتّى يوم أُفرج عن أبي –رحمه الله– عقب حرب الأيّام السّتّة مع إسرائيل في حزيران سنة 1967م"[1]. ويقول أيضاً: "إنّ أحداث ذلك الزّمان يعرفها الذين عاشوا السّتّينيّات في العهد السّوريّ، وفي دمشق تحديداً، حينما انتشر الكفر والإلحاد، وجاءت التّنظيمات المتّصلة بالخروج عن الفكر الإسلاميّ ومُعاداته؛ حيث صادرت كلّ الممتلكات اللّاحقة والمتّصلة في معهد الوالد، وبعد ذلك انتقلت إلى المملكة العربيّة السّعوديّة، فصرت أُستاذاً في الرّياض في جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة التي كان اسمها (المعاهد والكلّيّات)، ثمّ انتقلت إلى مكّة وصرت أُستاذاً في جامعة أُمّ القرى قُرابة ثلاثين سنة ما بين سنتي الرّياض وسنوات مكّة"[2].

المطلب الثّالث– شُيوخه ومَنْ تأثّر بهم:

إنّ من أهمّ العوامل التي تُسهم بشكل كبير في التّكوين العِلْميّ للطّالب: شيوخه الذين تلّقى عنهم، واستفاد علومه منهم، وقد يكون بعضهم أشدّ تأثيراً في الطّالب من الآخر، وذلك بحسب نوع العلاقة القائمة بين الطّالب وشيخه، ومدى ارتباطه به، وصُحبته له، وغير ذلك من العوامل التي تميّز شخصيّة الشّيخ، وتؤثّر بالتّالي في الطّالب المُتلقّي. وسأذكر شيوخه الذين أخذ عنهم علومه وثقافته، مع التّعريف بهم؛ حيث كان ارتباط الشّيخ بهم أكثر، وأثرهم فيه أكبر[3].

أوّلاً: والده –الشّيخ حَسَن–، فقد تأثّر به لدرجة أنّه ينسب الفضل في تربيته وتعليمه، وجميع أعماله إليه بعد الله –تعالى–، فهو يُشير إلى ذلك في مُقدّمة بعض كُتبه بعد الدّعاء إلى الله –تعالى– بالتّوفيق والسّداد؛ إذ يدعو له، فيقول: "وأَضِفْ إلى صحيفة أبي ما تَمُنّ به من أجر على ثمرات الأعمال المبرورة التي تُوفّقني إليها، فأنا غرسة من غرساته الكثيرات، عَلّمني كثيراً، وأعطاني مفاتيح العلوم الإسلاميّة، وربّاني،

(1) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **الوالد الدّاعية المُربّي الشّيخ حسن حبنّكة الميدانيّ قصّة عالم مُجاهد حكيم شجاع**، ص288.

(2) **يُنظر**: الشّبكة العنكبوتيّة على موقع (يوتيوب): **مُقابلة مع الشّيخ عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميدانيّ**، على الرّابط الآتي:

https://www.youtube.com

(3) **يُنظر**: نفسه.

وأرشدني إلى طاعتك، والعمل في مرضاتك، والجهاد في سبيلك، فاجزه عنّي وعن أمثالي خير الجزاء، واكتب في صحيفته مثل ثواب أعمال مَنْ عَلّمهم وكان السّبب في هدايتهم وتربيتهم، حتّى كانوا علماء أعلاماً، وقادة دعوة وجهاد في سبيلك"[1]. فوالده (الشّيخ حَسَن بن مرزوق بن عُرابي بن غُنَيم، وُلد عام 1326هـ-1908م)[2]، ونشأ في أُسرة بدويّة مُحبّة للعِلْم والعلماء، ولازم العلماء والشّيوخ وأخذ عنهم، وقد ذكرهم الشّيخ عبد الرّحمن في كتابه عن سيرة والده، وعرّف بهم. وقد (تفقّه الشّيخ حَسَن أوّلاً على مذهب الإمام أبي حنيفة، ثمّ على مذهب الإمام الشّافعيّ، ورسخت معرفته بسائر العلوم، من: تفسير، وحديث، وعلوم العربيّة، والتّوحيد، وغيرها، وكان شغوفاً بالتّدريس وبذل العِلْم، وبقي في حلقاته وعطائه حتّى آخر حياته)[3]. (ووقف مع علماء دمشق ضدّ فرض قانون الطّوائف الذي حاولت فرنسا أن تفرضه حتّى تراجعت عنه، وأسّس جمعيّة التّوجيه الإسلاميّ. وأسهم في تأسيس رابطة العلماء بدمشق، وكان أمينها العامّ، وانتُخب عُضواً في المجلس التّأسيسيّ لرابطة العالم الإسلاميّ في مكّة المكرّمة، وكانت له مكانة مرموقة في الأوساط العِلْميّة والدّينيّة في البلاد الإسلاميّة)[4]. وقد "تُوفّي الشّيخ حَسَن بدمشق عام 1398هـ-1978م، ودُفن في حجرة من مُلحقات جامع الحَسَن في الميدان"[5].

ثانياً: عمّه الشّيخ صادق بن مرزوق حبنّكة الميدانيّ[6]: شقيق والده -الشّيخ حَسَن-، الذي كان له بمثابة النّواة الأولى في مُؤسّسته بجامع منجك، وعضده الأيمن في كلّ مشاريعه ومُؤسّساته، وأعماله ونشاطاته

(**1**) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **الأمثال القرآنيّة**، ص4.

(**2**) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **الوالد الدّاعية المُربّي الشّيخ حسن حبنّكة الميدانيّ قصّة عالم مُجاهد حكيم شجاع**، ص35-37. يوسف، محمّد خير: **تتمّة الأعلام للزّركليّ**، ج1، ص138.

(**3**) **يُنظر:** يوسف، محمّد خير: **تتمّة الأعلام للزّركليّ**، ج1، ص138. **يُنظر:** الميدانيّ، عبد الرّحمن: **الوالد الدّاعية المُربّي الشّيخ حسن حبنّكة الميدانيّ قصّة عالم مُجاهد حكيم شجاع**، ص69-71.

(**4**) **يُنظر:** يوسف، محمّد خير: **تتمّة الأعلام للزّركليّ**، ج1، ص138. **يُنظر:** الميدانيّ، عبد الرّحمن: **الوالد الدّاعية المُربّي الشّيخ حسن حبنّكة الميدانيّ قصّة عالم مُجاهد حكيم شجاع**، ص174، 204، 213-218.

(**5**) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **الوالد الدّاعية المُربّي الشّيخ حسن حبنّكة الميدانيّ قصّة عالم مُجاهد حكيم شجاع**، ص37، 313. يوسف، محمّد خير: **تتمّة الأعلام للزّركليّ**، ج1، ص138.

(**6**) **قلت:** وُلِدَ في حيّ الميدان بدمشق سنة 1918م، وكان عِصاميّاً، شديد العفّة، صاحب مروءة وقناعة. درس في مدارس الجمعيّة الغرّاء التي كان يُديرها أخوه الشّيخ حَسَن. بدأ التّدريس في المدارس الشّرعيّة منذ مطلع حياته، وكان مُديراً لمعهد التّوجيه الإسلاميّ، وبقي كذلك حتّى إغلاقه سنة 1967م. **يُنظر:** موقع نسيم الشّام: **ترجمة صادق حبنّكة الميدانيّ**، بقلم أحمد السّعديّ، على الرّابط الآتي: http://www.naseemalsham.com

الاجتماعيّة، (وله خطب ودروس رصينة المضامين الفكريّة، يعتمد فيها على التّحليل والمنطق العقليّ المقنع، والرّوابط الفكريّة الطّبيعيّة المنطقيّة، ويبرز في أدائه استعمال المفردات اللّغويّة الدّقيقة في دلالاتها على المعاني المرادة)[1]. ولـمّا تُوفّي والد الشّيخ تولّى إدارة معهد التّوجيه الإسلاميّ، وتابع إنشاء المؤسّسات الخيريّة الكبيرة ذات النّفع العامّ، مع طائفة من أهل الخير والفضل.

ثالثاً: تأثّر بأقرانه من الطّلّاب الذين درسوا معه في المعهد؛ إذ كانوا زملاء، وشيوخاً له في الوقت نفسه، "وكان التّعليم فيه يقوم على شكل حلقات عِلْميّة، وطلّابه طلّاب علم حقيقيّون، يتعلّمون ويُعلّمون، فيستفيد بعضهم من بعض، ويتعرّضون للانتقادات من قبل بعضهم بعضاً، كما يتلّقون التّعليم والتّوجيه والحزم من قبل الشّيخ الوالد –حَسَن–"[2]. وكان من أبرزهم الشّيخ حسين خطّاب[3].

رابعاً: تأثّر بفكر الغزاليّ[4] في تحريره للمسائل؛ إذ يقول الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ: "الإمام الغزاليّ من كبار المفكّرين التّاريخيّين للأُمّة الإسلاميّة، وكان يُعجبني في تحريره للمسائل، فهو صاحب فكر نادر في التّاريخ الإسلاميّ؛ أي أنّه يقيس الحرف والكلمة بمقياس الفكر، ويُناظر الآخرين بمنظار فكريّ مُحرّر. ويظهر ذلك في كُتبه: المستصفى، والفقه، وتهافت الفلاسفة، وغيرها. أمّا عن كتاب الإحياء في علوم الدّين، فهو كتاب كتبه للوعظ والإرشاد والتّوجيه، وعَيْبه فيه أنّه لم يكن مُتمكّناً من الحديث، فدخلت عليه بعض الأحاديث الضّعيفة واعتمد عليها"[5].

---

(1) **يُنظر**: الميدانيّ، عبد الرّحمن: **الوالد الدّاعية المُربّي الشّيخ حسن حبنّكة الميدانيّ قصّة عالم مُجاهد حكيم شجاع**، ص109–113.

(2) الجرّاح، عائدة: **عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ العالم المُفكّر المُفسّر، زوجي كما أعرفه**، ص15–16.

(3) **هو**: العلّامة حسين خطّاب الميدانيّ الدّمشقيّ. من طلّاب العِلْم في جامع "مَنجك" في حيّ الميدان. حفظ القرآن الكريم وجوّده، وجُمعت عليه القراءات العشر الكبرى. عيّنه القرّاء شيخاً لهم بعد وفاة شيخ القرّاء الدّكتور الطّبيب الجرّاح محمّد سعيد الحلوانيّ، وقد ألّف مُصنّفات عديدة في القراءات. تُوفّي سنة 1408هـ. **يُنظر**: آل إسماعيل، نبيل: **العناية بالقرآن الكريم وعلومه من بداية القرن الرّابع الهجريّ إلى عصرنا الحاضر**، ص46–47.

(4) **هو**: محمّد بن محمّد بن أحمد، أبو حامد الغزاليّ الطّوسيّ زين الدّين، حُجّة الإسلام. من مُصنّفاته المشهورة: الإحياء، والوسيط، والمُستصفى، وغيرها. تُوفّي سنة 505هـ. **يُنظر**: ابن الملقّن، عمر: **العقد المذهّب في طبقات حملة المذهب**، ص116–117. **يُنظر**: ابن خلكان، أحمد: **وفيّات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان**، ج4، ص216–218.

(5) **يُنظر**: الشّبكة العنكبوتيّة على موقع (يوتيوب): **مُقابلة مع الشّيخ عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميدانيّ**، على الرّابط الآتي:

https://www.youtube.com

خامساً: تأثّر -أيضاً- بالجوانب الأدبيّة بكتب الأدب: يقول الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ: "العلّي استقرَيت مُعظم كُتب الأدب قراءة، وأعطتني ملكة بيانيّة. ولي مَيل لنظم الشّعر، فلو تركت هذه الكتب ونظمت الشّعر، لفتح الله عليّ بعشرات الدّواوين؛ لكنّ الله -تعالى- أكرمني بأن أتفرّغ للفكر الإسلاميّ، وخدمة كتابه"[1].

وبعد، فهؤلاء أهمّ مَن تتلمذ عليهم الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ، وتأثّر بأفكارهم، واقتصرت على مَن ذكرهم بنفسه في المقابلة التي أُجريت معه في برنامج علماء مُبدعون[2]. وأنت ترى معي كيف كان لهم أبرز الأثر في موسوعيّة الشّيخ، وسعة ثقافته وعِلْمه. ومع سعة عِلْمه وموسوعيّته، كان جمّ النّشاط، غزير الإنتاج، تزيّنه أخلاق رصينة، فلم يكن مغروراً كشأن بعض الأدعياء ممّن لم يبلغوا مستواه.

المطلب الرّابع- مُؤلّفاته:

إنّ من فضل الله -تعالى- على هذه الأُمّة أن قيّض لها في كلّ عصر علماء جهابذة، وَهَبوا أنفسهم لخدمة هذا الدّين الحنيف، وكان منهم الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ. فألّف مُؤلّفات كثيرة جليلة، ولم يقتصر على فنّ واحد، فقد ألّف في التّفسير وعلومه، وفي السّنّة وعلومها، وفي العقيدة، وفي الفقه، وفي الغزو الفكريّ، وغير ذلك. وقد تميّزت مُؤلّفاته بالغزارة مع العمق والشّمول، وقد جمعت بين القديم والحديث، وبين التّخصّص الشّرعيّ الدّقيق والعلوم الدّنيويّة العصريّة، فقدّم كُتباً قيّمة زادت على الثّلاثين كتاباً، أثرى بها المكتبة الإسلاميّة والفكر الإسلاميّ، وسوف أذكر ما وقفت عليه من ذلك بعد البحث في المصادر المختلفة، -قدر الاستطاعة وحسب الوُسع-:

أوّلاً- التّفسير وعلوم القرآن الكريم:

1. **الأمثال القرآنيّة، دراسة وتحليل وتصنيف، ورسم لأُصولها وقواعدها ومناهجها،** طُبع في مطبعة دار القلم في دمشق عام 1400هـ-1980م، الطّبعة الأولى، وعدد صفحاته (176) صفحة.
2. **تدبّر سورة الفرقان في وحدة موضوع، وهي السّورة الثّانية والأربعون بحسب ترتيب النّزول، تدبّر بمنهج كتاب (قواعد التّدبّر الأمثل لكتاب الله -عزّ وجلّ-)،** طُبع في مطبعة دار القلم في دمشق عام 1412هـ-1991م، الطّبعة الأولى، وعدد صفحاته (452) صفحة.

---

(1) **يُنظر:** الشّبكة العنكبوتيّة على موقع (يوتيوب): **مُقابلة مع الشّيخ عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميدانيّ،** على الرّابط الآتي:

.https://www.youtube.com

(2) **يُنظر:** نفسه.

3. **سورة الرّعد، دراسة أدبيّة ولغويّة وفكريّة،** طُبع في مطبعة عُكاظ في جدّة عام 1983م، الطّبعة الثّانية، وعدد صفحاته (303) صفحات.
4. **صفات عباد الرّحمن في القرآن، دراسة في طريق التّفسير الموضوعيّ،** طُبع في مطبعة الطّالب الجامعيّ في مكّة المكرّمة عام 1407هـ-1987م، الطّبعة الأولى، وعدد صفحاته (91) صفحة.
5. **قواعد التّدبّر الأمثل لكتاب الله -عزّ وجلّ-، تأمّلات،** طُبع في مطبعة دار القلم في دمشق عام 1430هـ-2009م، الطّبعة الرّابعة، وعدد صفحاته (839) صفحة.
6. **معارج التّفكر ودقائق التّدبر، تفسير تدبّريّ للقرآن الكريم بحسب ترتيب النّزول، ووفق منهج كتاب (قواعد التّدبّر الأمثل لكتاب الله -عزّ وجلّ-)،** وهو كتاب يتألّف من خمسة عشر مجلّداً في خمس مجموعات، كلّ مجموعة في ثلاثة مجلّدات، تزيد صفحات كلّ واحد منها على (700) صفحة. وسيأتي التّعريف به لاحقاً -إن شاء الله تعالى-.
7. **نوح -عليه السّلام-، وقومه في القرآن المجيد، دراسة في طريق التّفسير الموضوعيّ،** طُبع في مطبعة دار القلم في دمشق عام 1410هـ-1990م، الطّبعة الأولى، وعدد صفحاته (373) صفحة.

ثانياً- الحديث النّبويّ الشّريف:

1. **روائع من أقوال الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- دراسات أدبيّة ولغويّة وفكريّة،** طُبع في مطبعة دار القلم في دمشق عام 1416هـ-1995م، الطّبعة السّادسة، وعدد صفحاته (576) صفحة.

ثالثاً- العقيدة الإسلاميّة:

1. **ابتلاء الإرادة بالإيمان والإسلام والعبادة،** طُبع في مطبعة دار القلم في دمشق عام 1416هـ-1995م، الطّبعة الأولى، وعدد صفحاته (424) صفحة.
2. **براهين وأدلّة إيمانيّة،** طُبع في مطبعة دار القلم في دمشق عام 1408هـ-1987م، الطّبعة الأولى، وعدد صفحاته (516) صفحة.
3. **الشّريعة الإسلاميّة بين التّدرّج في التّشريع والتّدرّج في التّطبيق،** الصّادر عن إدارة البحوث والدّراسات، اللّجنة الاستشاريّة العُليا للعمل على استكمال تطبيق أحكام الشّريعة الإسلاميّة عام 1420هـ-2000م، الطّبعة الأولى، وعدد صفحاته (54) صفحة.

4. **العقيدة الإسلاميّة وأُسسها**، طُبع في مطبعة دار القلم في دمشق عام 1399هـ-1979م، الطّبعة الثّانية، وعدد صفحاته (821) صفحة.
5. **لا يصحّ أن يُقال: الإنسان خليفة عن الله في أرضه فهي مقولة باطلة**، طُبع في مطبعة إحياء التّراث الإسلاميّ في مكّة المكرّمة عام 1411هـ-1991م، وعدد صفحاته (71) صفحة.
6. **مفهومات يجب تصحيحها حول التّوكّل والجهاد في سبيل الله ووجوه النّصر**، طُبع في مطبعة المكتبة المكّيّة في مكّة المكرّمة عام 1418هـ-1997م، وعدد صفحاته (231) صفحة.
7. **الوجيزة في العقيدة الإسلاميّة**، طُبع في مطبعة مُؤسّسة الرّيّان في بيروت عام 1416هـ-1996م، الطّبعة الثّانية، وعدد صفحاته (217) صفحة. وهو مُلخّص من كتاب العقيدة الإسلاميّة وأُسسها.
8. **الوسطيّة في الإسلام**، طُبع في مطبعة مُؤسّسة الرّيّان في بيروت عام 1416هـ-1996م، الطّبعة الأولى، وعدد صفحاته (196) صفحة.

رابعاً- الفقه والأحكام:

1. **الصّيام ورمضان في السّنّة والقرآن، دراسة في طريق بحوث فقه الكتاب والسّنّة**، طُبع في مطبعة دار القلم في دمشق عام 1407هـ-1987م، الطّبعة الأولى، وعدد صفحاته (590) صفحة.

خامساً- الحضارة والأخلاق الإسلاميّة:

1. **الأخلاق الإسلاميّة وأُسسها**، طُبع في مطبعة دار القلم في دمشق عام 1420هـ-1999م، الطّبعة الخامسة، ويتكوّن من جزأين، الأوّل (850) صفحة، والثّاني (679) صفحة.
2. **الحضارة الإسلاميّة، أُسسها ووسائلها وصور من تطبيقات المُسلمين لها، ولمحات من تأثيرها في سائر الأُمم**، طُبع في مطبعة دار القلم في دمشق عام 1418هـ-1998م، الطّبعة الأولى، وعدد صفحاته (685) صفحة.
3. **الوجيزة في الأخلاق الإسلاميّة وأُسسها**، طُبع في مطبعة مُؤسّسة الرّيّان في بيروت عام 1418هـ-1997م، الطّبعة الأولى، وعدد صفحاته (511) صفحة. وهو مُلخّص من كتاب الأخلاق.

سادساً– اللّغة العربيّة وعُلومها:

1. **البلاغة العربيّة أُسسها وعُلومها وصور من تطبيقاتها، بهيكل جديد من طريفٍ وتليد،** طُبع في مطبعة دار القلم في دمشق عام 1416هـ-1996م، ويتكوّن من جزأين، الأوّل (595) صفحة، والثّاني (570) صفحة.
2. **ديوان أقباس في منهاج الدّعوة وتوجيه الدّعاة، بيان وشعر،** طُبع في مطبعة دار القلم في دمشق عام 1406هـ-1986م، الطّبعة الأولى، وعدد صفحاته (262) صفحة.

سابعاً– الغزو الفكريّ ومخاطره:

1. **أجوبة الأسئلة التّشكيكيّة الموجّهة من قبل إحدى المؤسّسات التّبشيريّة العاملة تحت تنظيم (الآباء البيض)،** طُبع في مطبعة مكتبة المنارة في مكّة المكرّمة عام 1412هـ-1991م، الطّبعة الأولى، وعدد صفحاته (148) صفحة.
2. **التّحريف المُعاصر في الدّين، تسلّل في الأنفاق بعد السّقوط في الأعماق، مكيدة الماركسيّة والباطنيّة المُعاصرة، تحت شعار قراءة مُعاصرة للنّصوص الإسلاميّة المصادر،** طُبع في مطبعة دار القلم في دمشق عام 1418هـ-1997م، الطّبعة الأولى، وعدد صفحاته (242) صفحة.
3. **صراع مع الملاحدة حتّى العظم،** طُبع في مطبعة دار القلم في دمشق عام 1412هـ-1992م، الطّبعة الخامسة، وعدد صفحاته (467) صفحة.
4. **ظاهرة النّفاق وخبائث المنافقين في التّاريخ، دراسة تحليليّة وتوجيهيّة للتّعريف بالنّفاق والمنافقين، تدبّر موضوعيّ شامل للنّصوص القرآنيّة في النّفاق والمنافقين، نظرة استعراضيّة للمنافقين عبر التّاريخ،** طُبع في مطبعة دار القلم في دمشق عام 1414هـ-1993م، الطّبعة الأولى، ويتكوّن من جزأين، الأوّل (728) صفحة، والثّاني (694) صفحة.
5. **الغزو الفكريّ والتّيّارات المُعادية للإسلام،** طُبع في مطبعة إدارة الثّقافة والنّشر في جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة في المملكة العربيّة السّعوديّة عام 1401هـ-1981م، القسم السّادس منه، وعدد صفحاته (21) صفحة. وهو من البحوث المقدّمة لمؤتمر الفقه الإسلاميّ الذي عقدته الجامعة بالرّياض سنة 1396هـ.

6. **غزو في الصّميم، دراسة واعية للغزو الفكريّ، والنّفسيّ، والخُلُقيّ، والسّلوكيّ، في مجالات التّعليم المنهجيّ والتّثقيف العامّ، ونظرة عامّة إلى التّعليم في العالم، مع توجّهات وتوصيات خاصّة وعامّة، مُذيّلة بتوصيات المُؤتمر العالميّ الأوّل للعالم الإسلاميّ**، طُبع في مطبعة دار القلم في دمشق عام 1402هـ-1982م، الطّبعة الأولى، وعدد صفحاته (336) صفحة.
7. **كتاب أجنحة المكر الثّلاثة وخوافيها: التّبشير، الاستشراق، الاستعمار، دراسة وتحليل وتوجيه، ودراسة منهجيّة شاملة للغزو الفكريّ**، طُبع في مطبعة دار القلم في دمشق عام 1420هـ-2000م، الطّبعة الثّامنة، وعدد صفحاته (759) صفحة.
8. **كواشف زيوف في المذاهب الفكريّة المُعاصرة، دراسة عِلْميّة نقديّة تحليليّة بمنظار إسلاميّ، لزيوف كُبريات الآراء والمذاهب الفكريّة المعاصرة وأئمّتها**، طُبع في مطبعة دار القلم في دمشق عام 1412هـ-1991م، الطّبعة الثّانية، وعدد صفحاته (764) صفحة.
9. **الكيد الأحمر، دراسة واعية للشّيوعيّة وجذورها وأفكارها، وخرافة حتميّاتها، وأحلام وعودها الكاذبة، وواقع تدميرها الثّوريّ الحقود الحسود، وجحيم تطبيقاتها**، طُبع في مطبعة دار القلم في دمشق عام 1400هـ-1980م، الطّبعة الأولى، وعدد صفحاته (399) صفحة.
10. **مكايد يهوديّة عبر التّاريخ**، طُبع في مطبعة دار القلم في دمشق عام 1398هـ-1978م، الطّبعة الثّانية، وعدد صفحاته (458) صفحة.

ثامناً- الدّعوة والدّعاة:

1. **الالتزام الدّينيّ منهج وسط**، الصّادر عن رابطة العالم الإسلاميّ في مكّة المكرّمة عام 1984م، وعدد صفحاته (127) صفحة.
2. **الأُمّة الرّبّانيّة الواحدة**، طُبع في مطبعة مُؤسّسة الرّيّان في بيروت عام 1416هـ-1996م، الطّبعة الثّانية، وعدد صفحاته (176) صفحة.
3. **بصائر للمُسلم المُعاصر**، طُبع في مطبعة دار القلم في دمشق عام 1408هـ-1988م، الطّبعة الثّانية، وعدد صفحاته (469) صفحة.
4. **ضوابط المعرفة وأُصول الاستدلال والمُناظرة، صياغة للمنطق وأُصول البحث مُتمشّية مع الفكر الإسلاميّ**، طُبع في مطبعة دار القلم في دمشق عام 1414هـ-1993م، الطّبعة الرّابعة، وعدد صفحاته (475) صفحة.

5. **فقه الدّعوة إلى الله، وفقه النّصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، دراسة استنباطيّة تشتمل على: بيان وجوبها، وأُسسها، ومناهجها، وسُبلها، ووسائلها، وآدابها، ونماذج من تطبيقاتها**، طُبع في مطبعة دار القلم في دمشق عام 1417هـ-1996م، الطّبعة الأولى، ويتكوّن من جزأين، الأوّل (680) صفحة، والثّاني (608) صفحات.
6. **مبادئ في الأدب والدّعوة**، طُبع في مطبعة دار القلم في دمشق عام 1402هـ-1982م، الطّبعة الأولى، وعدد صفحاته (158) صفحة.
7. **الوالد الدّاعية المُربّي الشّيخ حسن حبنّكة الميدانيّ قصّة عالم مُجاهد حكيم شجاع**، طُبع في مطبعة دار البشير في جدّة عام 1423هـ-2002م، الطّبعة الأولى، وعدد صفحاته (406) صفحات.

هذه مُؤلّفات الشّيخ التي استطعت الوقوف عليها، ومُطالعتها، والقراءة في بعضها، وهي في تنوّعها وتعدّدها تؤكّد ما أشرت إليه من غزارة عِلْمه، وتنوّع اتّجاهاته. وقد حرصت على إثباتها وفق مواضيعها وسِنيّ طبعها؛ ليَسهُل على القارئ مُتابعتها. ويظهر لي من خلال ذلك أنّ إنتاجه وفير، ومنهجه في التّأليف يميل إلى إفراد المسائل والموضوعات بمؤلّفات خاصّة، ولشدّة إخلاصه لله -تعالى-، وإيمانه به، ومحبّته له، يقول: "أنا ليس لي من هذه الكتب إلّا أنّي كقلم في يد كاتبه، والله -سبحانه وتعالى- هو الوهّاب الفتّاح"[1]. **إضافة إلى أنّني وجدت للشّيخ أسماء لمُؤلّفات أخرى في آخر بعض كُتبه، وقد ذكرتها زوجته من بين آثاره المطبوعة[2]، وهي:**

1. توحيد الرّبوبيّة وتوحيد الأُلوهيّة، (128) صفحة.
2. تيسير فقه فريضة الزّكاة، تبيين وتقنين وترجيح، (42) صفحة.
3. ديوان (ترنيمات إسلاميّة)، شعر للنّشيد، (125) صفحة.
4. ديوان (آمنت بالله)، شعر (80) صفحة.

ووجدت له كُتيّباً بعنوان (العبادة في الإسلام)، استقى منه في تفسيره لسورة الأعراف، وأشار إليه في هامش الصّفحة[3].

---

(1) **يُنظر**: الشّبكة العنكبوتيّة على موقع (يوتيوب): **مُقابلة مع الشّيخ عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميدانيّ**، على الرّابط الآتي:

https://www.youtube.com

(2) **ينظر**: الجرّاح، عائدة: **عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ العالم المُفكّر المُفسّر، زوجي كما أعرفه**، ص53-55.

(3) **يُنظر**: الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م4، ص78.

الفصل الثّاني

مدخل إلى تفسير الشّيخ عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميدانيّ "معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر"

المبحث الأوّل: مصادر الشّيخ في تفسيره.

المبحث الثّاني: المنهج العامّ للشّيخ في تفسيره.

المبحث الثّالث: طريقة تفسير القرآن الكريم حسب ترتيب النّزول.

المبحث الرّابع: موقف الشّيخ من طريقة تفسير القرآن الكريم حسب ترتيب النّزول، ومُناقشته.

تمهيد:

يُعدّ تفسير (معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر) من التّفاسير التي حفلت بها المكتبة الإسلاميّة عامّة، ومكتبة العلوم القرآنيّة بخاصّة، وهو تفسير يقوم على تدبّر للقرآن الكريم حسب ترتيب النّزول، وبالتّالي يُخالف غيره من التّفاسير من جهة أنّها صُنّفت حسب ترتيب المصحف العثمانيّ نسبة إلى سيّدنا عثمان -رضي الله عنه- الذي نشره في الأمصار الإسلاميّة.

وقد جاءت مُجلّداته الخمسة عشر الصّادرة منه مُتضمّنة تفسير السّور القرآنيّة بحسب ترتيب نزولها وفق الآتي: **المجلّد الأوّل، وذكر فيه أُموراً تتعلّق بالاستعاذة والبسملة، ويشمل السّور الآتية:** العلق، المُدثّر، المُزمّل، القلم، الفاتحة، المسد، التّكوير، الأعلى، اللّيل، الفجر، الضّحى، الشّرح، العصر، العاديات، الكوثر، التّكاثر، الماعون، الكافرون.

المجلّد الثّاني، ويشمل السّور الآتية: الفيل، الفلق، النّاس، الإخلاص، النّجم، عبس، القدر، الشّمس، البروج، التّين، قريش، القارعة، القيامة، الهمزة، المرسلات.

المجلّد الثّالث، ويشمل السّور الآتية: ق، البلد، الطّارق، القمر، ص.

المجلّد الرّابع، ويشمل السّور الآتية: الأعراف (1-171).

المجلّد الخامس، ويشمل السّور الآتية: تتمّة الأعراف (172-206) وملاحقها، الجنّ وملاحقها.

المجلّد السّادس، ويشمل السّور الآتية: يس، الفرقان.

المجلّد السّابع، ويشمل السّور الآتية: فاطر، مريم.

المجلّد الثّامن، ويشمل السّور الآتية: طه، الواقعة، الشّعراء.

المجلّد التّاسع، ويشمل السّور الآتية: النّمل، القصص، الإسراء.

المجلّد العاشر، ويشمل السّور الآتية: يونُس، هود، يوسُف.

المجلّد الحادي عشر، ويشمل السّور الآتية: الحجر، الأنعام، الصّافات، لقمان.

المجلّد الثّاني عشر، ويشمل السّور الآتية: سبأ، الزّمر، غافر، فُصّلت، الشّورى، الزّخرف.

المجلّد الثّالث عشر، ويشمل السّور الآتية: الدّخان، الجاثية، الأحقاف، الذّاريات، الغاشية، الكهف، النّحل، نوح.

المجلّد الرّابع عشر، ويشمل السّور الآتية: إبراهيم، الأنبياء، المؤمنون، السّجدة، الطّور، الملك، الحاقة، المعارج.

المجلّد الخامس عشر، ويشمل السّور الآتية: النّبأ، النّازعات، الانفطار، الانشقاق، الرّوم، العنكبوت، المطفّفين، مُقدّمات سورة البقرة.

وقد انتهى الشّيخ عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميدانيّ من تفسير السّور المكّيّة التي تضمّنت ستّاً وثمانين سورة، وتُوفّي بعد بدايته في تفسير سورة البقرة التي تُعدّ أُولى السّور المدنيّة، الأمر الذي شعر به سابقاً، إذ قال مُستدركاً في آخر مُقدّمة تفسيره: "وإذا لم تُسعف القدرات، أو لم يُسعف العُمُر باستكمال هذا التّدبر لكلّ القرآن المجيد؛ فإنّ من المفيد جدّاً أن أُقدّم ما يفتح الله الوهّاب لي فيه، عسى يُتمّ العمل مُتدبّرون لاحقون، مُحتذين أو مُضيفين أو مُعدّلين"[1].

وقد طُبع هذا التّفسير في مطبعة دار القلم في دمشق، ويتألّف من خمسة عشر مجلّداً في خمس مجموعات، تزيد صفحات كلّ واحد منها على (700) صفحة؛ حيث صدرت المجموعة الأولى من المجلّد الأوّل–الثّالث عام 1420هـ–2000م، وصدرت المجموعة الثّانية من المجلّد الرّابع–السّادس عام 1421هـ–2000م، وصدرت المجموعة الثّالثة من المجلّد السّابع–التّاسع عام 1423هـ–2002م، وصدرت المجموعة الرّابعة من المجلّد العاشر–الثّاني عشر عام 1425هـ–2004م، وصدرت المجموعة الخامسة من المجلّد الثّالث عشر–الخامس عشر عام 1427هـ–2006م.

وقد حاول الشّيخ –قدر استطاعته– في هذا التّفسير الالتزام بالقواعد التي فتح الله –تعالى– بها عليه في كتابه: قواعد التّدبّر الأمثل لكتاب الله –عزّ وجلّ؛ إذ يقول: "وبعد، فقد فتح الله –عزّ وجلّ– عليّ خلال تدبّري الطّويل لكتابه المجيد، باستخراج أربعين قاعدة من قواعد التّدبّر الأمثل لكتابه، قابلة للزّيادة عليها، وهذه القواعد تُقدّم للمتدبّرين أُصول التّفسير الأقوم للقرآن الكريم. وقد دوّنت هذه القواعد مقرونة بأمثلتها في كتابي: قواعد التّدبّر الأمثل لكتاب الله –عزّ وجلّ، ولم أجد في المفسّرين مَن اهتمّ بالتزام مضمونها، ولا بالتزام كثير منها. وقد رأيت من الواجب عليّ أن أُقدّم ما أستطيع تقديمه من تدبّر لسور هذا الكتاب العزيز المُعجز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، مُلتزماً على مقدار استطاعتي بمضمون القواعد التي فتح الله بها عليّ، مع الاعتراف بأنّ التزامها التزاماً دقيقاً وشاملاً عسير جدّاً؛ بل قد يكون بالنّسبة إلى مُتدبّر واحد مُتعذّراً، وأسأل الله أن يمُدّني بعونه وتوفيقه وفتحه المبين"[2]. وبحسب كلام الشّيخ فإنّه لم يجد من المفسّرين مَن اهتمّ بالتزام مضمونها، ولا بالتزام كثير منها؛ بيد أنّه قد يكون بعض المفسّرين مَن راعى بعضها، أو وضع في تصوّره عنايتها. وسأحاول –إن شاء الله تعالى– في هذا الفصل تقديم صورة جليّة، وفكرة شاملة عن هذا التّفسير الذي كتبه الشّيخ على الشّكل المطلوب، وبما يفي الغرض من هذه الرّسالة.

(**1**) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م1، ص6.

(**2**) نفسه، م1، ص5.

المبحث الأوّل

مصادر الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ في تفسيره

لا ريب في أنّ الشّيخ كغيره من المصنّفين اعتمد في مُؤلّفاته على كثير من المصادر التي تتحدّث عن الموضوع الذي يُصنّف فيه، والمطّلع على كُتبه عامّة، وعلى تفسيره خاصّة، يُدرك غزارة عِلْمه وسعة اطّلاعه على كثير من العلوم والفنون، ويلحظ قوّة حافظته واعتداده بنفسه، وقوّة حُجّته في مُناقشاته، فلقد أتعب الشّيخ نفسه في دراسة التّراث الإسلاميّ، ورجع إلى مُعظمه في تفسيره إمّا نقلاً عنه، واعتماداً عليه، أو إحالة للقارئ عليه في مواضع عديدة، وإن كان لم يذكر جميع الكتب والمصادر التي رجع إليها، فإنّه يمتاز بفهم ما يتحدّث عنه، وله وجهة نظر ورأي مُستقلّان، فهو لا يتابع أحداً دون فهم؛ لذا وجدت الشّيخ في تفسيره ينقل من كتب مُختلفة ومُتعدّدة، من: التّفسير، والحديث، والسّير، وكُتب النّصارى، وكُتب أُصول الدّين، وأُصول الفقه، والأدب، واللّغة، وغيرها. **وقد رأيت أن أذكر أهمّ مصادره التي صرّح بها أكثر من غيرها، وأبيّن طريقة إفادته منها، ومدى تأثّره بها، وفق الآتي:**

أوّلاً– التّفسير وعلوم القرآن: إنّ المتأمّل في تفسير الشّيخ يرى أنّه يقف على مصادر مُتنوّعة في العلوم الإسلاميّة الأساسيّة، وبخاصّة التّفسير، وكان اعتماده الأكثرُ في هذا العِلْم على تفسير **ابن جرير الطّبريّ** المسمّى: جامع البيان في تأويل آي القرآن، فقد أكثر من النّقل عنه في: فضائل السّور، وأسباب النّزول، وبيان معاني الكلمات والآيات الكريمة، وأحداث السّيرة النّبويّة، وغير ذلك من الرّوايات والأخبار، الأمر الذي يدلّ على مقدار اعتماده عليه واهتمامه به، فلا يكاد مُجلّد من مُجلّدات تفسيره يخلو من ذكر له، وإيراد لبعض رواياته. وقد استشهد به حوالي 60 مرّة، فتارة يذكر كُنيته وشُهرته معاً، فيقول مثلاً: "وجاء في حديث عند ابن جرير الطّبريّ"[1]، و"روى ابن جرير الطّبريّ"[2]، وتارة أُخرى يذكر كلّ منهما على حدة، فيقول: "هذا ما ذكره الطّبريّ"[3]، أو "جاء عند الطّبريّ"[4]، أو "روى الطّبريّ"[5]، أو "رواه الطّبريّ"[6]،

---

(1) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م1، ص255.

(2) نفسه، م1، ص279. م2، ص534.

(3) نفسه، م1، ص22.

(4) نفسه، م1، ص97، 98.

(5) نفسه، م1، ص113. م2، ص210. م3، ص675. م4، ص185. م5، ص234. م10، ص541. م11، ص381. م14، ص337.

(6) نفسه، م1، ص188. م2، ص148.

أو"ذكر الطّبريّ"[1]، أو "في رواية الطّبريّ"[2]، أو "أخرج ابن جرير"[3]، أو "روى ابن جرير"[4]، أو "رواه ابن جرير"[5].

ويظهر مدى إعجاب الشّيخ بالطّبريّ في تبنّيه لآرائه، وترجيحه لبعضها، فقد تبنّى ردّ الطّبريّ خلال مُناقشته للفظة (اسم) في البسملة؛ حيث يقول: "هذا ما ذكره الطّبريّ، والحقّ ما ذكر، فالذي أراه أنّ كلمة (اسم) في جملة (بسم الله الرّحمن الرّحيم) هي ذات معنى مُراد، وذلك لأنّ الذّاكر إنّما يبدأ ذكره باسم الله، لا بذات الله –جلّ جلاله–، فالاسم هو الذي يُلفظ ويُتلى"[6]. ويلحظ عليه استعانته بأحاديث نبويّة عن رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم–، في تبيين فضل السّور القرآنيّة، شارحاً بعضها، ففي سورة الفاتحة –مثلاً– يقول: "روى ابن جرير الطّبريّ في تفسيره عن أبي هريرة –رضي الله عنه– عن النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم–، قال: هي أُمّ القرآن، وهي فاتحة الكتاب، وهي السّبع المثاني"[7]. ثمّ بدأ يشرح الحديث، بقوله: "سُمّيت بالفاتحة؛ لأنّ القراءة تُفتتح بها، ولهذا افتتح الصّحابة بها كتابة المصحف الإمام. وسُمّيت بأُمّ القرآن؛ لاشتمالها على أهمّ موضوعات القرآن. وسُمّيت بالسّبع المثاني؛ لأنّها سبع آيات تُكرّر في الصّلاة، فتُقرأ في كلّ ركعة، وكلّ ما يُكرّر على نظام واحد يُطلق عليه في العربيّة لفظ مثاني، ولأنّ بين جملها مطويّات من المعاني تُفهم باللّزوم الذّهنيّ، وجاء بيانها التّفصيليّ في سائر سور القرآن"[8]. وبهذا يظهر مدى تأثّره بالطّبريّ؛ لتشابه كلامه بكلام الطّبريّ إلى حدّ قريب[9].

---

(1) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م2، ص33. م11، ص322.

(2) نفسه، م2، ص209، 210.

(3) نفسه، م1، ص63. م4، ص184. م5، ص233. م7، ص380. م10، ص230.

(4) نفسه، م1، ص556. م2، ص74. م3، ص333. م4، ص513. م5، ص233. م6، ص371. م9، 431. م10، ص94. م13، ص654. م14، ص577.

(5) نفسه، م5، ص298. م10، ص230.

(6) نفسه، م1، ص23. **يُنظر**: الطّبريّ، محمّد: **جامع البيان في تأويل القرآن**، ج1، ص119–121.

(7) عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م1، ص279. **يُنظر**: الطّبريّ، محمّد: **جامع البيان في تأويل القرآن**، م1، ص107. **قلت**: روى نحوه البخاريّ في صحيحه عن أبي هريرة –رضي الله عنه–، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم}، ج6، ص81، رقم الحديث: 4704.

(8) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م1، ص279–280.

(9) **يُنظر**: الطّبري، محمّد: **جامع البيان في تأويل القرآن**، م1، ص107–109.

وفي أسباب النّزول، ينقل الشّيخ عنه روايات أغلبها عن ابن عبّاس –رضي الله عنه–، ففي قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾[1]، يقول: "أخرج ابن جرير عن ابن عبّاس: كان النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم– يُصلّي، فجاء أبو جهل فقال: ألم أنهك عن هذا؟ إنّك لتعلم أنّ ما بها رجل أكثر نادياً منّي، فأنزل الله: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾، فجاء النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم– يُصلّي، فقيل: –أي لأبي جهل– ما يمنعك؟ فقال: اسودّ ما بيني وبينه. قال ابن عبّاس: والله لو تحرّك لأخذته الملائكة والنّاس ينظرون إليه"[2]. وينقل عنه معنى بعض الكلمات كالرِّجز مثلاً، فيقول: "أخرج ابن جرير عن ابن عبّاس قال: كلّ شيء في كتاب الله من الرِّجز يعني العذاب"[3]، أو بعض الآيات الكريمة، مثل قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[4]؛ حيث يقول: "روى ابن جرير عن أبي موسى الأشعريّ عن رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– أنّه قال: {إنّ الله يبعث يوم القيامة مُنادياً يُنادي: يا أهل الجنّة –بصوت يُسمع أوّلهم آخرهم– إنّ الله وعدكم الحسنى وزيادة، فالحسنى الجنّة، والزّيادة النّظر إلى وجه الرّحمن –عزّ وجلّ–}"[5].

(**1**) سورة العلق: الآية (17–18).

(**2**) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م1، ص63. **يُنظر:** الطّبريّ، محمّد: **جامع البيان في تأويل القرآن**، ج24، ص526. **يُنظر أيضاً:** الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م1، ص701–702. م2، ص210. م9، ص431.

(**3**) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م1، ص89. م4، ص513. **يُنظر:** الطّبريّ، محمّد: **جامع البيان في تأويل القرآن**، ج2، ص118.

(**4**) سورة يونُس: الآية (26).

(**5**) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م10، 94. **يُنظر:** الطّبريّ، محمّد: **جامع البيان في تأويل القرآن**، ج12، ص158. ج15، ص65. **قلت:** روى نحوه مُسلم في صحيحه من حديث صهيب –رضي الله عنه–. **يُنظر:** مُسلم، مُسلم: **المُسند الصّحيح المُختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم–**، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربّهم –سبحانه وتعالى–، ج1، ص163، رقم الحديث: 297، 298. ورواه اللّالكائيّ في شرح أُصول اعتقاد أهل السّنّة والجماعة. بزيادة عبارة: "وهو الزّيادة"، وقد نسبه إلى مُسلم؛ بيد أنّني لم أقف عليها في صحيح مُسلم، ولا بشرح النّووي، ولعلّه فهم ذلك من إيراد مُسلم للآية على إثر هذا الحديث الشّريف. **يُنظر:** اللّالكائيّ، هبة الله: **شرح أُصول اعتقاد أهل السّنّة والجماعة**، ج3، ص504. ورواه الشّيبانيّ في كتاب السّنّة من رواية صهيب–رضي الله عنه–، وفيه "فما شيء أعطوه أحبّ إليهم من النّظر إليه، وهي الزّيادة". **يُنظر:** الشّيبانيّ، عمرو: **كتاب السّنّة**، ج1، ص205–206. وقال الألبانيّ عنه: إسناده صحيح على شرط مُسلم. **يُنظر:** الألبانيّ، محمّد: **ظلال الجنّة في تخريج السّنّة**، ج1، ص206. وقد تكلّم ابن القيّم في تفسير الآية الكريمة ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ في حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، في الباب الخامس والسّتّين: في رؤيتهم ربّهم –تبارك وتعالى– بأبصارهم جهرة كما يرى القمر ليلة البدر، وتجلّيه لهم ضاحكاً إليهم. **يُنظر:** ابن قيّم الجوزيّة، محمّد: **حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح**، ص285، وما بعدها. **وبعد:** فإنّ معنى الزّيادة في الآية الكريمة، هي: النّظر إلى وجه الله –عزّ وجلّ–. ونصّ النّسفيّ في تفسيره أنّ المفسّرين أجمعوا على ذلك. **يُنظر:** النّسفيّ، عبد الله: **مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل**، ج2، ص18.

وينقل عنه أحداثاً من السّيرة النّبويّة، كعروض المداهنة التي قدّمتها قريش للرّسول –صلّى الله عليه وسلّم– بعدما يئست من استجابته لهم[1]. وفي تعيين الشّخص أو الأشخاص الذين كان الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم– يُناجيهم من عظماء قريش، حرصاً على إسلامهم، في سورة (عبس)[2]. وفي سؤال قريش الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم– آية مثل آية موسى، أو صالح، أو عيسى –عليهم السّلام–[3]. وغير ذلك.

ويأتي تفسير **ابن كثير** –تفسير القرآن العظيم– في المرتبة الثّانية بعد تفسير الطّبريّ، وقد استشهد به حوالي 30 مرّة، فعند بيان حكم وجوب تلاوة الفاتحة في الصّلاة، يقول: "قال ابن كثير في تفسيره: وفي صحيح ابن خزيمة عن أبي هريرة مرفوعاً: لا تُجزئ صلاة مَن لم يقرأ بأمّ القرآن"[4]. وينقل عنه الحكم على بعض الرّوايات المختلفة، مثل روايات نهر الكوثر أو الحوض، فيقول: "وذكر ابن كثير في تفسيره، أنّ الرّوايات التي تضمّنت أنّ الكوثر نهر في الجنّة أعطاه الله رسوله محمّداً –صلّى الله عليه وسلّم–، قد جاءت من طُرق كثيرة مُتواترة تُفيد القطع عند كثير من المحدّثين، وكذلك أحاديث الحوض. وقال: وقد ورد في صفة الحوض يوم القيامة، أنّه يَشخُب فيه ميزابان من السّماء من نهر الكوثر، وأنّ آنيته عدد نجوم السّماء"[5].

ويرجّح بعض الرّوايات ويعتمدها، كرواية أصحاب الأعراف؛ حيث يقول: "وقد نظرت في أقوال المفسّرين حول الأعراف في موقف الحشر، وحول أصحاب الأعراف، ورأيت فيها اختلافاً كثيراً، وعُدت إلى تدبّر النّصّ بأناة، وإلى ما جاء في المأثور عن الرّسول–صلّى الله عليه وسلّم–، وهي روايات لم ترقَ الأسانيد فيها إلى مستوى الصّحيح، ورأيت أنّ أجودها مرسل حسن كما قال ابن كثير، واستعنت بالله العليم الوهّاب، فترجّح لديّ أنّ الأعراف شُرُفات مرتفعات فوق الحجاب، وأنّ أصحاب الأعراف هم

---

(1) **يُنظر**: الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م1، ص224. م6، ص371–372.

(2) **يُنظر**: نفسه، م2، ص209، 210.

(3) **يُنظر**: نفسه، م10، ص381.

(4) نفسه، م1، ص317. **يُنظر**: ابن كثير، إسماعيل: **تفسير القرآن العظيم**، ج8، ص269. **قلت**: وجدت الحديث في صحيح ابن خزيمة عن أبي هريرة –رضي الله عنه– بقوله: بفاتحة الكتاب، بدل أُمّ الكتاب. وقال عنه الأعظميّ –المحقّق–: إسناده صحيح. **يُنظر**: ابن خُزَيمة، محمّد: **صحيح ابن خُزَيمة**، كتاب الصّلاة، باب ذكر الدّليل على أنّ الخِداج الذي أعلم النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم– في هذا الخبر هو النّقص الذي لا تُجزئ الصّلاة معه، ج1، ص248، حديث رقم: 490. وروى نحوه مُسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة –رضي الله عنه– بقوله: مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ، فَهِيَ خِدَاجٌ. يقولها ثلاثاً. **يُنظر**: مُسلم، مُسلم: **المُسند الصّحيح المُختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم–**، كتاب الصّلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كلّ ركعة، ج1، ص297. رقم الحديث: 41.

(5) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م1، ص650–651. **يُنظر**: ابن كثير، إسماعيل: **تفسير القرآن العظيم**، ج8، ص472، 475.

الذين كانت حسناتهم كافية لوقايتهم بفضل الله من عذاب النّار، لكن ليس فيها ما يؤهّلهم لدخول الجنّة بحسب ميزان العدل، فوُضعوا على الأعراف بَيْن بَيْن. وقد جاء في عدّة مسانيد، قال ابن كثير بشأنها: من المرسل الحسن، عن النّبيّ–صلّى الله عليه وسلّم–، أنّه سُئل عن أصحاب الأعراف فقال: هم آخر من يُفصل بينهم من العباد، فإذا فرغ ربّ العالمين من الفصل بين العباد قال: أنتم قوم أخرَجَتْكم حسناتُكم من النّار، ولم تدخلوا الجنّة، فأنتم عُتقائي، فارعَوا من الجنّة حيث شئتم"[1]. كما أنّه يُورد الرّوايات ويحكم على بعضها، كروايات رؤية الرّسول–صلّى الله عليه وسلّم– لجبريل –عليه السّلام– في النّزلة الأولى؛ حيث يقول: "أورد ابن كثير في تفسيره عدّة روايات بشأن رؤية الرّسول جبريل، على الصّفة الحقيقيّة التي خلقه عليها، وأكثرها روايات لا ترقى إلى مستوى الأحاديث الصّحاح بأفرادها؛ لكن يُقوّي بعضها بعضاً، وتشرح جانباً ممّا جاءت الإشارة القرآنيّة إليه، في سورتي: التّكوير والنّجم"[2].

وينقل عنه فضائل بعض السّور، مثل سورة (يس)؛ حيث يقول: قال ابن كثير في تفسيره: "ولهذا قال بعض العلماء: من خصائص هذه السّورة أنّها لا تُقرأ عند أمر عسير إلّا يسّره الله"[3]. وينقل عنه أسباب نزول بعض الآيات، منها قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[4]؛ حيث يقول: "أورد ابن كثير وغيره روايات حول أسباب نزول هاتين الآيتين، جاء فيها: أنّ أُبيّ بن خلف، أو العاص بن وائل، وربّما كلاهما، قد صدر عنهما هذا القول الذي جاء في النّصّ"[5]، ثمّ أورد رواية في شأن كلّ منهما[6]. وينقل عنه غير ذلك.

ويأتي تفسير **الزّمخشريّ** –الكشّاف عن حقائق التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل– في المرتبة الثّالثة بعد الطّبريّ وابن كثير؛ حيث استفاد منه في بعض المسائل اللّغويّة والبلاغيّة، ومعاني بعض الآيات، وتوجيه بعض القراءات، وقد استشهد به حوالي 8 مرّات. ففي الآية الكريمة: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾[7]، يتساءل الشّيخ، فيقول: ما الحكمة البيانيّة من جمع مُؤكّدين في هذه العبارة: كلّهم أجمعون؟ ويُجيب بقوله: "لقد تنبّه الزّمخشريّ في كشّافه للجواب، فقال: أفادا معاً أنّهم سجدوا عن آخرهم، ما بقي

---

(1) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م4، ص246. **يُنظر**: ابن كثير، إسماعيل: **تفسير القرآن العظيم**، ج3، ص378.

(2) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م2، ص113.

(3) نفسه، م6، ص16. **يُنظر**: ابن كثير، إسماعيل: **تفسير القرآن العظيم**، ج6، ص499.

(4) سورة يس: الآية (78–79).

(5) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م6، ص219.

(6) **يُنظر**: نفسه، م6، ص219–220. **يُنظر**: ابن كثير، إسماعيل: **تفسير القرآن العظيم**، ج6، ص529.

(7) سورة ص: الآية (73).

منهم ملك إلّا سجد، وأنّهم سجدوا جميعاً في وقت واحد غير مُتفرّقين في أوقات"[1]. وفي قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾[2]، يُورد الشّيخ رأي الزّمخشريّ، ويُعلّق عليه، فيقول: "قال الزّمخشريّ في الكشّاف: إنّه لا محلّ للضّمير الثّاني (أي: الكاف) من الإعراب، فرجّح رأي البَصْريّين. وأرى أنّ المعنى: أرأيتُم أنفُسَكُم، ولمّا قُدّمت كاف الخطاب على ميم الجمع، فتح العربيّ التّاء لئلّا تلتبس بتاء المتكلّم، فهي تاء المخاطبين مع لفظ (كُم)، فميم الجمع كافية للدّلالة على أنّ المخاطبين جماعة"[3]. وينقل عنه معنى بعض الآيات، مُزيلاً به ما قد يُصاحب الفهم من إشكالات، ويصفه بالصّحة والسّداد، مثل قوله تعالى: ﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾[4]، فيقول: "وهذا ما دعا الزّمخشريّ إلى أن يقول في قوله تعالى: لم يَخِرُّوا عَلَيْها صُمّاً وعُمياناً، ليس بنفي للخُرور، وإنّما هو إثبات له، ونفي للصَّمم والعَمى، كما يُقال: لا يلقاني زيدٌ مُسلِّماً، هو نفي للسّلام لا للّقاء، والمعنى: أنّهم إذا ذُكّروا بها أَكَبّوا عليها حرصاً على استماعها، وأقبلوا على المُذكِّر بها، وهم في إكبابهم عليه سامعون بآذان واعية، مُبصرون بعيون راعية، لا كالذين يُذكِّرون بها فتراهم مُكِبّين عليها، مُقبلين على مَنْ يُذكِّر بها، مُظهرين الحرص الشّديد على استماعها، وهم كالصّمّ والعُميان؛ حيث لا يفهمونها، ولا يُبصرون ما فيها، كالمنافقين. وهذا الذي نبّه عليه الزّمخشريّ، ونقله عنه الرّازيّ صحيح وسديد"[5].

وينقل عنه أحد أوجه القراءات، وينتصر له في قوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾[6]، فيقول: "وفي القراءة الأُخرى: وحورٍ عين، بالجرّ. وقراءة الرّفع هي على تقدير: ولهم حورٌ عينٌ في جنّات النّعيم. وقراءة الجرّ، هي على أنّ كلمة (حورٍ) معطوفة على: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾[7]، على تقدير: ويطوف عليهم ولدان مُخلّدون مصحوبين بخادمات، حورٍ عين، هنّ غير الحور العين الزّوجات الخاصّات للأسِرّة والمعاشرة، أو معطوفة على: ﴿جَنَّتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[8]، والمعنى يكون السّابقون يوم الدّين سعداء في جنّات النّعيم، وفي خدمة ولدان مُخلّدين، وفي حورٍ عينٍ كأمثال اللّؤلؤ المكنون. وهذا أحد توجيهات الزّمخشريّ، وهو توجيه أراه حسناً

---

(1) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م3، ص628. **يُنظر**: الزّمخشريّ، محمود: **الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل**، ج4، ص105.

(2) سورة الأنعام: الآية (40).

(3) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م11، ص228. **يُنظر**: الزّمخشريّ، محمود: **الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل**، ج3، ص502.

(4) سورة الفرقان: الآية (73).

(5) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م6، ص659. **يُنظر**: الزّمخشريّ، محمود: **الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل**، ج3، ص295.

(6) سورة الواقعة: الآية (22).

(7) نفسه: الآية (21).

(8) نفسه: الآية (12).

ومقبولاً، ولو طال الفصل، إذ للقرآن أسلوبه الخاصّ في الرّبط وفي العطف. وتشنيع صاحب البحر على الزّمخشريّ في هذا التّوجيه واعتباره فهماً أعجميّاً، سببه التّسرّع وعدم الأناة في تدبّر النّصوص القرآنيّة،..."[1].

ومن المفسّرين الذين نقل عنهم أيضاً: **القرطبيّ** في تفسيره -الجامع لأحكام القرآن-، وقد استشهد به حوالي 5 مرّات[2]. **والفخر الرّازيّ** في تفسيره -مفاتيح الغيب-، وقد استشهد به حوالي 5 مرّات[3]. **وابن عاشور** في تفسيره -تفسير التّحرير والتّنوير-، وقد استشهد به حوالي 7 مرّات[4]. **وأبو حيّان الأندلسيّ** في تفسيره -البحر المحيط-، وقد استشهد به حوالي 5 مرّات[5]. **والشّوكانيّ** في تفسيره -فيض القدير الجامع بين فنّيّ الرّواية والدّراية في التّفسير-، وقد استشهد به حوالي 7 مرّات[6]. **وابن عطيّة الغرناطيّ** في تفسيره -المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز-، وقد استشهد به مرّة واحدة[7]. وكُتب من تأليف الشّيخ -رحمه الله تعالى-، مثل: قواعد التّدبّر الأمثل لكتاب الله -عزّ وجلّ-[8]، ونوح -عليه السّلام- وقومه في القرآن المجيد[9]، وتدبّر سورة الفرقان في وحدة موضوع، والأمثال القرآنيّة[10].

هذا، وقد اعتمد الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ في مجال علوم القرآن على **ابن العربيّ**[11] في كتابه -أحكام القرآن-؛ إذ وجدته يرجع إليه في سورة الشّعراء في الملحق الثّاني حول: الشّعر والشّعراء في القرآن

(**1**) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م8، ص451-452. **يُنظر**: الزّمخشريّ، محمود: **الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل**، ج4، ص460.

(**2**) **يُنظر**: الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م1، ص113. م2، ص472. م8، ص556، 772.

(**3**) **يُنظر**: نفسه، م2، ص76-77. م4، ص599. م6، ص659.

(**4**) **يُنظر**: نفسه، م1، ص102. م4، ص570. م8، ص718. م9، ص521. م11، ص728-733.

(**5**) **يُنظر**: نفسه، م3، ص530. م6، ص444. م8، ص452. م11، ص678.

(**6**) **يُنظر**: نفسه، م1، ص627. م2، ص134. م5، ص56. م8، ص61. م13، ص418.

(**7**) **يُنظر**: نفسه، م2، ص95.

(**8**) **يُنظر**: نفسه، م1، ص134. م6، ص331. م10، ص116. م14، ص665. م15، ص103.

(**9**) **يُنظر**: نفسه، م3، ص364. م13، ص249. م15، ص235.

(**10**) **يُنظر**: نفسه، م3، ص167.

(**11**) **هو**: محمّد بن عبد الله بن محمّد المعافريّ الإشبيليّ المالكيّ، أبو بكر ابن العربيّ، قاض، من حُفّاظ الحديث. برع في الأدب، وبلغ رتبة الاجتهاد في علوم الدّين. وصنّف كُتباً في الحديث، والفقه، والأُصول، والتّفسير، والأدب، والتّاريخ. من كُتبه: العواصم من القواصم، وعارضة الأحوذيّ في شرح التّرمذيّ، وأحكام

والسّنّة، وقد استشهد به مرّة واحدة[1]. كما أنّ القراءات أخذت قدراً كبيراً من تفسيره، إيراداً وتحريراً وتوجيهاً، ما يدلّ على تضلّعه وتمكّنه من هذا العِلْم، فهو يُوردها وأصحابها دون الإشارة إلى المصدر أو المرجع الذي اعتمد عليه؛ إذ يقتصر على القراءات العشر فقط -كما سيظهر لاحقاً-؛ عِلماً بأنّه ذكر مصادره في هذا العِلْم في كتابه -قواعد التّدبّر الأمثل لكتاب الله عزّ وجلّ-، وهي[2]: كتاب (البدور الزّاهرة في القراءات العشر المتواترة)، لعبد الفتّاح القاضي[3]، وكتاب (المُهذّب في القراءات العشر وتوجيهها من طريق طيّبة النّشر)، لمحمّد سالم محيسن[4]. كما أنّه استعان بكتب التّفسير المتنوّعة في توجيه بعض القراءات[5].

وبعد، فإنّ الشّيخ -رحمه الله تعالى- يُورد كثيراً من الأقوال دون أن ينسبها إلى أحد، إذ يكتفي بالإشارة إلى ذلك بقوله: "قال المفسّرون"[6]، "وقال أهل التّفسير"[7]، "وذكر المفسّرون"[8]، "وجاء عند

القرآن، وغير ذلك. تُوفّي سنة 543هـ. **يُنظر**: الزّركليّ، خير الدّين: **الأعلام**، ج6، ص230. **يُنظر**: ابن فرحون، إبراهيم: **الدّيباج المُذهّب في معرفة أعيان علماء المذهب**، ج2، ص252-256. **يُنظر**: السّيوطيّ، عبد الرّحمن: **طبقات المُفسّرين العشرين**، ص105.

(**1**) **يُنظر**: الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م8، ص770-771. **يُنظر**: ابن العربيّ، محمّد: **أحكام القرآن**، ج3، ص462-463.

(**2**) **يُنظر**: الميدانيّ، عبد الرّحمن: **قواعد التّدبّر الأمثل لكتاب الله -عزّ وجلّ-**، ص764.

(**3**) **هو**: العلّامة المُحقّق الشّيخ عبد الفتّاح بن عبد الغنيّ بن محمّد القاضي. عالم مصريّ مبرز في القراءات وعلومها وفي العلوم الشّرعيّة والعربيّة، ومن أفاضل علماء الأزهر. من مُؤلّفاته: الوافي شرح الشّاطبيّة في القراءات السّبع، والإيضاح لمتن الدّرّة في القراءات الثّلاثة المُتمّمة للقراءات العشر، والبدور الزّاهرة في القراءات العشر المتواترة من طريقَي الشّاطبيّة والدّرّة. تُوفّي سنة 1403هـ. **يُنظر**: السّاعاتيّ، إلياس: **إمتاعُ الفُضَلاء بتَراجِم القرّاء فِيما بَعدَ القَرن الثّامن الهجريّ**، ج1، ص194-201.

(**4**) **هو**: الشّيخ محمّد سالم محيسن. رائد علم القراءات في العصر الحديث، وأُستاذ القراءات وعلوم القرآن بالجامعة الإسلاميّة بالمدينة المنوّرة وجامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة، وعضو لجنة تصحيح المصحف الشّريف بالأزهر. من مُؤلّفاته: المُستنير في تخريج القراءات من حيث اللّغة والإعراب والتّفسير، والمُهذّب في القراءات العشر وتوجيهها من طريق طيّبة النّشر، والإرشادات الجليّة في القراءات السّبع من طريق الشّاطبيّة. تُوفّي سنة 1422هـ. **يُنظر**: السّاعاتيّ، إلياس: **إمتاعُ الفُضَلاء بتراجم القرّاء فيما بعد القرن الثّامن الهجريّ**، ج2، ص339-347. **يُنظر**: الموقع الرّسميّ للمكتبة الشّاملة، **ترجمة محمّد سالم محيسن**، على الرّابط الآتي: http://shamela.ws .

(**5**) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م8، ص452.

(**6**) نفسه، م2، ص230. م6، ص160. م9، ص91.

(**7**) نفسه، م3، ص202. م9، ص649. م10، ص649.

(**8**) نفسه، م1، ص93. م5، ص29. م6، ص95. م7، ص423. م13، ص16.

المفسّرين"[1]، "واختلفت أقوال المفسّرين"[2]، "وقال أهل التّأويل"[3]، إلى غير ذلك من العبارات التي يُكرّرها كثيراً في تفسيره دون الإشارة إلى الكتب والإفصاح عن أصحابها، ممّا يجعل نقوله عامّة، إبرازاً لشخصيّته العِلْميّة –حسب رأيي–، وإيماناً منه بأنّ تفسيره للقرآن الكريم ابتداء يستند على كتاب الله –تعالى– ذاته؛ وأنّه مصدر للتّفسير؛ باعتبار أنّ ما أُجمل في موضع قد فُصِّل في موضع آخر، وما أُبهم في آية قد عُيِّن في آية أُخرى.

ثانياً– السّنّة النّبويّة وعلومها: إنّ الدَّارس لتفسير الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ، والمُطّلع على بقيّة آثاره، يعثر –دون عناء– على مصادره من الحديث النّبويّ التي اعتمد عليها. والملاحظ أنّ مجموعة من الكتب وأصحابها كانت تتصدّر القائمة، وأُخرى يُشير إليها خلال تفسيره للقرآن الكريم. أمّا أكثرُ هذه المصادر التي كان كثيراً ما يعود إليها، ويستقي منها –فيما بدا لي–، فهي: صحيح مُسلم، وقد استشهد به حوالي 243 مرّة. وصحيح البخاريّ، وقد استشهد به حوالي 220 مرّة. والمُسند، لابن حنبل، وقد استشهد به حوالي 110 مرّات. وكتاب السّنن، للتّرمذيّ، وقد استشهد به حوالي 81 مرّة. وكتاب السّنن، للنّسائيّ، وقد استشهد به حوالي 55 مرّة. وكتاب المُستدرك على الصّحيحين، للحاكم[4]، وقد استشهد به حوالي 43 مرّة. وكتاب شعب الإيمان، للبيهقيّ[5]، وقد استشهد به حوالي 40 مرّة. وكتاب السّنن، لأبي داوود، وقد استشهد به حوالي 38 مرّة. وكتاب السّنن، لابن ماجه، وقد استشهد به حوالي 28 مرّة.

(**1**) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م1، ص403. م8، ص440. م9، ص378. م10، ص632. م12، ص728. م13، ص649. م15، ص126.

(**2**) نفسه، م1، ص292. م3، ص178. م6، ص329.

(**3**) نفسه، م1، ص409. م3، ص514. م5، ص577.

(**4**) **هو**: محمّد بن عبد الله بن حمدويه بن نعيم الضّبّيّ، الطّهمانيّ النّيسابوريّ، الشّهير بالحاكم، ويُعرف بابن البيع، أبو عبد الله. من أكابر حُفّاظ الحديث والمُصنّفين فيه. وهو من أعلم النّاس بصحيح الحديث وتمييزه عن سقيمه. صنّف كتباً كثيرة جدّاً ما يبلغ ألفاً وخمسمائة جزء. منها: تاريخ نيسابور، والمُستدرك على الصّحيحين، ومعرفة أُصول الحديث وعلومه وكتبه، المطبوع باسم (معرفة علوم الحديث). تُوفّي سنة 405 هـ. **يُنظر**: الزّركليّ، خير الدّين: **الأعلام**، ج6، ص227. **يُنظر**: ابن خلكان، أحمد: **وفيّات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان**، ج4، ص280–281.

(**5**) **هو**: أحمد بن الحسين بن عليّ بن عبد الله بن موسى البيهقيّ، أبو بكر، الفقيه الشّافعيّ الحافظ الكبير المشهور، من أئمّة الحديث. صنّف زهاء ألف جزء، منها: السّنن الكبرى، والسّنن الصّغرى، ودلائل النّبوّة، والجامع المصنّف في شعب الإيمان. تُوفّي سنة 458هـ. **يُنظر**: الزّركليّ، خير الدّين: **الأعلام**، ج1، ص116–117. **يُنظر**: ابن خلكان، أحمد: **وفيّات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان**، ج1، ص75–76. **يُنظر**: الذّهبيّ، محمّد: **سير أعلام النّبلاء**، ج18، ص163–170.

وكتاب الأوسط، للطّبرانيّ[1]، وقد استشهد به حوالي 24 مرّة. وكتابه: روائع من أقوال الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم–؛ حيث أشار إليه عند تفسيره للآية الثّامنة من سورة العاديات[2]. وغير ذلك كثير.

هذه أهمّ كُتب الحديث الشّريف التي اعتمد عليها، في: أحكام الاستعاذة والبسملة، وتفسير الآيات القرآنيّة، والسّيرة النّبويّة. ولا غرابة في أن تحتلّ هذه الكتب الأولويّة في مصادره، وهي –في مُجملها– أصحّ الكتب المتضمّنة لأحاديث الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم–؛ ذلك أنّه التزم بضرورة الأخذ بما صحّ من الأحاديث في الغالب. وله مصادرُ أُخرى مُتنوّعةٌ، رأيتُ أن لا أذكرها؛ إذ لو جمعتُ كلّ ما ذكر من مُؤلّفات ومُصنّفات، لاستغرق منّي ذلك حيّزاً كبيراً. كما أنّ الشّيخ قد حافظ على سُنّة المفسّرين في اعتماد الحديث النّبويّ لتفسير القرآن الكريم، مُعتمداً على أهمّ الكتب في ذلك؛ بَيْدَ أنّه تجاوز سُنّة القدامى من المفسّرين في ذكر أسانيد الأحاديث، ولم يُثقل قارئ تفسيره بأسماء الرّواة.

ثالثاً– السّيرة النّبويّة: لقد ذكر الشّيخ –رحمه الله– في تفسيره هذا نصوصاً كثيرة من كُتب السّيرة ممّا يتعلّق بموضوعه، ليوضّح القضايا التي عرض لها بالشّواهد الصّحيحة والأدلّة النّقليّة الثّابتة، وممّا استفاد منه من كُتب السّيرة: كتاب السّيرة النّبويّة لابن هشام[3]، ولم أجد –في حدود اطّلاعي– غيره؛ ولعلّ السّبب يعود إلى كثرة رواياته للسّيرة من كُتب الحديث أو التّفسير. كما أنّني وجدت الشّيخ ينقل مباشرة عن ابن إسحاق[4]، فيقول: "روى ابن إسحاق"[5]، و"قال ابن إسحاق"[6]، أو عن طريق الرّاوي ابن هشام،

(**1**) **هو**: أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيّوب بن مطير اللّخميّ الطّبرانيّ؛ كان حافظ عصره، وعدد شيوخه ألف شيخ، وله المصنّفات الممتعة النّافعة الغريبة، منها المعاجم الثّلاثة: الكبير، والأوسط، والصّغير، وهي أشهر كُتبه، تُوفّي سنة 360هـ. **يُنظر**: ابن خلكان، أحمد: **وفيّات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان**، ج2، ص407. **يُنظر**: السّيوطيّ، عبد الرّحمن: **طبقات الحُفّاظ**، ص372–374. **يُنظر**: الذّهبيّ، محمّد: **تذكرة الحُفّاظ**، ج3، ص85–88.

(**2**) **يُنظر**: الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م1، ص637.

(**3**) **هو**: عبد الملك بن هشام البصريّ النّحويّ الأخباريّ، أبو محمّد، مُهذّب (السّيرة النّبويّة) لابن إسحاق. كان عالما بالأنساب، واللّغة، وأخبار العرب. له كتاب في المغازي، وآخر اسمه: التّيجان لمعرفة ملوك الزّمان. تُوفّي سنة 218هـ. **يُنظر**: ابن العِماد، عبد الحيّ: **شذرات الذّهب في أخبار من ذهب**، ج1، ص20–21. **يُنظر**: ابن خلكان، أحمد: **وفيّات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان**، ج3، ص177.

(**4**) **هو**: أبو بكر، وقيل أبو عبد الله، محمّد بن إسحاق بن يسار بن خيار، وقيل يسار بن كوتان، المطلبيّ بالولاء المدنيّ، صاحب المغازي والسّير، من أقدم مُؤرّخي العرب. له (السّيرة النّبويّة) هذّبها ابن هشام. تُوفّي سنة 151هـ. **يُنظر**: ابن خلكان، أحمد: **وفيّات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان**، ج4، ص276–277. **يُنظر**: الزّركليّ، خير الدّين: **الأعلام**، ج6، ص28. **يُنظر**: الذّهبيّ، محمّد: **تذكرة الحُفّاظ**، ج1، ص130.

(**5**) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م1، ص222. م5، ص277–278. م6، ص371. م11، ص97.

(**6**) نفسه، م2، ص124–125، 126. م8، ص21. م11، ص708.

فيقول: "وجاء في سيرة ابن هشام"[1]، و"قال ابن هشام"[2]، و"ذكر ابن هشام"[3]، إلى غير ذلك من العبارات التي يُكرّرها كثيراً في تفسيره. إضافة إلى أنّه يذكر روايات وأخباراً في السّيرة بشكل عامّ دون ذكر الكتاب أو مُؤلّفه، فيقول على سبيل المثال: "وروايات السّيرة تشهد بذلك"[4]، و"جاء عند أصحاب السّير والأخبار"[5]، و"ذكر بعض كتّاب سيرة حياة الرّسول"[6]، و"تحدّثنا كتب السّيرة"[7]، و"جاء في أخبار السّيرة"[8]. ولا يكتفي بذلك؛ بل يُناقش بعض الأقوال أحياناً، ويردّها، مُبيّناً رأيه منها، فمثلاً: يُناقش ابن إسحاق في روايته لقصّة أصحاب الأخدود؛ حيث يقول: "هذا التّعيين الذي ذكره ابن إسحاق لا دليل عليه. والقصّة التي رواها عن محمّد بن كعب القرظيّ، وعن بعض أهل نجران، تختلف عن القصّة الواردة في الصّحيح عن رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– في تفصيلاتها، وما صحّ عن الرّسول أولى بالاعتماد، وإن لم يكن في شيء منهما دليل على أنّها هي المرادة فيما جاء في القصّة القرآنيّة"[9]. إضافة إلى أنّه يذكر كتاب: سيرة ابن هشام في هامش الصّفحة ويُحيل إليه إلى الجزء و رقم الصّفحة، فيقول مثلاً: "انظر سيرة ابن هشام، ج1، ص639"[10].

رابعاً– العقيدة الإسلاميّة: اعتمد الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ على كُتب من تأليفه في هذا الموضوع، مثل: العقيدة الإسلاميّة وأُسسها[11]، وابتلاء الإرادة بالإيمان والإسلام والعبادة[12]، وبراهين

---

(1) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م1، ص96. م2، ص123. م6، ص185. م8، ص21. م13، ص657.

(2) نفسه، م2، ص125.

(3) نفسه، م2، ص208.

(4) نفسه، م1، ص218.

(5) نفسه، م2، ص9.

(6) نفسه، م2، ص528.

(7) نفسه، م6، ص184.

(8) نفسه، م11، ص385.

(9) نفسه، م2، ص367. **يُنظر**: ابن هشام، عبد الملك: **السّيرة النّبويّة**، ج1، ص34–36.

(10) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، ج9، ص315.

(11) نفسه، م4، ص622.

(12) نفسه، م1، ص298، 457. م13، ص262.

وأدلّة إيمانيّة[1]، ولا يصحّ أن يُقال: الإنسان خليفة عن الله في أرضه فهي مقولة باطلة[2]، واعتمد –أيضا– على كتاب الأسماء والصّفات، للبيهقيّ[3].

خامساً– أُصول الفقه: من المعروف أنّ الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ لم يُفسّر إلّا القسم المكّيّ من سور القرآن الكريم –وذلك لدنُوّ أجله–، وهذا القسم يكاد يخلو من الأحكام الفقهيّة، لدرجة أنّي لم أقف على مصادر فقهيّة له في تفسيره؛ إلّا وُرود إشارات إلى أقوال الفقهاء دون ذكر أسمائهم، فيقول مثلاً في المحلق الرّابع لسورتَي الفلق والنّاس: "وقد أجمع الفقهاء على أنّ السّحر من كبائر المحرّمات في الشّريعة الإسلاميّة، وأنّه رُبّما يُؤدّي إلى الكفر"[4]، ويقول في مَعرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ﴾[5]: "تدلّ هذه العبارة من عبارات التّكليف، على أنّ لذي القُربى حقّاً معروفاً إبّان تنزيل السّورة، وهو ما عُرف عند الفقهاء فيما بعد بالنّفقة الواجبة على الأقربين"[6]. أو يذكر المذهب الفقهيّ بصورة عامّة، كما رأيت عند حديثه عن حكم الاستعاذة والبسملة؛ حيث يقول: "قال الشّافعيّة والحنابلة: تُسنّ الاستعاذة سرّاً في أوّل كلّ ركعة قبل القراءة"[7]، "وقال الحنفيّة: تُسنّ الاستعاذة في الرّكعة الأولى فقط، وقال المالكيّة: تُكره الاستعاذة والبسملة قبل الفاتحة والسّورة"[8].

وغير ذلك من إشارات مُتفرّقة، فمثلاً: رأيته يذكر أسماء أئمّة المذاهب الثّلاثة: مالك والشّافعيّ وأحمد، في مَعرض تفسيره لكلمة المساجد في سورة الجنّ؛ حيث يقول: "إنّ من الأسلوب المُتّبَع في القرآن المجيد لتحقيق الإعجاز في الإيجاز البديع، استعمال اللّفظ في كلّ المعاني التي يصلح لها في السّياق والسّباق من جملة المعاني التي يدلّ عليها، وهذا ما ذهب إليه أئمّة المذاهب الثّلاثة: مالك والشّافعيّ وأحمد –رضي الله عنهم–، وأجزل مثوبتهم"[9]. وكذلك –أيضاً–، عند حديثه عن دلالة اللّفظ على معنَيَيْه فأكثر، في قوله

---

(1) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م8، ص491.

(2) نفسه، م10، ص309.

(3) نفسه، م5، ص583.

(4) نفسه، م2، ص64.

(5) سورة الرّوم: الآية (38).

(6) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م15، ص162. م1، ص15. م5، ص577–578. م11، ص329.

(7) نفسه، م1، ص11.

(8) نفسه، م1، ص12، 15، 316.

(9) نفسه، م5، ص612. م6، ص540. م7، ص668.

تعالى: ﴿أُكُلٍ خَمْطٍ﴾[1]، و﴿ضَبْحًا﴾[2]؛ حيث قال في الآية الأولى: "هذا ما عليه مُعظم الأئمّة المجتهدين، ومنهم: مالك، والشّافعيّ، وأحمد -رحمهم الله ورضي عنهم-"[3]؛ أمّا في الثّانية فقال: "وأرى حمل اللّفظ على معنَيَيْه معاً، وهو ما عليه جمهور علماء أُصول الفقه"[4].

سادساً- اللّغة والنّحو والأداب: ما تجب الإشارة إليه: أنّ المصادر التي اعتمد عليها الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ في هذا المجال مُتنوّعة وكثيرة، وأنّه نادراً ما يذكر المصدر أو صاحبه؛ إذ يكتفي بالإشارة إلى ذلك بقوله: "قال أهل اللّغة"[5]، "وجاء في كُتب اللّغة"[6]، "وقال علماء العربيّة"[7]، "ويقول النّحاة"[8]، أو "النّحويّون"[9]، "وقال علماء البلاغة"[10]، أو "البلاغيّون"[11]، أو "ما يُسمّى عند البلاغيّين"[12]، إلى غير ذلك من العبارات التي يُكرّرها كثيراً في تفسيره دون الإشارة إلى الكتب والإفصاح عن أصحابها، كعادته في مصادره الأخرى.

ومن الكتب التي أفاد منها كثيراً في هذا المجال: تهذيب اللّغة[13]، للأزهريّ[14]، والصّحاح تاج اللّغة

(**1**) سورة سبأ: الآية (16).

(**2**) سورة العاديات: الآية (1).

(**3**) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م12، ص63. م2، ص64. م4، ص288. م5، ص244. م9، ص602.

(**4**) نفسه، م1، ص631. م10، ص229.

(**5**) نفسه، م1، ص160. م4، ص189. م6 ص405. م7، ص312. م9، ص120. م10، ص310. م11، ص295. م12، ص360.

(**6**) نفسه، م1، ص69. م7، ص575.

(**7**) نفسه، م1، ص19. م5، ص611. م6، ص97. م10، ص373.

(**8**) نفسه، م1، ص227، م6، ص226. م7، ص383. م8، ص492. م9، ص40. م10، ص188، 326. م11، ص228.

(**9**) نفسه، م6، ص52. م8، ص574. م9، ص54.

(**10**) نفسه، م1، ص524. م7، ص119.

(**11**) نفسه، م5، ص308. م6، ص74. م10، ص281. م13، ص240.

(**12**) نفسه، م1، ص585. م7، ص647. م8، ص572. م11، ص92.

(**13**) **يُنظر**: نفسه، م1، ص248. م3، ص266. م4، ص347. م5، ص595. م6، ص173. م11، ص190.

(**14**) **هو**: محمّد بن أحمد بن الأزهريّ الهرويّ، أحد الأئمّة في اللّغة والأدب، من كُتبه: تهذيب اللّغة، وغريب الألفاظ التي استعملها الفقهاء، وتفسير القرآن، وغير ذلك. تُوفّي سنة 370هـ. **يُنظر**: الزّركليّ، خير الدّين: **الأعلام**، ج5، ص311. **يُنظر**: الذّهبيّ، محمّد: **سير أعلام النّبلاء**، ج16، ص316.

وصحاح العربيّة[1]، للجوهريّ[2]. إضافة إلى: لسان العرب[3]، لابن منظور[4]، ومعاني القرآن وإعرابه[5]، للزّجّاج[6]، ومعاني القرآن[7]، للفرّاء[8]، والمحكم والمحيط الأعظم[9]، لابن سِيدَه[10]. والقاموس المحيط[11]،

(**1**) **يُنظر**: الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م1، ص238. م2، ص124. م4، ص101. م6، ص378. م8، ص99. م10، ص494. م11، ص734. م14، ص374.

(**2**) **هو**: إسماعيل بن حمّاد أبو نصر الفارابيّ الجوهريّ، صاحب كتاب الصّحاح في اللّغة، الذي يُضرب به المثل في حفظ اللّغة وحُسن الكتابة. من تصانيفه: كتاب في العروض جيّد سمّاه: عروض الورقة، وكتاب في النّحو. توفّي سنة 393هـ. **يُنظر**: الصّفديّ، خليل: **الوافي بالوفيّات**، ج9، ص69. **يُنظر**: الزّركليّ، خير الدّين: **الأعلام**، ج1، ص313.

(**3**) **يُنظر**: الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م1، ص218. م2، ص124. م5، ص523. م6، ص110. م7، ص448. م8، ص208. م9، ص46. م10، ص660. م14، ص670.

(**4**) **هو**: محمّد بن مكرم بن عليّ، أبو الفضل، جمال الدّين ابن منظور الأنصاريّ الرّويفعيّ الإفريقيّ، صاحب (لسان العرب). الإمام اللّغويّ الحجّة. من كُتبه: مُختار الأغاني، ومُختصر مُفردات ابن البيطار، وغير ذلك. تُوفّي سنة 711هـ. **يُنظر**: الزّركليّ، خير الدّين: **الأعلام**، ج7، ص108. **يُنظر**: السّيوطيّ، عبد الرّحمن: **بُغية الوعاة في طبقات اللّغويّين والنّحاة**، ج1، ص248.

(**5**) **يُنظر**: الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م1، ص450. م3، ص64. م4، ص52. م6، ص321. م7، ص642. م8، ص64. م12، ص542.

(**6**) **هو**: إبراهيم بن السّريّ بن سهل، أبو إسحاق الزّجّاج: عالم بالنّحو واللّغة. من كُتبه: معاني القرآن، والاشتقاق، وإعراب القرآن، وغير ذلك. تُوفّي سنة 311هـ. **يُنظر**: الزّركليّ، خير الدّين: **الأعلام**، ج1، ص40. **يُنظر**: الذّهبيّ، محمّد: **سير أعلام النّبلاء**، ج14، ص360.

(**7**) **يُنظر**: الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م4، ص350. م5، ص132. م6، ص359. م7، ص152. م8، ص472.

(**8**) **هو**: يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الدّيلميّ، أبو زكرياء، المعروف بالفرّاء: إمام الكوفيّين، وأعلمهم بالنّحو واللّغة وفنون الأدب. من كُتبه: المقصور والممدود، ومعاني القرآن، ومُشكل اللّغة، وغير ذلك. تُوفّي سنة 207هـ. **يُنظر**: الزّركليّ، خير الدّين: **الأعلام**، ج8، ص145-146. **يُنظر**: الذّهبيّ، محمّد: **سير أعلام النّبلاء**، ج10، ص118-121.

(**9**) **يُنظر**: الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م4، ص624. م5، ص524. م6، ص393. م7، ص312. م8، ص664. م10، ص64. م13، ص678.

(**10**) **هو**: عليّ بن إسماعيل، المعروف بابن سيده، أبو الحسن: إمام في اللّغة وآدابها. من مُصنّفاته: المخصّص، والمحكم والمحيط الأعظم، وشرح ما أُشكل من شعر المتنبّي، وغير ذلك. تُوفّي سنة 458هـ. **يُنظر**: الزّركليّ، خير الدّين: **الأعلام**، ج4، ص263-264. **يُنظر**: ابن خلكان، أحمد: **وفيّات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان**، ج3، ص330-331.

(**11**) **يُنظر**: الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، ج3، ص61، 266.

للفيروزآبادي[1]؛ فضلاً عن كتابه: البلاغة العربيّة أُسسها وعلومها وصور من تطبيقها[2]، وديوانه الشّعريّ: آمنت بالله[3]. ومن الملاحظ: أنّ الشّيخ لا يقتصر في استشهاده بآراء أغلب هؤلاء العلماء على التّأييد فقط؛ بل كان يُخالفهم الرّأي، ويُفنِّد ما أقرُّوه[4]، فيقول في سورة مريم عند قوله تعالى: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾[5]: "يقول النّحويّون: إنّ أصل العبارة: واشتعل شيبُ الرّأس، ويَرون أنّ كلمة (شيباً) تمييز مُحوّل عن فاعل فعل: (واشتعل)، والتّمييز يُؤتى به لرفع الإبهام عن ذاتٍ مُبهمة، أو عن نسبة مُبهمة، ضمن شروط ذكروها. ويرى البيانيّون أنّ في هذه العبارة استعارةً أصلها تشبيه انتشار الشّيب في شعر الرّأس باشتعال النّار على الرّأس، وقد استعير فعل: (اشتعل) للدّلالة على معنى فعل (انتشر) مع إضافة صورة مُتخيّلة مأخوذة من لهب النّار. ويتابع البيانيّون النّحاةَ بأنّ كلمة: (شيباً) تمييز مُحوّل عن فاعل فعل: (اشتعل) أي: اشتعل شيب الرّأس. لكنّي أرى أنّ مثل هذا التّحليل الذي ذكره النّحاة، وتبعهم فيه البيانيّون يُضعف من قيمة الصّورة البيانيّة البديعة، التي تُقدّمها عبارة: (واشتعل الرّأس شيباً) ونظيرها قول الله -عزّ وجلّ-: (وفجّرنا الأرض عيوناً). والأكثر ملاءمة فيما أرى لتحليل هذا التّعبير الفنّيّ البديع، أن تكون استعارة فعل (اشتعل) وفاعلُه (الرّأس) تصويراً لصورة يتخيّلها النّاظر إلى الرّأس، الذي أخذ الشّيب ينتشر فيه بسرعة، كما ينتشر لهب النّار في الهشيم، حتّى استوعب كلّ أجزائه..."[6].

ولقد وجدته يُؤيّد قول بعضهم وينصره، فيقول في سورة العلق مثلاً: "ويُعجبني قول من قال من أئمّة اللّغة إنّ لفظ (اسم) أصله (وَسْمٌ) بمعنى العلامة، حُذفت الواو، ثمّ حصل التّوصّل إلى الابتداء بالسّاكن بزيادة همزة الوصل، فالاسم علامة دالّة على المسمّى"[7]. وقال في سورة التّكاثر: "ويُعجبني قول من قال من علماء العربيّة إنّ (سوف) أوسع استقبالاً من (السّين)"[8].

---

(1) **هو**: محمّد بن يعقوب بن محمّد بن إبراهيم بن عمر، أبو طاهر، مجد الدّين الشّيرازيّ الفيروزآبادي: من أئمّة اللّغة والأدب. أشهر كُتبه: القاموس المحيط، وتنوير المقباس في تفسير ابن عبّاس، وبصائر ذوي التّمييز في لطائف الكتاب العزيز. وغير ذلك. تُوفّي سنة 817هـ. **يُنظر**: الزّركليّ، خير الدّين: **الأعلام**، ج7، ص146-147. **يُنظر**: الدّاوديّ، محمّد: **طبقات المُفسّرين**، ج2، ص275-280.

(2) **يُنظر**: الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م2، ص172. م3، ص143. م8، ص721. م9، ص599. م11، ص197.

(3) **يُنظر**: نفسه، م8، ص497.

(4) **يُنظر**: نفسه، م3، ص334.

(5) سورة مريم: الآية (4).

(6) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م7، ص382-383.

(7) نفسه، م1، ص42.

(8) نفسه، م1، ص673.

كما أنّه يذكرُ في المتن: اسم الكتاب ومُؤلّفه معاً، فيقول مثلاً: "كما ذكر ابن هشام في كتابه: مُغني اللّبيب"[1]، أو يذكر اسم الكتاب دون الإشارة إلى مُؤلّفه، فيقول مثلاً: "وروايات السّيرة النّبويّة تشهد بذلك"[2]، "وجاء في لسان العرب"[3]، أو يكتفي بالإشارة إلى صاحب الكتاب فقط، فيقول مثلاً: "قال ابن الأعرابيّ من أئمّة اللّغة"[4]، أو الإشارة إلى عامّة اللّغويّين أو النّحويّين، فيقول مثلاً: "قال علماء العربيّة"[5]. وهكذا...

سابعاً– التّاريخ: من المصادر التي اعتمد عليها الشّيخ في هذا المجال: قصص الأنبياء[6]، والنّهاية في الفتن والملاحم[7] لابن كثير، والأصنام[8] لابن الكلبيّ[9]، والتّذكرة في أحوال الموتى وأُمور الآخرة[10] للقرطبيّ. وأطلس تاريخ الإسلام[11] لحسين مُؤنس[12].

(**1**) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م1، ص657.

(**2**) نفسه، م1، ص218.

(**3**) نفسه، م2، ص124.

(**4**) نفسه، م1، ص238. م5، ص609.

(**5**) نفسه، م5، ص611.

(**6**) **يُنظر**: نفسه، م4، ص130. م8، ص85-88.

(**7**) **يُنظر**: نفسه، م8، ص416-417.

(**8**) **يُنظر**: نفسه، م2، ص125.

(**9**) **هو**: هشام بن محمّد، أبي النّضر، ابن السّائب، ابن بشر الكلبيّ، أبو المنذر: مُؤرّخ، عالم بالأنساب وأخبار العرب وأيّامها كأبيه، كثير التّصانيف. له نيّف وستّة وخمسون كتاباً، منها: جمهرة الأنساب، والأصنام، ونسب الخيل، وغير ذلك. تُوفّي سنة 204هـ. **يُنظر**: الزّركليّ، خير الدّين: **الأعلام**، ج8، ص87-88. **يُنظر**: الذّهبيّ، محمّد: **سير أعلام النّبلاء**، ج10، ص101-103.

(**10**) **يُنظر**: الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م5، ص203. م6، ص154.

(**11**) **يُنظر**: نفسه، م4، ص399. م9، ص375.

(**12**) **هو**: حسين مُؤنس. كاتب ومُفكّر ومُؤرّخ مصريّ. من كُتبه: فجر الأندلس، وتاريخ المغرب وحضارته من قبل الفتح العربيّ إلى بداية الاحتلال الفرنسيّ، وأطلس تاريخ الإسلام. تُوفّي سنة 1996م. **يُنظر**: موقع ويكيبديا الموسوعة الحرّة، **ترجمة حسين مُؤنس**، على الرّابط الآتي:

https://ar.wikipedia.org

ثامناً– الإسرائيليّات: لم يخل تفسير الشّيخ –رحمه الله تعالى– من الإسرائيليّات؛ بل إنّه ينقل عن هذه الكتب مباشرة –أعني: التّوراة، والإنجيل، وعن غيرهما، مثل: قاموس الكتاب المقدّس–، روايات كثيرة تخدم تفسيره وما يُناسب فكره واعتقاده، فيسوق الرّوايات ويُعلّق عليها، وينقد بعضها أحياناً، ممّا يُكسب هذا العمل الشّمول، فمثلاً يقول في سياق تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾[1]: "وقد دسّ اليهود مقالتهم الكاذبة على الله –عزّ وجلّ– في سفر التّكوين، في أوّل الإصحاح الثّاني منه، فقد جاء فيه: (فأُكملت السّماوات والأرض وكلّ جندها. وفرغ الله في اليوم السّابع من عمله الذي عمل. فاستراح في اليوم السّابع من جميع عمله الذي عمل. وبارك الله اليوم السّابع وقدّسه. لأنّه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقاً). لقد كذبوا على الله، فإنّ الله –عزّ وجلّ– لا يُتعبه شيء، حتّى يحتاج إلى الاستراحة كما تحتاج مخلوقاته التي خلقها بصفات تحتاج معها إلى الاستراحة، إذا عملت عملاً فيه اجتهاد وكدح وكدّ. إنّما أمره –جلّ جلاله، وعظم سلطانه– إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون. ما قدروا الله حقّ قدره، فقاسوه على أنفسهم، وتعالى الله عمّا قالوا عُلوّاً كبيراً، وسبحانه عمّا يصفون"[2]. وفي سياق تفسيره لقوله تعالى: ﴿* وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ۝٢١ إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُواْ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾[3]، أظهر اتّهام الإسرائيليّن لأنبيائهم ورُسلهم بالكبائر، والتّغيّرات والتّحريفات التي أحدثوها في كُتبهم؛ لتوهين كبائرهم ومُوبقاتهم التي يرتكبها كهنتهم وأحبارهم ورُؤساؤهم ومُلوكهم، فقال: "وغيّر الإسرائيليّون في قصّة الخصمَين، وأوردوها حكاية عَرَضها فيما زعموا النّبيّ ناثان على داوود، فغضب من حال الخصم المعتدي على صاحبه، فأمر بقتله، فقال له ناثان: أنت هو الرّجل الذي فعل ذلك. إلى غير ذلك من تغييرات وتلفيقات وتحريفات، وهم يزعمون أنّ داوود –عليه السّلام– مَلِك فقط، وليس نبيّاً، ولا رسولاً"[4]. ثمّ بيّن قصّة الخصمَين كما جاءت في القرآن الكريم.

وفي سياق تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[5]، أظهر البشائر بالرّسول النّبيّ الأُمّيّ –صلّى الله عليه وسلّم– الواردة في التّوراة والإنجيل، وبيّن زيفها؛ حيث يقول: "لا تزال بعض البشائر بالنّبيّ الرّسول محمّد –صلّى الله عليه

---

(1) سورة ق: الآية (38).

(2) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م3، ص126–127.

(3) سورة ص: الآية (21–22).

(4) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م3، ص527.

(5) سورة الأعراف: الآية (157).

وسلّم- مكتوبة في كُتب أهل الكتاب اليهود والنّصارى، على الرّغم ممّا تعرّضت له هذه الكتب من تحريف وحذف. **أوّلاً**: جاء في الإصحاح الثّامن عشر من سفر التّثنية، خطاباً لموسى -عليه السّلام-، ما يلي: (أُقيمُ لهم نبيّاً من وسط إخوتهم مِثلَك وأجعلُ كلامي في فمه فيكلّمهم بكلّ ما أُوصيه به، ويكون أنّ الإنسان الذي لا يسمعُ لكلامي الذي يتكلّم به باسمي أنا أُطالبه...). فعبارة: (من وسط إخوتهم مِثلَك)، تدلّ على أنّ هذا النّبيّ المبشَّر به ليس من بني إسرائيل؛ لأنّه لو كان من بني إسرائيل لكانت العبارة: (من وسطهم)، لا (من وسط إخوتهم). وقد ظهر في الواقع أنّه من العرب المستعربة أولاد إسماعيل، ومعلوم لدى الجميع أنّ إسماعيل هو أخو إسحاق لأبيه، الذي هو جدّ بني إسرائيل، وإبراهيم -عليه السّلام- الجدّ الأعلى لبني إسرائيل، وللعرب المستعربة. وعبارة: (وأجعل كلامي في فمه)، تدلّ على أنّ الكتاب الذي يتلقّاه عن ربّه إنّما يتلقّاه عن طريق سمعه وقلبه، فينطقه بلسانه، ولا يتلقّاه مكتوباً كألواح موسى -عليه السّلام-. **ثانياً**: وجاء في الإصحاح الرّابع عشر من إنجيل يوحنّا، ما يلي: (إنّ كنتم تُحبّونني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الآب فيعطيكم مُعزِّياً آخر ليمكثَ معكم إلى الأبد، روح الحقّ الذي لا يستطيع العالم أن يقبله؛ لأنّه لا يراه ولا يعرفه، وأمّا أنتم فتعرفونه؛ لأنّه ماكثٌ معكم ويكون فيكم، لا أترككم يتامى. إنّي آتي إليكم...). وقد تتبّع علماء المسلمين، بمساعدة من أسلم من علماء اليهود والنّصارى، نسخ التّوراة والزّبور والإنجيل، فوجدوا فيها نحواً من ثماني عشرة بشارة"[1]. إلى غير ذلك من الرّوايات.

وأحسب أنّ الذي أدّى بالشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ إلى ذلك: توسّعه في التّاريخ القديم، وسَيْره وفق منهج المفسّرين القدامى من ذكر الإسرائيليّات في تفاسيرهم؛ حيث نقل عن قاموس الكتاب المقدّس حوالي (13) مرّة. ومن الكتب الإسرائيليّة حوالي (126) مرّة.

تاسعاً- الدّعوة والدّعاة: قد اعتمد الشّيخ في ذلك على كُتب من تأليفه، وهي: الأُمّة الرّبّانيّة الواحدة[2]، وفقه الدّعوة إلى الله وفقه النّصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنّهيّ عن المنكر[3]، والعبادة في الإسلام[4]، وبصائر للمُسلم المعاصر[5].

---

(1) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م4، ص621-622.

(2) **يُنظر**: نفسه، م1، ص336.

(3) **يُنظر**: نفسه، م1، ص460.م3، ص130. م13، ص209. م13، ص678.

(4) **يُنظر**: نفسه، م4، ص78.

(5) **يُنظر**: نفسه، م10، ص165.

عاشراً– الأخلاق الإسلاميّة: قد اعتمد الشّيخ في ذلك على كتابه: الأخلاق الإسلاميّة وأُسسها[1].

أحد عشر: الغزو الفكريّ ومخاطره: قد اعتمد الشّيخ في ذلك على كُتب من تأليفه –أيضاً–، وهي: مكايد يهوديّة عبر التّاريخ[2]، وظاهرة النّفاق وخبائث المنافقين في التّاريخ[3]، وكواشف زيوف في المذاهب الفكريّة المعاصرة[4].

وهناك مصدر مهمّ انتفع به الشّيخ في تطعيم تفسيره، وتوسيع ثقافته العِلْميّة، وهو اطّلاعه على كتاب: خلق الإنسان بين الطّبّ والقرآن، من تأليف: محمّد علي البار[5]؛ حيث أفاد منه في تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾[6]، ونقل كلامه حول الماء الدّافق[7]. وكتاب: الإسلام والنّظر في آيات الله الكونيّة، من تأليف: محمّد عبد الله الشّرقاويّ[8]؛ حيث أفاد منه –أيضاً– في تفسير قوله تعالى: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾[9]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ

---

(1) **يُنظر:** الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م6، ص486. م11، ص724. م12، ص649. م15، ص281.

(2) **يُنظر:** نفسه، م9، ص553.

(3) **يُنظر:** نفسه.

(4) **يُنظر:** نفسه.

(5) **هو:** محمّد علي البار. استشاري أمراض باطنيّة، ومُستشار قسم الطّبّ الإسلاميّ، مركز الملك فهد للبحوث الطّبّيّة، جامعة الملك عبد العزيز بجدّة. **يُنظر:** موقع ويكيبديا الموسوعة الحرّة، **ترجمة محمّد علي البار**، على الرّابط الآتي: https://ar.wikipedia.org

(6) سورة الطّارق: الآية (5-7).

(7) **يُنظر:** الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م3، ص268-269.

(8) **هو:** محمّد عبد الله الشّرقاويّ، العالم والمفكّر والدّاعية. أُستاذ ورئيس قسم الفلسفة الإسلاميّة ومُقارنة الأديان بكلّيّة دار العلوم بجامعة القاهرة. من أهمّ مُؤلّفاته: الإيمان: أُصوله وفروعه، والقرآن والكون، والاستشراق: دراسات تحليليّة تقويميّة. **يُنظر:** موقع منارات للعلوم الشّرعيّة والدّعويّة: **ترجمة محمّد عبد الله الشّرقاويّ**، على الرّابط الآتي: http://www.manaratweb.com

(9) سورة الفرقان: الآية (53).

لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1]، وذلك في مَعرض حديثه حول البحرين في هاتين الآيتين[2]. إضافة إلى أنّه رجع إلى (الموسوعة العربيّة العالميّة) 3 مرّات: مرّة في مَعرض حديثه عن النّجوم ومواقعها في سورة الواقعة[3]، ومرّة في معرض حديثه عن القمر ومنازله في سورة يونُس[4]، ومرّة في مَعرض حديثه عن الرّياح في سورة الحجر[5]. **–وهذا ما سأبيّنه لاحقاً عندما أتحدّث عن التّفسير العِلْميّ عند الشّيخ رحمه الله تعالى–.**

تلك هي أهمّ المصادر التي رجع إليها الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ واستعان بها في تفسيره، وأحبّ قبل الانتقال إلى وصف منهجه العامّ الذي سار عليه، والتزمه في التّفسير، أن ألفت النّظر إلى أنّ الشّيخ شأنه في ذلك شأن غالبيّة المفسّرين في العصر الحديث، لم يكن ينتمي إلى مذهب كلاميّ مُعيّن على سبيل التّعصّب كما فعل بعض المفسّرين القدماء، وهذه –في رأيي– ظاهرة مُهمّة بالنّسبة لروح مُفسّري العصر الذين يريدون جمع شمل المسلمين وتوحيدهم على كلمة سواء. كما أودّ لفت النّظر كذلك إلى قلّة اطّلاع الشّيخ على أعمال المفسّرين المحدثين، وبخاصّة ما ظهر منها عقب الحرب العالميّة الثّانية، ممّا أفقده الخيط الذي يشدّه إلى حركة التّفسير في العصر الحديث، وبالتّالي أصبح من العسير إيجاد موقع له في هذه الحركة. وأرى أنّه من الممكن أن تجرّه هذه النّظرة الاستقلاليّة في الفهم والتّفكير إلى مُعارضة غيره من العلماء ومُهاجمتهم له أو التّحامل عليه مستقبلاً؛ عِلماً بأنّه يتّسم بعفّة النّقد ونزاهة العبارة، فلم تصدر منه كلمة نابية أو قولاً لاذعاً في مُخالفيه؛ بل كان يعترف لهم بالفضل، ويذكر ما قدّموه من مجهود طيّب، وما كان لهم من أثر محمود، وتلك سمة من تخلّق بالقرآن، وتجمّل بهديه، وتحلّى بفضله وأدبه، **–وهذا ما سأُبيّنه في المبحث القادم إن شاء الله تعالى–.**

هذا وقد رجع الشّيخ إلى غير هذه المصادر، ما أعطى تفسيره هذا قيمة عِلْميّة كبيرة.

(**1**) سورة فاطر: الآية (12).

(**2**) **يُنظر**: الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م6، ص564. م7، ص95-96.

(**3**) **يُنظر**: نفسه، م8، ص504-506.

(**4**) **يُنظر**: نفسه، م10، ص48.

(**5**) **يُنظر**: نفسه، م11، ص43-44.

المبحث الثّاني

المنهج العامّ للشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ في تفسيره

سأحاول في هذا المبحث تلمّس منهج الشّيخ في تفسيره من خلال الاطّلاع على ما كتبه في تفسيره، ويجدر بي قبل الخوض في بيان منهجه أن أُوضّح مدلول كلمة المنهج في اللّغة والاصطلاح؛ حيث تكاد تتّفق مصادر اللّغة على أنّ مادّة (نَهَجَ) أصلها الطّريق الواضح، وأنّ المَنْهج والمِنْهاج بمعنى واحد، وبهذا المعنى فُسّرت كلمة (مِنْهاجاً) في قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[1]، أي: "الطّريق الواضح في الدّين"[2]، ومعنى الكلام: "لكلّ قوم منكم جعلنا طريقاً إلى الحقّ يؤمُّه، وسبيلاً واضحاً يُعمل به"[3]. يقول الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة: "المِنْهَاج والمَنْهَج: الطّريق الواضح. تقول العرب: أنهج الطّريق، إذا وَضحَ واستبان، وصار نهجاً واضحاً بيّناً"[4]. **أمّا في اصطلاح المُفسّرين**، فإنّ كلمة منهج تُطلق على: "الخُطّة المحدّدة التي وضعها المفسّر عند تفسيره للقرآن الكريم، والتي انعكست على تفسيره الذي كتبه، وصارت واضحة فيه"[5]. **وبناء على ما سبق فإنّي أعني بمنهج الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة:** الطّريق الذي سلكه، واختطّه لنفسه، واختاره دون غيره، للوصول إلى مُراده من تفسيره للقرآن الكريم.

وقد رأيت من خلال قراءتي لتفسيره أنّه يذكر في بداية كلّ سورة: اسمها، أو أسماءها –إن وُجد لها أكثر من اسم–، فمثلاً يقول: "سورة الفاتحة وتُسمّى أمّ القرآن، والسّبع المثاني، والقرآن العظيم"[6]. "سورة

(**1**) سورة المائدة: الآية (48). **قلت:** ويجدر الإشارة بأنّ كلمة (مِنهاجاً) وردت في القرآن الكريم مرّة واحدة، في هذا الموضع فقط، وذلك في مَعرض الخطاب للرّسول –صلّى الله عليه وسلّم–، ولأئمّة المسلمين من بعده.

(**2**) الألوسيّ، محمود: **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني**، ج6، ص153.

(**3**) الطّبريّ، محمّد: **جامع البيان في تأويل القرآن**، ج10، ص384.

(**4**) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **قواعد التّدبّر الأمثل لكتاب الله –عزّ وجلّ–**، ص352–353. **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م1، ص333–334. **قلت:** وهذا ما قالت به معاجم اللّغة: (النَّهْجُ: الطّريقُ الوَاضِحُ المُستقيم، والجمعُ نَهَجاتٌ ونُهُجٌ وُنُهُوجٌ. وكذلك المَنْهَجُ والمِنْهاجُ. ونَهَجَ الأَمْرُ وأَنْهَجَ، لُغتانِ، إذا وضَحَ. يُقَالُ: أَنْهَجَ يُنْهِجُ إِنْهاجاً، ونَهَجْتُ أَنْهِجُ نَهْجاً. فأَنْهَجَ الطّريقُ: وضَحَ واسْتَبانَ وَصَارَ نَهْجاً واضِحاً بَيِّناً. وَنَهَجْتُ الطّريقَ: أَبَنْتُه وأَوضَحتُه وسَلَكتُه. والمِنهاجُ: الطّريقُ الواضِحُ). **يُنظر:** ابن منظور، محمّد: **لسان العرب**، باب الجيم، فصل النّون، ج2، ص383. **يُنظر:** الزّبيديّ، محمّد: **تاج العروس من جواهر القاموس**، مادّة (نَهَجَ)، ج6، ص251–253. **يُنظر:** الفيروزآبادي، محمّد: **القاموس المُحيط**، ص208. الرّاغب الأصفهانيّ، الحسين: **المُفردات في غريب القرآن**، ص825. **يُنظر:** مُصطفى، إبراهيم: **المُعجم الوسيط**، ج2، ص957.

(**5**) الخالديّ، صلاح: **تعريف الدّارسين بمناهج المُفسّرين**، ص17.

(**6**) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م1، ص277.

الإسراء وتُسمّى سورة بني إسرائيل، وسورة سبحان"[1]. "سورة غافر وتُسمّى سورة المُؤمن، وسورة الطَّوْل"[2]. ويذكر ترتيبها في المصحف، وترتيبها حسب النّزول. فمثلاً يقول: "سورة العلق، (96) مُصحف، (1) نزول"[3]. "سورة المُدّثر، (74) مُصحف، (2) نزول"[4]. "سورة المُزّمّل، (73) مُصحف، (3) نزول"[5]. ويذكر مكّيّها أو مدنيّها، ويرجّح ما يختاره -إن كان فيها خلاف-، مُستشهداً بدليل من السّنّة أحياناً، وإلّا فلا يتطرّق إلى ذلك. فمثلاً يقول في سورة القلم: "وهي فيما يترجّح لديّ بالنّظر إلى مُعظمها السّورة الرّابعة نزولاً، فهي من أوائل التّنزيل المكّيّ باتّفاق، وفيها آيات مدنيّة، والآيات المدنيّة منها هي: من الآية (17) وحتّى غاية الآية (33)، ومن الآية (48) وحتّى غاية الآية (50)"[6]. ويقول في سورة النّجم: "وهي مكّيّة إلّا الآية (32) منها فهي مدنيّة"[7]. ويقول في سورة القمر: "سورة مكّيّة كلّها، وقيل: إلّا الآيات (44، 45، 46)؛ لكن جاء في صحيح البخاريّ عن عائشة -رضي الله عنها- أنّ الآية: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾[8] قد أُنزلت في مكّة، وهي جارية تلعب. وعلى هذا فالمدنيّ منها إن صحّ مُقتصر على قول الله -عزّ وجلّ- فيها: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ۝٤٤ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾"[9].

ويُورد سبب تسمية السّورة في بعض الأحيان. فمثلاً يقول في سورة الجنّ: "وسُمّيت بسورة الجنّ لاشتمالها على بيان قصّة نفر من الجنّ وفَدوا إلى الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم-، واستمعوا القرآن منه، وآمنوا به، وانصرفوا دُعاة بين قومهم"[10]. ويقول في سورة الحِجْر: "وسُمّيت سورة الحجر لانفرادها بذكر

---

(1) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م9، ص503.

(2) نفسه، م12، ص295.

(3) نفسه، م1، ص29.

(4) نفسه، م1، ص75.

(5) نفسه، م1، ص149.

(6) نفسه، م1، ص195.

(7) نفسه، م2، ص89.

(8) سورة القمر: الآية (46).

(9) سورة القمر: الآيتان (44-45). الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م3، ص311.

(10) نفسه، م5، ص515.

لفظة الحِجْر فيها، وهي أرض ثمود"[1]. كما يذكر عدد آيات بعض السّور، مثل سورة القلم، وسورة الواقعة، وسورة يُونُس[2]. ولا يكتفي بذلك؛ بل يُقدّم لبعض السّور بمقدّمة حول نزولها، يبحث فيها مكّيّها ومدنيّها ونزولها، مُستشهداً بآيات قرآنيّة، وبأحاديث نبويّة شريفة، ويُرجّح ما يراه، كسورة العلق، والمُدّثّر، والمُزّمّل، وغيرها. وقد ذكر في كتابه –قواعد التّدبّر الأمثل لكتاب الله عزّ وجلّ– عدد السّور المكّيّة التي ضُمّت إليها آيات مدنيّة وهي (33) سورة، وعدد السّور المدنيّة التي ضُمّت إليها آيات مكّيّة وهي (3) سور[3]. كما بيّن الحكمة من ذلك من خلال السَّبْر والتّأمّل، فقال: (وقد وفّقني الله للنّظر التأمّليّ فيها، فبدا لي أنّ الحكمة من ذلك مُراعاة اقتضاءين: أحدهما: فكريّ موضوعيّ، والآخر تربويّ قائم على سنّة التّدرّج، ومُراعاة حال المخاطبين...، وإنّ الاقتضاء الفكريّ لا يمنع من تأخير البيان والتّبليغ، مُراعاة للاقتضاء التّربويّ، الذي ينبغي أن يقوم على أساس التّدرّج الحكيم)[4]. **وكلامه هذا يُناقش:** بأنّه لم يثبت بالرّواية أو بالعقل وجود آيات مكّيّة في سور مدنيّة، وذلك لأنّه يستحيل عقلاً أن تنزل الآية وتبقى مُعلّقة إلى حين وجود مكان لها في سورة مدنيّة –وهو ما يُؤخذ عليه–، ويبدو لي أنّ الحكمتين اللّتين ساقهما يتعلّقان بالنّوع الأوّل وهو: وجود آيات مدنيّة في سور مكّيّة وليس العكس، كما أنّني ليس بمقدوري مُقارنة ذلك ومُناقشته؛ لأنّ العُمُر لم يُسعف الشّيخ ليُكمل تفسيره. وقد قام فضل عبّاس بتمحيص كثير من الرّوايات القائلة بوجود آيات مدنيّة في سور مكّيّة، وأثبت عدم صحّة الرّوايات القائلة بذلك؛ إذ يقول: "والذي يظهر لي أنّه –وجود آيات مكّيّة في سور مدنيّة– لا وجود له، فلا يُعقل أن تنزل الآية في مكّة المكرّمة، وأن تبقى سنين طويلة لا مكان لها إلى أن تنزل السّورة في المدينة المنوّرة، ثمّ توضع تلك الآيات، أو الآية، أو الآيتان في تلك السّورة. وننبّه هنا إلى أنّ ما استثنوه في السّور المكّيّة من آيات مدنيّة يظهر فيه الغلوّ والتّكليف في كثير من الأحيان، وقلّ أن نجد سورة من السّور المكّيّة، إلّا وقد استثنوا منها آيات قالوا: إنّها مدنيّة، وفي أغلب الأحوال يكون هذا الاستثناء لأسباب واهية، إمّا رواية ضعيفة، وإمّا ذكر كلمة وُهِمَ أنّها ليست ممّا ينزل في مكّة، وإمّا حمل بعض الكلمات على تفسير مُعيّن"[5]. ولتوضيح ذلك فقد استثنى الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ آيات مدنيّة من سورة مكّيّة عند تفسيره لسورة الأعراف –مثلاً–،

---

(1) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م11، ص5.

(2) **يُنظر**: نفسه، م1، ص195. م8، ص421. م10، ص5.

(3) **يُنظر**: الميدانيّ، عبد الرّحمن: **قواعد التّدبّر الأمثل لكتاب الله –عزّ وجلّ–**، ص185.

(4) **يُنظر**: نفسه، ص185-187.

(5) عبّاس، فضل: **إتقان البُرهان في علوم القرآن**، ج1، ص389. **قلت:** يبدو أنّ الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ قد تأثر بكلام الزّركشيّ في كتابه البرهان، والسّيوطيّ في كتابه الإتقان، والصّحيح الذي أطمئنّ إليه ما ذكره فضل عبّاس، –والله تعالى أعلم–.

فيقول: "الآيات من (163-166) هي آيات مدنيّة التّنزيل مضمومة بالوحي إلى موضعها من سورة الأعراف المكّيّ؛ لمراعاة اقتضاءين: المناسبة الفكريّة، والحكمة التّنزيليّة في العهد المدنيّ؛ حيث ظهر الاحتكاك مع اليهود"[1]. ويردّ فضل عبّاس كلامه بقوله: "وهو استثناء لا دليل عليه، وما يُقال إنّ قوله سبحانه: ﴿وَسَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾[2] حديث عن اليهود، وأنّ أخبارهم كانت في مكّة، يُجاب عنه بأنّ الآية مُتّصلة اتّصالاً تامّاً بما قبلها، من حديث عن بني إسرائيل واتّخاذهم العجل، وغير ذلك من معاصيهم"[3].

ويُقدّم -أيضاً- لبعض السّور بمقدّمة حول تسميتها، ذاكراً أسماءها وسبب تسميتها، ومُستشهداً بأحاديث نبويّة شريفة، مثل سورة الفاتحة[4]، وغيرها. ثمّ يبدأ بذكر نص السّورة كاملاً، ذاكراً فرش القراءات[5] -إن وجد- في هامش الصّفحة، مثل سورة المسد[6]، وسورة الإخلاص[7]، وسورة عبس[8]، وغيرها. ثمّ يورد القراءات مرّة أُخرى خلال التّفسير عند تدبّره للآيات القرآنيّة، مُعتمداً على القراءات العشر المتواترة فقط[9]. ويُلاحظ على الشّيخ تأكيده على ضرورة معرفة القراءات، وكيفيّة توظيفها في كتاب الله -تعالى-، وبيان معانيها، واعتماده الرّوايات المتواترة عن الأئمّة القرّاء العشرة؛ حيث ضمّنها القاعدة الأربعين من كتابه (قواعد التّدبّر الأمثل)؛ ويقول: "على مُتدبّر كتاب الله أن يبحث عن المعاني، وعن

---

(1) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م4، ص667. **يُنظر**: الأمثلة الكثيرة المتعلّقة في نفس الموضوع: نفسه، م3، ص450. م4، ص674، 687. م6، ص130. م8، ص703. وغير ذلك.

(2) سورة الأعراف: الآية (163).

(3) عبّاس، فضل: **إتقان البُرهان في علوم القرآن**، ج1، ص389. **يُنظر أيضاً**: نفسه، ج1، ص389-412.

(4) **يُنظر**: الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م1، ص279-280.

(5) **الفرش**: هو الكلمات التي يقلّ دورها وتكرارها من حروف القراءات المختلف فيها في القرآن الكريم، وقد أطلق عليها القُرّاء فرشاً؛ لانتشارها، كأنّها انفرشت وتفرّقت في السّور وانتشرت، وقد سمّى بعضهم الفرش فروعاً مُقابلة للأُصول. ومثاله ما ورد في سورة البقرة في قوله تعالى: (وَما يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ)، فقد قرأ الكوفيّون الأربعة: عاصم، وحمزة، والكسائيّ، وخلف، وابن عامر، وأبو جعفر، ويعقوب: (يخدعون)، وقرأ الباقون من العشرة: (يُخادعون). القضاة، محمّد: **مُقدّمات في علم القراءات**، ص77-78. **يُنظر**: ابن القاصح، عليّ: **سراج القارئ المُبتدي وتذكار المُقرئ المُنتهي**، ص148. **وقيل: الفرش**: عبارة عن الأحكام الخاصّة ببعض الكلمات القرآنيّة، مثل: مُلْكِ، مالِكِ. الباز، محمّد: **مَباحث في علم القراءات مع بيان أُصول رواية حفص**، ص92.

(6) **يُنظر**: الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م1،ص377-378.

(7) **يُنظر**: نفسه، م2، ص74.

(8) **يُنظر**: نفسه، م2، ص208-214.

(9) **يُنظر**: الميدانيّ، عبد الرّحمن: **قواعد التّدبّر الأمثل لكتاب الله -عزّ وجلّ-**، ص709.

الصّور البيانيّة الموصولة بإعجاز القرآن، التي تدلّ عليها وجوه القراءات المختلفة، التي لا يظهر فيها بوضوح أنّ الغرض من الاختلاف فيها مجرّد التّهوين، والتّسهيل على ألسنة النّاطقين العرب إبّان تنزيل القرآن، مُراعاة لِلَهَجاتهم المختلفة وقواعد ألسنتهم"[1].

كما اعتنى بأسباب النّزول عناية فائقة، إذ ضمّنها القاعدة الحادية عشرة من كتابه (قواعد التّدبّر الأمثل)؛ حيث يعتمد ما صحّ من الرّوايات –حسب قوله–، وفي ذلك يقول: "فكثيراً ما يُلقي سبب النّزول الذي صحّ سنده الضّوْء على المعنى المُراد من النّصّ القرآنيّ"[2]، فلأجل ذلك يسوق أسباب النّزول –إن كانت السّورة قد نزلت في مناسبة مُعيّنة–؛ وقد يعرض أحياناً خلال التّفسير لسوابق التّنزيل؛ استكمالاً للصّورة، وخروجاً بنتائج صائبة، فيقول مثلاً في بداية سورة العصر: "سبق في السّور التي نزلت قبل سورة العصر الاهتمام بالقضايا التّالية:..."[3]، وفي ذلك يقول –أيضاً–: "فعلى مُتدبّر كلام الله أن يكون شديد الحذر من اقتطاع النّصوص والجمل القرآنيّة عن سوابقها ولواحقها؛ حتّى يتأكّد تماماً من أنّ مجموعة الآيات التي اقتطعها، لا تُكَوِّنْ مع غيرها وحدة مُتماسكة؛ فيؤثّر الاقتطاع في فهم دلالاتها"[4]؛ "لذلك لا يصحّ اعتماد جميع ما ذكره المفسّرون على أنّه من أسباب النّزول، واعتباره أساساً لتحديد معاني النّصوص، إلّا أن يثبت بسند صحيح، ولا يتنافى مع تاريخ نزول النّصّ، أو يكون مُنسجماً مع دلالات النّصّ الواضحة، دون أن يكون فيه ما يخدش اعتباره سبباً لنزول النّصّ الموضوع للتّدبّر"[5]. **ومن خلال قراءتي لتفسيره رأيت أنّه لم يلتزم بما ذكره**، فقد توسّع في ذكر أسباب نزول بعض الآيات، ولم يقتصر على ما صحّ من الرّوايات، فوجدته ينقل ما جاء في سيرة ابن هشام، وما رواه الطّبريّ في تفسيره، عندما ذكر ما ورد في سبب نزول الآيات (11–37) من سورة المُدثّر، دون أن يحكم عليها بالصّحّة أو الضّعف، ودون أن يُحيل إلى الكتاب الأصل في الهامش[6]. ومن ذلك –أيضاً– ما جاء في سورتي الكوثر والكافرون، فقد ذكر روايات عديدة في أسباب نزولهما، دون أن يُشير إلى درجتهما صحّة أو ضعفاً[7]. كما أنّه لا يعتمد الصّحيح فقط؛ بل وجدته يعتمد الحسن من الأحاديث وغيره، ويُشير إليه في المتن

---

(1) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **قواعد التّدبّر الأمثل لكتاب الله –عزّ وجلّ–**، ص722، 755.

(2) نفسه، ص203.

(3) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م1، ص606–607.

(4) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **قواعد التّدبّر الأمثل لكتاب الله –عزّ وجلّ–**، ص204.

(5) نفسه، ص205.

(6) **يُنظر**: الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م1، ص96–99.

(7) **يُنظر**: نفسه، م1، ص701–704.

بقوله:"حديث حسن"[1]، كما في سورتي: القلم والماعون، و"بإسناد حسن"[2]، كما في سورة التّكوير، و"إسناده حسن"[3]، كما في سورة الإخلاص، "وهو حديث غريب"[4]، كما في سورة النّاس، "وهذا إسناد جيّد قويّ"[5]، كما في سورة النّجم، و"هو منكر الحديث"[6]، كما في سورة فُصّلت، "وهي روايات لم تصل إلى درجة الحسن"[7]، كما في سورة الدّخان، وفي معرض تفسيره لكلمة الويل في سورة الجاثية، قال: "وجاء في حديث لم يصل إلى درجة الصّحيح عند أهل الحديث أنّه واد في جهنّم"[8]، ويذكر الحديث في متن تفسيره، ويذكر درجته في الهامش، كالمرسل في سورة الشّرح[9]، والضّعيف في سورة (ص)؛ حيث يقول في هامش الصّفحة: "قيل سنده ضعيف، وأقول دلالاته مُطابقة لما يشير إليه الدّرس الثّاني من دروس سورة (ص) ضمناً"[10]، وقوله في الهامش –أيضاً–، في معرض تعليقه على حديث الويل: "ولم يبلغ هذا الحديث عند المحدّثين درجة الصّحيح، ولكن يُستأنس به للدّلالة على معنى شدّة العذاب"[11]، كما في سورة الزّمر.

إضافة إلى أنّه ينقل قولاً خاصّاً لمُفسّر من المفسّرين في شأن أسباب النّزول وغيرها، ويعتمده، دون أن يُحيل إلى كتاب الأصل –أيضاً–، ومن ذلك ما جاء في سورة النّجم؛ حيث قال: "قال ابن عطيّة: سبب نزولها أنّ المشركين قالوا: إنّ محمّداً يتقوَّل القرآن ويختلق أقواله، فنزلت السّورة في ذلك"[12]. ويقول في سبب نزول سورة لقمان: "قال أبو حيّان: سبب نزول هذه السّورة: أنّ قريشاً سألوا رسول الله –صلّى الله

---

(1) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م1، ص274، 692. **يُنظر مثلاً**: نفسه، م2، ص146. م3، ص97.

(2) نفسه، م1، ص411.

(3) نفسه، م2، ص74. **يُنظر مثلاً**: نفسه، م2، ص113. م5، ص548.

(4) نفسه، م2، ص42.

(5) نفسه، م2، ص114.

(6) نفسه، م12، ص454.

(7) نفسه، م13، ص11.

(8) نفسه، م13، ص89.

(9) **يُنظر**: نفسه، م1، ص595.

(10) نفسه، م3، ص593.

(11) نفسه، م12، ص200.

(12) نفسه، م2، ص95. **يُنظر**: ابن عطيّة، عبد الحقّ: **المُحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، ج5، ص195.

عليه وسلّم- عن قصّة لقمان مع ابنه، فأنزل الله -عزّ وجلّ- هذه السّورة"[1].

ويلاحظ على الشّيخ أنّه يورد أسباب النّزول في بداية السّورة إن كانت الأسباب تشمل السّورة كلّها، كسورة المسد والإخلاص -مثلاً-، أو يذكرها خلال السّورة لآيات مُعيّنة لها سبب نزول، كسورة العلق -مثلاً-. وأحياناً يُورد فحوى أيّة عبارة دون لفظها وسندها، كسورة عبس -مثلاً-. ثمّ يذكر بعد ذلك ما ورد في السّنّة النّبويّة بشأن السّورة التي يتدبّرها ويُفسّرها، قائلاً: ما ورد في السّنّة حول سورة (...)، أو ممّا جاء في السّنّة حول سورة (...)، أو ممّا جاء في السّنّة بشأن فضائل سورة (...)، أو ممّا ورد عن النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- بشأن هذه السّورة، أو ممّا ورد من أحاديث حول هذه السّورة، ثمّ يُورد مجموعة من الأحاديث الواردة في ذلك.

وقد رأيت من خلال قراءتي لتفسير الشّيخ أنّه يسير مع السّورة القرآنيّة، فيذكر موضوعها وما اشتملت عليه، ويُقسّمها إلى مقاطع مُتّحدة الفكرة والموضوع، تتفاوت من سورة إلى أُخرى بحسب طولها وقصرها، أطلق عليها دروساً تدبّريّة تحليليّة، فالشّيخ يؤمن بوَحدة السّورة وموضوعيّتها، كما يؤمن بضرورة تحرّي معنى الكلمة القرآنيّة، وذلك بالرّجوع إلى دلالاتها الأصليّة في كلام العرب، وتتبّعها في معاجم اللّغة، وقد جعلها القاعدة السّادسة عشرة من كتابه (قواعد التّدبّر الأمثل)[2]، فتراه يشرع في توضيح الكلمات القرآنيّة، فيعرض ما فيها من معانٍ واشتقاقات، وما يتعلّق بها من أُمور لُغويّة، وبعد ذلك ينتقل إلى شرح الآيات الكريمة، وتوضّيح المعنى العامّ لها بعد تحليل ألفاظها، كقوله في شرح كلمة ﴿فَتَنُواْ﴾ في سورة البروج[3]: "فتنوا: يُقال لغة: فَتَنَ يَفْتِنُ فَتْناً وفُتُوناً، والاسم منه (الفِتْنَة)، وهي في الأصل الصَّهرُ بالنّار للمعدن، كالذّهب والفضّة، لتمييز الرّديء من الجيّد. ثمّ صارت مادّة الكلمة تدلّ على مُطلق الابتلاء والامتحان والاختبار. ومن التّوسّعات اللّغويّة في دلالة هذه المادّة إطلاقها على الإحراق بالنّار، أو التّعذيب بها، عقاباً، أو انتقاماً، أو عُدْواناً وظُلْماً، ويسقط معنى الاختبار حينئذ. ومن التّوسّعات اللّغويّة، إطلاق الفتنة على الإغراء والإغواء، وعلى الإكراه بأنواع من التّعذيب للاستجابة لما يطلبه المُكرِه، وتُطلق أيضاً على الاستجابة إلى غير ذلك من التّوسّعات. وظاهر أنّ المراد هنا بفعل: فَتنوا: أنّ الطّغاة الجبابرة اتّخذوا الوسائل

---

(1) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م11، ص678. **يُنظر**: نفسه، م4، ص548. م5، ص55. م6، ص659. **يُنظر**: أبو حيّان، محمّد: **البحر المُحيط في التّفسير**، ج8، ص408.

(2) **يُنظر**: الميدانيّ، عبد الرّحمن: **قواعد التّدبّر الأمثل لكتاب الله -عزّ وجلّ-**، ص317-428. **القاعدة السّادسة عشرة**: حول ضرورة البحث في معاني الكلمات القرآنيّة بحثاً عِلْميّاً لغويّاً.

(3) الآية (10).

الإكراهيّة الضّاغطة، ومنها التّعذيب الجسديّ لجعل المؤمنين والمؤمنات يرتدّون عن دينهم"[1]. كما يعرض ما جاء عن النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم–، أو أصحابه –رضوان الله عليهم– بشأن بيان معنى الآية –إن وجد–.

ويُتبع بعض السّور بملاحق منفصلة حول قضايا مُتّصلة بها، أو مُقتبسة منها، تُمثّل موضوعات مُهمّة، مثل سورة الفاتحة[2]؛ حيث أورد أربعة ملاحق تدبّريّة لها: **الأوّل**: حول كلمة (آمين) بعد تلاوة الفاتحة. **والثّاني**: ممّا جاء في السّورة من بلاغيّات. **والثّالث**: وجوب تلاوة سورة الفاتحة في الصّلوات. **والرّابع**: نظرات تدبّريّة حول الآيات التي جاء فيها لفظ الصّراط ونحوه في القرآن، كالسّبيل، والطّريق، والمنهاج. وكما فعل في سورتي الفلق والنّاس[3]؛ حيث أورد أربعة ملاحق تدبّريّة لها –أيضاً–: **الأوّل**: نظرة عامّة حول ما جاء في سورتي الفلق والنّاس. **والثّاني**: حول فلسفة التّمكين من فعل الشّرّ. **والثّالث**: الاستعاذة في القرآن والسّنّة. **والرّابع**: حول السّحر.

ورأيته يهتمّ بالرّسوم التّوضيحيّة، وبالجداول التّفصيليّة التي تُذكّر بموضوع السّورة وفروعها[4]، بالرّغم من قلّتها إذا ما قُورنت بكتبه الأُخرى. ويُناقش أقوال السّابقين من مُفسّرين، ونحويّين، وغيرهم، ولا يُسلّم لما قالوه؛ بل يردّ جملة من أقوالهم، مُتّخذاً لنفسه مذهباً ورأياً، ويصفها أحياناً بالخطأ أو الغلط، فيعرض أقوالهم غالباً جملة دون ذكر اسم المفسّر، أو اسم التّفسير، وأحياناً يذكر اسم المفسّر. وأمثلة ذلك كثيرة، منها: ما جاء في تفسيره لسورة المرسلات في الملحق الأخير، حول الأقسام الواردة في صدر سورة المرسلات؛ حيث قال: "جاء عند المُفسّرين تفسير (المُرسلات) بالرّياح وبالملائكة والأنبياء، وتفسير (الفارقات) و(المُلقيات ذكراً) بالملائكة، ورأيت أنّ هذه التّفسيرات لا تستند إلى بيان نبويّ، وإنّما هي آراء اجتهاديّة ذكرها المفسّرون"[5]، ثمّ عرض وجهة نظره مُفصّلة، وهي طويلة مَفادها: أنّ القسم إنّما يكون بآيات كونيّة مشهودة أو معلومة للمُخاطَب؛ لتأكيد نبأ غيبيّ، لا بأُمور غيبيّة يُنكرها المُخاطَب لتأكيد أمر غيبيّ آخر، ثمّ قال بعدها: "هذا ما جعلني أستبعد الآراء التي ذُكرت في تفسير ما أقسم الله به في صدر سورة

(**1**) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م2، ص376. **يُنظر أيضاً**: نفسه، م1، ص383. م2، ص31. م6، ص410–411، وغيرها. ولمزيد من التّفصيل، **يُنظر**: صبرا، نادي: **منهج عبد الرّحمن حبنّكة في التّفسير**، ص155–177، رسالة ماجستير في التّفسير، الجامعة الأردنيّة، الأردنّ، 2006م.

(**2**) **يُنظر**: الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م1، ص313–373.

(**3**) **يُنظر**: نفسه، م2، ص42–70.

(**4**) **يُنظر**: نفسه، م1، ص188. م2، ص109. م6، ص306–307. م8، ص443. م9، ص575. م11، ص139. م14، ص431.

(**5**) نفسه، م2، ص664. م3، ص178.

المرسلات، باستثناء الرّياح لأنّها من آيات الله الكبرى المشهودة في الكون..."[1]. ومنها ما جاء في سورة الإخلاص؛ حيث ذكر رأي الرّازيّ في كون السّورة تعدل ثلث القرآن، وعدّل عليه، فقال: (رأى الرّازيّ احتمال أن يكون سبب كون سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن، أنّ المقصود الأشرف من جميع الشّرائع والعبادات، معرفة ذات الله، ومعرفة صفاته، ومعرفة أفعاله، وهذه السّورة مُشتملة على معرفة الذّات، فكانت هذه السّورة مُعادلة لثلث القرآن)[2]. ثمّ بيّن وجهة نظره، إلى أن قال: (ولهذا أرى إجراء التّعديل التّالي لما رآه الرّازيّ، فأقول: إنّ المطلوب في الدّين هو الإيمان، وثمرة صدق الإيمان المتحرّك الفاعل، والعمل المعبّر عنه)[3]. ثمّ ذكر أقسام الإيمان الثّلاثة، وقال: (ولـمّا أبانت سورة الإخلاص القسم الأوّل من هذه الأقسام الثّلاثة التي أُنزل القرآن لبيانها وتفصيلها، كانت بهذا الاعتبار بمثابة ثلث القرآن، -والله أعلم-)[4]. ومن ذلك -أيضاً-، ما جاء في تفسيره لسورة فاطر تحت عنوان: "خطأ الرّأي القائل إنّ العرب في جاهليّتهم كانوا يؤمنون بتوحيد الرّبوبيّة"[5]. ومنها تعليله لحذف الواو وإثباتها في قوله تعالى: (فُتحت، وفُتحت)، في سورة الزّمر؛ حيث يقول: "فالذي أراه أن الواو في عبارة: (وفُتحت) عَطفت على مطويّ يمكن التّعبير عنه بما ذكرت آنفاً؛ لأنّ السّوق إلى دار النّعيم يقتضي التّكريم باستقبال سارّ بهيج قبل الدّخول، وهذا مطويّ المحذوف من اللّفظ هو جواب (إذا)، بخلاف العبارة التي سبقت بشأن أهل النّار، فإنّ جواب (إذا) فيها هو (فُتحت)، وهذا الذي جعل بعض المفسّرين يرون أنّ الواو في (وفُتحت) زائدة، وهو غلط"[6]. ومنها -أيضاً-، ما جاء في تفسيره لسورة القمر تحت عنوان: خطأ ابن كَيْسان[7]، قال:

---

(1) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م2، ص664-665. م13، ص225.

(2) **يُنظر**: نفسه، م2، ص76.

(3) **يُنظر**: نفسه، م2، ص77.

(4) **يُنظر**: نفسه، م2، ص77. **ويُنظر مثلاً**: نفسه، م4، ص112-113. م5، ص594. م6، ص27. م7، ص384. م8، ص718. م9، ص66. م10، ص226. م11، ص88-89. م12، ص48. م13، ص649. م14، ص86.

(5) نفسه، م7، ص344.

(6) نفسه، م12، ص283.

(7) **هو**: عمرو بن عبيد بن باب، ويُقال: ابن كَيْسان التّميميّ، أبو عثمان البصريّ، مولى بني تميم، من أبناء فارس، شيخ القدريّة والمعتزلة. قال أبو الحسن الميمونيّ عن أحمد بن حنبل: ليس بأهل أن يُحدّث عنه. وقال عبّاس الدّوريّ عن يحيى بن معين: ليس بشيء. وقال عمرو بن عليّ: متروك الحديث، صاحب بدعة. وقال النّسائيّ: ليس بثقة، ولا يكتب حديثه. قال عنه ابن حجر: مُعتزليّ مشهور كان داعية إلى بدعته، اتّهم جماعة مع أنّه كان عابداً. تُوفّي سنة 142هـ وقيل سنة 143هـ. **يُنظر**: المزّيّ، يوسف: **تهذيب الكمال في أسماء الرّجال**، ج22، ص123-135. **يُنظر**: ابن حجر العسقلانيّ، أحمد: **تقريب التّهذيب**، ص424. **يُنظر**: الذّهبيّ، محمّد: **العبر في خبر من غبر**، ج1، ص149.

"زعم ابن كَيْسان أنّ قول الله –عزّ وجلّ–: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾[1] على التّقديم والتّأخير، وأنّ الأصل انشقّ القمر واقتربت السّاعة، مُتوّهماً أنّ انشقاق القمر سابق لاقتراب السّاعة. لقد ظنّ أنّ اقتراب السّاعة هو وقوعها، فوقع في الخطأ، مع أنّ اقتراب السّاعة شيء، ووقوع السّاعة شيء آخر، فاقتراب السّاعة حاصل قبل انشقاق القمر حتماً"[2].

وفي السّورة نفسها –سورة القمر– أراه يردّ قول النّحويّين عند قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾[3]، فيقول: "ولا أحبّ هنا مُتابعة النّحويّين في قولهم: أي: وفجّرنا عيون الأرض، فقولهم هذا يُلغي دلالة الصّورة البلاغيّة الأدبيّة الرّائعة، ويجعل التّعبير صيغة من صيغ تحويل المفعول به إلى تمييز. مع أنّ العبارة تدلّ على أنّ الله –عزّ وجلّ– قد جعل كلّ موقع في الأرض عيناً تتفجّر ماءً مُتدفّقاً، لا أنّه جعل العيون التي فيها تتفجّر وتتدفّق، وفرق كبير بين الدّلالتين، وهذا الفرق يُدركه أصحاب الحسّ الأدبيّ الرّفيع"[4]. وفي دلالة كلمة (إذا) يردّ كلام النّحويّين، ويقول: "يرى النّحويّون أنّها لا تدلّ على معنى، إذا افتقر ما قبلها إلى ما بعدها. وأرى أنّها بمعنى (حينئذ) بالنّظر إلى جملة المعنى"[5]. ويُرجّح بين آرائهم، فيقول: "لا يشترط الكوفيّون والأخفش من البصريّين اقتران الفعل الماضي بـِ (قد) إذا وقع في صدر جملة خالية، وهو الأرجح فيما أرى"[6].

وتجنّباً للتّكرار والحشو والتّطويل، ودفعاً للقارئ وشحذاً لهمّته إلى استكمال الموضوع والإحاطة به؛ فقد كان في تفسيره لبعض الآيات يُحيل إلى تفسيره نفسه، أو إلى مراجع خارجيّة من تأليفه أو من تأليف غيره، ومن ذلك: عند تفسيره للآية الأولى من سورة الأعراف: ﴿الٓمٓصٓ﴾[7] يقول: "وقد سبق في أوّل سورة القلم بيان كاف حول الحروف المُقطّعة الموجودة في أوائل بعض السّور"[8]. وعند تفسيره للآية (19) من السّورة نفسها ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

(**1**) سورة القمر: الآية (1).

(**2**) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م3، ص334.

(**3**) سورة القمر: الآية (12).

(**4**) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م3، ص366. **يُنظر مثلاً**: نفسه، م6، ص37. م7، ص154. م8، ص30–31. م9، ص704. م10، ص69. م11، ص228.

(**5**) نفسه، م11، ص30. **يُنظر مثلاً**: نفسه، م15، ص323.

(**6**) نفسه، م13، ص113.

(**7**) سورة الأعراف: الآية (1).

(**8**) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م4، ص51.

يقول: "وأورد ابن كثير في كتابه (قصص الأنبياء)، قال: حكى السّدّيّ..."[1]، تراه يُحيل في هامش الصّفحة إلى الجزء والصّفحة من ذلك الكتاب. وعند حديثه عن الرّسول شُعيب –عليه السّلام– مع قومه –أهل مَدْيَنَ أصحاب الأيكة– في السّورة نفسها من الآية (85–87)، تراه يُحيل في هامش الصّفحة إلى تفسيره، فيقول: "انظر الدّراسة التّكامليّة لهذه النّصوص في المُلحق السّادس من ملاحق هذه السّورة"[2]. وعند حديثه عن علوّ بني إسرائيل في الأرض عند قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾[3]، وبلوغهم هذا العلوّ عن طريق مُنظّماتهم السرّيّة الشّيطانيّة الفاسدة، تراه يُحيل في هامش الصّفحة إلى كتبه: (مكايد يهوديّة عبر التّاريخ)، و(ظاهرة النّفاق وخبائث المنافقين في التّاريخ)، و(كواشف زيوف في المذاهب الفكريّة المعاصرة)[4].

ويلاحظ عليه أنّه يعتدّ برأيه وما توصّل إليه من معانٍ لم يتنبّه إليها غيره، واعتبار ما فتح الله –تعالى– عليه من الفهم هو الأولى بالأخذ والاعتماد[5]، بطريقة مُهذّبة مُتواضعة، دون الانتقاص من الآخرين، تتجلّى في اعترافه في القضايا التي يكون فيها علمه يسيراً بقدر علمه دون غرور أو تكبّر، فعلى سبيل المثال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾[6]، قال: "وهذا أسلوب تعجّبيّ من أساليب القرآن الكريم التي جاءت في نصوص عديدة...، وهو من الأساليب التّعجّبيّة التي لم تكن معروفة عند البلغاء فيما أعلم"[7]. وتراه يقول في الملحق الثّالث من تفسير سورتي الفلق والنّاس: "كان أوّل ما نزل في القرآن حول الاستعاذة بالله –جلّ جلاله– ما جاء في سورتي: الفلق والنّاس، اللّتين تدبّرنا آياتهما على قدر أوعيتنا الفكريّة"[8]. ويقول في المُلحق الثّاني من تفسير سورة البلد عند قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝١٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾[9]: "وقد سبق تدبّر هذا النّصّ مع تدبّر دروس السّورة على

---

(1) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م4، ص130. **يُنظر**: ابن كثير، إسماعيل: **قصص الأنبياء**، ج1، ص13.

(2) نفسه، م4، ص402.

(3) سورة الإسراء: الآية (4).

(4) **يُنظر**: الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م9، ص553. **قلت**: ويُحيل في المتن إلى كتب من تأليفه، مثل: نوح –عليه السّلام– وقومه في القرآن. **يُنظر**: نفسه، م10، ص387. وكتابه: كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة. **يُنظر**: نفسه، م12، ص645. وغير ذلك.

(5) **يُنظر**: نفسه، م4، ص422. م5، ص15، 406. م8، ص315، 586.

(6) سورة الواقعة: الآية (8).

(7) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م8، ص441.

(8) نفسه، م2، ص51.

(9) سورة البلد: الآيتان (18–19).

مقدار أوعيتنا الفكريّة"[1]. وممّا يدلّ على تواضعه، اعترافه لما ذهب إليه بعض المفسّرين؛ حيث يقول في معرض حديثه عن الجنين في سورة غافر: "والذي لا إشكال فيه هو ما فتح الله به عليّ من فهم، فالجنين في ضمن مدة (120) يوماً ذو نفس إنسانيّة، ولكن ليس له روح تجعله إنساناً حيّاً، فهو في موتة أُولى"[2]، ثمّ علّق على كلامه هذا في هامش الصّفحة، فقال: "بعد أن كتبت هذا، رأيت أنّ بعض كبار المفسّرين ذهب إلى هذا الفهم الذي ظهر لي، والحمد لله على فتحه"[3].

أمّا بالنّسبّة للقضايا العِلْميّة في تفسير الشّيخ –رحمه الله تعالى–، فقد ظهر لي أنّه يرى ضرورة التّفسير العِلْميّ للآيات التي تضمّنت كلاماً حول قضايا عِلْميّة مُختلفة أو أشارت إليها، وقد ضمّنها القاعدة الثّالثة عشرة من كتابه (قواعد التّدبّر الأمثل): "حول أنّ القرآن لا اختلاف فيه ولا تناقض، وأنّه لا تناقض بينه وبين الحقائق العِلْميّة الثّابتة بالوسائل الإنسانيّة"[4]. وقد قام بتطبيق هذه القاعدة عند تدبّر الآيات الدّالّة على قضايا عِلْميّة مُختلفة بمقتضى ما ثبت من العلوم مُستنبطاً ما فيها من إشارات حولها، ومُشيراً إلى هدف القرآن الكريم من إيرادها، باعتبارها عنصراً من عناصر الإعجاز القرآنيّ. **–وسيأتي تفصيل ذلك لاحقاً إن شاء الله تعالى–.**

وأخيراً، يُتوّج خاتمة مُجلّداته بعمق صلته بربّه –تعالى–، فيُرجع الفضّل إلى الله –تعالى–؛ إذ يقول: "هذا ما فتح الله به عليّ من تدبّر، والحمد لله على ما تفضّل عليّ ومَنّ، إنّه جزيل العطاء، وعظيم المَنّ"[5]. إضافة إلى الدّعاء والصّلاة على النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم–، يكرّرها مع اختلاف في الألفاظ؛ بل يُلاحظ عليه تواضعه لله –تعالى– وخضوعه له في نهاية كلّ سورة يُفسّرها.

هذا، ومع أنّ عنوان التّفسير يُوحي بأنّ مضمونه تدبريّ في الأساس، إلّا أنّ الشّيخ تعرّض فيه لجملة من الأحكام الفقهيّة والمسائل البلاغيّة، كتعرّضه لحكم الاستعاذة قبل القراءة في الصّلاة، وكون البسملة آية من القرآن الكريم؛ حيث افتتح الشّيخ تفسيره بذكر مُقدّمات حول الاستعاذة والبسملة تحت عنوان: "مُقدّمات حول أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم، وبسم الله الرّحمن الرّحيم"[6]؛ حيث تعرّض فيها إلى ستّة مواضيع: مفهومات تتعلّق بالاستعاذة والبسملة، وحكم الاستعاذة قبل القراءة في الصّلاة، والتّدبّر التّحليليّ للبسملة،

---

(1) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م3، ص220. **يُنظر مثلاً**: نفسه، م3، ص395، 405. م10، ص633.

(2) نفسه، م12، ص332.

(3) نفسه.

(4) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **قواعد التّدبّر الأمثل لكتاب الله –عزّ وجلّ–**، ص225–238.

(5) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م5، ص707. م6، ص743. م8، ص776. م9، ص765. م12، ص798. م14، ص704.

(6) نفسه، م1، ص7–28.

ومُناقشة حول كون لفظة (اسم) مُقحمة في البسملة أو لا، والشّرح العامّ للاستعاذة والبسملة، ومن وجوه البلاغة في البسملة.

تلك هي الصّورة العامّة لتفسير الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ، كما استطعت أن أتبيّنها من خلال تفسيره، وأكتفي بهذا القدر من بيان منهجه في تفسيره، فهذا ما أسعفني به عِلْميّ المتواضع من قدرة ومُلاحظة واستنتاج[1]، -والله تعالى وليّ التّوفيق-.

(1) **لمزيد من التّفصيل، يُنظر**: صبرا، نادي: **منهج عبد الرّحمن حبنّكة في التّفسير**، رسالة ماجستير في التّفسير، الجامعة الأردنيّة، الأردنّ، 2006م.

المبحث الثّالث

طريقة تفسير القرآن الكريم حسب ترتيب النّزول

إنّ المُستقرئ لجهود العلماء والمفسّرين في تفسير القرآن الكريم، يظهر له بوضوح أنّ تفسير القرآن الكريم حسب نزول الآيات لم يظهر إلّا مُتأخّراً، في بدايات القرن العشرين ميلاديّاً، ذلك أنّ المفسّرين مُتّفقون على تفسير القرآن الكريم حسب ترتيب المصحف، ولم أجد في تفسيرات السّابقين مَن بحث هذه الطّريقة –وفق اجتهادي المتواضع–.

وعند دراستي لجهود المفسّرين المعاصرين، وجدت أنّ أوّل من تناول تفسير القرآن الكريم حسب ترتيب النّزول هو الشّيخ محمّد عزّة دروزة[1] في تفسيره المُسمّى (التّفسير الحديث)، الذي طُبع عام 1963م، ثمّ جاء في الوقت نفسه تفسير آخر طُبع عام 1964م، للشّيخ عبد القادر ملّا حويش[2] المُسمّى (بيان المعاني). وبعد هذين الجهدين جاء جهد الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة في تفسيره (معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر)، –وهو مدار بحثي ودراستي–، حيث يقول في مُقدّمته: "وقد ألحّ عليّ ناشر كُتبي –حفظه الله– بأن أبدأ بنشر ما يُنجزه الله لي من مُجلّدات في هذا التّدبّر، الذي ترجّح لديّ فيه أن أُتابع تدبّر السّور على ما ذكر العلماء بعلوم القرآن من ترتيب نزولها، لا على وفق ترتيبها الاجتهاديّ في المصاحف، التزاماً بترتيب المصحف الذي وُزّعت نُسخ منه على مُعظم أمصار المسلمين في عهد عثمان –رضي الله عنه–"[3]. ولعلّ من المناسب أن أُشير هنا إلى أنّ بعض العلماء القُدامى قد فطن إلى أهمّيّة ترتيب القرآن الكريم وفق النّزول التّاريخيّ لسوره، ومنهم من اعتبر ذلك من أشرف العلوم. قال أبو القاسم النّيسابوريّ[4]: "من أشرف علوم

---

(1) **هو**: محمّد عزّة دروزة، الباحث، والمُؤرّخ، والموسوعيّ. وُلد في مدينة نابلس. ألّف كتباً مدرسيّة عن تاريخ العرب والإسلام، وتابع التّأليف في تاريخ العرب والمسلمين وفي القضيّة الفلسطينيّة، حتّى بلغت عدّة كتبه المطبوعة تسعة وثلاثين كتاباً، قوامها سبعون مُجلّداً! ولعلّ من أبرز مُؤلّفاته تفسيره للقرآن الكريم المسمّى: التّفسير الحديث؛ حيث قام بتفسيره حسب نزوله. تُوفّي سنة 1404هـ–1984م. **يُنظر**: يوسف، محمّد خير: **تكملة مُعجم المُؤلّفين**، ص523–526. **يُنظر**: السّلواديّ، حسن: **محمّد عزّة دروزة وتفسيره المُسمّى التّفسير الحديث**، ص62–98.

(2) **هو**: عبد القادر ملّا حويش، العالم، المفسّر، القاضي. صُوفيّ، نقشبنديّ الطّريقة. له كتب عديدة، أهمّها: تفسيره للقرآن الكريم المسمّى: بيان المعاني؛ حيث قام بتفسيره حسب نزوله، وقد طبعه على نفقته، وصرف عليه أموالاً، ووزّعه مجّاناً. تُوفّي سنة 1398هـ–1978م. **يُنظر**: يوسف، محمّد خير: **تكملة مُعجم المُؤلّفين**، ص699–700.

(3) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م1، ص6.

(4) **هو**: الحسن بن محمّد بن حبيب بن أيّوب، أبو القاسم النّيسابوريّ، الواعظ المفسّر. إمام عصره في معاني القرآن وعلومه. تُوفّي سنة 406هـ. **يُنظر**: السّيوطيّ، عبد الرّحمن: **طبقات المُفسّرين العشرين**، ص45–46. **يُنظر**: الأدنه وي، أحمد: **طبقات المُفسّرين**، ص97–98.

القرآن، عِلْم نزوله، وجهاته، وترتيب ما نزل بمكّة ابتداءً ووسطاً وانتهاءً، وترتيب ما نزل بالمدينة كذلك، ثمّ ما نزل بمكّة وحكمه مدنيّ، وما نزل بالمدينة وحكمه مكّيّ..."[1]. وقد عرّف العلماء السّورة القرآنيّة بتعريفات عديدة، كلّها تتناغم مع بعضها البعض، وتُؤدّي معنى اصطلاحيّاً صحيحاً، رأيت أقربها أنّها: "طائفة من آيات القرآن جُمعت وضمّ بعضها إلى بعض؛ حتّى بلغت في الطّول والمقدار الذي أراده الله -سبحانه وتعالى- لها"[2]. كما أرى أنّ المراد بترتيب سور القرآن الكريم -بعد الطّلاع على مفهوم كلمة التّرتيب في اللّغة- يعني: وَضْع كلّ سورة من سور القرآن الكريم في موضعها المناسب الذي عليه في المصحف العثمانيّ، من حيث التّرتيب والتّناسق وبصورة ثابتة.

وإذا كانت هذه الطّريقة واضحة لهؤلاء المفسّرين الذين تناولوها بالتّطبيق في تفسيرهم للقرآن الكريم، فإنّني وجدت من العلماء من وقف عند هذه المسألة؛ ليبحث في توقيفها أو توفيقها؛ لذا انقسم العلماء في هذه المسألة – أعني ترتيب القرآن الكريم حسب ترتيب النّزول – إلى أقوال ثلاثة[3]: **القول الأوّل:** إنّه توقيفيّ، تولّاه النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- كما أخبر به جبريل -عليه السّلام- عن الله -عزّ وجلّ-، وليس للاجتهاد فيه أيّ مجال، ولم توضع سورة في موضعها من المصحف إلّا بناء على أمره، وتعليمه، أو برمزه وإشارته، على حسب ما فهمه الصّحابة -رضوان الله عليهم- من تلاوته -صلّى الله عليه وسلّم-، فحفظوه وبلّغوه لمن بعدهم على ذلك. وأصحاب هذا القول يرون أنّه لا يجوز العدول عن هذا التّرتيب لأيّ غرض كان. **القول الثّاني:** إنّه توفيقيّ، كان باجتهاد من الصّحابة- رضي الله عنهم-. وأصحاب هذا القول يرون أنّه لا مخالفة شرعيّة في العدول عن ترتيب السّور في القرآن الكريم لغرض عِلْميّ أو منهجيّ، كما هو الحال في الكشف عن معان إيمانيّة تربويّة جديدة، من خلال تناول التّفسير حسب ترتيب النّزول. **القول الثّالث:** إنّ بعض السّور ترتيبه توقيفيّ من النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-، وبعضه توفيقيّ باجتهاد من الصّحابة -رضى الله عنهم-.

وإنّه ليترجّح لي -بعد النّظر في أدلّة كلّ منهم- أنّ ترتيب السّور توقيفي من الله -تعالى- أوحى به إلى

(**1**) الزّركشيّ، محمّد: **البُرهان في علوم القرآن**، ج1، ص192. السّيوطيّ، عبد الرّحمن: **الإتقان في علوم القرآن**، ج1، ص36. أبو شُهبة، محمّد: **المَدخل لدراسة القرآن الكريم**، ص218.

(**2**) أبو شُهبة، محمّد: **المَدخل لدراسة القرآن الكريم**، ص317.

(**3**) **يُنظر:** الزّركشيّ، محمّد: **البُرهان في علوم القرآن**، ج1، ص257-262. **يُنظر:** السّيوطيّ، عبد الرّحمن: **الإتقان في علوم القرآن**، ج1، ص216-220. **يُنظر:** أبو شُهبة، محمّد: **المَدخل لدراسة القرآن الكريم**، ص325-330. **يُنظر:** لاشين، موسى: **اللآلئ الحسان في علوم القرآن**، ص38-43. **يُنظر:** الزّرقانيّ، محمّد: **مَناهل العرفان في علوم القرآن**، ج1، ص353-359.

الرّسول–صلّى الله عليه وسلّم– بوساطة الملك جبريل –عليه السّلام–؛ لحكمة بالغة يعلمها وحده، وذلك لحصول اليقين من النّقل المتواتر بهذا التّرتيب، من تلاوة الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم–، وممّا أجمع الصّحابة على وضعه هكذا في المصحف، فقد نزل القرآن مُنجّماً في ثلاثة وعشرين عاماً تقريباً، وكان نُزوله مُلائماً للوقائع والأحوال التي مرّت فيها الدّعوة الإسلاميّة، ومُراعياً ما يتطلّبه الزّمن الذي نزل فيه؛ لذا يختلف ترتيب القرآن الكريم في النّزول، عن ترتيبه في المصحف اختلافاً كبيراً.

"وسواء كان ترتيب السّور توقيفيّاً أم اجتهاديّاً، فإنّه ينبغي احترامه، وبخاصّة في كتابة المصاحف؛ لأنّ أقلّ الأمرين رعاية صدوره عن الإجماع، والإجماع حُجّة واجبة القبول، –والله أعلم–"[1]. قال الزّركشيّ[2]: "قال بعض مشايخنا المحقّقين: قد وَهم من قال: لا يُطلب للآي الكريمة مناسبة لأنّها على حسب الوقائع المتفرّقة، وفصل الخطاب أنّها على حسب الوقائع تنزيلاً، وعلى حسب الحكمة ترتيباً، فالمصحف كالصّحف الكريمة على وفق ما في الكتاب المكنون، مُرتّبة سوره كلّها وآياته بالتّوقيف، وحافظ القرآن العظيم لو استُفتي في أحكام مُتعدّدة، أو ناظر فيها، أو أملاها؛ لذكر آية كلّ حكم على ما سُئل، وإذا رجع إلى التّلاوة لم يتل كما أفتى، ولا كما نزل مُفرّقاً؛ بل كما أُنزل جملة إلى بيت العزّة ومن المُعجز البيّن أسلوبه ونظمه الباهر فإنّه ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[3]، والذي ينبغي في كلّ آية، أن يبحث أوّل كلّ شيء عن كونها مُكمّلة لما قبلها، أو مُستقلّة، ثمّ المُستقلّة ما وجه مناسبتها لما قبلها؟ ففي ذلك عِلْم جمّ، وهكذا في السّور يطلب وجه اتّصالها بما قبلها، وما سيقت له. وهو مبنيّ على أنّ ترتيب السّور توقيفيّ وهذا الرّاجح"[4]. ويُرجّح صُبحي الصّالح[5] (أنّ ترتيب السّور توقيفيّ كترتيب الآيات، لا دخل للصّحابة فيه لا رأياً ولا اجتهاداً، ويُرجع عدم جمع القرآن الكريم بين دفّتي المصحف في

---

(1) لاشين، موسى: **اللآلئ الحسان في علوم القرآن**، ص43.

(2) **هو**: محمّد بن عبد الله بن بهادر الزّركشيّ الموصليّ الشّافعي، بدر الدّين، أبو عبد الله. ألّف تصانيف كثيرة في فنون عديدة. من مُصنّفاته: شرح البخاريّ، وشرح التّنبيه، والبرهان في علوم القرآن، وغير ذلك، تُوفّي سنة 794هـ. **يُنظر**: الأدنه وي، أحمد: **طبقات المُفسّرين**، ص302. **يُنظر**: الزّركليّ، خير الدّين: **الأعلام**، ج6، ص60–61. **يُنظر**: نويهض، عادل: **معجم المُفسّرين (من صدر الإسلام وحتّى العصر الحاضر)**، ج2، ص505.

(3) سورة هود: الآية (1).

(4) الزّركشيّ، محمّد: **البُرهان في علوم القرآن**، ج1، ص37–38.

(5) **هو**: العلّامة الشّيخ الدّكتور صُبحِي إبراهيم الصّالح عالم، فقيه، مُجتهد، أديب، لُغويّ، مُجاهد. له مُؤلّفات في مختلف أنواع العلوم والمعارف، أهمّها: نثر اللآلي في ترجمة أبي المعالي، ومباحث في علوم القرآن، وعلوم الحديث ومُصطلحاته، وغير ذلك. استُشهد سنة 1407هـ. **يُنظر**: موقع رابطة العلماء السّوريّين: **ترجمة صبحي إبراهيم الصّالح**، بقلم سعد الدّين المصطفى، على الرّابط الآتي: http://islamsyria.com

عهد النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم– لكثرة القرّاء والحفظة في عهده، وترقّبه لنزول الوحي عليه، وإمكانيّة النّسخ لبعض أحكامه)[1].

وإنّ النّاظر في تفسير الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة يجد أنّه جاء وفق ترتيب النّزول –كما ذكرت سابقاً–، مع عرض له بأُسلوب سهل واضح لا لُبس فيه، فلقد اطّلع الشّيخ على ترتيبات عديدة لنزول السّور القرآنيّة، منها ترتيبات أوردها الزّركشيّ في كتابه (البرهان في علوم القرآن)[2]؛ حيث ذكر ترتيب نزول السّور في العهد المكّيّ، وفي العهد المدنيّ، ثمّ قال بعد ذكر ما نزل في مكّة: "فهذا ترتيب ما نزل من القرآن بمكّة وعليه استقرّت الرّواية من الثّقات وهي خمس وثمانون سورة"[3].

وقد أثبت الشّيخ في مُلحق القاعدة التّاسعة من كتابه (قواعد التّدبّر الأمثل) جدولاً فيه ترتيب السّور بحسب النّزول، ذكر فيه ما في السّور المكّيّة من آيات مدنيّة، وما في السّور المدنيّة من آيات مكّيّة، وما ذكره العلماء حول أوّل ما نزل من القرآن، وآخر ما نزل، ونحو ذلك[4]، ومُوافقاً لما ذكره الزّركشيّ؛ بيد أنّه زاد سورة الفاتحة، وجعلها من التّنزيل المكّيّ في التّرتيب الخامس بعد سورة القلم، بحسب ما ترجّح عنده من مكّيّتها[5]؛ (إذ لم يرد عن النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم– في ذلك قول، ولم يُؤمر به، ولم يجعل الله –تعالى– علم ذلك من فرائض الأُمّة، وإنّما يرجع في معرفة المكّيّ والمدنيّ إلى حفظ الصّحابة والتّابعين)[6].

وعندما نظرت في هذه التّرتيبات للسّور القرآنيّة، وجدت أنّ السّيوطيّ[7] أوردها في كتابه (الإتقان في

---

(1) **يُنظر**: الصّالح، صبحي: **مَباحث في علوم القرآن**، ص73.

(2) **يُنظر**: الزّركشيّ، محمّد: **البُرهان في علوم القرآن**، ج1، ص193–194.

(3) نفسه، ج1، ص194.

(4) **يُنظر**: الميدانيّ، عبد الرّحمن: **قواعد التّدبّر الأمثل لكتاب الله –عزّ وجلّ–**، القاعدة الثّانية، ص178–184.

(5) قال الزّركشيّ: "وأمّا ما اختلفوا فيه ففاتحة الكتاب، قال ابن عبّاس والضّحاك ومقاتل وعطاء: إنّها مكّيّة، وقال مُجاهد مدنيّة". الزّركشيّ، محمّد: **البُرهان في علوم القرآن**، ج1، ص194. وقال السّيوطيّ: "سورة الفاتحة: الأكثرون على أنّها مكّيّة؛ بل ورد أنّها أوّل ما نزل". السّيوطيّ، عبد الرّحمن: **الإتقان في علوم القرآن**، ج1، ص46.

(6) **يُنظر**: الباقلّانيّ، محمّد: **الانتصار للقرآن**، ج1، ص247.

(7) **هو**: عبد الرّحمن بن أبي بكر بن محمّد بن سابق الدّين الخضيريّ السّيوطيّ، جلال الدّين، إمام حافظ مؤرّخ أديب. له نحو 600 مُصنّف. من كتبه: الإتقان في علوم القرآن، والأشباه والنّظائر، وتفسير الجلالين، وغير ذلك. تُوفّي سنة 911هـ. **يُنظر**: الزّركليّ، خير الدّين: **الأعلام**، ج3، ص301. **يُنظر**: نويهض، عادل: **معجم المُفسّرين (من صدر الإسلام وحتّى العصر الحاضر)**، ج1، ص264.

علوم القرآن) من حديث ابن عبّاس –رضي الله عنهما– من طريق ابن الضُّريس[1] في كتابه (فضائل القرآن)، قال: (أوّل ما نزل من القرآن بمكّة، وما أُنزل منه بالمدينة الأوّل، فكانت إذا نزلت فاتحة سورة بمكّة فكُتبت بمكّة، ثمّ يزيد الله فيها ما يشاء، وكان أوّل ما أُنزل من القرآن: اقرأ باسم ربك الذي خلق...)[2]، ثمّ سرد السّور المكّيّة، وهي ستّ وثمانون سورة، والسّور المدنيّة وهي ثمان وعشرون سورة.

وعندما رجعت إلى هذه الرّواية في ترتيب السّور القرآنيّة لابن الضُّريس في كتابه (فضائل القرآن)[3]، رأيت الشّيخ قد التزم بها التزاماً تامّاً دون خلاف.

(**1**) **هو**: الحافظ المحدّث الثّقة المصنّف أبو عبد الله محمّد بن أيّوب بن يحيى بن ضُريس البجليّ الرّازيّ، صاحب كتاب: "فضائل القرآن". انتهى إليه علوّ الإسناد بالعجم مع الصّدق، والمعرفة. قال أبو يعلى الخليليّ: ابن الضُّريس ثقة وهو محدّث ابن محدّث، وجدّه يحيى بن الضُّريس من أصحاب سفيان الثّوريّ. تُوفّي سنة 294هـ. **يُنظر**: الذّهبيّ، محمّد: **سير أعلام النّبلاء**، ج10، ص471. **يُنظر**: **تذكرة الحُفّاظ**، ج2، ص160.

(**2**) **يُنظر**: السّيوطيّ، عبد الرّحمن: **الإتقان في علوم القرآن**، ج1، ص42-43.

(**3**) ابن الضُّريس، محمّد: **فضائل القرآن وما أُنزل من القرآن بمكّة وما أُنزل بالمدينة**، ص33، باب فيما نزل من القرآن بمكّة، وما نزل بالمدينة، حديث رقم: 17. **الحديث**: أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ، قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ، قَالَ: أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ، قَالَ: قَالَ عُمَرُ بْنُ هَارُونَ قَالَ: حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ عَطَاءٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: " أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ بِمَكَّةَ، وَمَا أُنْزِلَ مِنْهُ بِالْمَدِينَةِ الْأَوَّلُ فَالْأَوَّلُ، فَكَانَتْ إِذَا نَزَلَتْ فَاتِحَةُ سُورَةٍ بِمَكَّةَ فَكُتِبَتْ بِمَكَّةَ، ثُمَّ يَزِيدُ اللَّهُ فِيهَا مَا يَشَاءُ، وَكَانَ أَوَّلُ مَا أُنْزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، ثُمَّ ن وَالْقَلَمِ، ثُمَّ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ، ثُمَّ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، ثُمَّ الْفَاتِحَةَ، ثُمَّ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ، ثُمَّ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ، ثُمَّ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى، ثُمَّ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى، ثُمَّ وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ، ثُمَّ وَالضُّحَى، ثُمَّ أَلَمْ نَشْرَحْ، ثُمَّ وَالْعَصْرِ، ثُمَّ وَالْعَادِيَاتِ، ثُمَّ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ، ثُمَّ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ، ثُمَّ أَرَأَيْتَ الَّذِيَ يُكَذِّبُ، ثُمَّ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، ثُمَّ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ، ثُمَّ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ، ثُمَّ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ، ثُمَّ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، ثُمَّ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى، ثُمَّ عَبَسَ وَتَوَلَّى، ثُمَّ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، ثُمَّ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، ثُمَّ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ، ثُمَّ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ، ثُمَّ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ، ثُمَّ الْقَارِعَةُ، ثُمَّ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ، ثُمَّ وَالْمُرْسَلَاتِ، ثُمَّ ق وَالْقُرْآنِ، ثُمَّ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ، ثُمَّ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ، ثُمَّ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ، ثُمَّ ص وَالْقُرْآنِ، ثُمَّ الْأَعْرَافَ، ثُمَّ قُلْ أُوحِيَ، ثُمَّ يس وَالْقُرْآنِ، ثُمَّ الْفُرْقَانَ، ثُمَّ الْمَلَائِكَةَ، ثُمَّ كهيعص، ثُمَّ طه، ثُمَّ الْوَاقِعَةَ، ثُمَّ طسم الشُّعَرَاءِ، ثُمَّ طس النَّمْلِ، ثُمَّ الْقَصَصَ، ثُمَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ، ثُمَّ يُونُسَ، ثُمَّ هُودَ، ثُمَّ يُوسُفَ، ثُمَّ الْحِجْرَ، ثُمَّ الْأَنْعَامَ، ثُمَّ الصَّافَّاتِ، ثُمَّ لُقْمَانَ، ثُمَّ سَبَأَ، ثُمَّ الزُّمَرَ، ثُمَّ حم الْمُؤْمِنِ، ثُمَّ حم السَّجْدَةِ، ثُمَّ حم عسق، ثُمَّ الزُّخْرُفَ، ثُمَّ الدُّخَانَ، ثُمَّ الْجَاثِيَةَ، ثُمَّ الْأَحْقَافَ، ثُمَّ الذَّارِيَاتِ، ثُمَّ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ، ثُمَّ الْكَهْفَ، ثُمَّ النَّحْلَ، ثُمَّ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا، ثُمَّ سُورَةَ إِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ الْأَنْبِيَاءَ، ثُمَّ الْمُؤْمِنُونَ، ثُمَّ تَنْزِيلُ السَّجْدَةِ، ثُمَّ الطُّورَ، ثُمَّ تَبَارَكَ الْمُلْكِ، ثُمَّ الْحَاقَّةَ، ثُمَّ سَأَلَ سَائِلٌ، ثُمَّ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، ثُمَّ النَّازِعَاتِ، ثُمَّ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ، ثُمَّ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ، ثُمَّ الرُّومَ، ثُمَّ الْعَنْكَبُوتَ، ثُمَّ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ. فَهَذَا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِمَكَّةَ، وَهِيَ سِتٌّ وَثَمَانُونَ سُورَةً، ثُمَّ أَنْزَلَ بِالْمَدِينَةِ سُورَةَ الْبَقَرَةِ، ثُمَّ الْأَنْفَالَ، ثُمَّ آلَ عِمْرَانَ، ثُمَّ الْأَحْزَابَ، ثُمَّ الْمُمْتَحِنَةَ، ثُمَّ النِّسَاءَ، ثُمَّ إِذَا زُلْزِلَتِ، ثُمَّ الْحَدِيدَ، ثُمَّ سُورَةَ مُحَمَّدٍ، ثُمَّ الرَّعْدَ، ثُمَّ سُورَةَ الرَّحْمَنِ، ثُمَّ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ، ثُمَّ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ، ثُمَّ لَمْ يَكُنْ، ثُمَّ الْحَشْرَ، ثُمَّ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ، ثُمَّ النُّورَ، ثُمَّ الْحَجَّ، ثُمَّ الْمُنَافِقُونَ، ثُمَّ الْمُجَادَلَةَ، ثُمَّ الْحُجُرَاتِ، ثُمَّ لِمَ تُحَرِّمْ، ثُمَّ الْجُمُعَةَ، ثُمَّ التَّغَابُنَ، ثُمَّ الْحَوَارِيُّونَ، ثُمَّ الْفَتْحَ، ثُمَّ الْمَائِدَةَ، ثُمَّ التَّوْبَةَ، فَذَلِكَ ثَمَانٌ وَعِشْرُونَ سُورَةً، فَجَمِيعُ الْقُرْآنِ مِائَةُ سُورَةٍ وَأَرْبَعَ عَشْرَةَ سُورَةً، وَجَمِيعُ آيِ الْقُرْآنِ سِتَّةُ آلَافِ آيَةٍ وَسِتُّمِائَةِ آيَةٍ وَسِتُّ عَشْرَةَ آيَةً، وَجَمْعُ حُرُوفِ الْقُرْآنِ: ثَلَاثُ مِائَةِ أَلْفِ حَرْفٍ، وَثَلَاثَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفِ حَرْفٍ وَسِتُّمِائَةَ حَرْفٍ وَوَاحِدٌ وَسَبْعُونَ حَرْفًا".

المبحث الرّابع

موقف الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ

من طريقة تفسير القرآن الكريم حسب ترتيب النّزول، ومُناقشته

بالنّسبة إلى الشّيخ، فقد ذهب إلى القول بأنّ ترتيب السّور في المصحف اجتهاديّ، وجاء ذلك بشكل عابر في مُقدّمة كتابه (معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر)[1]، ولكنّه لم يقف عند قول من قال: إنّ ترتيب السّور في المصحف توفيقيّ، ولم يتعرّض لمن قال: إنّ ترتيب السّور توقيفيّ، ولم يُناقش أدلّتهم، إلّا أنّه بيّن جدوى هذه الطّريقة بقوله: "إنّ مراعاة مراحل التّنزيل وأزمانه ومُلاحظاتها لدى التّدبّر، تحمي من أخطاء تفسيريّة قد يقع فيها بعض المفسّرين، فبعضهم قد يأتي بقصص مدنيّة، فيضعها شرحاً أو سبباً لنصّ مكّيّ، ويُحمّل بذلك النّصّ القرآنيّ ما لا يُحمّل، وقد يقع من جرّاء ذلك في خطأ فادح. وقد يأتي بحادثة مكّيّة، فيجعلها سبباً لنزول نصّ مدنيّ لا علاقة له بهذه الحادثة..."[2].

وقد بيّن الشّيخ سبب اختياره هذه الطّريقة، فقال: "وقد رأيت بالتّدبّر الميدانيّ للسّور أنّ ما ذكره المختصّون بعلوم القرآن الكريم من ترتيب النّزول، هو في مُعظمه حقّ، أخذاً من تسلسل البناء المعرفيّ التّكامليّ، وتسلسل التّكامل التّربويّ، واكتشفتُ في هذا التّدبّر أُموراً جليلة تتعلّق بحركة البناء المعرفيّ لأُمور الدّين، وحركة المعالجات التّربويّة الرّبّانيّة الشّاملة للرّسول –صلّى الله عليه وسلّم–، وللّذين آمنوا به واتّبعوه، وللّذين لم يستجيبوا لدعوة الرّسول مُتريّثين أو مُكذّبين كافرين"[3].

أما عن طريق معرفة ترتيب النّزول فيقول الشّيخ: "أنه يُعرف بالنّظر في ترتيب نزول السّور المُبيّن عند علماء التّنزيل، ويُعرف في السّورة الواحدة بترتيب الآيات فيها، ما لم يرد نصّ خلاف ذلك، كأن يثبت تقدّم نزول الآية أو عدد من الآيات، أو يثبت تأخّر نزولها، فعندئذ يتّبع ما ثبت في النّصّ المُبيّن لتاريخ النّزول، وقد يُعرف ترتيب النّزول بالتّبصّر العقليّ الهادي إلى قواعد سنّة الله التي جرى وفقها إنزال مُعظم النّصوص القرآنيّة وأحكام التّشريع"[4].

ويبدو لي أنّ الفكرة قد انبثقت في نفسه بعد تأليفه كُتباً في التّفسير وعلوم القرآن الكريم، ورغبته الصّادقة في اكتشاف كنوز القرآن الكريم؛ ليستفيد منها كلّ مُتعامل مع كتاب الله –تعالى–. إضافة إلى

---

(1) **يُنظر**: الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م1، ص6.

(2) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **قواعد التّدبّر الأمثل لكتاب الله –عزّ وجلّ–**، القاعدة التّاسعة، ص152.

(3) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م1، ص5–6.

(4) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **قواعد التّدبّر الأمثل لكتاب الله –عزّ وجلّ–**، ص153.

برنامجه الأُسبوعيّ الخاصّ بتدبّر القرآن الكريم وفق ترتيب النّزول، الذي استمرّ أكثر من خمسة عشر عاماً؛ إذ انكبّ على تأليفه عندما تقاعد من العمل الأكاديميّ وبلغ السّبعين من عُمُره بهمّة عالية، يستجمع خلاصة ما حواه عقله المنير من تدبّر وفكر رصين على مدار سنوات عديدة.

ياحبّذا لو تناول الشّيخ هذا الأمر بالاهتمام الزّائد، وأورد أقوال القائلين بالتّوقيف والتّوفيق، وأورد حججهم، ثمّ رجّح ما رآه بالدّليل والبرهان، وبخاصّة أنّه يَقدُم على أمر غير مسبوق إليه إلّا من فئة قليلة من المفسّرين الذين تناولوا تفسير القرآن حسب ترتيب النّزول، فإنّ مَن يُخالف طريقة تعارف العلماء عليها في تفاسيرهم، أو يسلك منهجاً في التّفسير مُغايراً لما درجوا على سلوكه، يقتضي منه أن يكون لديه ما يُبرّر مخالفته، مُستنداً على الحجج والبراهين الواضحة التي تحمله على ذلك.

أمّا بالنّسبة إلى سبب اختياره لهذه الطّريقة، فقد لجأ إلى استخدام عبارات عامّة: (البناء المعرفيّ التّكامليّ)، و(التّكامل التّربويّ)، و(حركة البناء المعرفيّ)، و(حركة المعالجات التّربويّة)، وهي عبارات غير واضحة المعالم ولا مُحدّدة الأهداف، ولا مُدعّمة بالأدلّة والبراهين، لاسيّما أنّه يُخالف فيه جماهير العلماء المفسّرين من السّلف والخلف، فكيف سيقنع القارئ بجدوى هذا الأمر؛ فضلاً عن إزالة الشّكوك والشّبهات من العقول والأذهان.

كما أنّ الشّيخ يُقرّ أنّ أغلب السّور لم تنزل دفعة واحدة، وأنّ بين نزول أوّلها وآخرها أزمنة طويلة أحياناً، ربّما بلغت سنوات عديدة، وأنّه تخلّلها آيات وُضعت في سورة أُخرى، وربّما سور عديدة نزلت قبل أن تكتمل آيات السّورة الأولى، وكم من آية مدنيّة وُضعت في سورة مكّيّة، والعكس[1]. فأيّ بناء معرفيّ، وتكامل تربويّ، ومعالجات ما دام القرآن لم يُجمع حسب النّزول! كما أنّني لم أجد ما يبرّر صنيعه؛ فضلاً عن إيجاد القناعات لدى القارئين، أو أهل الاختصاص في هذا العِلْم، ولم أُلاحظ ذلك التّكامل المعرفيّ والتّدرّج التّربويّ والتّدرّج في المعالجات للقضايا، أثناء تفسيره حسب ترتيب النّزول. فهل تقديم سورة من سور القرآن الكريم ووضعها في مُقدّمة التّفسير، يُغيّر من المفهوم لآياتها؟ وما المزايا التي وفّرها هذا التّفسير لهذه السّورة وغيّرها من السّور المكّيّة، مثل سورة العلق، المُدثّر، المُزمّل، القلم...، عندما وضع تفاسيرها في مُقدّمة تفسيره، مادام قد التزم بوَحدة السّورة؟[2]. إنني لا أجد فرقاً بين ما ذكره في تفسير هذه السّور، ومابين ما ذكره المفسّرون الآخرون عندما وضعوا تلك السّور في المجلّد الأخير من تفاسيرهم حسب ترتيب المصحف، فالجميع يذكرون مكّيّة هذه السّور، ويذكرون أسباب نزولها، وما ترتّب على نزولها من مواقف،

---

(1) **يُنظر**: الميدانيّ، عبد الرّحمن: **قواعد التّدبّر الأمثل لكتاب الله –عزّ وجلّ–**، القاعدة التّاسعة والعاشرة.

(2) **يُنظر**: نفسه، القاعدة الثّانية، ص27–44.

وحلّلوا دلالاتها اللّفظيّة، واستنبطوا الهدايات القرآنيّة، والآداب الشّرعيّة منها، حسب ما أُوتي كلّ واحد منهم من الفهم والمعرفة وقوّة الاستنباط وإشراقة التّعبير، ولا علاقة لكلّ ذلك بموضع السّورة في المجلّد الأوّل من التّفسير أو في المجلّد الأخير من التّفسير منه.

كما أنّه يُدرك أنّ بعض الآيات من السّور تخلّلها نزول آيات من سور أُخرى، فآيات من سورة القلم نزلت بعد الآيات الأولى من سورة العلق؛ بل يقول الشّيخ: (إنّ سورة القلم التي هي من أوائل ما نزل باتّفاق، فيها آيات مدنيّة من الآية (17) إلى الآية (33)، ومن الآية (48) إلى الآية (50))[1]. كما يقول أيضاً: "بالنّظر إلى ما جاء في صدر سورة المزمّل وبعض آيات فيها، ترجّح لديّ أنّها هي ثالث سورة مكّيّة، باستثناء آيات عدّة منها نزلت في المدينة على الأرجح، منها الآية (10) و(11)، والآية الأخيرة"[2]؛ حيث يُعقّب على رواية مُسلم لقول أُمّ المؤمنين عائشة –رضي الله عنها– أنّها نزلت –الآية الأخيرة– بعد سنة من افتتاحيتها تخفيفاً على المسلمين، "بأنّها تحدّثت عمّا شهدت بعد بناء الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم– بها؛ لكن سورة المزمّل وعمل الرّسول بما جاء في أوّلها قد كان منذ أوائل البعثة"[3]. كما أنّه لم ينفرد بإبراز جوانب في تفسير القرآن الكريم لم يصل إليها غيره من أصحاب منهج التّفسير حسب ترتيب المصحف؛ بل أضاف بمنهجه هذا مشقّة على الباحثين، فإذا أرادوا أن يطّلعوا على تفسير آية في هذا التّفاسير، كان لزاماً عليهم أن يرجعوا إلى فهارس الأجزاء كلّها، أو على أقلّ تقدير فهارس أجزاء السّور المكّيّة، لاقتصار تفسيره عليها.

إنّ القرآن الكريم نزل مُنجّماً حسب الوقائع والأحداث والمناسبات الفرديّة والاجتماعيّة التي تعاقبت في حياة الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم– في نحو ثلاث وعشرين سنة؛ لحِكَم ذكرها العلماء تفصيلاً[4]، كما أشار القرآن الكريم إليها إجمالاً في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ

---

(1) **يُنظر**: الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م1، ص195.

(2) نفسه، م1، ص152.

(3) نفسه. **قلت**: الحديث صحيح يجب الالتفات إليه واعتماده، لاسيّما وأنّه رواه مُسلم من حديث أمّ المؤمنين عائشة –رضي الله عنها–. مُسلم، مُسلم: **المُسند الصّحيح المُختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم–**، ج1، ص512-513، كتاب صلاة المسافرين، باب جامع صلاة اللّيل، ومن نام عنه أو مرض، حديث رقم: 139.

(4) **يُنظر**: أبو شُهبة، محمّد: **المَدخل لدراسة القرآن الكريم**، ص70-83. **يُنظر**: القطّان، منّاع: **مَباحث في علوم القرآن**، ص107-118. إسماعيل، محمّد: **دراسات في علوم القرآن**، ص31-33.

لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾[1]؛ فضلاً عن أنّ الله –تعالى– تكفّل بجمعه، وأسند جمعه إلى نفسه، فقال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾[2]، فإطلاق الجمع يشمل نوعيه: الصّدر والسّطر، جمعاً كاملاً لا ينقص كلمة ولا حرفاً، مع بيان معناه للرّسول –صلّى الله عليه وسلّم– فلا تخفى عليه خافية. ثمّ تناقل هذا الجمع والتّرتيب من عهده –صلّى الله عليه وسلّم–، وأبي بكر وعثمان –رضي الله عنهما– حتّى يومنا هذا؛ حيث أُلغيت فيها جميع الاعتبارات، وبقي اعتبار الإرادة الإلهيّة والحِكمة الرّبّانيّة في إظهار المعجزة الخالدة، "فكما أنّ الزّمن لم يكن له اعتبار قبل نزول القرآن إلى اللّوح المحفوظ، ثمّ إلى بيت العزّة في السّماء الدّنيا، أُلغي هذا الاعتبار –أيضاً– بعد جمع القرآن بين دفّتي المصحف، ولم يبقَ له إلّا دلالات مُساعدة في إلقاء الأضواء على مضمون الآية أو الحكم الذي تشتمل عليه الآية الكريمة"[3].

كما أنّ المفسّرين السّابقين –الذين ذهبوا إلى القول الأوّل– ذكروا في تفاسيرهم عند ذكر السّور المكّيّة أنّها تقوم على تركيز الجانب العَقديّ والتّربويّ في النّفوس، وتطهّرها من الشّرك وأدران الجاهليّة، وتدعو إلى إبطال المعتقدات الوثنيّة الجاهليّة وعبادة غير الله –تعالى–، وإيراد الحجج والبراهين، وذكروا كلّ ذلك في مواطنه ونبّهوا عليه، وبيّنوا كيف أنّ السّور المكّيّة قارعت الحجّة بالحجّة؟ وكيف أنّها هيّأت النّفوس لاستلام قيادة الأُمم ورعاية المجتمعات؟ ولم يستدع بيان كلّ ذلك إلى إعادة ترتيب السّور أو تفسير القرآن حسب ترتيب النّزول. فيا تُرى ما الذي استطاع الشّيخ إضافته، ولم يجد سبيلاً إلى إضافته إلّا بهذه الطّريقة؟ وما الميزة التي يجدها القارئ عندما يقرأ تفسير سور المجلّد الأوّل –مثلاً– من تفسيره: (العلق، المُدثّر، المُزمّل، القلم، الفاتحة، المسد، التّكوير، الأعلى، اللّيل، الفجر، الضّحى، الشّرح، العصر، العاديات، الكوثر، التّكاثر، الماعون، الكافرون)، أو يقرأ تفسيرها في تفاسير أُخرى مُخالفة لطريقته، أي حسب ترتيب المصحف؟

إنّ أولئك المفسّرين التزموا بوَحدة السّورة، وذكروا أسباب نزولها، وأساليب الدّعوة التي اشتملت عليها، وساروا في تفاسيرهم على ترتيب المصحف، ولم يجدوا تناقضاً مع المبدأ الذي ساروا عليه؛ لأنّهم يعتقدون أنّ ترتيب المصحف توقيفيّ، وأنّه جُمعت سوره ورُتّبت كما كان عليه الحال قبل نزوله، كما أنّ هذا التّرتيب قد رُتّبت آياته وسوره لحِكْمة إلهيّة كما هو في اللّوح المحفوظ؛ حيث "أُنزل القرآن أوّلاً جملة واحدة من اللّوح

(**1**) سورة الفرقان: الآية (32).

(**2**) سورة القيامة: الآية (16–19).

(**3**) مُسلم، مُصطفى: **مَباحث في التّفسير الموضوعيّ**، ص57.

المحفوظ إلى السّماء الدّنيا، ثمّ نزل مُفرّقاً على حسب المصالح، ثمّ أُثبت في المصاحف على التّأليف والنّظم المُثبت في اللّوح المحفوظ"[1].

وصفوة القول، إنّ استخدام هذه الطّريقة في تفسير القرآن الكريم لا يُجيزها أكثر العلماء والمفسّرين، لما فيها من تغيير لما أجمعت الأُمّة عليه من لدن الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- حتّى يومنا هذا؛ فضلاً عن أنّها قد تكون محفوفة بالمخاطر، وقد تحول دون وصول المُفسّر إلى ما يُريد، وقد تَجُرّ إلى الفتنة، ودرء الفتنة وسدّ ذرائع الفساد واجب. إضافة أنّ القول بالتّوقيف يدعو إلى المحافظة على القرآن الكريم، ويصونه من التّحريف أو التّبديل من جيل لآخر. كما (أنّ العقل البشريّ مهما أُوتي من القوّة والحفظ والإحكام لا يستطيع أن يذكر موضع فقرة من كلام سابق مضى عليه سنوات طويلة، فيضعها في مكانها، بحيث تلتحم مع سابقاتها ولاحقاتها في اللّفظ والمعنى والسّياق، ولو أنّ عقلاً أتقن ذلك في حال واحدة، فلن يستطيع أن يحكمه في حالات كثيرة، وفي سور كثيرة، بحيث لا تَشذّ حالة واحدة عن قاعدة الإحكام المشهودة في كتاب الله الحكيم)[2].

أقول: لا يعني مُخالفتي للشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ -رحمه الله تعالى- في طريقته حسب ترتيب النّزول أنّني أقلّل من قيمة تفسيره، أو أضع من قدره، فالتّفسير حوى بين دفّاته فوائد جمّة، وعلوماً كثيرة، وقد بذل فيه خلاصة ما توصّل إليه عِلْمه على مدار سنوات طويلة من طول صُحبة لكتاب الله -تعالى-، ودراسة مُتأنّية لآياته؛ بيد أنّه لو التزم ترتيب المصحف لكان أجدى وأفضل؛ إذ سخّر طاقاته جميعها لإبراز إعجاز ترتيب السّور حسب النّزول. كما أرى أنّ الطّريقة التي اتّبعها الشّيخ لا تمسّ قُدسيّة المصحف المتداول؛ لأنّه لم يُسمّ تفسيره مُصحفاً، ولم يُعِدّه للتّلاوة التّرتيبيّة، وأنّ الباعث على ذلك إنّما هو البحث والعِلْم والتّأليف. ولعلّ من المفيد أن أنقل ردّ الباقلّانيّ[3] على من زعم أنّه كان من الأوفق ترتيب القرآن الكريم على حسب نزوله؛ حيث يقول: (إنّه أمر لا يصحّ إلّا بنقض آيات سور القرآن وإفساد نظمها وتغييرها عمّا حدّ لهم، وقد صحّ وثَبُت أنّه لا رأي لهم ولا عمل ولا اجتهاد في ترتيب آيات سور القرآن، وإنّ كلّ عاقل يعرف فضل عقول الصّحابة، ولطيف نظرهم، وقوّة أفهامهم، ومعرفتهم بالتّنزيل وأسبابه، وأنّهم أولى النّاس بصحيح الرّأي والتّدبير، فمَن ظنّ بنفسه فضل تَقدّم عليهم في ذلك، واستدراك عجز

---

(1) السّيوطيّ، عبد الرّحمن: **الإتقان في علوم القرآن**، ج1، ص217. **قلت**: وقد نسبه إلى الطّيبيّ.

(2) **يُنظر**: السّيوطيّ، عبد الرّحمن: **تناسق الدّرر في تناسب السّور**، ص7.

(3) **هو**: القاضي أبو بكر محمّد بن الطّيّب بن محمّد بن جعفر بن القسم، المعروف بالباقلّانيّ البصريّ المتكلّم المشهور. كان في علمه أوحد زمانه، وكان موصوفاً بجودة الاستنباط وسرعة الجواب، صاحب كتاب إعجاز القرآن، والتّقريب، والانتصار للقرآن، وغيره. تُوفّي سنة 403هـ. **يُنظر**: ابن خلكان، أحمد: **وفيّات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان**، ج4، ص269. **يُنظر**: ابن العِماد، عبد الحيّ: **شذرات الذّهب في أخبار من ذهب**، ج5، ص20-22.

وتفريط وترك حُرَم كان منهم، فهو من الغباء والجهل بحيث لا ينتفع بكلامه. وليس لأحد أن يقول: لِمَ لمْ يُؤلّفوا سور القرآن على تاريخ نزوله؛ ليكونوا بذلك مُتوافقين في التّقديم والتّأخير أوقات نزوله... فكلّ هذا تخليط وتعنّت للصّحابة، ومُحاولة للقدح في آرائهم بما يعود بالدّلالة على غباوة المُعترِض وجهله... وإنّهم لو فعلوا ذلك لوجب أن يجعلوا بعض آيات السّور في سورة أُخرى، وأن يَنقضوا ما وقفوا عليه من سياق ترتيب آيات السّور ونظامها)[1].

بَيْدَ أنّه يُمكن الاستفادة من هذه الطّريقة في دراسة تخدم القرآن الكريم، وتدور في فلكه كالقصص القرآنيّ –مثلاً–؛ بل قد تكون الأنسب في دراستها، إثباتاً لأغراضها ومقاصدها، وإبرازاً لصورتها وخصائصها، واستنباطاً لمعانٍ جديدة لا تتيسّر لنا إلّا بتفسيرها حسب تاريخ النّزول. ويشير سيّد قُطُب إلى ذلك بقوله: "إنّ هناك ما يُشبه أن يكون نظاماً مُقرّراً في عرض الحلقات المكرّرة من القصّة الواحدة –يتّضح حين تُقرأ بحسب ترتيب نزولها– فمُعظم القصص يبدأ بإشارة مُقتضبة، ثمّ تطول هذه الإشارات شيئاً فشيئاً، ثمّ تُعرض حلقات كبيرة تُكوّن في مجموعها جسم القصّة"[2]. ويقول فضل حسن عبّاس[3]: "إنّ الطّريقة المُثلى لنتذوّق تذوّقاً صحيحاً مواقع النّجوم للقصّة القرآنيّة، أن ندرسها من حيث ترتيب النّزول، بحيث ندرس النّجوم التي نزلت واحداً تلو الآخر. ولا يضيرنا كثيراً بأنّ ترتيب السّور ليس أمراً مقطوعاً به، ويكفينا في هذا أن نوازن بين الأقوال التي وردت في ترتيب السّور لنأخذ أرجحها كما فعل العلماء، ثمّ إنّ هناك بعض السّور يُمكن أن نُدرك ترتيبها بلا عناء"[4].

وقد أشار الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ إلى تكامل النّصوص القرآنيّة في القاعدة السّادسة من كتابه: قواعد التّدبّر الأمثل لكتاب الله –عزّ وجلّ–، حول تكامل النّصوص القرآنيّة في الموضوعات التي اشتمل عليها القرآن، واستبعاد التّكرير لمجرّد التّأكيد ما أمكن[5]؛ حيث يقول: "فعلى مُتدبّر كتاب الله أن يتتبّع في الموضوع الواحد كلّ النّصوص القرآنيّة المُتعلّقة به، ويتدبّرها معاً، مُلاحظاً تكامل دلالاتها"[6].

---

(1) **يُنظر**: الباقلّانيّ، محمّد: **الانتصار للقرآن**، ج1، ص288–289.

(2) قُطُب، سيّد: **التّصوير الفنّيّ في القرآن**، ص156.

(3) **هو**: العلّامة الكبير المفسّر الجليل الشّيخ الدّكتور فضل حسن عبّاس، أحد أبرز علماء السّنّة في الأردن، وأحد العلماء المعدودين في علوم التّفسير وعلوم اللّغة والبلاغة. من مُؤلّفاته: إعجاز القرآن الكريم، والقصص القرآنيّ إيحاؤه ونفحاته، وإتقان البرهان في علوم القرآن، وغير ذلك. تُوفّي سنة 1432هـ–2011م. **يُنظر**: موقع رابطة العلماء السّوريّين، **ترجمة فضل حسن عبّاس**، على الرّابط الآتي: https://islamsyria.com.

(4) عبّاس، فضل: **قصص القرآن الكريم**، ص82.

(5) **يُنظر**: الميدانيّ، عبد الرّحمن: **قواعد التّدبّر الأمثل لكتاب الله –عزّ وجلّ–**، ص67–131.

(6) نفسه، ص67.

الفصل الثّالث

الشّيخ عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميدانيّ والتّفسير العِلْميّ للقرآن الكريم

المبحث الأوّل: مفهوم التّفسير العِلْميّ للقرآن الكريم.

المبحث الثّاني: الفرق بين الحقيقة العِلْميّة والنّظريّة العِلْميّة.

المبحث الثّالث: العلاقة بين التّفسير العِلْميّ والإعجاز العِلْميّ.

المبحث الرّابع: موقف العلماء من التّفسير العِلْميّ.

المبحث الخامس: ضوابط التّفسير العِلْميّ.

المبحث الأوّل
مفهوم التّفسير العِلْميّ للقرآن الكريم

تمهيد:

شغل التّفسير العِلْميّ النّاس كثيراً، وكَثُر الكلام فيه، وذلك للتّقدّم العِلْميّ الهائل الذي أحرزته البشريّة في العصر الحديث، والمتتبّع لآيات القرآن الكريم يجد في بعضها إشارات ومضامين عِلْميّة تحدّثت عن سنن الله –تعالى– في هذا الكون ونظامه ومخلوقاته؛ لذا قام العلماء بدراسة تلك الآيات، وأَوْلَوْها اهتمامهم؛ حيث إنّ القرآن الكريم يختلف عن غيره من الكتب السّماويّة في كثير من القضايا، ففيه "إعجاز لا يتنبّه إليه العقل إلّا بعد أن ينشط ويكتشف المستور عنه من حقائق الكون وأسراره، حينئذ يتبيّن أنّ للقرآن وجوه إعجاز أُخرى، أو جديدة تزيد في معنى الإعجاز، أو تُعطي أبعاداً جديدة لما يُقال"[1].

كما أنّ مُصطلح التّفسير العِلْميّ للقرآن الكريم لم يكن موجوداً قبل العصر الحديث، وإن كان هذا اللّون من التّفسير موجوداً عند السّابقين؛ بيد أنّه لم يكن بهذه الكثرة عِلماً ومعرفة، وأنّ مفهوم التّفسير العِلْميّ عندهم اقتصر على استخراج أُصول العلوم من القرآن، أو الدّعوة العامّة إلى التّفكّر والتّدبّر في ملكوت السّماوات والأرض وعجائب قدرة الله –تعالى– في خلق الكون والإنسان والحيوان، وتوجيه النّاس إلى مكان العظة والعبرة، ولفتهم إلى آيات قدرة الله –تعالى– ودلائل وحدانيّته فيها. كما أنّهم لم يستطيعوا –بالرّغم من جهودهم المذكورة– أن يُضيفوا إلى جانب التّفسير العِلْميّ إضافات كبيرة؛ ذلك لأنّ المادّة العِلْميّة المتوافرة عندهم آنذاك لم تكن كافية لإعطاء هذا الجانب من جوانب تفسير القرآن الكريم حقّه الكافي.

المطلب الأوّل– التّعريف بالتّفسير العِلْميّ:

التّفسير العِلْميّ مُصطلح حديث مُكوّن من كلمتين أُولاهما: التّفسير الذي هو في اللّغة: "كَشف المُراد عَنِ اللَّفْظِ المُشْكل"[2]، أو "الاستبانة والكشف، والعبارة عن الشّيء بلفظ أيسر وأسهل من لفظ الأصل"[3]. فالتّفسير كلمة مُشتقّة من مادّة (فَسَرَ)، وهي تدور في لُغة العرب على معنى البيان والكشف والشّرح والإيضاح، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[4]، أي:

---

(1) الشّعراويّ، محمّد: **مُعجزة القرآن**، ج13، ص22.

(2) ابن منظور، محمّد: **لسان العرب**، باب الرّاء، فصل الفاء، ج5، ص55.

(3) أبو البقاء الكفويّ، أيّوب: **الكلّيّات مُعجم في المُصطلحات والفروق اللّغويّة**، ص260.

(4) سورة الفرقان: الآية (33). **قلت:** ويجدر الإشارة بأنّ كلمة (التّفسير) وردت في القرآن الكريم مرّة واحدة، في هذا الموضع فقط، وذلك في مَعرض الرّدّ على الكافرين، وهم يُثيرون الشّبهات حول القرآن الكريم.

"وأحسن ممّا جاؤوا به من المثل بياناً وتفصيلاً"[1].

أمّا الكلمة الثّانية التي يتكوّن منها مُصطلح التّفسير العِلْميّ فتعني: "النّسبة إلى العِلْم"[2]. والعِلْم في اللّغة "مصدر (عَلِمَ)"[3]، ويعني: "الْيَقِينُ، يُقَالُ: عَلِمَ يَعْلَمُ إِذَا تَيَقَّنَ، وَجَاءَ بِمَعْنَى الْمَعْرِفَةِ أَيْضاً"[4]، وهو: "نقيض الجهل"[5]، ويُطلق على: "إِدْراكُ الشَّيءِ بِحَقيقَتِه"[6]. وقد رأيت الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ يُفرّق بين العِلْم واليقين، فيقول: "العِلْم جنس يشمل اليقين فما دونه من الظّنون الرّاجحة الصّالحة للعمل بها، واليقين أدلّته تصل إلى الجزم والقطع، ولا يُكتفى فيه بمطلق الظّنّ الرّاجح"[7]. والذي يظهر لي أنّ العِلْم في اللّغة مُرادف للفهم والمعرفة واليقين، وبينها فروق دقيقة تُطلب من كُتب فقة اللّغة.

وقد جاءت عبارات العلماء في بيان مفهوم التّفسير العِلْميّ مُتشابهة وقريبة من بعضها، ومن العلماء من توسّع فيه، وحمّله ما لا يحتمل، وخرج به عن مقصده. ففي حين يُعرّفه محمّد حسين الذّهبيّ، بأنّه: "التّفسير الذى يُحَكّم الاصطلاحات العِلْميّة في عبارات القرآن، ويجتهد في استخراج مُختلف العلوم والآراء الفلسفيّة منها"[8]. وجدت موسى شاهين لاشين[9] يذكر التّعريف نفسه مع تغيير بسيط؛ إذ يقول: "يُقصد بالتّفسير العِلْميّ التّفسير الذي يُحَكّم الاصطلاحات العِلْميّة في عبارات القرآن، ويحاول استخراج العلوم المختلفة من آياته"[10]. ورأيت تعريفَين آخرين مُشابهين لهما مع تصرّف يسير، أحدهما لمحمّد لطفي

---

(1) الطّبريّ، محمّد: **جامع البيان في تأويل القرآن**، ج19، ص267.

(2) عمر، أحمد: **مُعجم اللّغة العربيّة المعاصرة**، ج2، ص1544.

(3) نفسه، ج2، ص1543.

(4) الفيّوميّ، أحمد: **المصباح المنير في غريب الشّرح الكبير**، ج2، ص427.

(5) ابن منظور، محمّد: **لسان العرب**، باب الميم، فصل العين المهملة، ج12، ص417.

(6) السّيوطيّ، عبد الرّحمن: **مُعجم مقاليد العلوم في الحدود والرّسوم**، ص198. الزّبيديّ، محمّد: **تاج العروس من جواهر القاموس**، مادّة (عَلِمَ)، ج33، ص127. أبو البقاء الكفويّ، أيّوب: **الكلّيّات مُعجم في المُصطلحات والفروق اللّغويّة**، ص611.

(7) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **قواعد التّدبّر الأمثل لكتاب الله –عزّ وجلّ–**، ص331.

(8) الذّهبيّ، محمّد: **التّفسير والمُفسّرون**، ج2، ص511.

(9) **هو**: موسى شاهين لاشين، نائب رئيس جامعة الأزهر، وعضو المجلس الأعلى للشّؤون الإسلاميّة، ومجمع البحوث الإسلاميّة، والمركز الدّوليّ للسّيرة والسّنّة بوزارة الأوقاف المصريّة، من مُؤلّفاته: فتح المُنعم شرح صحيح مُسلم، والسّنّة والتّشرّي، واللآلىء الحسان في علوم القرآن، وغير ذلك. تُوفّي سنة 1430هـ. **يُنظر**: الموقع الرّسميّ للمكتبة الشّاملة، **ترجمة موسى شاهين لاشين**، على الرّابط الآتي: http://www.shamela.ws

(10) لاشين، موسى: **اللآلئ الحسان في علوم القرآن**، ص336.

الصّبّاغ[1]؛ إذ يقول: "إنّه تحكيم مُصطلحات العلوم في فهم الآية، والرّبط بين الآيات الكريمة ومُكتشفات العلوم التّجريبيّة والفلكيّة والفلسفيّة"[2]، والآخر لعبد المجيد المحتسب[3]؛ إذ يقول: "هو التّفسير الذي يتوخّى أصحابه إخضاع عبارات القرآن للنّظريّات والاصطلاحات العِلْميّة، وبذل أقصى الجهد في استخراج مُختلف مسائل العلوم والآراء الفلسفيّة منها"[4]. ولعلّي أُرجع هذه التّعريفات السّابقة إلى واحد منها، فالقاسم بينهما واضح ومُشترك، يَكمُن في تحكيم المصطلحات العِلْميّة. ولا شكّ في أنّ التّعبير بهذا القاسم المشترك يُظهر قصور التّعريف، ففيه تحكيم الاصطلاحات العِلْميّة على الآيات القرآنيّة وإخضاعها لها، والعكس هو الصّحيح، فالنّصّ القرآنيّ هو الحاكم على التّفسير العِلْميّ لا العكس، وأنّ ما جاء به العِلْم إنّما هو تأكيد للحقائق العِلْميّة فيه وتوضيحها؛ فضلاً عن أنّ الاصطلاحات العِلْميّة تشمل: النّظريّات، والفرضيّات، والمكتشفات، والحقائق العِلْميّة. كما أنّني قد وقفت على تعريفات أُخرى للتّفسير العِلْميّ، لعلماء آخرين —فليرجع إليها—[5].

ويمكن القول: إنّ المقصود بالعِلْم في هذا المقام، هو: العِلْم التّجريبيّ، المعنيّ بدراسة علوم الطّبيعة الموجودة في الكون، مثل: عِلْم الأحياء، وعِلْم البحار، وعِلْم الحيوان، وعِلْم النّبات، وعِلْم الفلك، وعِلْم طبقات الأرض، ونحو ذلك من العلوم التّجريبيّة؛ إذ لا يشمل مُختلف العلوم على إطلاقها. (وأنَّ إطلاق وصف [العِلْميّ] على هذا اللّون من التّفسير دون سواه فيه مُجافاة للحقيقة من جهة، وغضٌّ من قيمة العلوم الأُخرى من جهة ثانية؛ لذا فإنّ الأولى تقييده بكلمة (التّجريبيّ)، فيقال: التّفسير العِلْميّ التّجريبيّ

---

(1) **هو**: أبو لطفي، محمّد بن لطفي، بن عبد اللّطيف، بن عمر، بن درويش، بن محمّد ياسين الصّبّاغ. أُستاذ علوم القرآن والحديث بكلّيّة التّربية بجامعة الملك سعود-بالرّياض. من مُؤلّفاته: الإنسان في القرآن الكريم، والتّشريع الإسلاميّ وحاجتنا إليه، ولمحات في علوم القرآن واتّجاهات التّفسير، وغير ذلك كثير. **يُنظر**: الموقع الرّسميّ للمكتبة الشّاملة، **ترجمة محمّد لطفي الصّبّاغ**، على الرّابط الآتي: http://shamela.ws

(2) الصّبّاغ، محمد: **لمحات في علوم القرآن واتّجاهات التّفسير**، ص293.

(3) **هو**: عبد المجيد المحتسب. أُستاذ في قسم اللّغة العربيّة وآدابها في الجامعة الأردنيّة. من مُؤلّفاته: نقائض جرير والأخطل، وعبد الله بن المبارك المروزيّ الحافظ الزّاهد الشّاعر، واتّجاهات التّفسير في العصر الرّاهن. **يُنظر**: موقع مُؤسّسة القدس للثّقافة والتّراث، **ترجمة عبد المجيد المُحتسب**، على الرّابط الآتي: http://alqudslana.com

(4) المحتسب، عبد المجيد: **اتّجاهات التّفسير في العصر الرّاهن**، ص247.

(5) **يُنظر**: الخالديّ، صلاح: **البيان في إعجاز القرآن**، ص266-267. **تعريف الدّارسين بمناهج المُفسّرين**، ص566. **يُنظر**: زرزور، عدنان: **مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه**، ص231. **يُنظر**: النّجّار، زغلول: **من آيات الإعجاز العِلْميّ: الأرض في القرآن الكريم**، ص33. **يُنظر**: الزّنداني، عبد المجيد: **تأصيل الإعجاز العِلْميّ في القرآن والسّنّة**، ص24.

للقرآن الكريم؛ حتّى يتميّز هذا اللّون من التّفسير العِلْميّ عن الألوان العِلْميّة الأُخرى من العقائد والفقه واللّغة ونحوها، وكلّها عِلْم لا شكّ فيه)[1]. ذلك أنّ هذه العلوم تجمعها التّجربة والتّجارب، وقد تناولها المفسّرون تحت عنوان التّفسير العِلْميّ، ولأنّها ماثلة للعيان وخاضعة في غالبها للتّجربة. وإن كان هناك عبارة تقول: لا مُشَاحَّة في الاصطلاح[2]، فينبغي أن يكون في الاصطلاح ما يُميّزه عن سواه؛ حتّى لا تلتبس الأُمور وتتداخل الأسماء.

ويظهر لي بعد الاطّلاع على أقوال العلماء أنّ **المُراد بالتّفسير العِلْميّ التّجريبيّ للقرآن الكريم، هو**: زيادة إيضاح معنى الآيات القرآنيّة ذات المضامين العِلْميّة، بالحقائق العِلْميّة التّجريبيّة قطعيّة الثّبوت، وتوسيع مدلولاتها، بقدر الطّاقة البشريّة، وفق ضوابط مُعيّنة.

ولا شكّ في أنّ وصف هذا التّفسير (بالعِلْميّ التّجريبيّ) يُخرج بقيّة العلوم الكلاميّة والفلسفيّة ونحوها، فهو يعتمد بالأساس على التّجربة العِلْميّة، التي تُتيح الفرصة العَمَليّة لمعرفة الحقائق. وفيه انطلاق من المعنى اللّغويّ، ونصّ على تحديد الآيات القرآنيّة المتضمّنة قضايا عِلْميّة، فلا يشمل مُختلف العلوم على إطلاقها، وتقييده بالحقائق العِلْميّة التّجريبيّة قطعيّة الثّبوت، وإقصاء النّظريّات، والفرضيّات، والمكتشفات العِلْميّة، إظهاراً للتّوافق بين الآيات القرآنيّة الدّالّة على العلوم التّجريبيّة وحقائق العلوم، فلا تعارض بين نصّ قرآنيّ وحقيقة عِلْميّة قطعيّة الثّبوت. كما أنّ العِلْم التّجريبيّ خادم للنّصّ القرآنيّ، وليس حاكماً عليه، كما جاء في بعض التّعاريف السّابقة؛ وفي هذا التّعريف أيضاً زيادة إيضاح للمعاني وتوسيع لمدلولاتها بقدر الطّاقة البشريّة؛ فإن أصاب المُفسّر فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد.

أردت بهذا التّعريف تضييق دائرة التّفسير العِلْميّ بما يُفترض أن يكون عليه؛ ليكون مانعاً جامعاً -والله تعالى أعلم-.

(**1**) **يُنظر**: الشّدي، عادل: **التّفسير العِلْميّ التّجريبيّ للقرآن الكريم**، ص12-13. **يُنظر**: الرّوميّ، فهد: **اتّجاهات التّفسير في القرن الرّابع عشر**، ج2، ص547.

(**2**) هي من العبارات الدّارجة على ألسنة العلماء، وتعني كما يقول صاحب مُحيط المحيط: لا مُناقشة في ما اصطلحت عليه العرب أو العلماء. البُستانيّ، بُطرس: **مُحيط المُحيط**، **قاموس مُطوّل للّغة العربيّة**، ص454. وقيل: لا مُجادلة فيما تعارفوا عليه. مُصطفى، إبراهيم وآخرون: **المُعجم الوسيط**، ج1، ص474. والمشاحة الضّنّة. قال الزّبيديّ: "وقَوْلهم: لَا مُشَاحَّة فِي الاصطلاح، المُشاحَّةُ، بتَشْديد الحاءِ: الضَّنَّةُ. وقَوْلهم: تَشَاحَّا على الأَمرِ، أَي تَنازَعَاه (لَا يُريدانِ)، أَي كلُّ واحدٍ مِنْهُمَا (أَن يَفوتَهما) ذلك الأَمْرُ". الزّبيديّ، محمّد: **تاج العروس من جواهر القاموس**، مادّة (شَحَحَ)، ج6، ص501.

المطلب الثّاني– تاريخ التّفسير العِلْميّ:

يشهد العصر الحديث إقبالاً مُتزايداً على التّفسير العِلْميّ الذي بدأ يُزاحم ألوان التّفسير الأُخرى التي باتت تُخلي له ميدان السّبق؛ لينفرد دونها بالصّدارة، فظهرت مُؤلّفات كثيرة تُعالجه، وأُلِّفت بعض التّفاسير التي تسير على منواله. وقد يتساءل البعض، هل كان ظهوره بدعاً في هذا العصر؟ في الحقيقة، إنّ للتّفسير العِلْميّ جذوراً في تاريخنا الحضاريّ الإسلاميّ المجيد، فليس هذا التّفسير ببدع في العصر الحديث؛ بل يمتدّ من عصر النّهضة العِلْميّة العبّاسيّة إلى يومنا هذا؛ حيث يرى العلماء أنّ بدايات ظهور هذا اللّون من التّفسير ترجع إلى القرن الخامس الهجريّ، وتحديدًا إلى أبي حامد الغزاليّ (ت 505هـ) الذي دافع عنه ودعا إليه بقوّة، وعمل على ترويجه في الأوساط العِلْميّة الإسلاميّة[1]، كما أنّه تحدّث بزيادة عن تأييده للتّفسير العِلْميّ في كتابه: جواهر القرآن؛ حيث سمّى الفصل الخامس منه: (في انشعاب سائر العلوم من القرآن)، فذكر علوم الطّبّ، والنّجوم، وهيئة العالم، وهيئة بَدَنِ الحيوان وتشريح أعضائه، وغير ذلك[2]. وممّن سلك هذا الدّرب من المفسّرين الأقدمين –أيضاً– أبو بكر بن العربيّ (ت 543هـ) في كتابه: قانون التّأويل[3].

وخلال القرن السّادس الهجريّ ظهر فخر الدّين الرّازيّ (ت 606هـ) الذي أكثر من تطبيق التّفسير العِلْميّ في تفسيره الكبير: (مفاتيح الغيب)، والتزم هذا النّوع التزاماً بلغت درجته فيه أن قيل عن تفسيره: فيه كلّ شيء إلّا التّفسير، كما "تناول شتّى العلوم والمعارف ممّا بوّأه درجة مُتقدّمة في صفوف مُؤيّدي التّفسير العِلْميّ؛ بل بين مُتطرّفي أنصاره"[4].

وتحمّس لهذا اللّون من التّفسير ابن أبي الفضل المرسي[5] (ت 655هـ)، فقد نقل عنه السّيوطيّ قوله عن القرآن: (جمع القرآن علوم الأوّلين والآخرين؛ بحيث لم يحط بها عِلْماً حقيقة إلّا المتكلّم بها، ثمّ رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم–، خلا ما استأثر به سبحانه وتعالى، ثمّ ورث ذلك عنه مُعظم سادات الصّحابة

---

(1) **يُنظر**: الغزاليّ، محمّد: **إحياء علوم الدّين**، ج1، ص289.

(2) **يُنظر**: الغزاليّ، محمّد: **جواهر القرآن**، ص44–47.

(3) **يُنظر**: ابن العربيّ، محمّد: **قانون التّأويل**، ص540.

(4) الرّوميّ، فهد: **اتّجاهات التّفسير في القرن الرّابع عشر**، ج2، ص557.

(5) **هو**: محمّد بن عبد الله بن محمّد بن أبي الفضل المرسي، أبو عبد الله، الأديب، النّحويّ، المفسّر، المحدّث، الفقيه. من مُصنّفاته: الضّوابط النّحويّة في عِلْم العربيّة، وريّ الظمآن في تفسير القرآن، وتفسير القرآن الأوسط عشرة أجزاء، وتفسير القرآن الصّغير ثلاثة أجزاء. وغير ذلك كثير. تُوفّي سنة 655هـ. **يُنظر**: ياقوت الحمويّ، ياقوت: **مُعجم الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب**، ج6، ص2546–2547. **يُنظر**: السّيوطيّ، عبد الرّحمن: **بُغية الوعاة في طبقات اللّغويّين والنّحاة**، ج1، ص144–146.

وأعلامهم، مثل: الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عبّاس...، وقد احتوى على علوم أُخرى من علوم الأوائل، مثل: الطّبّ، والجدل، والهيئة، والهندسة، والجبر، والمقابلة، وغير ذلك...)[1].

وأيّد بدر الدّين الزّركشيّ (ت 794هـ) فكرة التّفسير العِلْميّ بقوّة؛ حيث تأثّر بموقف الغزاليّ، فأورد أدلّته وبعض عباراته وأقواله، كقوله؛ ثمّ عقّب على هذه الأقوال وغيرها[2]، وقد عقد فصلاً في كتابه: البرهان في علوم القرآن، بعنوان: في القرآن عِلْم الأوّلين والآخرين. قال فيه: "وفي القرآن عِلْم الأوّلين والآخرين وما من شيء إلّا ويمكن استخراجه منه لمن فهّمه الله –تعالى–"[3].

وذهب السّيوطيّ (ت 911هـ) إلى نحو ما ذهب إليه: الغزاليّ والزّركشيّ، وزاد على أدلّتهما أدلّة أُخرى، وقد أفرد النّوع الخامس والسّتّين من أنواع علوم القرآن في العلوم المستنبطة من القرآن، وأكّد على تأييده للتّفسير العِلْميّ، بعد أن ساق كلام ابن أبي الفضل المرسي السّابق في تأييد التّفسير العِلْميّ[4].

وهكذا، يتبيّن كيف ظهر التّفسير العِلْميّ للقرآن الكريم، الذي بدأت نواته في وقت الدّولة العبّاسيّة، وكيف حاول هؤلاء العلماء المتقدّمون أن يجعلوا القرآن منبع العلوم كلّها؛ إذ كانت في بداية الأمر مُحاولات قُصد منها التّوفيق بين القرآن، وما جدّ من العلوم، ثمّ وجدت الفكرة مُركّزة وصريحة على لسان الغزاليّ وابن العربيّ والمرسي والسّيوطيّ، وقد طُبّقت عَمليّاً وظهرت في مُحاولات الفخر الرّازيّ ضمن تفسيره للقرآن، ثمّ وجدت بعد ذلك كُتباً مُستقلّة لاستخراج العلوم من القرآن، وتتبّع الآيات الخاصّة بمُختلف العلوم. وراجت هذه الفكرة في العصر المُتأخّر رواجاً كبيراً بين جماعة من أهل العِلْم، ونتج عن ذلك مؤلّفات كثيرة تعالج هذا الموضوع، كما أُلّفت بعض التّفاسير التي تسير على منوال هذه الفكرة. وهؤلاء هم المُؤيّدون القدامى للتّفسير العِلْميّ الذين توسّعوا فيه، وفتحوا الباب على مصراعيه **–كما سيظهر لاحقاً–**.

المطلب الثّالث– اهتمام العلماء بالتّفسير العِلْميّ في العصر الحديث:

إنّ من سمات هذا العصر التّقدّم العِلْميّ والمعرفيّ في شتّى العلوم التّجريبيّة، وقد أصاب الإنسان نصيباً وافراً منه، وبلغ درجات مُتقدّمة فيه، ما كان يحلم أن يصل إليها، ولا يتخيّل ذلك؛ في الوقت الذي كان المسلمون يعيشون في تأخّر وانحطاط عِلْميّ ملحوظ، يرجع سببه إلى ابتعادهم عن دينهم مصدر رُقيّهم

---

(1) **يُنظر**: السّيوطيّ، عبد الرّحمن: **الإتقان في علوم القرآن**، ج4، ص30–36. **الإكليل في استنباط التّنزيل**، ص13–18. **يُنظر**: الذّهبيّ، محمّد: **التّفسير والمُفسّرون**، ج2، ص516–521.

(2) **يُنظر**: الزّركشيّ، محمّد: **البُرهان في علوم القرآن**، ج2، ص155. الغزاليّ، محمّد: **إحياء علوم الدّين**، ج1، ص289.

(3) الزّركشيّ، محمّد: **البُرهان في علوم القرآن**، ج2، ص181.

(4) **يُنظر**: السّيوطيّ، عبد الرّحمن: **الإتقان في علوم القرآن**، ج4، ص38.

وتقدّمهم؛ الأمر الذي فتح عيون كثير من العلماء والمثقّفين على هذا الواقع المرير، ووقفوا مُخلصين أمامه، وصاروا يُفتّشون في القرآن الكريم عن آيات ذات مضامين وإشارات عِلْميّة في مُختلف المجالات، ويُفسّرونها تفسيراً عِلْميّاً، وذلك لإيجاد الحلول المناسبة لكلّ ما يجدّ من علوم تُحفّز المسلم، وتدفعه للسّير نحو الرّقيّ، ومن هؤلاء طنطاوي جوهريّ[1] الذي كان تفسيره مملوءاً بالنّظريّات العِلْميّة؛ حيث قال:"وليقومنّ من هذه الأُمّة من يفوقون الفرنجة في الزّراعة، والطّبّ، والمعادن، والحساب، والهندسة، والفلك، وغيرها من العلوم والصّناعات"[2]. إضافة إلى (مُحاولة بعض المفسّرين التّدليل على أنّ الإسلام بتعاليمه الخالدة، وفكر أتباعه الأصيل، كان له فضل السّبق في تأكيد أهمّيّة العِلْم والمعرفة، وفي بيان فضلهما، والدّعوة إلى تطبيقها، واستخدامها في كلّ مجالات الحياة. وبهذا يُحقّق التّفسير العِلْميّ شيئاً من التّوازن لنفسيّة المسلم، ويُساعده على تأصيل الإيمان، والاعتزاز بالتّعاليم الإسلاميّة إزاء الغزو الفكريّ الغربيّ الذي اجتاح العالم الإسلاميّ منذ القرن التّاسع عشر للميلاد، ولذلك لجأ المُفسّر إلى تقديم تركيبة مُيسّرة من بعض العِلْم وبعض الدّين تسدّ الحاجات العاطفيّة، وتُهدّئ مشاعر القلق، ومن التّساؤلات الغامضة لقطاع كبير من المسلمين)[3].

ولعلّ هذا الاهتمام عائد أيضاً إلى (المكانة المرموقة التي يحتلّها العِلْم في العصر الحديث، والكُشوف العِلْميّة التي امتاز بها، والتي تناولت الطّبيعة في مظاهرها وفروعها المتعدّدة: النّبات، والحيوان، والفلك، والجغرافية، والفيزياء، وكذلك الإنسان في مراحل خلقه المختلفة وفي جوانبه المادّيّة أو العُضويّة، والرّغبة من بعض المسلمين باللّحاق بركب التّقدّم العِلْميّ)[4]. إضافة إلى (تعميق مدلول النّصّ، وتوسيع فهمه ومداه للإنسان المعاصر، وذلك بما تقدّمه العلوم الكونيّة من بيانات ومعلومات تزيدنا معرفة بمفهوم الآية، وتصحيح بعض المعلومات الخاطئة التي اعتمد عليها بعض المفسّرين القدامى، وأخرجوا منها بعض الآيات عن ظاهرها البيّن، مُحاولين تأويلها، وإخراجها عن معناها المتبادر منها؛ لتوافق ما هو مألوف عندهم، ومُتّفق

---

(1) **هو**: الشّيخ طنطاوي جوهريّ، العالم الفيلسوف. من علماء الأزهر الموسوعيّين الذين جمعوا بين علوم كثيرة يبدو بعضها مُتناقضاً. صاحب منهج تفسيريّ في كتابه: الجواهر في تفسير القرآن الكريم، حول العلاقة بين آيات القرآن والعِلْم، نحا فيه منحىً خاصّاً، ابتعد في أكثره عن معنى التّفسير، وأغرق في سرد أقاصيص وفنون عصريّة وأساطير. تُوفّي سنة 1940م. **يُنظر**: موقع ويكيبديا الموسوعة الحرّة، **ترجمة طنطاوي جوهريّ**، على الرّابط الآتي:

https://ar.wikipedia.org. **يُنظر**: الزّركليّ، خير الدّين: **الأعلام**، ج3، ص230-231.

(2) جوهريّ، طنطاويّ: **الجواهر في تفسير القرآن الكريم**، ج1، ص3.

(3) **يُنظر**: السّلواديّ، حسن: **محمّد عزّة دروزة وتفسيره المُسمّى التّفسير الحديث**، ص200-201.

(4) **يُنظر**: زرزور، عدنان: **مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه**، ص231-233.

مع معارفهم، وتقريب الحقائق الدّينيّة والغيبيّة التي جاء بها القرآن إلى عقول البشر، وتأييدها بمنطق العِلْم التّجريبيّ؛ لمواجهة المادّيّين والملاحدة)[1].

تلك هي أبرز الدّوافع التي حَدَت بالمفسّر في العصر الحديث إلى هذا اللّون من التّفسير، إضافة إلى استمالة غير المسلمين إلى الإسلام.

أرى أنّ بعض العلماء والمفسّرين المعاصرين كانت مَهمّتهم ملاءمة ما اخترعه الأوروبّيّون وغيرهم من العلوم المختلفة مع الآيات القرآنيّة ذات المضامين العِلْميّة. وليس لهذا الأمر كبير فائدة –من وجهة نظري– إلّا من النّاحية النّفسيّة، فهؤلاء –العلماء والمفسّرون– يتلمّسون إشارات العلوم الحديثة وثمراتها في القرآن الكريم؛ سدّاً لحاجيّاتهم العاطفيّة، وتحقيقاً للتّوازن النّفسيّ لديهم، نتيجة انبهارهم بضياء الحضارة الأوروبّيّة. وإزاء تلك الحضارة والتّقدّم العِلْميّ والتّطوّر التّكنولوجيّ، أرى ضرورة التّوفيق بين الآيات القرآنيّة ذات المضامين العِلْميّة وبين الاكتشافات العِلْميّة قطعيّة الثّبوت، فالقرآن الكريم لا يتعارض مع البحث العِلْميّ الرّصين؛ لأنّه هو نفسه يحضّ عليه، ويحثّ الإنسان على إعمال فكره وعقله لاكتشافه، كمقدّمة للوصول إلى الله الخالق.

المطلب الرّابع– أبرز المُؤلّفات في التّفسير العِلْميّ:

لقد اعتنى كثير من العلماء في العصر الحديث بدراسة الآيات القرآنيّة ذات المضامين العِلْميّة، واشتهروا بهذا اللّون من التّفسير، وذلك بسبب التّقدّم العِلْميّ وازدهاره، وضعف المستوى البيانيّ والبلاغيّ لدى العرب المعاصرين عامّة والمسلمين خاصّة، وعجز العجم عن فهم اللّغة العربيّة وتذوّقها!

وصدرت كُتب كثيرة أفردته بالدّراسة دون سواه من ألوان التّفسير[2]، وهناك مُؤلّفات غزيرة تكلّمت عن الإعجاز العِلْميّ فيه[3]، وانتشرت بشكل غير مسبوق، واستُخدمت الوسائل التّقنيّة الحديثة من: مُختبرات، ومراصد، وتجارب، واستنباطات منطقيّة، وغير ذلك في تطبيقه، ونشره عبر مواقع الشّبكة العنكبوتيّة؛ فضلاً

---

(1) **يُنظر**: القرضاويّ، يوسف: **كيف نتعامل مع القرآن العظيم**، ص386-391.

(2) **يُنظر مثلاً: آيات الله في الكون –تفسير الآيات الكونيّة بالقرآن الكريم–**، لعبد الله شحاتة. **التّفسير العِلْميّ التّجريبيّ للقرآن الكريم، جذوره، وتطبيقاته، والموقف منه**، لعاد الشّدّي. **التّفسير العِلْميّ للآيات الكونيّة في القرآن**، لحنفي أحمد. **التّفسير العِلْميّ للقرآن الكريم بين النّظريّات والتّطبيق**، لهند شبلي. **التّفسير والإعجاز العِلْميّ في القرآن الكريم، ضوابط وتطبيقات**، لمرهف سقّا. وغير ذلك كثير.

(3) **يُنظر مثلاً: الإعجاز الطّبّيّ في القرآن**، لسيّد الجمليّ. **الأحاديث النّبويّة التي استُدلّ بها على الإعجاز العِلْميّ في الإنسان والأرض والفلك، جمعاً ودراسة**، لأحمد الحارثيّ. **الإعجاز العِلْميّ في القرآن الكريم، تاريخه وضوابطه**، لعبد الله المصلح. **الإعجاز العِلْميّ في القرآن والسّنّة**، لمحمّد بورباب وآخرون. **الكون والإعجاز العِلْميّ للقرآن الكريم**، لمنصور حسب النّبيّ. **القرآن وإعجازه العِلْميّ**، لمحمّد إبراهيم. وغير ذلك كثير.

عن المحاضرات، والمقالات، والمجلّات، والدّراسات[1]، التي تناولته.

ومن أشهر مَنْ عُرف بالاهتمام بهذا اللّون من التّفسير والانشغال به: طنطاوي جوهريّ في تفسيره: (الجواهر في تفسير القرآن الكريم، المشتمل على عجائب وبدائع المكوّنات، وغرائب الآيات الباهرات)، وهو أكثر التّفاسير الحديثة حرصاً على الالتصاق بمقتضيات التّحوّلات العِلْميّة والاكتشافات الكونيّة التي عرفها العقل البشريّ في هذا العصر. إضافة إلى كلّ من: محمّد بن أحمد الإسكندرانيّ[2]، وعبد المجيد الزّنداني، وزغلول راغب محمّد النّجّار، ومحمّد راتب النّابلسيّ[3]، وعبد الدّائم الكحيل[4].

هذا، وقد أُنشئت هيئة خاصّة تُعنى بالإعجاز العِلْميّ عام 1404هـ، تحت مُسمّى: (الهيئة العالَمِيّة للإعجاز العِلْميّ في القرآن والسّنّة)[5]، وهي هيئة تابعة للمجلس الأعلى العالَمِيّ للمساجد برابطة العالم الإسلاميّ، بمكّة المكرّمة في المملكة العربيّة السّعوديّة، وتضمّ عشرين عُضواً من كبار العلماء في العالم الإسلاميّ، وتولّى منصب أمينها العامّ: عبد المجيد الزّنداني، وهو أحد كبار علماء اليمن والعالم الإسلاميّ، ومن أشهر المتخصّصين في الإعجاز العِلْميّ في العصر الحديث، وقد اهتمّت هذه الهيئة بإقامة المؤتمرات والنّدوات والمحاضرات، وطباعة الكتب والدّوريّات المتعلّقة بالتّفسير العِلْميّ.

---

(1) **يُنظر مثلاً: القرآن الكريم والتّوراة والإنجيل والعِلْم، دراسة الكتب المقدّسة في ضوء المعارف الحديثة**، لموريس بوكاي. **مُطابقة المخترعات العصريّة لما أخبر به سيّد البريّة**، لأحمد بن محمّد الغماريّ. **مراحل خلق الإنسان في آيات القرآن الكريم**، لمنى رفعت عبد الرّازق. رسالة ماجستير. وغير ذلك كثير.

(2) **هو**: محمّد بن أحمد الإسكندرانيّ: طبيب، باحث. من كُتبه: كشف الأسرار النّورانيّة القرآنيّة فيما يتعلّق بالأجرام السّماويّة والأرضيّة والحيوانات والنّباتات والجواهر المعدنيّة، وتبيان الأسرار الرّبانّيّة بالنّباتات والمعادن والخواصّ الحيوانيّة، والبراهين البيّنات في بيان حقائق الحيوانات، وغير ذلك. تُوفّي سنة 1306هـ. **يُنظر**: الزّركليّ، خير الدّين: **الأعلام**، ج6، ص21. **يُنظر**: المرعشليّ، يوسف: **نثر الجواهر والدّرر في علماء القرن الرّابع عشر**، ج2، ص1025.

(3) **هو**: محمّد راتب النّابلسيّ، داعية إسلاميّ سوريّ، مُعاصر. رئيس هيئة الإعجاز القرآنيّ. له دروس ومُحاضرات في الإعجاز العِلْميّ والتّفسير. شارك في العديد من المؤتمرات العالميّة. من مُؤلّفاته: موسوعة الإعجاز العِلْميّ في القرآن والسّنّة، وآيات الله في الآفاق، وموسوعة النّابلسيّ للعلوم الإسلاميّة، وآيات الله في الإنسان. **يُنظر**: موقع ويكيبديا الموسوعة الحرّة، **ترجمة محمّد راتب النّابلسيّ**، على الرّابط الآتي: https://ar.wikipedia.org. **يُنظر**: موقع موسوعة النّابلسيّ للعلوم الإسلاميّة، **السّيرة الذّاتيّة للدّكتور محمّد راتب النّابلسيّ**، على الرّابط الآتي: http://www.nabulsi.com

(4) **هو**: المهندس عبد الدّائم الكحيل، سوريّ، مُعاصر، باحث في مجال الإعجاز العِلْميّ في القرآن والسّنّة. صاحب موسوعة الكحيل للإعجاز العِلْميّ في القرآن والسّنّة. **يُنظر**: موقع ويكيبديا الموسوعة الحرّة، **ترجمة عبد الدّائم الكحيل**، على الرّابط الآتي: https://ar.wikipedia.org. **يُنظر**: موقع موسوعة الكحيل للإعجاز العِلْميّ، على الرّابط الآتي: http://www.kaheel7.com.

(5) **يُنظر**: موقع ويكيبديا الموسوعة الحرّة: **الهيئة العالَمِيّة للإعجاز العِلْميّ في القرآن والسّنّة**، على الرّابط الآتي: https://ar.wikipedia.org. **يُنظر**: موقع الهيئة العالَمِيّة للإعجاز العِلْميّ في القرآن والسّنّة، على الرّابط الآتي: https://www.eajaz.org

المبحث الثّاني

الفرق بين الحقيقة العِلْميّة والنّظريّة العِلْميّة

بداية، يجب الإقرار بأنّ القرآن الكريم كتاب هداية وتشريع أنزله الله –تعالى– لإخراج النّاس من الظّلمات إلى النّور، ودستور جامع للحياة الإنسانيّة المُثلى إلى يوم الدّين بأشكالها المتنوّعة، وليس كتاباً في الطّبيعة، أو الكيمياء، أو الفلك، أو الطّبّ، أو التّاريخ، أو غير ذلك من العلوم المختلفة! وإنّ إشارة القرآن إلى المسائل المرتبطة بالعلوم التّجريبيّة لم يكن هو المقصد الأوّل من إنزاله، ولم يُنَزَّل من أجلها، فهي جاءت تَبَعاً وليس أصالةً؛ أي أنّ القرآن لم يقصد أن يذكرها على أنّها حقيقة عِلْميّة مُجرّدة؛ بل لِيُعمل الإنسان فكره وعقله فيها، وبالتّالي يقوده ذلك إلى إفراد الله –تعالى– بالعبادة والخضوع والتّذلّل إليه، والاحتكام إليه سبحانه. يقول الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ: "قد أمر الله بالنّظر فيما خلق في السّماوات والأرض والأنفس، للتّوصّل إلى آيات وجوده وخلقه وآيات وصفاته"[1]. فالقرآن الكريم كلام الله –تعالى–، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو كتاب الشّريعة العامّة الشّاملة، وقانون الدّين الذي جعله الله خاتم شرائع السّماوات إلى أهل الأرض، والكون وما فيه خلق الله، ويستحيل أن يتعارض كلامه مع خلقه، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[2]. هذا ما يجب على كلّ مسلم أن يعتقده ويُدين به، حتّى يسلم له دينه، ولا يرتاب فيه، إضافة إلى أنّه لا يحمل كلّ نظريّة عِلميّة. يقول محمّد متولّي الشّعراويّ[3]: "إنّ القرآن لم يأت ليُعلّمنا أسرار الوجود، ولكنّه أشار إليها وسجّلها؛ ليُظهر الإعجاز الإلهيّ للنّاس في كلّ عصر مع تقدّم العِلْم البشريّ. على أنّ ربط القرآن الكريم بالنّظريّات العِلْميّة شيء لا يجب أن يحدث، فالقرآن لا تُرْبَطُ صحّتُه باتّفاقه مع نظريّة عِلْميّة أيّاً كانت، ولكنّ العِلْم هو الذي يستمدّ صحّته وبيانه إذا اتّفق مع آيات القرآن الكريم، فكلّ عِلْم مُخالِف لحقائق القرآن هو عِلْم زائف؛ لأنّ قائل القرآن هو الله –سبحانه وتعالى–، وخالق الكون هو الله –سبحانه وتعالى–"[4].

---

(1) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **قواعد التّدبّر الأمثل لكتاب الله –عزّ وجلّ–**، ص231.

(2) سورة الأعراف: الآية (54).

(3) **هو**: محمّد متولّي الشّعراويّ، العالم الفقيه المفسّر، من أبرز علماء عصره، وأحد دعائم الفكر الإسلاميّ الحديث بمصر، وركيزة من ركائز الدّعوة الإسلاميّة في النّصف الثّاني من القرن العشرين. عضو في مجلس الشّورى، ومجمع اللّغة العربيّة، ورابطة العالم الإسلاميّ، والهيئة التّأسيسيّة لها، وكثير من الهيئات والمنظّمات والجامعات العربيّة والإسلاميّة. من مُؤلّفاته: تفسير الشّعراويّ للقرآن الكريم، ومُعجزة القرآن، والمنتخب في تفسير القرآن الكريم، وغير ذلك. تُوفّي سنة 1998م. **يُنظر**: الموقع الرّسميّ للمكتبة الشّاملة، **ترجمة محمّد متولّي الشّعراويّ**، على الرّابط الآتي: http://shamela.ws.

(4) الشّعراويّ، محمّد: **مُعجزة القرآن**، ج3، ص128.

وحتّى أُعطي كلّ ذي حقّ حقّه، ينبغي توضيح الفرق بين الحقيقة العِلْميّة والنّظريّة العِلْميّة؛ علماً بأنّ كلّاً منهما مكوّن من كلمتين اثنتين، وقد سبق تعريف الكلمة الثّانية (العِلْميّة) لغة واصطلاحاً.

فالنّظريّة في اللّغة: "قَضِيَّة تثبت ببرهان"[1]. **واصطلاحاً، تعني:** "توضيح علاقة الأثر والسّبب بين المغيّرات، وذلك بهدف شرح، أو التّنبّؤ بظواهر مُعيّنة"[2]. "والنّظريّات مراتب بحسب قُربها وبُعدها من الحقائق، وأقوى النّظريّات هي التي تقدّم شرحاً أكثر منطقيّة لتلك الملاحظات"[3].

والحقيقة في اللّغة: هي الثّبات والقطع واليقين ومخالفة المجاز. جاء في لسان العرب: (الحَقِيقَةُ مَا أُقِرّ فِي الِاسْتِعْمَالِ عَلَى أَصْلِ وضْعِه، والمَجازُ مَا كَانَ بِضِدِّ ذَلِكَ. والحَقُّ: صِدْق الحديثِ. والحَقُّ: اليَقين بعد الشكِّ. وَجَمْعُهَا الحَقائقُ)[4]. وقيل هي: "شيءٌ ثابت قطعاً ويقيناً"[5]. وقيل هي: "شيء ثابت يقينه"[6]. وقال الرّاغب الأصفهانيّ[7]: "الحقيقة تستعمل تارة في الشّيء الذي له ثبات ووجود"[8]. **أمّا في الاصطلاح، فتعني:** "كلّ ما هو صادق وواقعيّ وثابت ويقينيّ، أو هي مُطابقة الفكر للفكر، أو مُطابقة الفكر للواقع، أو كما يقول العرب: الحقيقة هي مُطابقة ما في الأذهان لما هو في الأعيان. وتتناقض الحقيقة مع الكذب، والغلط، والوهم، والظّنّ، والشّكّ، والتّخمين، والرّأي، والاعتقاد، والباطل"[9].

وبناء على ذلك، فإنّ النّظريّة العِلْميّة هي: "مجموعة من القوانين العامّة التي يرتبط أحدها بالآخر ارتباطاً مُتّسقاً يعتمد بعضها على بعض، وهي جميعاً مُتعلّقة بنوع واحد من الظّواهر؛ بحيث إنّ مجموعة

---

(1) مُصطفى، إبراهيم: **المُعجم الوسيط**، ج2، ص932.

(2) بدر، أحمد: **أُصول البحث العِلْميّ ومناهجه**، ص105.

(3) المصلح، عبد الله: **الإعجاز العِلْميّ في القرآن والسّنّة، تاريخه وضوابطه**، ص28.

(4) **يُنظر:** ابن منظور، محمّد: **لسان العرب**، باب القاف، فصل الحاء، ج10، ص52.

(5) عمر، أحمد: **مُعجم اللّغة العربيّة المعاصرة**، مادّة (حَقَّقَ)، ج1، ص533.

(6) دُوزِي، رينهارت: **تكملة المعاجم العربيّة**، ج3، ص250.

(7) **هو:** الحُسين بن محمّد بن المفضل، أبو القاسم الأصفهانيّ، أو الأصبهانيّ، المعروف بالرّاغب: أديب، من الحكماء العلماء. اشتُهر حتّى كان يُقرن بالإمام الغزاليّ. من كُتبه: مُحاضرات الأدباء، والذّريعة إلى مكارم الشّريعة، والمفردات في غريب القرآن، وغير ذلك. تُوفّي سنة 502هـ. **يُنظر:** الزّركليّ، خير الدّين: **الأعلام**، ج2، ص255. **يُنظر:** نويهض، عادل: **مُعجم المُفسّرين (من صدر الإسلام وحتّى العصر الحاضر)**، ج1، ص158-159. **يُنظر:** حاجي خليفة، مُصطفى: **سُلّم الوصول إلى طبقات الفحول**، ج2، ص56.

(8) الرّاغب الأصفهانيّ، الحسين: **المُفردات في غريب القرآن**، ص247.

(9) موقع شبكة الألوكة، حمداويّ، جميل: **مفهوم الحقيقة في الخطاب الفلسفيّ**، ص7-8. على الرّابط الآتي: http://www.alukah.net

تلك القوانين المؤلِّفة للنّظريّة العِلْميّة تُفسّر تلك الظّواهر من كلّ جوانبها"[1]. وقيل، هي: "بِنْية فكريّة تتضمّن مفهوماً يستطيع أن يُفسّر المشاهدات الموجودة، ويستطيع أن يتنبّأ بمشاهدات جديدة"[2]. وعرّفها صلاح الخالديّ بقوله، هي: "افتراض، أو تخمين، أو ظنّ يَرِدُ على فكر وذهن عالم من العلماء في الفلك، أو الجيولوجيا، أو البيولوجيا، نتيجة ظاهرة رآها، أو تجربة قام بها، أو مُلاحظة وقف عليها، أو حَدَث أراد تفسيره، فيظنّ أنّ تفسير ذلك على تلك الصّورة، فيُقدّم ذلك الافتراض أو التّخمين، ويظنّ أنّ ذلك هو الصّواب"[3]. ولست معه في ذلك؛ لأنّ النّظريّة العِلْميّة ليست افتراضاً، أو تخميناً، أو ظنّاً كما يقول؛ إنّما هي حصاد خطوات عِلْميّة عديدة، وتطوّر معرفيّ مُستمرّ، وتفسير مُوحّد، ومُتّسق لمجموعة من المشاهدات والظّواهر الطّبيعيّة المرتبطة بعضها ببعض، والتي صيغت في بُنية فكريّة تمّ الوصول إليها من خلال مجموعة من التّجارب –كما يظهر من التّعريفين السّابقين–.

(كما أنّ النّظرية التي يتمّ الوصول إليها في دراسة عِلْميّة لا يُمكن اعتبارها حقيقية نهائيّة، وإنّما تُمثّل أفضل إجابة يُمكن الوصول إليها مع البيانات والمعلومات المتاحة، وهي قابلة للتّغيير وإحلال أُخرى أفضل منها محلّها)[4]؛ لذا كان من ضوابط التّفسير العِلْميّ وجود الحقيقة العِلْميّة النّاصعة وعدم ربط آي القرآن الكريم بالنّظريّات القابلة للتّبديل والتّغيير **–كما سيظهر لاحقاً–**.

أمّا الحقيقة العِلْميّة فهي: "ما صار حقيقة قاطعة، وبدهيّة مُقرّرة، ممّا يتعلّق بالكون والحياة والإنسان، والتي لا يُمكن أن تُبطل أو تُنقض، مهما تقدّمت علوم الإنسان ومُكتشفاته ومعارفه"[5]. ولذلك قالوا هي: "المفهوم الذي تجاوز المراحل الفرضيّة والدّراسات النّظريّة؛ حتّى أصبح ثابتاً مُجمعاً عليه من قبل العلماء المختصّصين كافّة، كتمدّد المعادن بالحرارة، وانكماشها بالبرودة، وتبخّر الماء عند درجة مئويّة تحت الضّغط الجوّيّ العاديّ، وتجمّده عند درجة الصّفر المئويّ"[6].

لذلك، يستحيل وجود نصّ صريح الدّلالة في القرآن الكريم يُصادم حقيقة عِلْميّة قطعيّة ثابتة أو يُناقضها؛ وإلّا يرجع ذلك إلى خطأ في فهم الآية القرآنيّة، أو جهل للحقيقة العِلْميّة؛ لأنّ خالق الكون هو الله، ومُنزّل القرآن هو الله، فمُحال أن يتناقض هذا مع ذاك. يقول الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ: (من

---

(1) زيدان، محمود: **الاستقراء والمنهج العِلْميّ**، ص146.

(2) العلويّ، جاسم: **العالم بين العِلْم والفلسفة**، ص32.

(3) الخالديّ، صلاح: **البيان في إعجاز القرآن**، ص264-265.

(4) **يُنظر**: بدر، أحمد: **أصول البحث العِلْميّ ومناهجه**، ص115.

(5) الخالديّ، صلاح: **البيان في إعجاز القرآن**، ص266.

(6) المصلح، عبد الله: **الإعجاز العِلْميّ في القرآن والسّنّة، تاريخه وضوابطه**، ص28.

الحقائق الثّابتة أنّ القرآن المجيد لا اختلاف فيه ولا تناقضاً، لا بين نصوصه بعضها مع بعض، ولا بين نصوصه والواقع، ومن الواقع الحقائق العِلْميّة، ولا بدّ أن يتطابق المعنى الصّحيح للنّصّ الذي تعرّض لبعض الحقائق العِلْميّة مع الحقائق العِلْميّة الثّابتة، فأدوات اكتساب المعرفة من خلق الله، والكون من خلق الله، وآيات التّكليف بالنّظر في الكون لاكتساب العِلْم من وحي الله، وآيات اعتبار ما تتوصّل إليه الوسائل المعرفيّة الإنسانيّة عِلْماً من وحي الله، والآيات المتضمّنة بيانات عن بعض ما في الكون من وحي الله، وما هو من عند الله أو بأمر الله لا يمكن أن يُناقض بعضه بعضاً)[1].

"وكلّ ما يُقال فيه إنّه مُخالف للحقيقة العِلْميّة لا يعدو أن يكون أحد الاحتمالات الآتية: إمّا أن يكون ما توصّلت إليه أدوات المعرفة الإنسانيّة ووسائلها لم يصل بعد إلى أن يكون حقيقة عِلْميّة، وإمّا أن يكون الخبر المنسوب إلى الوحي لم يصل إلى مستوى اليقين العِلْميّ، وإمّا أن يكون فهم خبر الوحي فهماً لم يصل إلى مستوى اليقين القطعيّ؛ بل هو اجتهاد ظنّيّ"[2]. "أمّا أن يكون الخبر الإسلاميّ قطعيّ الثّبوت قطعيّ الدّلالة، ثمّ يُخالف الحقيقة والواقع، فهذا غير موجود حتماً، وليس من الممكن أن يوجد قطعاً"[3].

ويُحذّر الشّعراويّ من ربط القرآن بالنّظريّات العِلْميّة، ويصفه بالخطر، فيقول: "أخطر ما نواجهه، ذلك أنّ بعض العلماء في اندفاعهم في التّفسير، وفي مُحاولاتهم ربط القرآن بالتّقدّم العِلْميّ، يندفعون في محاولة ربط كلام الله بنظريّات عِلْميّة مُكتشفة، يثبت بعد ذلك أنّها غير صحيحة، وهم في اندفاعهم هذا يتّخذون خطوات مُتسرّعة، ويحاولون إثبات القرآن بالعِلْم، ولكنّه كتاب عبادة ومنهج"[4].

ويقال لكلّ من يُحاول أن يُوفّق بين القرآن الكريم وبين الحقائق العِلْميّة، ويتكلّف في ذلك: "حسبكم أن لا يكون في القرآن نصّ صريح يُصادم حقيقة عِلْميّة ثابتة، وحسب القرآن أنّه يمكن التّوفيق بينه وبين ما جَدَّ ويَجِدّ من نظريّات وقوانين عِلْميّة تقوم على أساس من الحقّ، وتستند إلى أصل من الصّحّة"[5].

(ولا بدّ من الانتباه لما يدّعيه الماديّون أنّ نظريّة من النّظريّات قد أصبحت حقيقة عِلْميّة غير قابلة للنّقض أو التّعديل، مع أنّ هذه النّظريّة لا تملك أدلّة إثبات تجعلها حقيقة نهائيّة أو حقيقة مقطوعاً بها ضمن مستواها، وذلك بشهادة العلماء، الذين وضعوا هذه النّظريّة أو ساهموا في تدعيمها... وهم يزعمون كذباً، أو يتصوّرون خطأ، أنّ هذه النّظريّات قد أصبحت حقائق عِلْميّة ثابتة بشكل قطعيّ غير قابل

---

(1) **يُنظر**: الميدانيّ، عبد الرّحمن: **قواعد التّدبّر الأمثل لكتاب الله –عزّ وجلّ–**، ص225-233.

(2) نفسه، ص233-234.

(3) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **صراع مع الملاحدة حتّى العظم**، ص29.

(4) الشّعراويّ، محمّد: **مُعجزة القرآن**، ج1، ص85.

(5) الذّهبيّ، محمّد: **التّفسير والمُفسّرون**، ج2، ص362.

للنّقض، وهنا يقعون في غلط عِلْميّ فاحش جداً، ويتبع ذلك سقوطهم في ضلال اعتقاديّ كبير تجاه الدّين وأُصوله ومعارفه، عِلْماً بأنّ طائفة من النّظريّات التي نُسبت إلى العِلْم قد وُضعت خِصّيصاً لدعم قضيّة الإلحاد والكفر بالله، على أيدي يهود أو أجراء يهود، وصيغت لها المقدّمات والمبرّرات التي ليس لها قواعد منطقيّة عِلْميّة صحيحة)[1].

وصفوة القول: إنّ النظرية العِلْميّة لا يصحّ لنا تطبيقها على الآية القرآنيّة مُطلقاً، أمّا الحقيقة العِلْميّة فمن المستحيل أن تتناقض أو تتصادم مع الآية القرآنيّة، ولا مانع إطلاقاً أن نُطبّقها على الآية القرآنيّة التي تلفت الأنظار إلى مضامين وإشارات عِلْميّة. كما أنّ الحقيقة العِلْميّة شيء، والتّعسّف في تفسير القرآن بها وحمله عليها شيء آخر، فليس من الضّروريّ أن نحمل النّصّ القرآنيّ على كلّ حقيقة عِلْميّة، ونتكلّف في حمله، ونؤوّله بها، أو نلوي عنق الآيات لَيّاً؛ لنقول: إنّ القرآن قد سبق العِلْم الحديث. يقول صاحب كتاب (الجداول الجامعة في العلوم النّافعة) مؤكّداً ذلك: "إنّ القرآن هو كتاب عقيدة وهداية وإعجاز، فلا يليق أن نتجاوز به حدود الهداية والإعجاز، ونُخضعْه للنّظريّات العِلْميّة، وكلّما ظهرت نظريّة جديدة التمسنا لها مَحملاً في آية من القرآن، ونأوّلها بما يوافق هذه النّظريّة، هذا خطأ سائد عند كثير من النّاس، وإسراف في التّأويل ما بعده إسراف"[2]. "ومن هنا يجب أن نتروّى، وأن ندرس بإمعان، وننتظر؛ حتّى تثبت الحقيقة العِلْميّة ثبوت اليقين قبل أن نتحدّث عن ربطها بالقرآن الكريم، ولا نأخذ حديثاً برّاقاً يكون مجرّد فرض، وليس نظريّة عِلْميّة، ونسرع ونربطه بكلام الله، وحينئذ نكون قد ارتكبنا خطأ كبيراً في حقّ القرآن عندما يثبت كذب هذا الافتراض"[3].

---

(1) **يُنظر**: الميدانيّ، عبد الرّحمن: **صراع مع الملاحدة حتّى العظم**، ص29-30.

(2) مهلهل الياسين، جاسم: **الجداول الجامعة في العلوم النّافعة**، علوم القرآن، إعجاز القرآن، الدّرس السّابع، ص440.

(3) الشّعراويّ، محمّد: **مُعجزة القرآن**، ج1، ص86.

المبحث الثّالث

العلاقة بين التّفسير العِلْميّ والإعجاز العِلْميّ

لقد تفاوتت آراء العلماء والباحثين المعاصرين في التّمييز بين التّفسير العِلْميّ والإعجاز العِلْميّ في عصرنا الحديث، فمَن يُطالع كثيراً في هذا الموضوع يجد أنّ من الكتابات فيه –رغم قلّتها– تنطوي على التّداخل واللّبس بين هذين المفهومين؛ الأمر الذي يستدعي مزيداً من النّظر والتّأمل في معالم كلّ منهما، وفكّ الاشتباك بينهما، وبخاصّة في ظلّ حركة العِلْم السّائدة في هذا العصر في مجال الدّراسات القرآنيّة. فمن العلماء مَنْ جعل المراد منهما واحداً، فلم يُميّز بينهما؛ بل جعل غاية المراد من التّفسير العِلْميّ تحقيق الإعجاز القرآنيّ؛ لإثبات أنّ القرآن الكريم من عند الله –عزّ وجلّ–[1]. ومنهم من حاول التّمييز بينهما[2]؛ بل إن بعضهم يتحفّظ على مُصطلح الإعجاز العِلْميّ، وتسميته بهذا الاسم، ويرى استبداله بمصطلح: دلائل صدق القرآن؛ إذ إنّه ليس هو السّبيل الوحيد لإثبات عظمة هذا القرآن؛ بل هو أحد هذه السّبل[3].

ونظراً لأنّ بعض العلماء والباحثين لم يُفرّقوا بين المصطلحين، رأيت أن أذكر مفهوم الإعجاز العِلْميّ؛ رفعاً للّبس بينهما، وإذا كان التّفسير العِلْميّ مُكوّناً من كلمتين، فإن الإعجاز العِلْميّ كذلك (الإعجاز والعِلْم)، ولمعرفة المراد بهذا المصطلح يلزم تحديد معنى طرفه الأوّل وهو كلمة "الإعجاز"، ثمّ معرفة المراد بالمصطلح كلّه عند إضافة هذه الكلمة إلى (العِلْميّ)، علماً بأنّني قد أوضحت معنى العِلْم سابقاً، وذكرت معنى التّفسير العِلْميّ أيضاً؛ لذا سأقوم في هذا المبحث بتعريف الإعجاز في اللّغة والاصطلاح، ثمّ أذكر اصطلاحات العلماء للإعجاز العِلْميّ، وإظهار العلاقة بينه وبين التّفسير العِلْميّ.

أمّا في اللّغة، فإنّ أصل كلمة الإعجاز العَجْزُ، وهو: الضَّعْفُ. يقول ابن منظور: (العَجْزُ: الضَّعْفُ، يُقَالُ: عَجَزَ يَعْجِزُ عَنِ الأَمر إِذا قَصَرَ عَنْهُ. وَالْجَمْعُ أَعجاز)[4]. ويقول ابن فارس: "الْعَيْنُ وَالْجِيمُ وَالزَّاءُ أَصْلَانِ صَحِيحَانِ، يَدُلُّ أَحَدُهُمَا عَلَى الضَّعْفِ، وَالْآخَرُ عَلَى مُؤَخَّرِ الشَّيْءِ"[5]. ويقول الرّاغب الأصفانيّ: "العَجْزُ أصلُهُ التَّأَخُّرُ عن الشّيء، وحصوله عند عَجُزِ الأمرِ، أي: مُؤخّره، كما ذُكر في الدُّبر، وصار في

---

(1) **يُنظر مثلاً**: الغزاليّ، محمّد: **كيف نتعامل مع القرآن؟**، ص140. قدّوريّ، غانم: **مُحاضرات في علوم القرآن**، ص249.

(2) **يُنظر مثلاً**: الرّوميّ، فهد: **اتّجاهات التّفسير في القرن الرّابع عشر**، ج2، ص600 وما بعدها.

(3) **يُنظر**: الطّيّار، مُساعد: **مفهوم التّفسير والتّأويل والاستنباط والتّدبّر والمُفسّر**، ص8–10.

(4) **يُنظر**: ابن منظور، محمّد: **لسان العرب**، باب الزّاي، فصل العين المهملة، ج5، ص369–370.

(5) ابن فارس، أحمد: **مُعجم مقاييس اللّغة**، مادّة (عَجَزَ)، ج4، ص232.

التّعارف اسما للقصور عن فعل الشّيء، وهو ضدّ القدرة"[1]. ويرى فضل حسن عبّاس أنّ رأي الرّاغب الأصفهانيّ هو الأولى؛ حيث يقول: (فأصل العجز في اللّغة مُؤخّر الإنسان، واستعير لغيره، وهناك صلة وثيقة بين هذا المعنى وبين القصور عن الشّيء، فإنّ التّأخّر والقصور مُتلازمان؛ لأنّ من تأخّر عن غيره إنّما يرجع ذلك إلى تقصيره. والمتدبّر لآي القرآن الكريم يُدرك هذه القضيّة، واللّغويّون والمفسّرون مُجمعون على أنّ ليس للعجز إلّا هذا المعنى)[2]. **أمّا في الاصطلاح**، فكلمة الإعجاز تعني: "أن يُؤدّى المعنى بطريق هو أبلغ من جميع ما عداه من الطّرق"[3]، وبالتّالي يعجز البشر عن الإتيان بمثله. وبناء عليه يكون الإعجاز بالنّسبة للمُعجِز هو: "الفوت والسّبق، يُقال: أعجزني فلان أي: فاتني"[4]، وبالنّسبة للعاجز، العجز عن الطّلب والإدراك، يُقال: "أعجزني فلان إذا عجزت عن طلبه وإدراكه"[5].

وللعلماء في تعريف الإعجاز العِلْميّ أقوال مُختلفة لفظاً؛ لكنها مُتّحدة معنى، منها:

1. "اكتشاف القرآن كُنه شيء ما كان النّاس يستطيعون أبداً أن يُعرّفوه في حينه"[6].
2. "إخبار القرآن الكريم، أو السّنّة النّبويّة، بحقيقة أثبتها العِلْم التّجريبيّ أخيراً، وثبت عدم إمكانيّة إدراكها بالوسائل البشريّة، في زمن الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم–"[7].
3. "تأكيد الكشوف العِلْميّة الحديثة الثّابتة والمستقرّة، للحقائق الواردة في القرآن الكريم والسّنّة المطهّرة، بأدلّة تُفيد القطع واليقين باتّفاق المتخصّصين"[8].

---

(1) الرّاغب الأصفهانيّ، الحسين: **المُفردات في غريب القرآن**، ص547.

(2) **يُنظر**: عبّاس، فضل: **إعجاز القرآن الكريم**، ص10–11.

(3) الجرجانيّ، عليّ: **التّعريفات**، ص31.

(4) ابن منظور، محمّد: **لسان العرب**، باب الزّاي، فصل العين المهملة، ج5، ص370.

(5) نفسه.

(6) الغزاليّ، محمّد: **كيف نتعامل مع القرآن؟**، ص140.

(7) الزّندانيّ، عبد المجيد: **تأصيل الإعجاز العِلْميّ في القرآن والسّنّة**، ص24. النّابلسيّ، محمّد: **موسوعة الإعجاز العِلْميّ في القرآن والسّنّة آيات الله في الآفاق**، ص19.

(8) الزّندانيّ، عبد المجيد: **تأصيل الإعجاز العِلْميّ في القرآن والسّنّة**، توصيات المؤتمر العالميّ الأوّل للإعجاز العِلْميّ في القرآن والسّنّة، الذي عُقد في باكستان في إسلام آباد 25–1408/28، ص77. الحارثيّ، أحمد: **الأحاديث النّبويّة التي استُدلّ بها على الإعجاز العِلْميّ في الإنسان والأرض والفلك، جمعاً ودراسة**، ص25.

4. "سبق القرآن الكريم بالعديد من الحقائق العِلْميّة قبل وصول المعارف المكتسبة إليها بقرون عدّة"[1].

5. "تلك الموافقة بين المكتشفات الحديثة للسّنن الإلهيّة، وبين ما أشار إليه القرآن، مع المطابقة بينهما"[2].

6. "سبق القرآن الكريم بزمن بعيد في الدّلالة على حقائق في شتّى مناحي العِلْم قبل اكتشاف العِلْم لها، واستقراره على اعتمادها"[3].

ومن خلال عرض التّعاريف السّابقة، وتباين عباراتها، تتّضح العلاقة بين التّفسير العِلْميّ والإعجاز العِلْميّ، فالإعجاز العِلْميّ لا يعدو كونه صورة من صور التّفسير العِلْميّ، فكلّ إعجاز عِلْميّ تفسير عِلْميّ، وليس العكس، فبينهما عموم وخصوص؛ إذ إنّ التّفسير العِلْميّ أوسع من الإعجاز العِلْميّ؛ بل يستوعب في ثناياه الإعجاز العِلْميّ، ومن ثَمّ يكشف عنه ويُظهره. فالعلاقة بينهما تكامليّة رصينة مُتزنة. **فالتّفسير العِلْميّ هو**: الكشف عن معانٍ جديدة للآية القرآنيّة ذات مضامين عِلْميّة، وتوضيح وشرح ما توصّل إليه العالم من حقائق عِلْميّة، **أمّا الإعجاز العِلْميّ فهو**: سبق القرآن الكريم إلى الإخبار بحقيقة عِلْميّة قبل أن يكتشفها العِلْم التّجريبيّ. وكلاهما لا ينفع فيه إلّا الاعتماد على الحقائق العِلْميّة قطعيّة الثّبوت؛ بحيث لا يمكن الرّجعة عنها. **وأرى أنّ بين المُصطلحين علاقة وفروقاً، أُوجزها فيما يأتي:**

1. التّفسير العِلْميّ يعني مُحاولة فهم دلالة الآيات القرآنيّة ذات المضامين العِلْميّة في إطار الحقيقة العِلْميّة، أمّا الإعجاز العِلْميّ للقرآن الكريم فهو موقف تحدٍّ، يُثبت أنّ هذا القرآن الكريم الذي نزل على النّبيّ الأُمّيّ محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- قبل 1440هـ، قد حكى عنها قبل أن يتوصّل العِلْم إلى إدراكها ومعرفتها.

2. التّفسير العِلْميّ للقرآن الكريم هو الطّريق المؤدّية إلى الإعجاز.

3. التّفسير العِلْميّ للقرآن الكريم يدخله الخطأ والصّواب لكونه اجتهاد المفسّر، أمّا الإعجاز العِلْميّ فلا يصحّ أن يكون كذلك، كما أنّ الخطأ في التّفسير العِلْميّ، إنّما يُحسب على دلالة القرآن ويطال شيئاً من قدسيّته، بخلاف الخطأ في الإعجاز العِلْميّ الذي ينال من القرآن نفسه. وهذه مسألة خطيرة.

---

(1) النّجّار، زغلول: **مدخل إلى دراسة الإعجاز العِلْميّ في القرآن الكريم والسّنّة المطهّرة**، ص131.

(2) اللّوح، عبد السّلام: **الإعجاز العِلْميّ في القرآن الكريم**، ص115.

(3) سقّا، مرهف: **التّفسير والإعجاز العِلْميّ في القرآن الكريم**، ص93.

المبحث الرّابع

موقف العلماء من التّفسير العِلْميّ

تمهيد:

لقد اختلف العلماء في التّفسير العِلْميّ منذ القرون الأولى من جهة قبوله أو رفضه، فمنهم من ناصره وأيّده، واعتبره فتحاً جديداً في فهم القرآن الكريم، ومنهم من أنكره وعارضه، واعتبره تكلّفاً، وتحميلاً للآيات ما لا تحتمل، وصرفاً للنّاس عن غاية القرآن الكريم وهدفه الكبير، وهو: الهداية والتّشريع. ولـمّا جاء العصر الحديث، وظهرت فيه المكتشفات العِلْميّة في جوّ لافت للنّظر، وبلغ العِلْم فيه درجات مُتقدّمة، أوحى أعداء الإسلام إلى بعض المسلمين من أنّ دينهم هو سبب تخلّفهم؛ بدعوى رقيّهم العِلْميّ والمعرفيّ. لذا، انتدب طائفة من العلماء لإبطال هذا الأمر المزيّف، والتّأكيد على أنّ الإسلام دين العِلْم ومن ذلك العِلْم التّجريبيّ، وأنّ كثيراً من المكتشفات العِلْميّة الحديثة مُضمّنة في الكتاب العزيز، واعتبروا ذلك إسهاماً في تفسير القرآن الكريم، ونشر الدّعوة الإسلاميّة. وقابلتهم طائفة أُخرى رأت أنّ التّفسير العِلْميّ للقرآن الكريم غير صحيح في منهجه، وضارّ بالدّعوة الإسلاميّة، وينحرف بالقرآن عن غايته، ويندفع به إلى مجالات لا تُحمد عقباها. وبناءً على ذلك، اختلفوا في التّفسير العِلْميّ للآيات القرآنيّة ذات المضامين العِلْميّة إلى آراء ثلاثة: مُؤيّد مُتحمّس، ومُعارض مُنكر، ومُؤيّد مُعتدل.

فالمؤيّدون للتّفسير العِلْميّ، هم الذين فتحوا الباب على مِصراعَيه، وتوسّعوا فيه، وأضافوا للقرآن كلّ عِلْم من العلوم، فما من شاردة ولا واردة إلّا أقحموها في القرآن، وأضافوها إليه، حتّى جعلوا القرآن الكريم كتاباً عِلْميّاً معرفيّاً لا كتاب دين، وقاموا بتبويب الآيات ذات الإشارت العِلْميّة وتصنيفها في مُختلف العلوم البحثيّة، ودفعهم حماسهم إلى المناداة بأنّ القرآن الكريم يتضمّن جميع العلوم والمعارف العِلْميّة. ومن هؤلاء: الغزاليّ، والفخر الرّازيّ، وأبو بكر العربيّ، والسّيوطيّ، وابن أبي الفضل المرسيّ من القدامى، وطنطاوي جوهريّ، الذي لا يكاد يذكر اسمه إلّا ويذكر معه التّفسير العِلْميّ، ومحمّد بن أحمد الإسكندرانيّ، الذي لا يقلّ عن تفسير طنطاوي في توسّعه العِلْميّ، وغيرهما من المحدَثين.

أمّا المعارضون للتّفسير العِلْميّ، فهم الذين أنكروا التّفسير العِلْميّ ورفضوه، ورأوا فيه خروجاً بالقرآن عن الاتّجاه السّويّ، المتمثّل في الهداية والتّشريع، ودعَوا إلى صون القرآن الكريم عن تقلّبات البحث العِلْميّ. ومن هؤلاء: "زعيم المعارضة لفكرة الاتّجاه العِلْميّ في تفسير القرآن في العصور السّالفة"[1]، أبو إسحاق

(1) المحتسب، عبد المجيد: **اتّجاهات التّفسير في العصر الرّاهن**، ص297.

الشّاطبيّ[1]. إضافة إلى محمّد حسين الذّهبيّ، ومحمود شلتوت[2]، وشوقي ضيف[3]، وعبد المجيد المحتسب، وعبّاس العقّاد[4]، وغيرهم من المحدَثين.

وأمّا المعتدلون، فأقصد أُولئك الذين وقفوا موقفاً وسطاً بين أصحاب الرّأيين السّابقين، فلم يميلوا إلى الإفراط أو التّضييق، واتّخذوا ضوابطاً يحتكمون إليها، ويسيرون وفقها في تفسيرهم للآيات القرآنيّة ذات المضامين العِلْميّة، مع التّأكيد على ضرورة التّقيّد بالمنهج العِلْميّ المدروس؛ لتجنّب الوقوع في خطأ تحميل الآيات ما لا تحتمل، أو ليّ أعناقها. وأصحاب هذا الرّأي كُثْر، وغالبيّتهم من المعاصرين، منهم: الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ –موضوع الرّسالة–، ومحمّد جمال الدّين القاسميّ[5]، والزّرقانيّ، وابن عاشور، وسيّد قُطُب. إضافة إلى منصور محمّد حسب النّبيّ[6]، ومحمّد متولّي الشّعراويّ، ومحمّد راتب النّابلسيّ،

(**1**) **هو**: إبراهيم بن موسى بن محمّد اللّخميّ الغرناطيّ، الشّهير بالشّاطبيّ. من أئمّة المالكيّة. من كُتبه: الموافقات في أُصول الفقه، والاتّفاق في عِلْم الاشتقاق، وأُصول النّحو، وغير ذلك. تُوفّي سنة 790هـ. **يُنظر**: الزّركليّ، خير الدّين: **الأعلام**، ج1، ص75. **يُنظر**: التُّنْبُكْتي، أحمد بابا: **نيل الابتهاج بتطريز الدّيباج**، ص48–52.

(**2**) **هو**: محمود شلتوت: فقيه مُفسّر مصريّ. شيخ الأزهر. داعية إصلاح. يقول بفتح باب الاجتهاد. من مُؤلّفاته: التّفسير، وحكم الشّريعة في استبدال النّقد بالهدي، وهذا هو الإسلام، وغير ذلك. تُوفّي سنة 1383هـ. **يُنظر**: الزّركليّ، خير الدّين: **الأعلام**، ج7، ص173.

(**3**) **هو**: أحمد شوقي عبد السّلام ضيف، الشّهير بشوقي ضيف، أديب وعالم لُغويّ مصريّ، والرّئيس السّابق لمجمع اللّغة العربيّة المصريّ. من مُؤلّفاته: الفنّ ومذاهبه في الشّعر العربيّ، والأدب العربيّ المعاصر في مصر، والمدارس النّحويّة. وغير ذلك. تُوفّي سنة 2005م. **يُنظر**: الموقع الرّسميّ للمكتبة الشّاملة، **ترجمة شوقي ضيف**، على الرّابط الآتي: http://shamela.ws.

(**4**) **هو**: عبّاس بن محمود بن إبراهيم بن مُصطفى العقّاد، إمام في الأدب، مصريّ. من كُتبه: عبقريّة محمّد، وعبقريّ الإصلاح والتّعليم الأستاذ الإمام محمّد عبده، والفلسفة القرآنيّة، وغير ذلك. تُوفّي سنة 1383هـ. **يُنظر**: الزّركليّ، خير الدّين: **الأعلام**، ج3، ص266.

(**5**) **هو**: جمال الدّين، أو محمّد جمال الدّين بن محمّد سعيد بن قاسم الحلّاق، من سلالة الحسين السّبط، إمام الشّام في عصره علماً بالدّين، وتضلّعاً من فنون الأدب. سلفيّ العقيدة لا يقول بالتّقليد. من مُصنّفاته: دلائل التّوحيد، والفتوى في الإسلام، ومحاسن التّأويل في تفسير القرآن الكريم. تُوفّي سنة 1332هـ. **يُنظر**: الزّركليّ، خير الدّين: **الأعلام**، ج2، ص135. **يُنظر**: كحّالة، عمر: **مُعجم المؤلّفين**، ج3، ص157–158.

(**6**) **هو**: الدّكتور منصور محمّد حسب النّبيّ. أُستاذ ورئيس قسم الطّبيعة، كلّيّة البنات للآداب والعلوم والتّربية، في جامعة عين شمس–مصر الجديدة. عضو مجلس إدارة الجمعيّة المصريّة للإعجاز العِلْميّ للقرآن، المؤسّسة بالقاهرة. **يُنظر**: حسب النّبيّ، منصور: **الكون والإعجاز العِلْميّ للقرآن الكريم**، مُقدّمة المؤلّف، ص8.

وزغلول النّجّار، وفضل حسن عبّاس، ويوسف القرضاويّ[1]، وغيرهم.

لا شكّ في أنّي أكثرت من عدد المعتدلين؛ لأبيّن مدى انتشار القول بالتّفسير العِلْميّ في هذا العصر، وأنّه قد أصبح شائعاً، وأضحى مطروقاً، ففيهم المصريّ والشّاميّ والجزائريّ وغيرهم؛ فضلاً عن تعدّد مذاهبهم وتخصّصاتهم، ولأُعطي الصّورة الحقيقيّة للواقع الذي نعيشه، وليتّضح جليّاً موقفهم منه؛ حيث وقفوا موقفاً وسطاً بين المؤيّدين المتحمّسين الذين يلتمسون لكلّ مسألة عِلْميّة آية قرآنيّة، والمعارضين المنكرين الذي يجعلون حجاباً بين القرآن والعِلْم؛ بيد أنّهم قاموا بوضع ضوابط وأُسس بنوا عليها رأيهم في التّفسير العِلْميّ؛ ليسيروا على وفقها. **–وهذا ما سأتعرّض له لاحقاً إن شاء الله تعالى–.**

أمّا الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ، فقد اهتمّ اهتماماً بالغاً بهذا اللّون من التّفسير، فهو يُفسّر آيات كثيرة ذات مضامين عِلْميّة تفسيراً عِلْميّاً، وشرطه فيها أن تصل إلى درجة اليقين المقطوع به. وقد وضع قاعدة تتعلّق بهذا الأمر ضمن كتابه: قواعد التّدبّر الأمثل لكتاب الله –عزّ وجلّ–، وهي القاعدة الثّامنة عشرة: "حول أنّ القرآن لا اختلاف فيه ولا تناقض، وأنّه لا تناقض بينه وبين الحقائق العِلْميّة الثّابتة بالوسائل الإنسانيّة"[2]. وقد بيّن فيها موقفة وما ينبغي على المفسّر اتّباعه وتوظيفه عند تدبّره الآيات التي تحتوي على تلك الإشارات العِلْميّة.

وعند شرحه للمقولة الثّانية من هذه القاعدة، وهي قوله: (لا تناقض بين القرآن وبين الحقائق العِلْميّة الثّابتة بالوسائل الإنسانيّة)، بيّن أنّ دفع توّهم الاختلاف ينتج عنه المعنى الصّحيح للنّصّ، وبناء على هذه القاعدة لا بدّ أن يتطابق المعنى الصّحيح للنّصّ الذي تعرّض لبعض الحقائق العِلْميّة مع الحقائق العِلْميّة الثّابتة. وهذا استدراك جميل من الشّيخ؛ لأنّ بعض الآيات القرآنيّة ذات المضامين العِلْميّة قد يظهر أنّها لا تتّفق مع بعض الحقائق العِلْميّة من خلال النّظرة السّطحيّة لها، ممّا يُلقي في النّفس شُبهة التّناقض والاختلاف؛ لأجل ذلك بيّن الشّيخ أنّ عدم التّطابق بين الحقيقتين، ربّما مردّه إلى أنّ الحقيقة العِلْميّة غير مُؤكّدة، وإمّا أنّ ما ادّعي أنّه تفسير قاطع للنّصّ قد كان ادّعاء غير صحيح؛ إذ يقول: "لا بدّ أن يتطابق المعنى الصّحيح للنّصّ الذي يتعرّض لبعض الحقائق العِلْميّة مع الحقائق العِلْميّة الثّابتة، وحين لا يُلاحظ

---

(1) **هو**: الدّكتور يوسف عبد الله القرضاويّ، عالم مصريّ مُعاصر، أحد أعلام الإسلام البارزين في العصر الحاضر في العِلْم والفكر والدّعوة والجهاد، في العالم الإسلاميّ مشرقه ومغربه. رئيس الاتّحاد العالميّ لعلماء المسلمين. من كُتبه: الحلال والحرام في الإسلام، وفقه الزّكاة، ومقاصد الشّريعة المتعلّقة بالمال، وكيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ وغير ذلك. **يُنظر**: موقع الشّيخ يوسف القرضاويّ، **السّيرة الذّاتيّة للشّيخ القرضاويّ**، على الرّابط الآتي:

https://www.al-qaradawi.net. **يُنظر**: المجذوب، محمّد: **علماء ومُفكّرون عرفتهم**، ج1، ص461–490.

(2) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **قواعد التّدبّر الأمثل لكتاب الله –عزّ وجلّ–**، ص225–238.

التّطابق، فلا بدّ أن يرجع ذلك إمّا لأنّ ما ادّعي أنّه حقيقة عِلْميّة قد كان ادّعاء غير صريح، وإمّا لأنّ ما ادّعي أنّه تفسير قاطع للنّصّ قد كان ادّعاء غير صحيح. وعلى هذا فعلى المخطئ أن يراجع خطأه، ويستأنف بحثه من جديد. وقد يقتضي المنهج السّليم ترك الأمر مُعلّقاً ريثما يتوصّل البحث العِلْميّ في الكون إلى الحقيقة النّهائيّة"[1].

ومن الأمثلة التي ذكرها الشّيخ موافقة لهذا الضّابط الذي وضعه: أنّه قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾[2]: "دحرج الأرض بعد أن رفع سمك السّماء فسوّاها، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها"[3]، والذي دفعه إلى اختيار هذا المعنى ما دلّ عليه المعنى اللّغويّ؛ حيث قال: "يُقال لغة: دحا السّيل الحصا، أي: دفعه فتدحرج، فكانت له حركتان: حركة حول نفسه، وحركة في مسير. وكان لأهل مكّة لُعبة يلعبون بها، وهي حجارة كالأقراص، وتُحفر حفرة بقدرها، يتنحّون عنها قليلاً، ثمّ يدحّون بتلك الأحجار إلى تلك الحفرة، إن وقع فيها الحجر فقد غلب صاحبه، وإن لم يقع غُلب، ومعلوم أنّ الحجر تكون له حركتان، حركة حول نفسه، وحركة في مسير"[4]. ثم ذكر الشّيخ صلة هذا التّفسير من حيث العلاقة بين الوجه اللّغويّ وما وصل إليه العِلْم الحديث اليوم، فقال: "وهذا واقع حال الأرض إذ أثبت علماء الكونيّات أنّ للأرض حركة حول نفسها في اتّجاه الشّمس، فيكون من أثرها ظاهرة اللّيل والنّهار، وأنّ لها حركة أُخرى في مسير فلكيّ حول الشّمس، يكون من أثرها ظاهرة السّنة الشّمسيّة بفصولها الأربعة. وبهذا تظهر لنا المطابقة بين النّصّ القرآنيّ، وبين ما قال العِلْم الإنسانيّ في كلمته الأخيرة"[5].

ويُحذّر الشّيخ من الانزلاق مع كلّ نظريّة يقولها العلماء قبل أن تصبح حقيقة عِلْميّة؛ حتّى لا يكون مدعاة لطعن أعداء الإسلام وخصومه بالقرآن وقدسيّته، وبالتّالي يفتنون أبناء المسلمين عن دينهم؛ ويرى من الخير إبقاء دلالات النّصّ القرآنيّ مُحتملة؛ حتّى يصل العِلْم إلى كلمته الأخيرة، فيقول: "وفي الطّرف المقابل نجد الذين ينزلقون مع كلّ نظريّة أو فرضيّة حديثة يقولها علماء البحث الكونيّ، قبل أن تصبح هذه النّظريّة أو الفرضيّة حقيقة عِلْميّة، وبهذا الانزلاق يُحاولون تأويل النّصوص القرآنيّة تأويلات تتّفق معها، ويعتبرون ذلك هو التّأويل الصّحيح، وربّما تكون تأويلاتهم شاذّة وبعيدة جدّاً، ولا يحتملها سموّ الأسلوب القرآنيّ البليغ، وبهذا تكون النّصوص القرآنيّة عُرضة لتجديد التّأويل كلّما جدّ في العِلْم جديد. ومن الخير

---

(1) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **قواعد التّدبّر الأمثل لكتاب الله –عزّ وجلّ–**، ص229.

(2) سورة النّازعات: الآية (30).

(3) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م15، ص57.

(4) نفسه، م15، ص57.

(5) نفسه، ص58.

في هذا إبقاء النّصّ على احتمالاته التي يصلح لأن يدلّ عليها، ويبقى البتّ مُعلّقا؛ حتّى يقول العِلْم الإنسانيّ في الموضوع كلمته الأخيرة"[1].

ومن ذلك قوله عند تفسير قول الله تعالى: ﴿ إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴾[2]، "وبعد هذه المطالعة اليسيرة التي قدّمت لنا هذه الصّورة الوصفيّة عن الشّمس، أخذاً ممّا توصّل إليه علماء الفلك من معلومات عنها، نستطيع أن نقول: إنّ أمثل طريقة لمحو ضياء الشّمس مع بقاء ما فيها من موادّ صالحة للتّفجر والاشتعال، تكون بلفّ ألسنة الغاز الملتهب، ولفّ أعمدة الغاز الضّخمة، وتكويرها كَوْراً فوق كَوْر على الموادّ ذات الكثافة الشّديدة في باطنها حول مركزها، وضغط هذه الألسنة الغازيّة، والأعمدة الغازيّة التي يبلغ امتدادها مئات الآلاف من الكيلومترات، لمنع التّفجرات النّوويّة التي تحدث في باطنها، وتُمِدّ بألسنة الغاز الملتهب إلى سطحها، وبهذا التّكوير والضّغط على مركز الشّمس ينمحي الضّياء، وتشتدّ كثافة الشّمس، حتّى تصير الموادّ الغازيّة بشدّة كثافتها شبيهة بالموادّ الصّلبة، مع بقاء القوى الالتهابيّة كامنة فيها، والله على كلّ شيء قدير. هذه هي الظّاهرة التي تكون في هذا الحدث العظيم، أمّا الوسيلة لحدوث هذه الظّاهرة فأمر من أُمور الغيب التي يعلمها الله، ولا نملك حتّى الآن أمارات عنها"[3].

ويدعو الشّيخ إلى شطب الاحتمالات المخالفة لفهم النّصّ القرآنيّ إذا ما ثبتت حقيقة عِلْميّة ثبوتاً قطعيّاً تحدّث عنها، أو أشار إليها، وإلّا يبقى الفهم دون قطع أو جزم، فيقول: "ولمّا كان من المقطوع به أنّه لا يمكن أن تتعارض دلالة قرآنيّة صحيحة مع حقيقة ثابتة، كان من الواجب –متى ثبتت حقيقة ما ثبوتاً قطعيّاً– فَهْمُ النّصّ القرآنيّ الذي تحدّث عنها أو أشار إليها بما ينسجم معها. وبعد هذا فمن الخير أن تُشطب الاحتمالات المخالفة التي أوردها المفسّرون، بشرط الوصول إلى الحقيقة النّهائيّة عِلْميّاً، أمّا ادّعاء الوصول إلى الحقيقة النّهائيّة دون برهان قطعيّ، فإنّه لا يُلغي الاحتمالات المخالفة؛ بل يظلّ الفهم النّهائيّ للنّصّ غير مجزوم به"[4].

وإنّي لأتّفق معه في ذلك، بشرط التّقيّد بالضّوابط التي وضعها العلماء للتّفسير العِلْميّ؛ بُغية الوصول إلى تفسير صحيح صريح للنّصّ القرآنيّ، لا يُمكن العدول عنه بحال من الأحوال، ولتصحيح الاحتمالات المخالفة له، التي لا يحمل القرآن وزرها، ولا وزر قائلها، فللمُفسّر أجران إن أصاب، وأجر واحد إن أخطأ.

---

(1) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **قواعد التّدبّر الأمثل لكتاب الله –عزّ وجلّ–**، ص235.

(2) سورة التّكوير: الآية (1).

(3) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م1، ص401–402.

(4) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **قواعد التّدبّر الأمثل لكتاب الله –عزّ وجلّ–**، ص234–235.

هذا، وقد وضع الشّيخ قاعدة حول الحقائق العِلْميّة الثّابتة[1]، وضمّنها كتابه قواعد التّدبر الأمثل، بيّن فيها موقفه من الإشارات والمضامين العِلْميّة، **ويتلخّص موقفه فيما يأتي:**

1. "وجوب فهم النّصّ أو النّصوص القرآنيّة بمُقتضى الحقائق العِلْميّة التي ثبتت بأدوات ووسائل البحث العِلْميّ الإنسانيّ ثبوتاً قطعيّاً.
2. النّظريّات العِلْميّة التي تعرّض لها القرآن الكريم ببيان ما، ولم يقل العِلْم فيها كلمته الأخيرة القطعيّة بالأدلّة والبراهين القطعيّة، يمكن تفسير النّصّ القرآنيّ بمُقتضاها ضمن ضوابط فهم اللّغة العربيّة، بما يتّفق مع هذه النّظريّة، ولكن دون جزم ولا قطع، وتظلّ الاحتمالات الأُخرى التي يحتملها النّصّ مفتوحة ومطروحة؛ حتّى يأتي اليقين العِلْميّ الذي تُقرّره أدوات ووسائل البحث العِلْميّ الإنسانيّة.
3. لا يجوز بحال من الأحوال جعل النّصوص القرآنيّة أُلعوبة بأيدي ناصري النّظريّات، ولا يجوز تطويع النّصوص القرآنيّة وإكراهها، ولَيّ أعناقها بتأويلات مُتعسّفة لتوافق القضايا العِلْميّة التي لم تثبت، أو لا يمكن فهمها بمُقتضى قواعد فهم النّصوص العربيّة، وعلى مُتدبّر القرآن الكريم أن يحذر من الانزلاق في المزالق الخطرة، التي تجرّ إلى فهم كلام الله على غير ما أذن الله به في تدبّر قرآنه"[2].

وبمثل هذه النّظرة المعتدلة التي مال إليها الشّيخ ورجّحها أكثر المفسّرين والباحثين حديثاً، يمكن للتّفسير العِلْميّ المعتدل أن يكشف عن أُسس التّفكير العِلْميّ، والحقائق الأساسيّة عن طبيعة الكون والإنسان كما وضعها القرآن الكريم، وبذلك يُصبح –من غير شكّ– أساساً لتحرير الفكر الإنسانيّ، وحافزاً للنّهضة الشّاملة والتّقدّم الموعود.

وبناء على ذلك، فإنّي أرى أنّ التّفسير العِلْميّ للآيات القرآنيّة ذات المضامين العِلْميّة، يجب أن يصل إلى درجة الحقيقة العِلْميّة المقطوع بها، وأن يتوافق وقواعد اللّغة العربيّة، ومدولولات مُفرداتها؛ بحيث يكون القرآن أصلاً والعِلْم تابعاً، وأن يكون التّطابق عفويّاً وتامّاً، لا مُفتعلاً أو مُتكلّفاً. يقول الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ: "إذا تناقضت مُقرّرات العلوم الكونيّة الإنسانيّة، التي لم تبلغ مبلغ اليقين الذي لا يقبل التّعديل والتّبديل والنّقض، مع مفاهيم النّصوص الدّينيّة الصّحيحة الثّابتة، دون إمكان التّأويل الذي تسمح به قواعد اللّغة العربيّة، وقواعد استنباط المعاني والأحكام لدى علماء المسلمين الموثوقين، فالحقّ ما جاء في

---

(1) **يُنظر**: نفسه، القاعدة الثّالثة عشرة: حول أنّ القرآن لا اختلاف فيه ولا تناقض، وأنّه لا تناقض بينه وبين الحقائق العِلْميّة الثّابتة بالوسائل الإنسانيّة، ص225–238.

(2) **يُنظر**: الميدانيّ، عبد الرّحمن: **قواعد التّدبّر الأمثل لكتاب الله –عزّ وجلّ–**، ص238.

القرآن، أو في السّنّة القطعيّة الثّبوت، والقطعيّة الدّلالة، لا ما قرّرته النّظرات الظّنّيّة الإنسانيّة النّاقصة في العلوم الكونيّة"[1].

وكون القرآن الكريم كتاب هداية، فإنّه لا يمنع أن ترد فيه إشارات عِلْميّة يُوضّحها التّعمّق في العِلْم الحديث، فقد تحدّث القرآن عن السّماء والأرض، والشّمس والقمر، واللّيل والنّهار، وسائر الظواهر الكونيّة، كما تحدّث عن الإنسان، والحيوان والنّبات، ولم يكن هذا الحديث المستفيض مُنافياً لكون القرآن كتاب هداية؛ بل كان حديثه هذا أحد الطّرق التي سلكها لهداية النّاس. وأمّا تعليق الحقائق التي يذكرها القرآن بالنّظريّات العِلْميّة فهو أمر مرفوض. وقد وضع القائلون المعتدلون بالتّفسير العِلْميّ للقرآن ضوابطَ يسيرون على نسقها، **–وهذا ما سأُبيّنه في المبحث القادم إن شاء الله تعالى–**.

(1) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م11، ص762.

المبحث الخامس

ضوابط التّفسير العِلْميّ

هناك كثير من الآيات القرآنيّة التي تحوي مضامين عِلْميّة، وإشارات إلى موضوعات العلوم والمعارف المتعلّقة بالنّفس الإنسانيّة والآفاق الكونيّة، جاءت للفت الأنظار إلى مظاهر قدرة الله –تعالى– في الخلق، استدلالاً على تفرّده –سبحانه– بالرّبوبيّة والألوهيّة، كما أنّها جاءت في أسلوب يفتح أمام العقل البشريّ آفاقاً واسعة للتّفكير في دلالاتها عبر العصور؛ لتشهد بالحقّ الذي جاءت به. ولحكمة إلهيّة بالغة لم يُفسّر النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم– هذه الآيات؛ إمّا باجتهاد منه، أو بتوجيه من الله جلّت حكمته؛ لأنّه لو فسّرها على نحو يُناسب فهم من حوله لأنكر هذا التّفسير من سيأتي بعده، ولو فسّرها تفسيراً يفهمه من سيأتي بعده لاستغلق هذا التّفسير على من حوله. لذلك تُركت هذه الآيات للعصور اللّاحقة؛ ليكشف التّقدّم العِلْميّ في كلّ عصر جوانب الإعجاز فيها، وبهذا يكون القرآن الكريم، بما فيه من آيات كونيّة مُعجزة مُستمرّة إلى يوم القيامة.

إنّ تفسير هذه الآيات القرآنيّة، من غير ضوابط، أدّى إلى نتائج عكسيّة، ما جعل كثيراً من العلماء يحملون على هذا اللّون من التّفسير؛ حرصاً منهم على القرآن الكريم نفسه من أن تشوبه أيّ شائبة، بنأيه عن النّظريّات العِلْميّة غير قطعية الثّبوت، أو تحميل آياته ما لا تحتمل من الدّلالات. كما أنّ السّير على ضوابط غير واضحة وغير سليمة أوجد مزالق كثيرة حتّى عند بعض المخلصين، وما أُوتي الإسلام من قبل أعدائه إلّا من تسرّع بعض العلماء في إثبات نظريّة عِلْميّة كانت محلّ التّجربة، ففسّروا بها حقيقة قرآنيّة ذات مضامين عِلْميّة، وقالوا: إنّها تفسّر هذا المعنى التّجريبيّ أو العِلْميّ الذي تُوُصّل إليه؛ بيد أنّهم حادوا عن الصّواب، لاسيّما عندما يثبت خطأ هذه النّظريّة، وسرعان ما يطعن الأعداء بالقرآن الكريم بأنّه يتحدّث عن حقيقة تغيّرت، أو عن مسألة عِلْميّة تبدّلت.

لذلك، كان لابدّ من تعيين ضوابط مُحدّدة للتّفسير العِلْميّ، يُلجأ إليها، ويُحتكم إليها في تفسير الآيات القرآنيّة ذات المضامين العِلْميّة؛ علّها تكون مانعاً من الوقوع في الأخطاء، وحافزا للكتابة في هذا الموضوع الحيويّ. **والمُراد بهذه الضّوابط**: "تلك القواعد التي تحدّد مسار بحوث الإعجاز العِلْميّ وفق الأُصول الشّرعيّة المقرّرة، مع الالتزام بالجوانب الفنيّة والعِلْميّة المطلوبة"[1]. وتكمن أهمّيّة هذه الضّوابط في كونها "مناط استرشاد للباحثين في الإعجاز العِلْميّ في القرآن الكريم والسّنّة النّبويّة المشرّفة، وبخاصّة في هذا الوقت الذي كثر فيه إقبال الباحثين والكاتبين على هذا الموضوع؛ لأهمّيّته في الدّعوة والإقناع، كما أنّ التزامها

(1) المصلح، عبد الله: **الإعجاز العِلْميّ في القرآن والسّنّة، تاريخه وضوابطه**، ص29.

يُساعد على إنهاء الخلاف بين المؤيّدين لموضوع التّفسير العِلْميّ والمعارضين له؛ لأنّه صادر عن منهج غير صحيح"[1].

وقد ذكر هذه الضّوابط مُصطفى مُسلم[2] في كتابه (مباحث في إعجاز القرآن) بشيء من التّفصيل، وقام صلاح الخالديّ باختصارها في كتابه البيان في إعجاز القرآن، وهذه الضّوابط هي كالآتي[3]:

1. اعتقاد أنّ القرآن كتاب هداية بالدّرجة الأولى، وليس كتاب علوم وكونيّات.
2. ترك الإفراط والتّفريط لدى النّظر في الآيات الكونيّة.
3. الوقوف على مرونة الأسلوب القرآنيّ في التّعبير عن المضامين العِلْميّة، بحيث يحتمل ذلك الأسلوب وجوهاً في التّأويل.
4. الاكتفاء بالحقائق العِلْميّة مناط الاستدلال، وعدم الاستدلال بالنّظريّات والفرضيّات العِلْميّة.
5. عدم حصر دلالة الآية على حقيقة واحدة؛ بل إبقاؤها مفتوحة تحتمل كلّ ما يتّفق مع معناها.
6. اليقين باستحالة التّصدام بين الحقائق القرآنيّة، والحقائق العِلْميّة.
7. اتّباع المنهج القرآنيّ في طلب المعرفة، بالنّظر في الآيات الربّانيّة في الكون والنّفس والآفاق، والوقوف على سنن الله في ذلك.

ومن خلال قراءتي واطّلاعي على الكتابات والمُؤلّفات في هذا الصّدد، جمعت ضوابط أُخرى، وهي:

1. "ألّا تُجعل حقائق القرآن موضع نظر؛ بل أن تُجعل الحقائق هي الأصل: فما وافقها قُبل، وما عارضها رُفض"[4].

---

(1) المصلح، عبد الله: **الإعجاز العِلْميّ في القرآن والسّنّة، تاريخه وضوابطه**، ص29.

(2) **هو**: الأُستاذ الدّكتور: مُصطفى مُسلم محمّد. سُوريّ الجنسيّة. أُستاذ في التّفسير وعلوم القرآن، وخبير في مركز تفسير للدّراسات القرآنيّة، ورئيس جامعة الزّهراء في غازي عينتاب-تُركيا. من مُؤلّفاته: مباحث في إعجاز القرآن، ومباحث في عِلْم المواريث، ومباحث في التّفسير الموضوعيّ. وغير ذلك. **يُنظر**: موقع شبكة الألوكة، **السّيرة الذّاتيّة لمُصطفى مُسلم**، على الرّابط الآتي: https://www.alukah.net. **يُنظر**: موقع جامعة الزّهراء، **السّيرة الذّاتيّة لمُصطفى مُسلم**، على الرّابط الآتي: https://alzahraa-university.com

(3) الخالديّ، صلاح: **البيان في إعجاز القرآن**، ص273. مُسلم، مُصطفى: **مباحث في إعجاز القرآن**، ص160-164.

(4) النّابلسيّ، محمّد: **موسوعة الإعجاز العِلْميّ في القرآن والسّنّة آيات الله في الآفاق**، ص27.

2. "موافقة اللّغة موافقة تامّة؛ بحيث يُطابق المعنى المفسّر المعنى اللّغويّ، وعدم مُخالفة صحيح المأثور عن الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم-، أو ما له حكم المرفوع، وموافقة سياق الآيات؛ بحيث لا يكون التّفسير نافراً عن السّياق، والتّحذير من أن يتعرّض التّفسير العِلْميّ لأخبار وشؤون المعجزات"[1].

3. "ثبوت الحقيقة العِلْميّة ثبوتاً قاطعاً، وتوثيق ذلك عِلْميّاً مُتجاوزة مرحلة الفرض والنّظريّة إلى القانون العِلْميّ، ووجود الإشارة إلى الحقيقة العِلْميّة في النّصّ القرآنيّ بشكل واضح لا مِرية فيه"[2].

4. "مُراعاة السّياق القرآنيّ للآية المتعلّقة بإحدى القضايا الكونيّة دون اجتزاء للنّصّ عمّا قبله وعمّا بعده، وعدم التّكلّف أو ليّ أعناق الآيات من أجل موافقتها للحقيقة العِلْميّة، والحرص على عدم الدّخول في التّفاصيل العِلْميّة الدّقيقة التي لا تخدم قضيّة الإعجاز العِلْميّ للآية أو الآيات القرآنيّة، مثل: المعادلات الرّياضيّة، والرّموز الكيميائيّة الدّقيقة، وعدم الخوض في القضايا الغيبيّة غيبة مُطلقة، كالذّات الإلهيّة، والرّوح، والملائكة..."[3].

5. "الإلمام بمبادئ العلوم الطّبيعية والكونيّة؛ ليتمّ استخدامها فيما لا بدّ منه من بيان معاني القرآن، وتوضيح مقاصده ودلالاته، وانتباه المتخصّصين في العلوم إلى ما لم ينتبه له غيرهم، فلا ننكر عليهم أن ينتبهوا إلى معان تتّصل بثقافتهم وتخصّصهم، لم ينتبه إليها غيرهم من علماء الدّين والشرّع، من فحول البلاغة والكلام والفقه، وتجنّب التّكلّف في فهم النّصّ وحمله على المعنى الذي يُراد استنباطه"[4].

6. "الابتعاد عن تسفيه آراء السّلف من علماء التّفسير والحديث ورميهم بالجهل؛ لأنّ القرآن والسّنّة خطاب للبشريّة في كلّ عصر، والكلّ يفهم منها بقدر ما يفتح الله عليه، وبحسب ما يبذله من جهد، وما هو مُتوفّر لديه من وسائل، ولن يُحيط بفهم الوحي أهل عصر إلى قيام السّاعة، فلا مجال للتّسفيه والتّجهيل، وإنّما هي الاستفادة والتّكميل والدّعاء لمن تقدّم؛ بل الواجب اتّباع فهم

---

(1) عبّاس، فضل: **إعجاز القرآن الكريم**، ص268.

(2) المصلح، عبد الله: **الإعجاز العِلْميّ في القرآن والسّنّة، تاريخه وضوابطه**، ص30.

(3) النّجّار، زغلول: **مدخل إلى دراسة الإعجاز العِلْميّ في القرآن الكريم والسّنّة المطهّرة**، ص148-153. **من آيات الإعجاز العِلْميّ: السّماء في القرآن الكريم**، ص70-72.

(4) القرضاويّ، يوسف: **كيف نتعامل مع القرآن العظيم**، ص379-383.

السّلف –رضي الله عنهم–، وبخاصّة الصّحابة –رضوان الله عليهم–"[1]؛ لأنّهم أدرى بذلك لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختُصّوا بها، ولما لهم من الفهم التّامّ والعمل الصّالح، لاسيّما علماؤهم وكبراؤهم كالأئمّة الأربعة الخلفاء الرّاشدين، والأئمّة المهديّين –رضي الله عنهم–.

وبمُراعاة تلك القواعد في تفسير القرآن الكريم –إن شاء الله تعالى– نتمكّن من خدمة كتاب الله في هذا العصر الحديث. وفي هذا الصّدد يقول الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ: "الواجب إذن يُحتّم علينا –أخذاً بطرق البحث العِلْميّ السّليم المحرّر الذي أمرنا به الإسلام– أن نُمعن النّظر فيما قدّمته شهادة العقل، ووسائل البحث العِلْميّ الإنسانيّة، وفيما قدّمته شهادة النّصوص الدّينيّة، وأن نُخضع هذه الشّهادات للضّوابط العِلْميّة الصّحيحة، المتّفق عليها في أُصول العقل، وفي أُصول الدّين. وإنّي لأجزم بكلّ يقين أنّنا لن نجد مسألة واحدة يستحكم فيها الخلاف بين شهادة النّصوص الدّينيّة اليقينيّة قطعيّة الثّبوت قطعيّة الدّلالة، وبين الشّهادة القاطعة التي يُقدّمها العقل، أو الشّهادة القاطعة التي يُقدّمها البحث العِلْميّ الإنسانيّ البحت؛ بل اليقينيّ من كلّ ذلك لا بدّ أن يتطابق في شهادته، متى استطاع أن يصل إلى الحقيقة التي هي موضوع البحث"[2].

(1) المصلح، عبد الله: **الإعجاز العِلْميّ في القرآن والسّنّة، تاريخه وضوابطه**، ص33.

(2) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **صراع مع الملاحدة حتّى العظم**، ص30.

الفصل الرّابع

التّفسير العِلْميّ عند الشّيخ عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميدانيّ

المبحث الأوّل: التّفسير العِلْميّ لآيات الله –تعالى– في السّماء والأرض.

المبحث الثّاني: التّفسير العِلْميّ لآيات الله –تعالى– في الإنسان.

المبحث الأوّل

التّفسير العِلْميّ لآيات الله –تعالى– في السّماء والأرض

خلق الله –تعالى– الشّمس والقمر والنّجوم والكواكب وسخّرها بأمره؛ لأداء وظائف مُفصّلة مُبيّنة بقضائه وقدره ضمن مجاري سُننه. وهذا التّسخير إنّما هو بالقوّة والتّذليل، لا بالحرّيّة والاختيار؛ تحقيقاً لمصلحة العباد.

ومن المعروف أنّ الشّمس تعمل مُسخّرة دواماً في حركتها، وبثّ ضيائها إلى الأرض والقمر، وأنّ القمر مُسخّر دواماً في حركته، وبثّ نوره إلى الأرض، مع تزايد أهلّته وتناقصها، وأنّ النّجوم والكواكب مُسخّرات يُهتدى بمواقعها وحركتها، كلّ ذلك لمنفعة سكّان الأرض. كما أنّ الحياة بكلّ مظاهرها في الأرض مُرتبطة أسبابُها بضياء الشّمس والقمر، وهما مُسخّران تسخيراً عجيباً ضمن نظام دقيق لا يخرمانه قيد شعرة؛ فضلاً عن فوائدهما في معرفة النّاس لعدد السّنين وحساب الأشهر والأيّام، ولحركتي المدّ والجزر في البحار. إضافة إلى وظيفة النّجوم التي يهتدي النّاس بها في طرقات البرّ والبحر ليلاً ونهاراً، فهي مُسخّرة ضمن نظام دقيق لا تخرمه أيضاً. إلى غير ذلك من تسخير يكتشفه الباحثون من علماء الظّواهر الكونيّة، وهذا التّسخير هو من نعم الله على النّاس في الأرض، وعنايته بهم.

المطلب الأوّل– معنى خلق السّماء والأرض في اللّغة والاصطلاح[1]:

الخَلْقُ في كلام العرب: (ابتِداع الشَّيْءِ عَلَى مِثال لَمْ يُسبق إِليه: وَكُلُّ شَيْءٍ خلَقه اللَّهُ فَهُوَ مُبْتَدِئه عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سُبق إِليه. وقيل يأتي على وجهين: أَحدهما الإِنْشاء عَلَى مِثَالٍ أَبْدعَه، وَالْآخَرُ التَّقْدِيرُ. وَهُوَ مَصْدَرٌ، وَجَمْعُه خَلَائِقُ)[2]. يقول ابن سِيدَهْ: "خَلقَ اللَّهُ الشَّيْءَ يَخْلُقه خَلْقًا: أَحدثه بَعْدَ أَن لَمْ يَكُنْ،

---

(1) جاءت مادّة (خلق) بمشتقّاتها في القرآن الكريم مائتين وإحدى وستّين (261) مرّة؛ لتأكيد أنّ عمليّة الخلق هي عمليّة خاصّة بالله –تعالى– وحده، لا يُشاركه فيها أحد، ولا يُنازعه عليها مُنازع، ولا يقدر عليها غيره –سبحانه وتعالى– إلّا بإذنه. كذلك وردت لفظة (السّماء) في القرآن الكريم بالإفراد والجمع في ثلاثمائة وعشرة (310) مواضع، منها مائة وعشرون (120) بصيغة الإفراد (السّماء)، ومائة وتسعون (190) بصيغة الجمع (السّماوات) مُعرّفة وغير مُعرّفة. النّجّار، زغلول: **من آيات الإعجاز العِلْميّ: السّماء في القرآن الكريم**، ص78. كما وردت كلمة الأرض بمشتقّاتها في القرآن الكريم في أربعمائة وواحد وستّين (461) موضعاً، منها ما يُشير إلى الأرض ككلّ في مُقابلة السّماء، ومنها ما يُشير إلى اليابسة التي نحيا عليها، أو إلى جزء منها، ومنها ما يُشير إلى التّربة التي تُغطّي صخور الغلاف الصّخريّ للأرض. النّجّار، زغلول: **من آيات الإعجاز العِلْميّ: الأرض في القرآن الكريم**، ص81.

(2) **يُنظر**: ابن منظور، محمّد: **لسان العرب**، باب القاف، فصل الخاء، ج10، ص85-87.

والخَلْقُ يَكُونُ الْمَصْدَرَ وَيَكُونُ المَفْعُول"[1]، أي المخلوق. (والخَلْقُ أصله: التّقدير المستقيم، ويُستعمل في إبداع الشّيء من غير أصل ولا احتذاء، ويُستعمل في إيجاد الشّيء من الشّيء، وليس الخَلْقُ الذي هو الإبداع إلّا لله –تعالى–)[2]. وقيل: (الخَلْق: التَّقْدِيرُ؛ وخَلَق الأَدِيمَ يَخْلُقه خَلْقاً: قدَّره لما يريد قَبْلَ الْقَطْعِ. وقيل: الخَلْقُ: الْكَذِبُ، وخَلَق الكذبَ والإِفْكَ يخلُقه وتَخَلَّقه واخْتَلَقَه وافْتراه: ابتدَعه)[3].

وهذا المعنى اللّغويّ لكلمة الخَلْق، يوافق ما ذهب إليه الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ في تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[4]؛ **إذ يقول**: "يأتي الخَلْق في اللّغة للدّلالة على ثلاثة معانٍ: **المعنى الأوّل**: ابتداع الشّيء وإيجاده من العَدَم على غير مثال سبق، وهذا لا يكون إلّا من الله –عزّ وجلّ–. **المعنى الثّاني**: التّقدير، وهو إعطاء أجزاء الشّيء مقاديرها، وهذا يكون من الله، ويكون من غيره، ومنه قول الله –عزّ وجلّ– لعيسى –عليه السّلام–: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[5]. **المعنى الثّالث**: يأتي الخَلْق بمعنى الكذب والإفك، وإنّما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون، ومنه قول الله –عزّ وجلّ– حكاية لمقالة إبراهيم –عليه السّلام– لقومه: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾[6]، أي: ويفترون كذباً"[7].

وبالنّظر إلى ما ذكره الشّيخ من معنى لكلمة الخَلْق، أجد أنّه لا تباين بين المعنى اللّغويّ والمعنى الذي ذهب إليه الشّيخ؛ فضلاً عن أنّني تتبّعت جميع الآيات التي تشتمل على ذكر خَلق السّماوات، فوجدتها تدلّ على المعنى ذاته.

وجاء في لسان العرب أنّ كلمة السّماء مُشتقّة من السُّمُوُّ: الارْتِفاعُ والعُلُوُّ، تقول: (سَمَوْتُ وسَمَيْتُ مِثْلَ عَلَوْت وعَلَيْت. وسَمَا الشّيءُ يَسْمُو سُمُوّاً، فَهُوَ سامٍ: ارْتَفَع. وسَمَا بِهِ وأَسْماهُ: أَعلاهُ. وَإِذَا رَفَعْتَ بَصَرك إِلَى

---

(1) ابن سِيدَه، علي: **المُحكم والمُحيط الأعظم**، ج4، ص535.

(2) **يُنظر**: الرّاغب الأصفهانيّ، الحسين: **المُفردات في غريب القرآن**، ص296.

(3) **يُنظر**: ابن منظور، محمّد: **لسان العرب**، باب القاف، فصل الخاء، ج10، ص87–88.

(4) سورة الأعراف: الآية (54).

(5) سورة المائدة: الآية (110).

(6) سورة العنكبوت: الآية (17).

(7) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م4، ص285–286.

الشَّيْءِ قُلْتَ: سَما إِلَيْهِ بَصَرِي، وَإِذَا رُفِعَ لَكَ شيءٌ مِنْ بعيدٍ فاسْتَبَنْتَه، قُلْتُ: سَما لِي شيءٌ. وسَما لِي شخصُ فُلَانٍ: ارْتَفَع حَتَّى اسْتَثْبَتّه. وسَمَا بصرُه: عَلَا. وسماءُ كلِّ شَيْءٍ: أَعلاهُ. والسَّماءُ: سقفُ كلِّ شَيْءٍ وكلِّ بيتٍ)[1]. قَالَ الزَّجَّاجُ: "السَّمَاءُ فِي اللُّغَةِ يُقَالُ لِكُلِّ مَا ارتَفع وعَلا قَدْ سَما يَسْمُو. وكلُّ سقفٍ فَهُوَ سَماءٌ، وَمِنْ هَذَا قِيلَ لِلسَّحَابِ السّماءُ لأَنّها عاليةٌ"[2]، (والسّماءُ تُذكَّر وتُؤنَّث أَيضاً؛ وَالْجَمْعُ أَسْمِيَةٌ وسُمِيٌّ وسَمَوَاتٌ وسَمَاءٌ؛ والسّماءُ: المطرُ. ويُسَمَّى العشبُ أَيضاً سَماءً؛ لأَنه يَكُونُ عَنِ السَّمَاء الَّذِي هُوَ الْمَطَرُ، وسُمِّيَ الْمَطَرُ سَماءً؛ لأَنه يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ)[3].

يقول الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ: "السّماء تُطلق لغة على كلّ ما ارتفع وعلا، أو كان في جهة العُلوّ، من فعل (سَمَا يَسْمُو سُمُوّاً فهو سَامٍ) أي: ارتفع مادّيّاً أو معنويّاً، وسماء كلّ شيء أعلاه، والسّماء سقف كلّ شيء وكلّ بيت، والسّماء بهذا المعنى مُذكّر. أمّا السّماء التي تُظِلّ الأرض فهي مُؤنّثة عند العرب؛ لأنّها اسم جنس جمعيّ مُفردة سَمَاءة"[4]. واستدلّ بقول الجوهريّ: "السّماء تُذكّر وتُؤنّث"[5]. ثمّ قال: "وكَثُر في القرآن المجيد إطلاق لفظ (السّماء) على السّحاب، وهو إطلاق مُنطبق على مفهوم لفظ السّماء لغة"[6]. وقال أيضاً: "والغلاف الغازيّ المحيط بالأرض هو بالنّسبة إليها سماء لغة، حتّى القريب الملاصق لها. وكلّ مجموعة من المجرّات مُترابطة بنظام في بنائها وحركتها وجاذبيّتها هي سماء"[7]. "وقد يُطلق على المطر لفظ (السّماء)؛ لأنّه ينزل من جهتها، وهذا إطلاق مجازيّ، من نوع المجاز المرسل"[8].

وقال بعبارات مُتشابهة: السّماء لغة هي: "كلّ ما علا سكّان الأرض من جهة رؤوسهم وهم منتصبو القامات، فيدخل فيها الغلاف الغازيّ المحيط بالكرة الأرضيّة من كلّ جهاتها. ويدخل فيها السّحاب الذي يتجمّع في جوّ الأرض. ويدخل فيها مجموعات المجرّات ذوات النّجوم الملتهبة والكواكب الباردة"[9]؛ "إذ

---

(1) **يُنظر**: ابن منظور، محمّد: **لسان العرب**، باب الواو والياء من المعتلّ، فصل السّين المُهملة، ج14، ص397-398.

(2) الزّجاج، إبراهيم: **معاني القرآن وإعرابه**، ج1، ص108.

(3) **يُنظر**: الجوهريّ، إسماعيل: **الصّحاح تاج اللّغة وصحاح العربيّة**، ج6، ص2381-2382. **يُنظر**: ابن منظور، محمّد: **لسان العرب**، باب الواو والياء من المعتلّ، فصل السّين المُهملة، ج14، ص398.

(4) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م3، ص44-45. **يُنظر**: نفسه، م6، ص335.

(5) نفسه، م3، ص45.

(6) نفسه.

(7) نفسه.

(8) نفسه.

(9) نفسه، م2، ص312-313.

كلّ ما علا فأظلّ فهو سماء في اللّغة"[1]. "ولفظ السّماء: اسم جنس يعمّ كلّ السّماوات السّبع وما فيهنّ، وما عليهنّ"[2]. وهو في ذلك يُوافق ما عليه كلام العرب ولا يحيد عنه، فالغلاف الغازيّ والسّحاب والمجرّات كالسّقف ارتفاعاً وعُلوّاً.

أمّا بالنّسبة لكلمة الأرض، فقد جاء في معاجم اللّغة أنّها: (اسم جنس للجُرم المقابل للسّماء، وهي لفظة مؤنّثة أصلها أَرْضة، والجمع آراضٌ وأُرُوض وأَرَضُون، وأَرَضات بالألف والتّاء، والجمع (الأراضي) هو على غير قياس. ويُعبّر بها عن أسفل الشّيء، كما يُعبّر بالسّماء عن أعلاه. فكلّ ما سَفَل فهو أرض، وكلّ ما علا فهو سماء)[3]. وهذا ما ذهب إليه الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ في تفسيره؛ إذ يقول: "يُطلق لفظ الأرض على جزء ما من عموم الأرض. وأرض كلّ شيء أسفله، والأرض في اللّغة مؤنّثة، وتُجمع على: أَرَضين، وأَرْضين، وأَراضٍ، وأُرُوضٍ"[4]. وبالتّالي أرى مُوافقته لكلام العرب.

معنى السّماء والأرض اصطلاحاً عند الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ:

وبعد بيان معنى السّماء والأرض في لغة العرب، ولدى الشّيخ، أنتقل إلى ما ذكره عن السّماء والأرض، وما يتعلّق بهما من الجانب العِلْميّ؛ إذ يقول: (في آفاق السّماء والأرض آيات كثيرات لا يُحصيها العادّون، دالّات على وجود الرّبّ الخالق، وهيمنته وتدبيره، وإحكام صنعته، وعظيم قدرته، ومُحيط عِلْمه بكلّ شيء، وكامل سلطانه على كلّ شيء)[5].

فعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾[6]، قال: السّماوات: "هي مجموعات النّجوم المُنبثّة في الكون من حول الأرض، والتي يُقدّرها علماء الفلك ببلايين المجرّات، دون أن يتوصلّوا إلى معرفة

---

(1) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م5، ص584. م11، ص701. م14، ص294.

(2) نفسه، م2، ص313.

(3) **يُنظر:** الرّاغب الأصفهانيّ، الحسين: **المُفردات في غريب القرآن**، ص73. **يُنظر:** ابن منظور، محمّد: **لسان العرب**، باب الضّاد، فصل الألف، ج7، ص111-115. **يُنظر:** ابن فارس، أحمد: **مُعجم مقاييس اللّغة**، ج1، ص79-81. **يُنظر:** الجوهريّ، إسماعيل: **الصّحاح تاج اللّغة وصحاح العربيّة**، ج3، ص1063-1065.

(4) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م6، ص337.

(5) **يُنظر:** الميدانيّ، عبد الرّحمن: **براهين وأدلّة إيمانيّة**، ص299، 311.

(6) سورة لقمان: الآية (10).

عدد المجرّات الموجودة في الكون"[1]. وقال في تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾[2]: السّماوات: "هي السّماوات السّبع المُلتفّات حول بعضها، في الأبعاد السّحيقة، التي تُقدّر بمليارات السّنوات الضّوئيّة، والوهم الإنسانيّ لا يستطيع تخيّل أبعادها، وهي مليئة بمليارات المجرّات"[3].

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ﴾[4] ذكر أنّ القَسَمَ بالسّماء بأنّها ذات البروج، هو في الحقيقة قسم بظاهرة من ظواهر صفات الله الجليلة، وهذه الظّاهرة الرّائعة تدلّ على علم الله المحيط بكلّ شيء، وتدلّ على قُدرته، وعلى حكمته العجيبة، وعلى إتقانه في قضائه وقدره وخَلْقه، ثمّ بيّن المراد بالسّماء وبالبروج، فقال: "هذه القبّة الزّرقاء التي تسبح فيها النّجوم والكواكب، ذوات الأعداد المذهلة، وكلّ منها له طريق سير لا يتعدّاه، وله منازل، وله بروج، التي هي: منازل الكواكب والنّجوم في السّماء، على خطوط سيرها، ومداراتها في أفلاكها"[5]، ثمّ قال: "ووصْف السّماء بأنّها ذات البروج يدلّ على أنّها أبعاد فضائيّة، وزّع الله فيها النّجوم والكواكب توزيعاً حكيماً، وجعل لها فيها منازل ومسيرات ومدارات في أفلاك، وأبدع تنظيم حركاتها إبداعاً مُذهلاً، ونشر بينها قوى وجاذبيّات تجعل كلّ نجم وكلّ كوكب منها لا يخرج عن خطّ سيره، ولا عن مداره، ولا عن منازله المحكمة المقدّرة له"[6]. ودعم رأيه هذا بقول علماء الفلك، فقال: "إنّ علماء رصد النّجوم والكواكب والمجرّات المتتبّعين لحركاتها، ولمنازلها، على خطوط سيرها ومداراتها في أفلاكها، يجدون إتقاناً مُذهلاً، ونظاماً بديعاً رائعاً، لا يخرم حدوده في ملايين السّنين مقداراً ما مَهما قلّ"[7].

أمّا علماء الفلك فيذكرون (أنّ عدد نجوم السّماء مثل عدد ذرّات الرّمال الموجودة على سواحل البحار في الدّنيا كلّها، منها ما هو أكبر بقليل من الأرض، ولكن أكثرها كبير جدّاً؛ حتّى يمكن أن نضع في واحد منها ملايين النّجوم في مثل حجم الأرض التي نعيش عليها. وإنّ الفضاء فسيح جدّاً تتحرّك فيه كواكب لا حصر لها بسرعة خارقة، بعضها يواصل رحلته. ومنها أزواج تسير مثنى مثنى، ومنها ما يتحرّك بشكل مجموعات، وأنّ هذا الكون يتألّف من مجموعات كثيرة من الكواكب والنّجوم تُسمّى مجاميع النّجوم، وكلّها

---

(1) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م11، ص700.

(2) سورة الشّورى: الآية (11).

(3) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م12، ص584.

(4) سورة البروج: الآية (1).

(5) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م12، ص584.

(6) نفسه.

(7) نفسه.

تتحرّك دائماً. وأقرب حركة منها هي حركة القمر التي تبعد عنّا 240000 ميلاً، وهو يدور حول الأرض ويُكمل دورته في مُدّة تسعة وعشرين يوماً ونصف اليوم، وتبعد أرضنا عن الشّمس 93000000 ميلاً، وتستكمل هذه الدّائرة مرّة واحدة في سنة كاملة. وتوجد تسعة كواكب مع الأرض، وكلّها تدور حول الشّمس بسرعة فائقة. كما أنّ هذه الشّمس ليست بثابتة أو واقفة في مكان ما، وإنّما هي بدورها مع كلّ هذا العدد الهائل من الكواكب تدور في هذا النّظام الرّائع بسرعة 600000 ميلاً في السّاعة، وإنّ حركة الأرض حول الشّمس مُنضبطة تمام الانضباط)[1]. كلّ هذا دليل على عظمة الخالق –سبحانه–.

أمّا الأرض في اصطلاح الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ، فهي: "الكوكب الذي نعيش عليه في هذه الحياة الدّنيا، وهي التي منها خلقنا الله، وفيها يُعيدنا، ومنها يُخرجنا تارة أُخرى"[2]. هذا ما قاله عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[3]. وقال أيضاً: "إنّ الأرض هي الكوكب السّيّار الوحيد من المجموعة الشّمسيّة، المُعدّ بعناية فائقة لظهور الحياة عليه وتكاثرها وبقائها أحقاباً مديدة"[4]. وفي اصطلاح العلماء هي: "أحد كواكب المجموعة الشّمسيّة، وترتيبه الثّالث قُرباً من الشّمس، يسبقه الزُّهرة، ويليه المرّيخ، وهو الكوكب الذي نسكنه"[5]. وبالنّظر إلى ما ذكره الشّيخ والعلماء من معنى لكلمة الأرض أجد أنّه لا تباين بين المعنيَيْن.

المطلب الثّاني– الآيات الكونيّة الثّلاث المتعلّقة بالسّماء[6]:

الآية الأولى: آية بناء السّماء المحكم. **الآية الثّانية:** آية تزيين السّماء بالنّجوم والكواكب بالنّسبة إلى سكان الأرض. **الآية الثّالثة:** آية نظام السّماء المتماسك الذي لا فروج فيه. وهذه الآيات الثّلاث مجموعة في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾[7].

---

(1) **يُنظر:** خان، وحيد الدّين: **الإسلام يتحدّى**، ص57–59.

(2) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م6، ص337.

(3) سورة الفرقان: الآية (2).

(4) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **براهين وأدلّة إيمانيّة**، ص300.

(5) عمر، أحمد: **مُعجم اللّغة العربيّة المعاصرة**، ج1، ص84.

(6) **يُنظر:** الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م3، ص39.

(7) سورة ق: الآية (6).

الآية الأولى: آية بناء السّماء المحكم: فبناء كلّ شيء يكون بحسب طبيعته، وبحسب الغاية منه، فبناء القصور غير بناء الخيام، وهما على غير بناء الذرّة وعلى غير بناء الخليّة، وعلى غير بناء بيت العنكبوت، وعلى غير بناء بيت النّمل، وعشّ الطّيور، إلى غير ذلك. هذا ما قاله الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ﴾[1]؛ إذ قال: "إنّ السّماء مبنيّة بناء متماسكاً لا فروج فيه ولا شقوق، وليس معنى هذا أنّها مُتلاصقة الأجرام، فبناء كلّ شيء يكون بحسب نظامه، إنّ نظام بناء بيت أهل البادية من الخيام، غير بناء أهل الحضر من لبن وحجارة وطين، وغير بناء الخليّة في الجسم"[2].

فالبِنَاء لغة: "المَبْنِيُّ، وَالجَمْعُ أَبْنِيَةٌ، وأَبْنِيَاتٌ جمعُ الجَمْعِ"[3]. "وهو اسم لما يُبنى بناءً"[4]. يقول الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ: "يُطلق البناء في اللّغة على بناء جدار ونحوه، وعلى سفينة بحريّة، وعلى بناء خِباءٍ، وعريشٍ، وبيتٍ من شَعر، وتوسّعت دلالة الكلمة؛ حتّى صار يُقال: بنى الطّعام جسم فلان، أي: عظّمه ونمّاه"[5]. ويقول أيضاً: "وبناء كلّ شيء يكون بحسب الحاجة الدّاعية إليه، فبيوت العرب في البوادي تُبنى من الجلود والأصواف والأوبار المنسوجة، ونحوها، وبيوت المدن والقرى تُبنى من الحجارة والآجُرّ والطّين والجصّ والخشب والإسمنت والحديد ونحوها. والعنكبوت تبني بيتها من خيوط دقيقة جدّاً تفرزها من غدّة في جسدها. وتقول العرب: بنى الطّعامُ لحمَ آكله. أي: أكثرَ لحمَه فعَظُم من الأكل. فبناء السّماء ينبغي أن يكون بحسب نظام التّماسك بين أجرامها. والغلاف الجوّيّ المحيط بالأرض مبنيّ كما هو مشاهد من الغازات. والمجرّات مبنيّة كما هو مشاهد بالمناظير والمجاهر لعلماء الفلك الرّاصدين من النّجوم والكواكب، وتماسكها حاصل بقانون الجاذبيّة التي جعلها الله فيها. وقد تكوّن مجموعة مجرّات مُترابطة بنظام فيما بينها إحدى السّماوات السّبع الكبرى، -والله أعلم-"[6].

وعندما رجعت إلى تفسير ابن عاشور وجدته يذكر وجه شبه السّماء بالبناء، وهو "أنّ الكرة الهوائيّة جعلها الله حاجزة بين الكرة الأرضيّة وبين الكرة الأثيريّة، فهي كالبناء فيما يُراد له البناء، وهو الوقاية من الأضرار النّازلة، فإنّ للكرة الهوائيّة دفعاً لأضرار أظهرها دفع ضرر طغيان مياه البحار على الأرض، ودفع

---

(1) سورة المرسلات: الآية (9).

(2) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م2، ص564.

(3) ابن منظور، محمّد: **لسان العرب**، باب الواو والياء من المعتلّ، فصل الباء الموحّدة، ج14، ص94.

(4) الرّاغب الأصفهانيّ، الحسين: **المُفردات في غريب القرآن**، ص147.

(5) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م13، ص251.

(6) نفسه، م3، ص45-46. **يُنظر**: نفسه، م13، ص251.

أضرار بلوغ أهوية تندفع عن بعض الكواكب إلينا وتلطيفها؛ حتّى تختلط بالهواء أو صدّ الهواء إيّاها عنا، مع ما في مُشابهة منظر الكرة الهوائيّة لهيئة القبّة، والقبّة بيت من أدم مُقبّب وتُسمّى بناء، والبناء في كلام العرب ما يُرفع سمكه على الأرض للوقاية سواء كان من حجر، أو من أدم، أو من شعر"[1].

أمّا سيّد قُطُب فيقول: "السّماء بناء، أي فيها متانة البناء وتنسيق البناء. والسّماء ذات علاقة وثيقة بحياة النّاس في الأرض، وبسهولة هذه الحياة، وهي بحرارتها وضوئها وجاذبيّة أجرامها وتناسقها وسائر النّسب بين الأرض وبينها، تُمهّد لقيام الحياة على الأرض وتُعين عليها"[2].

أمّا الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ، فيقول عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[3]: "إنّ السّماء لا يتحقّق إيجادها ولا بناؤها إلّا بقوّة عظيمة لا تصل أوهام النّاس إلى إدراك مداها الأقصى. وإنّا لموسعون، أي: وإنّا لموسعون فيها خَلقاً وامتداداً بعد خلقها الأوّل مع توالي الأزمان، وهذا ما بدأت الدّراسات الفلكيّة المعاصرة تُثبته"[4].

يقول زغلول النّجّار: "هذه الآية ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ تُشير إلى أنّ الكون الذي نحيا فيه يتّسع باستمرار، وأنّنا إذا عُدنا بهذا الاتّساع إلى الوراء مع الزّمن فلا بُدّ وأن يتكدّس على هيئة جرم واحد"[5]، ثمّ عقّب بقوله: (وتُشير هذه الآية الكريمة أيضاً إلى عدد من الحقائق الكونيّة التي لم تكن معروفة لأحد من الخلق وقت تنزّل القرآن الكريم، ولا لقرون مُتطاولة من بعد تنزّله، منها: **أوّلاً**: أنّ السّماء بناء مُحكم التّشييد، دقيق التّماسك والتّرابط، وليست فراغاً كما كان يُعتقد إلى عهد قريب. وهذه حقيقة لم يُدركها العلماء إلّا في القرن العشرين؛ بل في العقود المتأخّرة منه. **ثانياً**: إنّ في الإشارة القرآنيّة الكريمة تلميحاً إلى ضخامة الكون المذهلة وإحكام صنعه، وانضباط حركاته، ودقّة كلّ أمر من أموره، وثبات سُننه، وتماسك أجزائه، وحفظه من التّصدّع أو الانهيار. **ثالثاً**: تُشير هذه الآية الكريمة إلى أنّ الكون الشّاسع الاتّساع، الدّقيق البناء، قد خلقه الله –تعالى– بعلمه وحكمته وقدرته، وهو سبحانه الذي يحفظه من الزّوال والانهيار، وهو القادر على كلّ شيء. والجزء المُدرَك لنا من هذا الكون شاسع الاتّساع بصورة لا يكاد عقل الإنسان إدراكها؛ إذ المسافات فيه تُقدّر ببلايين السّنين الضّوئيّة، وهو مُستمرّ في الاتّساع اليوم وإلى ما شاء الله، والتّعبير القرآنيّ ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ يُشير إلى تلك السّعة المُذهلة، كما يُشير إلى حقيقة توسّع

(**1**) ابن عاشور، محمّد الطّاهر: **التّحرير والتّنوير**، ج1، ص331–332.

(**2**) قُطُب، سيّد: **في ظلال القرآن**، م1، ج1، ص47.

(**3**) سورة الذّاريات: الآية (47).

(**4**) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م13، ص252.

(**5**) النّجّار، زغلول: **من آيات الإعجاز العِلْميّ: السّماء في القرآن الكريم**، ص82.

هذا الكون باستمرار إلى ما شاء الله، وهي حقيقة لم يُدركها الإنسان إلّا في العقود الثّلاثة الأولى من القرن العشرين. **رابعاً**: تُشير ظاهرة توسّع الكون إلى تخلّق كلّ من المادّة والطّاقة؛ لتملأ المساحات النّاتجة عن هذا التّوسّع، وذلك لأنّ كوننا تنتشر المادّة فيه بكثافات مُتفاوتة، ولكنّها مُتّصلة بغير انقطاع، فلا يوجد فيه مكان بلا زمان، كما لا يوجد فيه مكان وزمان بغير مادّة وطاقة، ولا يستطيع العِلْم حتّى يومنا هذا أن يُحدّد مصدر كلّ من المادّة والطّاقة اللّتين تملآن المساحات النّاتجة عن تمدّد الكون بتلك السّرعات المذهلة، ولا تفسير لها إلّا الخلق من العدم)[1].

هذه الاستنتاجات الكلّيّة المهمّة عن أصل الكون وكيفيّة خلقه وإبداع صنعه، وحتميّة نهايته، أمكن الوصول إليها من ملاحظة توسّع الكون، وهي حقيقة من أهمّ حقائق عِلْم الفلك، لم يتمكّن الإنسان من إدراكها إلّا في الثّلث الأوّل من القرن العشرين، ودار حولها الجدل حتّى سلّم بها أهل العِلْم أخيراً، وقد سبق القرآن الكريم بإقرارها قبل أربعة عشر قرناً أو يزيد، ولا يمكن لعاقل أن يتصوّر مصدراً لتلك الإشارة القرآنيّة الباهرة غير الله الخالق –سبحانه–، فسبحان خالق الكون الذي أبدعه بعلمه وحكمته وقدرته، والذي أنزل لنا في خاتم كتبه، وعلى خاتم أنبيائه ورسله –صلّى الله عليه وسلّم– عدداً من حقائق الكون الثّابتة، ومنها تمدّد الكون وتوسّعه فقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾؛ لتبقى هذه الومضة القرآنيّة الباهرة مع غيرها من الآيات القرآنيّة، شهادة صدق بأنّ القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، وأنّ سيّدنا ونبيّنا محمّداً –صلّى الله عليه وسلّم– هو خاتم أنبياء الله ورسله، وأنّه كان موصولاً بالوحي، ومُعلّماً من قِبل خالق السّماوات والأرض، وأنّ القرآن الكريم هو معجزته الخالدة إلى قيام السّاعة.

وتعقيباً على ذلك، يقول الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ: "ولعلماء الفلك بحوث مُستفيضة، تكشف ما فيها من إتقان بديع عجيب، هادٍ إلى جملة من صفات الله –عزّ وجلّ–، وهذه الصّفات تثبت وجود الرّبّ الموصوف بها، وتثبت سلطانه المطلق في كونه. ولبناء السّماء وضع ترابطيّ مجتمع، خاضع لنظام جبريّ مُتماسك قاهر، بقدرة العزيز الجبّار القّهّار"[2]. "وقد يكون تماسك الأجرام السّماويّة بالجاذبيّات، أو بطاقات أُخرى غير معروفة حتّى الآن، هو المقصود ببنائها، –والله أعلم–"[3]. ويقول أيضاً: "وليس من حقّنا أن نفرض بتصوّراتنا الخياليّة أو القياسيّة صورة مُحدّدة لبناء السّماء؛ بل يجب علينا أن نتتبّع ما تُثبته الحقائق العِلْميّة التي قالت الدّراسات العِلْميّة الإنسانيّة فيها كلمتها الأخيرة، اعتماداً على المشاهدات القطعيّة، أو البراهين التي لا شكّ فيها. ومن المقطوع به في المفهومات القرآنيّة أنّ الشّمس

(**1**) **يُنظر**: النّجّار، زغلول: **من آيات الإعجاز العِلْميّ: السّماء في القرآن الكريم**، ص82–89.

(**2**) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م2، ص313.

(**3**) نفسه، م3، ص39.

والقمر في السّماء، لا دُونها، أي: فهما جزء منها، بدليل قول الله –عزّ وجلّ–: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾[1]. ومن هذا نفهم أنّ المجموعة الشّمسيّة جزء من السّماء، وقد أثبتت المشاهدة العِلْميّة أنّ هذه المجموعة ذات بناء خاضع لنظام متماسك، على الرّغم من وجود مسافات شاسعات، بين الشّمس الأُمّ وبين بناتها المتباعدات فيما بينهنّ مسافات شاسعات. فبناء كلّ شيء بحسبه"[2]، "ونترك للبحث الإنسانيّ ما يتوصّل إليه في هذا المجال، بشرط أن يكون ما يتوصّل إليه علماً يقينيّاً بأدلّة مقطوع بها"[3]، "وقد ينكشف في المستقبل لعلماء البحث العِلْميّ في الظّاهرات الكونيّة ما يهدي إلى المراد –إن شاء الله– من أمارات ودلالات كونيّة"[4].

أرى أنّ كلام الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ جاء مُتّفقاً مع ما ذهب إليه المفسّرون؛ بيد أنّ ما جاء به العِلْم الحديث إنّما هو توسّع وإضافة لما ذهب إليه الشّيخ، وهذا لا يُنقص من قدره ومكانته، فهو لا يُنكر تغيّر المفاهيم والمعلومات بسبب التّقدّم العِلْميّ.

الآية الثّانية: آية تزيين السّماء بالنّجوم والكواكب بالنّسبة إلى سكّان الأرض:

يقول الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ في تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾[5]، "التّزيين: التّجميل والتّحسين، وقد زيّن الله –عزّ وجلّ– السّماء بالنّجوم والكواكب"[6]. وقال في تفسيره لقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾[7]، "وإنّه زيّن السّماء الدّنيا بمصابيح، وكَوْن الشّمس والقمر في السّماء دليل على أنّ السّماء مُحيطة بهما، وهما من دون النّجوم التي هي مصابيح زيّن الله بها السّماء، ولا يلزم عقلاً كون الزّينة خارج حِرْم المُزَيَّن، فالله قد زيّن وجوه النّاس بالعيون والحواجب والأنوف والخدود والأفواه، وزيّن الأفواه بالأسنان الجميلة، والنَّسّاج يُزيّن القُماش بالألوان والرّسوم والخطوط وهي جزء منه. ونحن نلاحظ في جهة العلوّ بالنّسبة إلينا نجوماً وكواكب ومجرّات، وأبعاداً يُقدّرها علماء الفلك ببلايين السّنين الضّوئيّة، دون أن

(**1**) سورة نوح: الآية (15–16).

(**2**) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م2، ص314.

(**3**) نفسه، م3، ص46. م13، ص251.

(**4**) نفسه، م2، ص567.

(**5**) سورة ق: الآية (6).

(**6**) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م3، ص46.

(**7**) سورة الفرقان: الآية (61).

تَقْدِر وسائل المعرفة لديهم على الإحاطة بها، فلا يستطيعون التّعرّف إلّا على القدر اليسير جدّاً منها، وهو القدر الذي تكشفه المجاهر، وتُقدّمه الصّور الملتقطة بوساطة الأجهزة المرسلة في المركبات التي تُرسل إلى الكواكب القريبة من أرضنا"[1].

وقال في تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾[2]، "ومن المعلوم لدى علماء الكون أنّ الكواكب والنّجوم لا تظهر زينتها لأعين النّاظرين في الأرض، إلّا بوساطة الخصائص التي خلقها الله –عزّ وجلّ– في الغلاف الغازيّ حول الأرض، ولولاه لم تكن زينة للنّاظرين، وهذا التّزيين من منن الله على عباده من النّاس، وهو من آيات ربوبيّته لكونه"[3].

هذا ما ذكره الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ بشأن تزيين السّماء. أمّا ما ذكره غيره من المفسّرين: فيقول الشّيخ طنطاوي جوهريّ: "إنّ الله زيّن السّماء الدّنيا بالكواكب من حيث جمالها، وبهجتها، وتناسب أشكالها، وحسن أوضاعها، بأن جعل الله بينها مسافات مُتناسبة، بحيث يكون كلّ سيّار بُعده عن الشّمس ضعف بُعد الكوكب الذي قبله"[4].

ويقول ابن عاشور: (الكواكب: الكريات السّماويّة التي تلمع في اللّيل عدا الشّمس والقمر، وتُسمّى النّجوم، وهي أقسام: منها العظيم، ومنها دونه، فمنها الكواكب السّيّارة، ومنها الثّوابت، ومنها قطع تدور حول الشّمس. وفي الكواكب حكم منها أن تكون زينة للسّماء في اللّيل، فالكواكب هي التي بها زُيّنت السّماء. وأن الله جعل الكواكب والشّهب سابحة في مقعر تلك الكرة على أبعاد مُختلفة، وجعل أديم السّماء الدّنيا قابلا لاختراق أنوار الكواكب في نصف الكرة السّماويّة الذي يغشاه الظّلام من تباعد نور الشّمس عنه، فتلوح أنوار الكواكب مُتلألئة في اللّيل، فتكون تلك الأضواء زينة للسّماء الدّنيا تزدان بها)[5].

أرى أنّ ما ذكره الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ يتّفق مع ما ذكره غيره: أنّ السّماء الدّنيا أقرب السّماوات إلى الأرض، وقد زُيّنت بزينة هي الكواكب، فالكواكب بذاتها وأوضاعها زينة. وكلّ ما أثبته العِلْم الحديث قد أشار إليه، فهذا إن دلّ على شيء فعلى ما متّع الله به الشّيخ من ذاكرة وقّادة وذهن صاف؛

---

(1) **يُنظر**: الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م6، ص336.

(2) سورة الصّافات: الآية (6).

(3) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م11، ص551.

(4) جوهريّ، طنطاوي: **الجواهر في تفسير القرآن الكريم**، ج18، ص9.

(5) **يُنظر**: ابن عاشور، محمّد الطّاهر: **التّحرير والتّنوير**، ج23، ص87-89.

إذ طلبَ العِلْم لله –تعالى–، ففتح الله عليه أبواب المعرفة؛ حيث بيّن كيفيّة كون الكواكب مُزيّنة للسّماء، وأنّ ذلك لا يمكن التّحقّق منه إلّا بالنّظر المباشر من البشر إلى السّماء فوقهم؛ حيث تبدو وكأنّها قناديل مُعلّقة في السّماء الدّنيا. **كما أنّه لم يكن هدف المقارنة انتقاصاً لحقّ الشّيخ ومكانته، إنّما هي من باب الفائدة المعرفيّة.**

الآية الثّالثة: آية نظام السّماء المتماسك الذي لا فروج فيه.أي: لا شقوق فيه، ولو كان فيه فروج لحصلت أنواع من الخلل عبر ملايين أو مليارات السّنين التي مرّت عليها.

يقول الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ: "والسّماء بنظامها المتماسك خالية من الشّقوق والمنافذ، التي تُيسّر دخول أشياء قضى الله بنظامه العامّ لها أن لا تدخل فيها، أو تُعرِّض تماسُكها لحدوث خلل فيه يُفسد نظامها. إنّ تماسك أجرام المجموعة الشّمسيّة بقانون الجاذبيّة الرّبّانيّ، ليس فيه شقوق ولا فروج، ولو كان فيه شيء من ذلك؛ لاختلّ التّماسك والتّجاذب بينها، ولحدث فيه فساد في أبعادها وفي مداراتها، وفي أبراجها، ومن شأن هذا الفساد أن تبتلع الشّمس مجموعتها، أو تضلّ أجرام في أبعاد فسيحة من مَجرَّتها، فتلتحق بنجوم أُخرى، أو تبتلعها نجوم أُخرى. فتماسك كلّ شيء يكون بحسب نظامه، وشقوق كلّ شيء تكون بحسب نظامه، والفروج تكون في كلّ شيء بحسب نظامه"[1].

والمجرّة، كما يقول الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ: "نظام من النّجوم والغبار والغازات المتماسكة معاً بوساطة الجاذبيّة، وتنتشر المجرّات في الكون. وقطر بعض المجرّات نصف مليون سنة ضوئيّة. والسّنة الضّوئيّة: هي المسافة التي يقطعها الضّوء في سنة، وهي نحو (9.5 ترليونات كم). ويوجد في المجرّات الكبيرة أكثر من ترليون نجمة، وأمّا المجرّات الصّغيرة فيوجد فيها ما يقارب بليون نجمة. وجاء في البيان القرآنيّ أنّ السّماوات سبع، أي: فهذه المجرّات تنقسم إلى سبعة أقسام، كلّ قسم منها سماء، وهي متتابعة في المدى الكونيّ البعيد الذي لا تستطيع مدارك الخلائق تصوّر أبعاده. وهذه السّماوات موجودة في مواقعها من الكون، مع تحرّك نجومها، بنظام الجاذبيّة العجيب التي جعل الله به لكلّ سماء، وكلّ نجم وكوكب فيها، ولكلّ مجرّة فيها، موقعاً لا يخرج عنه إلّا ضمن إرادة الله المُسيّرة لكلّ شيء في هذا الكون، من الذّرّة إلى أكبر مجرّة"[2].

(**1**) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م3، ص49.

(**2**) نفسه، م11، ص700-701.

وعند الرّجوع إلى الدّراسات العِلْميّة الحديثة وجدت أنّ العِلْم يُوضّح المقصود من المجرّات، بأنّها (نُظم كونيّة شاسعة الاتّساع تتكوّن من التّجمّعات النّجميّة والغازات والغبار الكونيّين –الدّخان الكونيّ– بتركيز يتفاوت من موقع لآخر في داخل المجرّة. وهذه التّجمّعات النّجميّة تضمّ عشرات البلايين إلى بلايين البلايين من النّجوم في المجرّة الواحدة، وتختلف نجوم المجرّة في أحجامها، ودرجات حرارتها، ودرجات لمعانها، وفي غير ذلك من صفاتها الطّبيعيّة والكيميائيّة، وفي مراحل دورات حياتها، وأعمارها، فمنها النّجوم العادّيّة المفردة، والمزدوجة، والعديدة، والعماليق الكبار والحُمُر، والنّجوم القزمة البيضاء والبنّيّة والسّوداء، والنّجوم النّيوترونيّة، والثّقوب السّود، وأشباه النّجوم، وغيرها ممّا يتخلّق باستمرار من الدّخان الكونيّ. ومن المجرّات ما هو حلزونيّ الشّكل، ومنها ما هو بيضاويّ (إهليلجيّ)، ومنها ما هو غير محدّد الشّكل، ومنها ما هو أكبر من مجرّتنا بكثير، ومنها ما هو في حجمها أو أصغر منها)[1].

ويقول الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ﴾[2]، "إنّ النّاس في الأرض كانوا يرون أنّ كلّ شيء ثقيل من الأجرام مرتفع في الجوّ، لا بدّ له من جدران أو أعمدة يُحمل عليها، ولم يخطر في بالهم أنّ طاقة عُظمى هي طاقة الجاذبيّة، هي التي تجعل أجرام السّماء مُحافظة على مواقعها؛ حتّى جاءت البحوث العِلْميّة الإنسانيّة، فاكتشف النّاس طاقة الجاذبيّة المجهولة الهويّة، فدلّ هذا الاكتشاف على عظمة قدرة الله في الخلق، وعظيم إتقانه لما خلق"[3].

هذا خلاصة رأي الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ عن خلق السّماء وبنائها، الذي نصّت عليه آيات من الذّكر الحكيم، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾[4]، ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا﴾[5]، ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[6]، إلى غير ذلك من الأيات الكريمة؛ بيد أنّه لم يعرض لما عرضه العِلْم الحديث؛ والحقّ أنّ ما أضافه العِلْم الحديث لا يتعارض مع كلام الشّيخ، ذلك أنّ السّماء عِلْمياً تعني: "كلّ ما يُحيط بالأرض إلى ارتفاعات تنتهي حيث

(**1**) **يُنظر**: النّجّار، زغلول: **من آيات الإعجاز العِلْميّ: السّماء في القرآن الكريم**، ص204-205.

(**2**) سورة الغاشية: الآية (18).

(**3**) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م13، ص282.

(**4**) سورة الشّمس: الآية (5).

(**5**) سورة نوح: الآية (15-16).

(**6**) سورة الذّاريات: الآية (47).

يبدأ الفراغ الكونيّ، بما فيه من الأجرام السّماويّة المنتشرة في أعماقه السّحيقة على اختلاف أشكالها وأحجامها وصورها وماهيّتها، تتحرّك في نظام مُبدع، ويتوالى ظهورها واختفاؤها لسكّان الأرض، مُحدثة الضّوء والدّفء، وهي جميعها في عُلوّها وترابطها بقوى الجاذبيّة، كالبيان في تماسكها واتّزانها وتدرّجها طبقة بعد طبقة"[1].

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾[2] يُشير الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ إلى دخانيّة السّماء، والفراغ الكونيّ، وانتشار مُختلف صور الطّاقة بالكون بإجمال؛ فيقول: "ووصف السّماء بأنّها دُخان قد يكون المراد به أنّها غازات مُنبثّة في الفراغ الكونيّ، فهي كما يعلم النّاس إبّان التّنزيل عن الدّخان، فأطلق عليها أنّها دخان من قبيل تعميم اللّفظ على الدّخان الذي يتصاعد من النّار وينبثّ في الفراغ الكونيّ، وكانت حينئذ سماء واحدة مُتّصلة الغازات، غير مُقسّمة إلى سبع سماوات"[3].

ويُؤيّد الشّيخ ما ذهب إليه ابن عاشور في تفسيره؛ حيث يقول: "الدّخان: ما يتصاعد من الوقود عند التهاب النّار فيه. وقيل: أراد بالدّخان هنا شيئاً مُظلماً. ومعنى: وهي دخان أنّ أصل السّماء هو ذلك الكائن المشبَّه بالدّخان، أي أنّ السّماء كُوِّنت من ذلك الدّخان"[4].

ويُشير سيّد قُطُب في تفسيره إلى السّديم: "وهذا السّديم غاز وغاز دخان، والسّدم ليس الذي بها من غاز وغبار إلّا ما تبقّى من خلق النّجوم. إنّ نظريّة الخلق تقول: إنّ المجرّة كانت من غاز وغبار، ومن هذين تكوّنت بالتّكثّف النّجوم، وبقيت لها بقيّة، ومن هذه البقيّة كان السّدم ولا يزال من هذه البقيّة مُنتشراً في هذه المجرّة الواسعة مقدار من غاز وغبار يساوي ما تكوّنت منه النّجوم. ولا تزال النّجوم تجرّ منه بالجاذبيّة إليه، فهي تكنس السّماء منه كنساً، ولكنّ الكنّاسين برغم أعمالهم الهائلة قليلون بالنّسبة لما يُراد كنسه من مساحات أكبر وأشدّ هوناً، وهذا الكلام قد يكون صحيحاً؛ لأنّه أقرب ما يكون إلى مدلول الحقيقة القرآنيّة ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ﴾[5].

أمّا طنطاوي جوهريّ فيذكر أنّ "الدّخان مادّة غازيّةناريّة اسمها في العِلْم الحديث (عالم السّديم)، ولقد شاهد أهل العِلْم الحديث من تلك العوالم ستّين ألف عالم تبرز للوجود من جديد لا تزال على الحالة

---

(1) شحاتة، عبد الله: **آيات الله في الكون**، ص48.

(2) سورة فُصّلت: الآية (11).

(3) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م12، ص476.

(4) ابن عاشور، محمّد الطّاهر: **التّحرير والتّنوير**، ج24، ص246.

(5) قُطُب، سيّد: **في ظلال القرآن**، م5، ج24، ص3114.

السّديميّة، وأنّ منها ما هو في أوّل تكوينه، ومنها ما قطع مراحل في تكوينه، ومنها ما قارب التّمام. وإنّ ذلك التّكوين لم يكن بلحظة، وإنّما هو جار على الحكمة والنّظام"[1].

أرى أنّ ما ذكره سيّد قُطُب لا يختلف عمّا ذكره طنطاوي؛ بل أكّد حال السديم وأنّ المجرّة كانت غازاً ودخاناً. وأخلُص إلى أنّ الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ كان مُتواضعاً في بيانه في ما يتعلّق بهذه الآية من دلائل عِلْميّة جاء بها العِلْم الحديث. كما أنّي أُلاحظ تقارباً بين قوله وأقوال أقرانه من المفسّرين في بيان معنى الدّخان، وأنّه أشبه ما يكون ببخار ماء مُتكاثفة ذرّاته، وأنّ لفظة الدّخان تشابه لفظة السّديم في الاصطلاح العِلْميّ.

ويذكر محمّد الغمراويّ[2] "أنّ كلمة السّديم وردت في القرآن الكريم معنى لا لفظاً، فهي كتل هائلة من أجسام دقيقة حارّة، بعضها غاز، وبعضها بخار، وبعضها مُضيء، وبعضها مُعتم، وبعضها مُظلم، وكلّ ذلك دلّ عليه القرآن الكريم بكلمة واحدة، هي: (دخان)، ولو جاءت كلمة السّديم بدل دخان في الآيات لما دلّت إلّا على المعنى اللّغويّ (الضّباب الرّقيق)، والضّباب أكثره بخار ماء، وليس كذلك السّديم الفلكيّ. فانظر كيف جاء القرآن بلفظ بدل لفظ وكلاهما عربيّ، فكان في اللّفظ المختار مُعجزة عِلْميّة، ثمّ كان في الإخبار بأنّ السّماء كانت من قبل دُخاناً كلّها، قبل أن تتطوّر إلى ما تطوّرت إليه، مُعجزة عِلْميّة أكبر، تشهد لما يعتقده المحدثون من علماء الفلك، من أنّ السّدائم الهائلة المشاهدة اليوم على بعد مئات الأُلوف أو ملايين السّنين الضّوئيّة، هي بقايا ما كان عليه الكون، قبل أن يمرّ في الأطوار التي صار بها إلى ما هو عليه الآن"[3].

وبالرّجوع إلى ما ذكرته الدّراسات العِلْميّة الحديثة وجدت أنّ العِلْم يُقرّر بأنّ السّماء كانت قبل بدء الخلق دخاناً. يقول زغلول النّجّار: (تُشير دراسات الفيزياء النّظريّة في أواخر القرن العشرين إلى أنّ جرماً بمواصفات الجرم الابتدائيّ للكون، عندما ينفجر لا بدّ وأن يتحوّل إلى سحابة من الدّخان، الذي تخلّقت منه الأرض وكلّ أجرام السّماء. وقد سبق القرآن الكريم بألف وأربعمائة سنة كلّ المعارف الإنسانيّة، بإشارته لمرحلة الدّخان. وتُشير الحسابات الفيزيائيّة إلى أنّ حجم الكون قبل الانفجار العظيم كاد يقترب من الصّفر، وكان في حالة غريبة من تكدّس كلّ من المادّة والطّاقة، وتلاشي كلّ من المكان والزّمان، تتوقّف

---

(1) جوهريّ، طنطاوي: **الجواهر في تفسير القرآن الكريم**، ج19، ص90.

(2) **هو**: محمّد أحمد الغمراويّ، رائد دراسات الإعجاز العِلْميّ، من مُؤلّفاته: من سُنن الله الكونيّة، والإسلام في عصر العِلْم. تُوفّي سنة 1971م. **يُنظر**: موقع رابطة أدباء الشّام، **ترجمة محمّد أحمد الغمراويّ**، على الرّابط الآتي: http://www.odabasham.net

(3) الغمراويّ، محمّد: **الإسلام في عصر العِلْم**، ص337-338.

عندها كلّ قوانين الفيزياء المعروفة (مرحلة الرّتق)، ثمّ انفجر هذا الجرم الابتدائيّ الأوّليّ في ظاهرة كُبرى تُعرف بظاهرة الانفجار الكونيّ العظيم (مرحلة الفتق)، وبانفجاره تحوّل إلى كرة من الإشعاع والجسيمات الأوّليّة أخذت في التّمدّد والتّبرّد بسرعات فائقة حتّى تحوّلت إلى غلالة من الدّخان. ولولا استمرار الكون في التّوسّع والتّبرّد بمعدّلات مُنضبطة بدّقة فائقة؛ لأفنت الجسيمات الأوّليّة للمادّة وأضدادها بعضها بعضا، وانتهى الكون، ولكنّه حُفظ بحفظ الله الذي أتقن كلّ شيء خلقه. ويُقرّر علماء الفيزياء النّظريّة والفلكيّة أنّ الدّخان الكونيّ كان خليطاً من الغازات الحارّة المعتمة، التي تتخلّلها بعض الجسيمات الأوّليّة للمادّة وأضداد المادّة؛ حتّى تشهد هذه الصّورة من صور الزّوجيّة السّائدة في الكون لله وحده بالتّفرّد بالوحدانيّة فوق خلقه كافّة، ولا توجد كلمة توفي هذه الحالة حقّها من الوصف مثل كلمة دخان، فسبحان الذي أنزلها في كتابه من قبل ألف وأربعمائة من السّنين)[1]. وبهذا يُشير زغلول النّجّار إلى أنّ هذه الآية الكريمة ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ﴾، واضحة الدّلالة على أنّ الكون الذي نحيا فيه كون مخلوق له بداية، بدأ الله خَلْقَه من جرم ابتدائيّ واحد (مرحلة الرّتق)، وهو القادر على كلّ شيء، ثمّ أمر الله –تعالى– بفتق هذا الجرم الابتدائيّ فانفتق (مرحلة الفتق)، وتحوّل إلى سحابة من الدّخان (مرحلة الدّخان)، وخلق الله –تعالى– من هذا الدّخان كلّاً من الأرض والسّماء –أي جميع أجرام السّماء، وما ينتشر بينها من مُختلف صور المادّة، والطّاقة ممّا نعلم، وما لا نعلم–، وتُعرف هذه المرحلة بمرحلة الإتيان بكلّ من الأرض والسّماء.

وبعد هذا العرض الذي تتبّعته لدى زغلول النّجّار، والذي انفرد به دون غيره من العلماء الذين تتبّعت دراساتهم، –حسب اطّلاعي المتواضع–، فالنّاظر إلى ما ذكره يجد أنّه عرض لقضيّة بداية خلق الكون، وهو بهذا يُضيف إضافة عِلْميّة جديدة. كما أنّ الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ لم يتوسّع في ذكر حالة الدّخان أو السّديم الذي خُلقت منه السّماء والأرض –كما سيأتي لاحقاً–، والذي جاء العِلْم الحديث ليُؤكّد ذلك من خلال مُكتشفاته. كما أنّه أشار إلى أنّ السّماوات والأرض كانتا كتلة واحدة مُجتمعة، فقسّمها الله –تعالى– إلى مجرّات ونجوم وكواكب، وتساءل إن كان علماء الكونيّات قد وصلوا إلى معرفة هذه الحقيقة الكونيّة، أم لا؟ فقال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ﴾[2] "أمَا زال الذين كفروا من علماء الكونيّات؛ بعيدين عن إدراك أدلّة أنّ السّماوات والأرض كانتا كتلة واحد مجتمعة، ففتقناهما وقسّمناهما إلى سبع سماوات، ومجرّات كثيرات فيها بلايين النّجوم والكواكب، ومنها الأرض، ولم يروها رؤية فكريّة عِلْميّة،

---

(1) **يُنظر**: النّجّار، زغلول: **من آيات الإعجاز العِلْميّ: السّماء في القرآن الكريم**، ص112-117.

(2) سورة الأنبياء: الآية (30).

تهديهم إلى الإيمان بربوبيّة الله وإلهيّته، وإلى الإيمان بأنّ محمّداً –صلّى الله عليه وسلّم– عبد الله ونبيّه ورسوله، وإلى الإيمان بأنّ القرآن مُنزّل من عند الله العزيز الحكيم. ولست أدري هل وصل علماء الكونيّات إلى معرفة هذه الحقيقة الكونيّة، أم لم يصلوا بعد إلى معرفتها؟"[1].

أرى من خلال ما سبق إيراده أنّ نظريّة نشأة الكون قد يوافقها وجهاً من الصّواب؛ بيد أنّها لم ترقَ إلى درجة اليقين والقطع بها؛ إذ إنّه لا يمكن لعقول البشر –مهما أُوتوا من العِلْم– أن يصلوا إلى الحقيقة إلّا عن طريق الوحيّ، قال تعالى: ﴿* مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾[2]، ومتى وصل العِلْم الحديث التّجريبيّ بالنّظر والبحث إلى بعض من تلك الحقائق، إنّما يُعدّ ذلك تفسيراً عِلْميّاً للقرآن الكريم.

وفي شأن عدد السّماوات، يذكر الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ أنّ عددها، هو: (سبع سماوات مُلتفّات حول بعضها، وهي مليئة بمليارات المجرّات، ولا نستطيع تقدير حدود كلّ سماء منها. وأنّ الجاذبيّة التي يُمسك الله بها السّماوات وما فيها هي بمثابة عمد غير مرئيّة بالعيون، ولكن تُدرك آثارها بضبط كلّ نجم، وكلّ كوكب، وكلّ مجرّة، وكلّ سماء من السّماوات السّبع، في موقعه أو مداره أو خطّ حركة سيره، ضبطاً عجيباً مُتقناً، ضمن نظام عامّ شامل لكلّ شيء في الكون. وكونها فوق النّاس؛ يدلّ على أنّ الأرض التي يسكنها النّاس تُحيط بها السّماء الدّنيا، وأنّ السّماء الثّانية تُحيط بالسّماء الدّنيا، وهكذا إلى السّماء السّابعة المحيطة بالسّماء السّادسة، والسّماء الأولى تمثّلها مجرّات لا يعلم عددها إلّا الله، وبعدها مجرّات لا يعلم عددها إلّا الله، ذات نظام حركيّ تمثّل السّماء الثّانية، وهكذا إلى غاية السّماء السّابعة، وفي كلّ مجرّة من النّجوم العظمى ما لا يعلم عدده إلّا الله، يُقدّر بعضها علماء الكونيّات بالملايين، ويُقدّرون بعضها بالمليارات. والله أعلم بالمراد من حقيقة السّماوات السّبع الطّباق، وتحديد أبعادها، وتحديد كلّ سماء منها، والبحث العِلْميّ لم يصل إلّا إلى النّزر القليل منها. ومن الخير والأحكم للنّاس ترك هذا الموضوع للبحث العِلْميّ الإنسانيّ وما يتوصّل إليه في هذا المجال، بشرط أن يكون ما توصّل إليه عِلْماً يقينيّاً بأدلّة صحيحة مقطوع بها)[3].

---

(1) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م14، ص291.

(2) سورة الكهف: الآية (51).

(3) **يُنظر**: الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م3، ص45. م6، ص336. م11، ص701. م12، ص584. م13، ص251. م14، ص431.

وقد ذكر ابن عاشور في تفسيره أنّ عدد السّماوات سبعاً أيضاً، فقال: "وقد عدّ الله تعالى السّماوات سبعاً وهو أعلم بها وبالمراد منها، إلّا أنّ الظّاهر الذي دلّت عليه القواعد العِلْميّة أنّ المراد من السّماوات الأجرام العلويّة العظيمة، وهي الكواكب السّيّارة المنتظمة مع الأرض في النّظام الشّمسيّ"[1].

أمّا زغلول النّجّار فلم يتعرّض لعدد السّماوات؛ بل اكتفى بذكر أنّ الأرض خُلقت قبل السّماء، وأنّها خُلقت من السّماء الدّخانيّة[2]؛ بيد أنّ عددها جاء بنص القرآن الكريم: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾[3]، بعضها فوق بعض والمسافات بينها بعيدة جداً، وكلّ سماء لها سُكّان يسكنونها من الملائكة بأمر الله، ودليل ذلك حديث المعراج، أنّ النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم– رأى آدم والأنبياء –عليهم السّلام– في السّماوات على درجات مُختلفة، فالسّماء كلّها معمورة من الدّنيا إلى السّابعة، وليس فيها شيء من الخلل أو الفطور أو النّقص؛ بل هي مُحكمة إلى أن يطويها الله –تعالى– يوم القيامة: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[4].

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾[5]، يقول الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ: "ذات الحُبُك: أي: ذات الطّرايق المحكمة التي تسير ضمن حدودها النّجوم والكواكب والمجرّات بإتقان عجيب مُدهش. والحُبُك: جمع (الحبيكة)، وهي: كلّ طريقة من خصل الشّعر، وكلّ طريقة من طرائق الرّمل فيما تحبكه الرّياح إذا جرت عليه، وكلّ طريقة من طرائق الماء المنبسط إذا مرّت عليه الرّيح فجعلت على سطحه تجاعيد كأنّها بتموُّجاتها الدّقيقة طرائق. وجاء في تفسير: (ذات الحُبُك) أنّها ذات الخلق المُحكم المتماسك القويّ. والمعنى اللّغويّ الأوّل هو الملائم لعظمة خلق السّماوات، وهو المطابق لما توصّل إليه علماء الأجرام العُليا في السّماوات، من أنّ كلّ الكواكب والنّجوم والمجرّات تجري سابحة في أفلاكها في مسيراتها ضمن نظام مُتقن عجيب، فلا يصطدم بعضها ببعض بتقدير العزيز العليم، مع ضبط كلّ مُتحرّك منها بنظام الجاذبيّة المدهشة"[6].

هذا ما انتهى إليه الشّيخ في تفسير الآية الكريمة، أمّا العِلْم الحديث فذهب إلى أن المقصود بالحُبُك: عدد كبير من الحبكات والمحبوكات، والحبكة شكل مُحكم من الرّبط المتّسق. يقول زغلول النّجّار: (تُفيد

---

(1) ابن عاشور، محمّد الطّاهر: **التّحرير والتّنوير**، ج1، ص385.

(2) **يُنظر**: النّجّار، زغلول: **من آيات الإعجاز العِلْميّ: السّماء في القرآن الكريم**، ص121–135.

(3) سورة المؤمنون: الآية (86).

(4) سورة الأنبياء: الآية (104).

(5) سورة الذّاريات: الآية (7).

(6) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م13، ص227–228.

المعلومات المتوفّرة عن الجزء المُدرَك من السّماء الدّنيا، أنّ لتلك السّماء من الصّفات ما يلي:

1. أنها شاسعة الاتّساع، عظيمة البناء، مُتقَنة الخَلق والصّنعة.
2. أنّها ذات ترابط مُحكَم شديد في كلّ جُزئيّة من جزئيّاتها.
3. أنّها ذات كثافات مُتباينة في مُختلف أجزائها.
4. أنّها ذات مدارات مُحدَّدة لكلّ جرم من أجرامها، على الرّغم من تعاظم أعدادها واستمراريّة سبحها في أفلاكها، كلّ في محوره، وفي مداره المخصّص له)[1].

أرى أنّ ما جاء به العِلْم الحديث إنّما هو توسّع وإضافة لما ذهب إليه الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ، ولا يُنقص من قدره ومكانته، فإنّه لا يُنكر تغيّر المفاهيم والمعلومات بسبب التّقدّم العِلْميّ المستمرّ. وبعد هذا البيان الذي عرضت فيه لما ذكره الشّيخ وأقرانه من المفسّرين في آيات خلق السّماء، يمكن القول:

- إنّ المقصود بعدد السّماوات كما ذكر الشّيخ سبع سماوات مُلتفّات حول بعضها، مليئة بمليارات المجرّات، والجاذبيّة التي يُمسك الله بها السّماوات وما فيها هي بمثابة عمد غير مرئيّة بالعيون. وجاءت الدّراسات العِلْميّة لتؤكّد ما ذكره الشّيخ تفصيلاً، بإضافة مراحل الخَلق وتكوين السّماء، وبيان المسافات الهائلة بين الكواكب والأجرام والأفلاك، وغير ذلك.
- جاء بيان الشّيخ مُتّفقاً مع العِلْم الحديث حول معنى الزّينة، وأنّ الكواكب والنّجوم تُزيّنان السّماء الدّنيا بنورهما الذي أودعه الله –تعالى– فيهما.
- لم يتطرّق الشّيخ إلى حقيقة الدّخان، وكيفيّة تكوين الخَلق منه، بينما العِلْم الحديث جاء ليقرّر أنّ السّماء خُلقت من السّديم، وهو الدّخان، وأن السّحب الدّخانيّة مازالت سابحة في الكون. وهذا ما يُسمّى بعمليّة الانفجار العظيم، ويُضيف العِلْم الحديث أنّ الكون مكوّن من مائتي بليون مجرّة على أقلّ تقدير، وسبعين بليون ترليون نجم، وأنها كلّها مُتفاوتة في الشّكل والحجم والكتلة والسّرعة.

المطلب الثّالث– التّفسير العِلْميّ لآيات خلق الشّمس والقمر:

لمّا كان حديثي إنّما يتعلّق بذكر الشّمس والقمر، وما ذهب إليه الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ في تفسيره لهذه الآيات، وما فيها من مباحث عِلْميّة، رأيت من الواجب أن أتتبّع هذه الآيات، وبعد استقرائي

(1) **يُنظر**: النّجّار، زغلول: **من آيات الإعجاز العِلْميّ: السّماء في القرآن الكريم**، ص312–322.

لها في المعجم المفهرس وجدت أنّ كلمتَي: الشّمس والقمر وما يتعلّق بهما، جاءتا في واحد وأربعين موضعاً في كتاب الله –تعالى–، ما بين مكّية ومدنيّة. جاءت الشّمس مُشتركة مع القمر في تسعة عشر موضعاً[1]، وانفردت في أربعة عشر موضعاً[2]. واختصّ القمر في ثمانية مواضع[3]؛ بيد أنّ الشّيخ لم يتطرّق إلّا للمكّيّة منها. وبتتبّعي لهذه الآيات الكريمة لم أجد للشّيخ إلّا ما يتعلّق ببعضها، وهي على النّحو الآتي:

يقول الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ٣٩ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾[4]، "كان يُدرّس في مادّة العلوم الطّبيعيّة في أوائل القرن العشرين الميلاديّ، أنّ الشّمس ثابتة لا تجري، وأنّ الأرض والكواكب من حول الشّمس هي التي تجري حولها. وانطلقت يومئذ الأسئلة حول مُخالفة الآية القرآنيّة لما هو مُقرّر في العلوم الكونيّة الإنسانيّة، وقامت جدليّات بين المؤمنين بالقرآن، والمؤمنين بمقالات العلوم، دون تحفّظ، فتنةً بما يذكرُه علماء الكونيّات. ثمّ تقدّمت البحوث العِلْميّة الفلكيّة، وأثبت العلماء الفلكيّون أنّ الشّمس بالنّسبة إلى مجموعتها الدّائرة حولها والتي هي أُسرتها ثابتة؛ لكنّها مع كلّ أُسرتها تجري بحركة خاصّة في فلك أكبر ضمن المجرّة. فهي بالنّسبة إلى أُسرتها ثابتة؛ لكنّها إلى وضعها مع أُسرتها في المجرّة جارية غير ثابتة، فهي كما قال الله –عزّ وجلّ–: ﴿تَجۡرِي﴾ وظهر بهذا نقصُ العلوم الإنسانيّة الأُولى، التي كان يقول بها علماء الدّراسات الكونيّة، وظهرت مُطابقة البيان القرآنيّ للحقّ والواقع، وظهرت مُطابقة كلمة الله البيانيّة، لآثار كلمة الله التّكوينيّة في الكون. وهذه إحدى أمثلة الإعجاز العِلْميّ في القرآن. أمّا المستقرّ الذي يتوقّف جريان الشّمس عنده، والذي دلّ عليه قول الله –تعالى– في النّصّ: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾، فهو أمر من أُمور الغيب الذي سيحدث مُستقبلاً، فيكون للشّمس استقرار حتماً، في مكان مُحدّد من الكون، وزمان مُحدّد من الدّهر، معلوم لله –جلّ جلاله–، وهو مُبرم بتقديره، ومُنفّذ بقدرته التي يفعل بها ما يشاء ويختار. ولا يزال هذا الأمر حتّى الآن غيباً بالنّسبة إلى العلوم الإنسانيّة، ولهذا جاء تنكيره، ولم يُضف إلى ضمير الشّمس؛ بل جاءت العبارة ﴿لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾"[5].

(**1**) **يُنظر**: عبد الباقي، محمّد: **المُعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، ص491–492، 702.

(**2**) **يُنظر**: نفسه، ص491–492، 702.

(**3**) **يُنظر**: نفسه.

(**4**) سورة يس: الآية (38–40).

(**5**) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م6، ص117–118. **يُنظر**: نفسه، م7، ص102–103. م11، ص761–762.

وقد وضّح الشّيخ مفهوم القمر بقوله: "هو جسم لا ضياء فيه، إلّا أنّه يعكس نوراً ناتجاً عن انصباب ضوء الشّمس عليه فالوجه المواجه للشّمس منه في دورته الشّهريّة حول الأرض، يُعطي من النّور بمقدار ما يرى سكّان الأرض من هذا الوجه، وبهذا تظهر الأهلّة التّكامليّة حتّى يصير القمر بدراً في مُنتصف الشّهر، ثمّ تظهر الأهلّة التّناقصيّة، حتّى ليلة المَحاق، التي لا يرى فيها سكّان الأرض شيئاً من وجه القمر المواجه للشّمس، ويكون القمر بين الشّمس والأرض تماماً. ويدور القمر حول الأرض في مدار بيضيّ"[1]. وقال: "منازل القمر منازل معروفة لدى علماء الفلك، وتقدير هذه المنازل من آيات الله الجليلة العظيمة في الكون، وهي ناتجة عن دورة القمر حول الأرض، مع المحافظة على مواجهته للأرض بوجه واحد"[2]. ثمّ عقّب بقوله: "وهذا التّقدير المتقن البديع من عجائب صنع الله في كونه، ومن عنايته الجليلة بعباده"[3]. كما أنّه ذكر مفهوم كلمة العرجون، فقال: "هو الأعواد التي تحمل التّمر، والعود الواحد منها يُطلق عليه لفظ (عُرجون)، إذا قَدُمَ وضَمُرَ واعوجّ، ولونه أصفر، فهو بهذه الحالة يُشبه الهلال آخر الشّهر"[4].

ثمّ قال: "ولمّا كانت الشّمس ذات جاذبيّة عظيمة لكبر حجمها ووزنها بالنّسبة إلى القمر، كانت بطبيعتها مُؤهّلة لأن تجذب القمر إليها، وتبتلعه إذا اقترب منها في دورته كلّ شهر حول الأرض؛ لكنّ تقدير العزيز العليم الذي أتقن كلّ شيء صُنعاً، قد أحكم وضع الجاذبيّات، وتقدير الحركات والسّرعات، فجعل الشّمس مع جاذبيّتها الفائقة للقمر، غير قادرة على اجتذابه إليها وابتلاعه، ما دام هذا النّظام قائماً بتقدير الله وقضائه وإجراءات خلقه"[5].

ثمّ بيّن معنى الفَلَك، فقال: "هو خطّ السّير المحدّد في الجوّ، الذي يجري في النّجم أو الكوكب، فلا يحيد عنه تقدير الله وقضائه، فهو يسبح في فراغه سبحاً. والأفلاك خطوط ليس لها معالم تُرى، لكنّ الأجرام السّماويّة لا تحيد في مسيراتها عن أفلاكها المحدّدة لكلّ منها. هذا هو حال كلّ نجوم السّماء وكواكبها، وقد جاء القرآن بهذه الحقيقة الكونيّة، على خلاف ما كان يعتقده الأقدمون من أنّها تجري على أجرام صلبة، أو يدور بها فلك صلب هي مثبّتة فيه. ومُنجزات العلوم الكونيّة قد اكتشفت ما سبق أن أبانه القرآن، حول سبح النّجوم والكواكب في أفلاك لها في فضاء السّماوات، كما تسبح الطّائرات. وإذ كان لكلّ نجم أو

---

(1) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م6، ص119-120.

(2) نفسه، م6، ص119.

(3) نفسه، م6، ص120.

(4) نفسه، م6، ص119.

(5) نفسه، م6، ص120-121.

كوكب فلك يجري فيه، وهو خاصّ به، جاء لفظ (فلك) في النّصّ مُفرداً. فالمعنى: ولكلّ نجم أو كوكب فلك خاصّ به يسير على خطّه سابحاً لا يتعدّى حدوده، وهم جميعاً يسبحون بانتظام عجيب، دون أن تتعارض أو تتصادم، إلّا إذا قدّر الله شيئاً من ذلك وقضاه، وأجراه بخلقه في كونه"[1].

ويُقرّر الشّيخ أنّ الدّراسات العِلْميّة الإنسانيّة قد أثبتت "أنّ الشّمس مع مجموعتها تجري داخل المجرّة، مع أنّ كلّ واحد من المجموعة الشّمسيّة له جريانه الخاصّ به، سابحاً في فلكه المقدّر له. وأنّ الله –عزّ وجلّ– جعل للقمر منازل تظهر فيها لسكّان الأرض أهلّته تزايداً وتناقصاً؛ حتّى يعود إلى مثل الحالة التي بدأ بها، هلالاً صغيراً جدّاً، كعود يابس مُتقوّس. وأنّ النّظام الدّقيق الذي حدّد به الله مقدار كلّ من الشّمس والقمر، ومقدار بُعد كلّ منهما عن الآخر، ومقدار الجاذبيّات، جعل الشّمس على الرّغم من عظمها بالنّسبة إلى القمر، وعلى الرّغم من قوّة جاذبيّتها، غير مُهيّأة لاجتذاب القمر إليها، وإدراكه وابتلاعه؛ لأنّ التّنظيم العامّ مُقدّر تقديراً غاية في الإتقان"[2].

وقد ذكر الشّيخ ما توصّل إليه علماء الفلك بشأن الشّمس، فقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾[3] "نُطالع فيما توصّل إليه علماء الفلك بشأن الشّمس، فنجد لديهم الأوصاف التّالية لها، قالوا: حجم الشّمس يُعادل أكثر من مليون مرّة من حجم الأرض، وقُطرها يبلغ نحو مليون وأكثر من ثلث المليون من الكيلومترات، وجاذبيّتها نحو (28) ضعف جاذبيّة الأرض. والشّمس ليست كتلة مادّيّة صلبة؛ بل هي كتلة من الغاز الملتهب. وجوّ الشّمس فوق سطحها تندفع منه فوّارات من الغاز المحترق، تمتدّ لمسافة آلاف الكيلومترات ارتفاعاً وبصورة دائمة. والغليان المستمرّ في سطح الشّمس المضيء، ينفث ألسنة ضخمة من الغاز المشتعل، الذي يرتفع إلى ما فوق جوّ الشّمس، وهذه المقذوفات الشّمسيّة تنفجر بصورة مفاجئة، ويبلغ امتدادها مئات الآلاف من الكيلومترات. وعواميد الغاز الضّخمة التي تُؤلّف رؤوسها سطح الشّمس المضيء ليست مُتراصّة بتباعُد مُنتظم، وليست كلّها بارتفاع واحد، وهذا يُؤدّي إلى فراغ وظلال على سطح الشّمس"[4].

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾[5]، ذكر أنّ الشّمس ذات ضياء،

---

(1) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م6، ص123-124.

(2) نفسه، م2، ص334-335.

(3) سورة التّكوير: الآية (1).

(4) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م1، ص401.

(5) سورة يونُس: الآية (5).

وكوكباً ناريّاً مشتعلاً ذا لهب، يبثّ أشعّة حارّة نافعة لسكّان الأرض، وأنّ القمر ذو نور، يبثّ نوراً بارداً لا حرارة له، نافعاً لسكّان الأرض. فقال: "إنّ المعارف الإنسانيّة التي جاءت مُتأخّرة أثبتت أنّ القمر عاكس نور فقط، وليس له ضياء ذاتيّ صادر عنه، كما أثبتت أنّ الطّاقة الشّمسيّة التي تصل إلى الأرض، هي سبب كلّ مظاهر الحياة فيها، ولولا الطّاقة الشّمسيّة لبردت وجمدت، ولما كانت صالحة لظهور الحياة عليها"[1]. ثمّ قال: "وقد درس علماء الفلك حركة القمر في دورته الشّهريّة حول الأرض فاكتشفوا منازله في فلكه في السّماء، ورأوا أنّها نظام ثابت مُحكم بتقدير الله"[2]. وتطرّق إلى منازل القمر عند علماء الفلك، وقال: هي "صور نجوم تتخلّل البروج، وكلّ برج يحوي منزلتين وثُلُثاً، ويتنقّل القمر بين هذه النّجوم بدّقة بمقدار (12.8) درجة على وجه التّقريب، أي: هو ينزل كلّ ليلة في منزلة من هذه المنازل، ويعود إلى موقعه الأصليّ بعد (28) منزلة، ثمّ يستتر ليلة (28) إذا كان الشّهر (29) يوماً، أو يستتر ليلة (29) إذا كان الشّهر (30) يوماً"[3]. وذكر أسماء المنازل عند العرب، وهي: "الشّطران، البُطين، الثّريّا، الدَّبَران، الهَقْعَة، الهَنْعَة، الذّراع، النَّثرة، الطَّرف، الجَبهة، الزُّبْرة، الصَّرفة، العَوَّا، السِّماك، الغَفْر، الزُّبَّانا، الإكليل، القلب، الشَّولة، النَّعائم، البَلَدَة، سَعْد الذَّابح، سَعْد بُلع، سَعْد السُّعُود، سَعْد الأخْبية، الفَرْغُ المقدَّم، الفَرْغُ المؤخَّر، الرِّشاء"[4]. ثمّ قال: "والوجه المواجه للشّمس من القمر في دورته الشّهريّة حول الأرض، يُعطي من النّور بمقدار ما يرى سكّان الأرض من هذا الوجه، وبهذا تظهر الأهلّة التّكامليّة حتّى يصير القمر بدراً في مُنتصف الشّهر، ثمّ تظهر الأهلّة التّناقصيّة حتّى ليلة المَحاق، التي لا يرى فيها سكّان الأرض شيئاً من وجه القمر المواجه للشّمس، ويكون القمر بين الشّمس والأرض تماماً. ويدور القمر حول الأرض في مدار بَيضيّ"[5].

وذكر سرّ تنقّله في المنازل، وذلك "ليعلم النّاس عدد السّنين، وحساب الأيّام والشّهور القمريّة، وما يرتبط بها من أحوال الأرض والنّاس الدّينيّة والدّنيويّة"[6]. وقال في موضع آخر من تفسيره: (إنّ القمر يبدأ بظهوره هلالا، ويتزايد حتّى يكون بدراً، ويتناقص حتّى ليلة المحاق، وبهذا يتمّ شهر قمريّ، وبمرور اثني عشر شهراً تكون مرّت سنة بالعدّ القمريّ للأشهر، والسّنة القمريّة تعادل (354) يوماً تقريباً. وإنّ الأرض تدور

(**1**) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م10، ص47.

(**2**) نفسه، م10، ص48.

(**3**) نفسه، م10، ص48.

(**4**) نفسه، م10، ص48.

(**5**) نفسه، م10، ص48.

(**6**) نفسه، م2، ص337-338. **يُنظر**: نفسه، م11، ص761.

حول نفسها دورة كاملة في: 23 ساعة، و56 دقيقة، و4.09 ثانية باتّجاه الشّمس، وهذه المدّة تُسمّى اليوم النّجميّ. وتدور في مدار حول الشّمس في زمن قدره: 365 يوماً، و6 ساعات، و9 دقائق، و9.540 ثانية، وهذه المدّة تُسمّى السّنة الشّمسيّة. وحينما يَعُدّ النّاس الأيّام ويلاحظون ارتباطها بالأرض والقمر والشّمس، يعلمون عدد السّنين القمريّة، وعدد السّنين الشّمسيّة)[1].

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: (إنّ إخبار الله -تعالى- عن الشّمس والقمر دليل على كمال قدرته وعظيم سلطانه، بأن جعل الشّعاع الصّادر عن جرم الشّمس ضياء، وجعل شعاع القمر نوراً، فجعل سلطان الشّمس بالنّهار وسلطان القمر باللّيل، وقدّر القمر منازل، فأوّل ما يبدو صغيراً، ثمّ يتزايد نوره وجرمه حتّى يستوسق ويكمل إبداره، ثمّ يشرع في النّقص حتّى يرجع إلى حالته الأولى في تمام شهر، وبالشّمس تُعرف الأيّام، وبسير القمر تُعرف الشّهور والأعوام)[2]. وأعجبني إيراد القرطبيّ لقول ابن عبّاس في تفسير قوله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَۚ﴾؛ حيث قال: "لو جعل الله شمسين، شمساً بالنّهار وشمساً باللّيل ليس فيهما ظُلمة ولا ليل، لم يُعلمْ عددُ السّنين وحسابُ الشّهور"[3].

كما أنّ الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ ذهب إلى ما ذهب إليه كلّ من: الزّمخشريّ[4] وابن عاشور[5] في بيان منازل القمر وأسمائها. وهذا يدلّ على سعة اطّلاعه وثقافته وعلمه؛ حيث يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾[6] "إنّ القمر مصباح ليليّ، وأهلّته دلالة على المواقيت، وجاذبيّته يتسبّب عنها حدوث المدّ والجزر في البحار، فينجم عنها حركات نافعات لأهل الأرض، إلى منافع ومصالح أُخرى كثيرة يعلم الباحثون الكونيّون بعضها ويجهلون سائرها. ودلّ قول الله -عزّ وجلّ- ﴿إِذَا تَلَىٰهَا﴾ على أنّ القمر تابع من توابع الشّمس، أي: فحركات القمر، وانضباطه في مداره، ونوره الذي يبثّه، كلّها تابعة وتالية لما في الشّمس من أسباب بتقدير الله -عزّ وجلّ-. وقد هدت العلوم الإنسانيّة المؤكّدة إلى أنّ القمر تابع من توابع الشّمس، فهو تابع لها في الجاذبيّة، وفي نظام الحركة مع المجموعة التّابعة لها، وفي نوره الذي يبثّه؛ إذ نور القمر هو انعكاس أشعّة الشّمس المنسكبة على سطحه المواجه لها، فهو يُقابل الشّمس بوجه

---

(1) **يُنظر**: الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م9، ص575.

(2) **يُنظر**: ابن كثير، إسماعيل: **تفسير القرآن العظيم**، ج4، ص217.

(3) القرطبيّ، محمّد: **الجامع لأحكام القرآن**، ج8، ص310.

(4) **يُنظر**: الزّمخشريّ، محمود: **الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل**، ج4، ص16-18.

(5) **يُنظر**: ابن عاشور، محمّد الطّاهر: **التّحرير والتّنوير**، ج11، ص95.

(6) سورة الشّمس: الآية (2).

واحد من وجهَيه، فالقمر بتكوينه الظّاهر بارد غير حارّ، وما يبثّه نور انعكاسيّ، وليس ضياء، بخلاف الشّمس"[1].

أمّا الدّراسات العِلْميّة الحديثة، فتؤكّد "أنّ الشّمس نجم مُتوسّط الحجم إذا قيست بالنّجوم الأُخرى، ومع أنّها تكبر الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرّة حجماً، وتبعد عنها مئة وستّة وخمسين مليون كيلو متر وسطيّاً، ويقطع ضوء الشّمس هذه المسافة في ثماني دقائق، وهناك نجوم يزيد حجم أحدها على حجم الشّمس والأرض مع المسافة بينهما. وأنّ حرارة الشّمس تصل إلى عشرين مليون درجة في مركزها، فلو أُلقيت الأرض في جوف الشّمس لتبخّرت في وقت قصير، ويزيد طول ألسنة اللّهب المنطلقة من سطحها من نصف مليون كيلو متر إلى مليون كيلو متر، وتُنتج الشّمس من الطّاقة في كلّ ثانية ما يُعادل إحراق ألفي مليار طنّ من الفحم الحجريّ، وتفقد الشّمس كلّ يوم من كتلتها ما يُعادل ثلاثمئة وستّين ألف مليون طنّاً، ويظنّ علماء الفلك أنّه مضى على اتّقادها ما يزيد على خمسة آلاف مليون عام، وهم يطمئنون النّاس إلى أنّ الشّمس لن تنطفئ قبل خمسة آلاف مليون عام أُخرى، ولو انطفأت الشّمس فجأة لغرقت الأرض في ظلام دامس، ولهبطت درجة الحرارة فيها إلى مئتين وسبعين درجة تحت الصّفر، ولتحوّلت الأرض إلى قبر جليديّ، وإنّ انعدام الدّفء والنّور كافيان لقتل كلّ مظهر من مظاهر الحياة على سطح الأرض"[2].

أرى أنّ ما ذكره الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ، وما ذكره غيره من المفسّرين في الآيات القرآنيّة التي تتعلّق بالشّمس والقمر وحركتهما، لا تباين ولا تعارض بينهم، فقد ذكروا كيفيّة جريان الشّمس، وأهمّيّة انتفاع الخلق بضوئها وضوء القمر، وفوائدهما؛ بيد أنّ اختلافاتهم تكمن في الإجمال أو التّفصيل. كما يُلاحظ على الشّيخ الجانب العِلْميّ في أغلب أقواله؛ حيث فرّق بين ضياء الشّمس ونور القمر الذي هو انعكاس لضوء الشّمس، وذكر أنّ ضوء الشّمس إنّما هو نابع من ذاتها بخلاف نور القمر المكتسب من ضياء الشّمس. أمّا ما يتعلّق بالعِلْم الحديث، فإنّ النّاظر فيه يجد أنّ العلماء في دراساتهم قد أضافوا إضافات جوهريّة مُفيدة، فذكروا جوانب تسخير الله للشّمس، وبيان أهمّيّة الاتّزان الدّقيق بين تجاذب مكوّنات الشّمس وتمدّدها، وتسخير الشّمس من أجل ضبط حركة الحياة على الأرض، ثمّ أضافوا فوائد تسخير القمر، وأهمّيّة أطوار شكل القمر في تقسيم الأشهر والأيّام، وإضاءة السّماء الدّنيا، وأهمّيّة القمر في عمليّة المدّ والجزر. وأكّدوا ما أكّده الشّيخ من أنّ الشّمس والقمر يلتزمان بالسّير ضمن مسارات وأفلاك

---

(1) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م2، ص310.

(2) النّابلسيّ، محمّد: **موسوعة الإعجاز العِلْميّ في القرآن والسّنّة آيات الله في الآفاق**، ص107-108.

مُحدّدة مخصوصة لكلّ واحد منهما، لا يدرك أحدهما الآخر مهما اختلفت السّرعة من حيث الزّيادة أو النّقصان، وبيّنوا العلاقة بين حركة الشّمس والقمر، وذكروا منازل القمر أنّها مُحدّدة بثمان وعشرين منزلة.

المطلب الرّابع– التّفسير العِلْميّ لآيات خلق النّجوم والكواكب:

ولمّا كان حديثي يتعلّق بذكر النّجوم والكواكب، وما ذهب إليه الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ في تفسيره لهذه الآيات، وما فيها من مباحث عِلْميّة، رأيت من الواجب –أيضاً– أن أتتبّع هذه الآيات، وبعد استقرائي لها في المعجم المفهرس وجدت أنّ النّجوم تقع في ثلاث عشرة آية[1]، والكواكب في خمس آيات[2]. فعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾[3]، يذكر الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ أنّ النّجم يُطلق في اللّغة على ثلاثة معانٍ: "يُطلق على كلّ جرم مضيء لامع في السّماء، ويُطلق على ما لا ساقَ له من النّبات، ويُطلق على الوقت المعَيَّن لأداء عمل ما، وعلى الشّيء الذي يعمل أو يؤدّى في الوقت المعَيَّن، ولمّا كان تنزيل القرآن مُجَزَّءاً على أوقات، أُطلق على كلّ جزء يُنزّل منه في وقت ما نَجْماً"[4].

وعند قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾[5]، قال: "أي: وخلق الشّمس والقمر والنّجوم، حالة كونها مُسخّرات بأمره جلّ جلاله وعَظُم سلطانه؛ لأداء وظائفها المفصّلة المبيّنة بقضائه وقدره ضمن مجاري سُننه"[6]. ثمّ قال: "وبالنّجوم يهتدي النّاس في طرقات البرّ والبحر ليلاً؛ لأنّها مُسخّرات ضمن نظام دقيق لا تخرمه"[7].

وعند قوله تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾[8]، قال: "وجعلنا في نجوم السّماء علامات توصّل إلى معرفتها أولو النّظر العِلْميّ، فهم يهتدون بها في ظلمات البرّ والبحر، لتحديد اتّجاهاتهم والطّرق التي

---

(1) **يُنظر**: عبد الباقي، محمّد: **المُعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، ص861.

(2) **يُنظر**: نفسه، ص790.

(3) سورة النّجم: الآية (1).

(4) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م2، ص99–100.

(5) سورة الأعراف: الآية (54).

(6) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م4، ص290.

(7) نفسه، م4، ص291.

(8) سورة النّحل: الآية (16).

يسلكونها"[1]. فهي لا تخرج عن كونها هدايات للنّاس أنعم الله بها على البشر في ليلهم ونهارهم، وحلّهم وترحالهم؛ ليهتدوا بها في ظلمات البرّ والبحر.

أمّا بالنّسبة إلى الكواكب، فيقول الشّيخ عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾[2]، أنّه "يُراد بالكوكب النّجم، أي: أحد عشر نجماً. أمّا الكواكب عند علماء الفلك فهي توابع الشّمس المشابهة للأرض، والتي تُنير بانعكاس ضوء الشّمس عنها"[3].

ويقول عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾[4]، "الظّاهر أنّ المراد بالكواكب نجوم السّماء، أمّا الكواكب في علم الفلك فهي الأجرام السّماويّة التي تدور حول الشّمس، وتقتبس من الشّمس نورها"[5].

ويقول الشّيخ -أيضاً- عند قوله تعالى: ﴿*فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾[6]: "ومواقع النّجوم في السّماوات من آيات الله العظيمات، وهي أهل لأن يُقسم الله بها؛ لكنّ المعنيّين الأوّلين بالخطاب لم تصل بعد مداركهم العِلْميّة إلى معرفة عظمة مواقع النّجوم؛ حتّى يكون القسم بها يُفيد بالنّسبة إليهم توكيداً؛ بيد أنّه سيأتي في القرون اللّاحقة لزمن التّنزيل، باحثون عِلْميّون يكتشفون عظمة مواقع النّجوم من آيات الله في كونه، وهؤلاء يُلائم حالهم أن يُقسم الله لهم بمواقع النّجوم، على أنّ القرآن تنزيل من لدنه، وأنّ كلّ ما جاء فيه من أنباء حقّ وصدق، ولاسيّما أنباء الجزاء، ويوم الدّين، وما سوف يَجري فيه من أحداث"[7].

وقد جاء في تفسير ابن كثير أنّ للنّجوم ثلاث وظائف، هي: "أنّ الله جعلها زينة للسّماء، ورجوماً للشّياطين، ويُهتدى بها في ظلمات البرّ والبحر"[8]. ولقد جاءت المكتشفات العِلْميّة الحديثة تؤكّد ذلك؛ حيث يقول زغلول النّجّار: (مواقع النّجوم: هي الأماكن التي تمرّ بها في جريها عبر السّماء، وهي مُحتفظة بعلاقاتها المحدّدة بغيرها من الأجرام في المجرّة الواحدة، وبسرعات جريها ودورانها، وبالأبعاد الفاصلة بينها، وبقوى الجاذبيّة الرّابطة بينها. والمسافات بين النّجوم مُذهلة للغاية لضخامة أبعادها، وحركات النّجوم عديدة وخاطفة، وكلّ ذلك منوط بالجاذبيّة، وهي قوّة لا تُرى، تحكم الكتل الهائلة للنّجوم، والمسافات

---

(1) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م13، ص535.

(2) سورة يوسُف: الآية (4).

(3) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م10، ص609-610.

(4) سورة الانفطار: الآية (2).

(5) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م15، ص75.

(6) سورة الواقعة: الآية (75).

(7) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م8، ص502-503.

(8) ابن كثير، إسماعيل: **تفسير القرآن العظيم**، ج3، ص273.

الشّاسعة التي تفصل بينها، والحركات المتعدّدة التي تتحرّكها من دوران حول محاورها، وجري في مداراتها المتعدّدة، وغير ذلك من العوامل التي نعلم منها القليل! وهذا القَسم القرآنيّ العظيم بمواقع النّجوم يُشير إلى سبق القرآن الكريم بالإشارة إلى إحدى حقائق الكون المبهرة، والتي تقول: إنّه نظراً للأبعاد الشّاسعة التي تفصل نجوم السّماء عن أرضنا، فإنّ الإنسان على هذه الأرض لا يرى النّجوم أبداً، ولكنّه يرى مواقع مرّت بها النّجوم ثمّ غادرتها، وعلى ذلك فهذه المواقع كلّها نسبيّة، وليست مُطلقة، ليس هذا فقط؛ بل إنّ الدّراسات الفلكيّة الحديثة قد أثبتت أنّ نجوماً قديمة قد خبت أو تلاشت منذ أزمنة بعيدة، والضّوء الذي انبثق منها في عدد من المواقع التي مرّت بها لا يزال يتلألأ في ظلمة السّماء في كلّ ليلة من ليالي الأرض إلى اليوم الرّاهن، ومن هنا كان هذا القسم القرآنيّ بمواقع النّجوم، وليس بالنّجوم ذاتها –على عظم قدر النّجوم–. أمّا النّجوم، فهي أجرام سماويّة مُنتشرة بالسّماء الدّنيا، كرويّة أو شبه كرويّة، غازيّة، مُلتهبة، مُضيئة بذاتها، مُتماسكة بقوّة الجاذبيّة على الرّغم من بنائها الغازيّ، هائلة الكتلة، عظيمة الحجم، عالية الحرارة بدرجة مُذهلة، وتشعّ كلّاً من الضّوء المرئيّ وغير المرئيّ بجميع موجاته)[1].

أقول: ولعلّ القسم بمواقع النّجوم والتّركيز عليه، يعود إلى الأبعاد الشّاسعة التي تفصلها عنّا، فإنّنا لا يمكن لنا رؤية النّجوم من على سطح الأرض أبداً، ولا بأيّة وسيلة مادّيّة، وكلّ الذي نراه من نجوم السّماء هو مواقعها التي مرّت بها ثمّ غادرتها، وتتغيّر هذه المواقع من لحظة إلى أُخرى بسرعات تتناسب مع سرعة تحرّك النّجم في مداره، ومُعدّلات توسّع الكون، وتباعد المجرّات عنّا، والتي يتحرّك بعضها بسرعات تقترب أحياناً من سرعة الضّوء؛ فضلاً عن أنّ النّجوم في داخل المجرّة الواحدة مُرتبطة مع بعضها بالجاذبيّة المتبادلة بينها، والتي تحكم مواقع النّجوم وكتلها. إضافة إلى أنّ الدّراسات الفلكيّة أثبتت أنّ الزّمان والمكان شيئان مُتواصلان، ومن هنا كانت مواقع النّجوم المترامية الأبعاد تعكس أعمارها الموغلة في القدم، والتي تُؤكّد أنّ الكون الذي نحيا فيه ليس أزليّا؛ بل كانت له بداية يُحدّدها الدّارسون باثني عشر بليوناً من السّنين على أقلّ تقدير، ومن هنا كان في القسم بمواقع النّجوم إشارة إلى قدم الكون مع حدوثه، وهي حقائق لم يتوصّل إليها العِلْم المكتسب إلّا في نهاية القرن العشرين.

وما يُؤكّد كلامي قول محمّد راتب النّابلسيّ: (للنّجوم حركات دقيقة، ضمن خطّ سير رسمه الله –تعالى– لها بحكمة وتدبير، لا تحيد عنه قيد أُنملة، وأنّه ليس لها موقع واحد؛ بل لها مواقع، فهي نجوم مُتحرّكة، وكلّ شيء يسبح في فلك خاصّ به، وثمّة علاقة مباشرة بينها حركةً ودوراناً واستقراراً. وبين النّجوم تجاذب، فالكتلة الأكبر تجذب الكتلة الأصغر، وقد وضعت مُتفاوتة في الأحجام والأبعاد في أماكن دقيقة بعناية

(1) **يُنظر**: النّجّار، زغلول: **من آيات الإعجاز العِلْميّ: السّماء في القرآن الكريم**، ص196–206.

فائقة مدروسة؛ بحيث لو تغيّرت مواقعها لاختلّ توازن الكون، ولارتطمت النّجوم بعضها ببعض، وأصبح الكون كتلة واحدة، وسبب ذلك يعود إلى وجود عاملين رئسين: الجاذبيّة ومربّع المسافة بينهما. كما أنّ كلمة (بمواقع) في الآية الكريمة هي سرّ إعجازها، فالموقع لا يعني أنّ صاحب الموقع موجود فيه، فالله –جلّ جلاله– لم يُقسم بالمسافات التي بين النّجوم، ولكنّه أقسم بالمسافات التي بين مواقع النّجوم، ذلك لأنّ النّجوم مُتحرّكة، وليست ثابتة. فالأرض تدور حول الشّمس في ثلاثمئة وخمسة وستين يوماً، غير أنّ نجماً آخر في المجموعة الشّمسية يدور حول الشّمس في سنتين أو ثلاث أرضيّة، وبعضها في أقلّ من سنة، فكلّ نجم له مواقعه الخاصّة، وله مدار طويل أو قصير، وشكل مداره دائريّ، أو إهليلجيّ)[1].

بمعنى أنّ كلّ كوكب وكلّ نجم يسبح في فلكه الذي قُدّر له، لا يتحوّل عنه ولا يحيد، في وحدة مُتماسكة مُترابطة بفعل الجاذبيّة، جعلها الخالق الأعظم تتجاذب فيما بينها تجاذباً دقيقاً، يتناسب معها حجماً وكتلة وبُعداً عن الشّمس، وبفعل هذا التّجاذب تظلّ مواقع النّجوم فيما بينها ثابتة على مسافات وأبعاد تحقّق للجميع سبحاً وطوافاً دون تماس أو صدام.

أرى أنّ ما ذكره الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ من إشارات عِلْميّة تتعلّق بالنّجوم والكواكب، إنّما هو غوص عميق في مفاهيم ومُقرّرات العِلْم الحديث. وهذا يدلّ على القدرة العِلْميّة التي امتاز بها الشّيخ في عصره، فذكر من وظائف النّجوم: تزيينها للسّماء بقدرة وتقدير العزيز الحكيم، وأنّها جُعلت للاهتداء بها في البرّ والبحر، وأنّها جُعلت رجوماً للشّياطين، والتي أشار إليها غيره من أهل العِلْم سواء من المفسّرين، أو العلماء المعاصرين، وأكّدوا أنّ لهذه النّجوم مسارات تسير من خلالها لا تخرج عنها كما هي الكواكب، وهم في ذلك لم يخرجوا عمّا قرّره الشّيخ في تفسيره. وجاءت الدّراسات العِلْميّة لتُؤكّد ما ذكره الشّيخ وغيره من المفسّرين في بيان وظائف النّجوم والكواكب وآثارهما في الحياة.

المطلب الخامس– التّفسير العِلْميّ لآيات خلق الأرض:

يقول الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ: (قد امتازت الأرض بكلّ الأسباب الصّالحة لنشأة الحياة وتكاثرها وبقائها، من كثافة، وجاذبيّة، وحركة، ورياح، وماء، ودفء، وضوء يأتيها من الشّمس بالمقدار الملائم لحاجة الأحياء والنّبات عليها، وإمداد بأسباب الرّزق، وخزائن أقوات الأحياء، إلى غير ذلك من أسباب. ولو أنّ بعض هذه الأسباب تخلّف لربّما كانت الأرض مثل غيرها كوكباً ميتاً لا حياة فيه، وإنّ أيّ خلل في رعاية نظام الأرض قد يُفضي بها إلى الدّمار، أو تدمير الحياة التي عليها. وإنّ الجاذبيّة التي تتمتّع

(1) **يُنظر**: النّابلسيّ، محمّد: **موسوعة الإعجاز العِلْميّ في القرآن والسّنّة آيات الله في الآفاق**، ص65-67.

بها كثافة الأرض هي التي جعلتها تحتفظ بغلافها الجوّيّ، الذي هو أحد الشّروط اللّازمة للحياة هذه، ولولاها لما كان للأحياء ولا لمتحرّك على الأرض قرار. ولو كان حجم الأرض أكبر ممّا هو عليه أو أصغر، أو كان ثقلها وكثافتها أقلّ أو أكثر، لاختلّ أمر الحياة، أو تغيّر تغيّراً مُنافياً للمصلحة والحكمة، فحجمها مُتناسب مع سرعتها ودورتها، وثقلها مُتناسب مع قوّة جذبها للأشياء.

وتقرّر الدّراسات العِلْميّة الإنسانيّة حول الأرض: أنّ سطح الأرض لا يزال تنتابه تقلّصات في أماكن كثيرة منه، يرتفع بها بعضه، وينخفض بها بعض آخر، وأنّ حركة هذه التّقلّصات بطيئة إلى حدّ غير مُدرك بالحسّ. وأنّ القشرة الأرضيّة انتابتها فوق التّقلّصات البطيئة المستمرّة فيها تقلّصات عنيفة واسعة النّطاق، مرّات مُتعدّدة في أزمنة مُختلفة، تغيّر بها وجه الأرض في كلّ مرّة، فنشأت جبال، وظهرت أراض واسعة كانت مغمورة بالماء، كما هبطت أُخرى على نطاق واسع تحت سطح الماء. وأنّ الأرض بعد أن انفصلت عن الشّمس وتكاثفت إلى سائل بانخفاض درجة حرارتها، وتغطّت بقشرة جامدة كانت تلفّ حول نفسها مرّة كلّ أربع ساعات، فكان تتابع اللّيل والنّهار تتابعاً سريعاً، كلّ منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً في هذه الحقبة.

وأنّ للأرض حركتين: إحداهما حول نفسها، والأُخرى في مدار حول الشّمس، وتعزو الدّراسات العِلْميّة الإنسانيّة نقصان سرعة التفاف الأرض حول نفسها من أربع ساعات إلى أربع وعشرين ساعة، إلى تأثير موجات المدّ والجزر التي يُحدثها جذب القمر والشّمس للأرض. كما أنّ الأرض تنقص بالتّعرية، فتتفتّت كتل الصّخور السّطحية المرتفعة، ويقلّ بذلك ارتفاعها تدريجيّاً، وتنفصل منها الأجزاء السّطحيّة سهلة التّفكّك، وتبقى منها الأجزاء الصّلبة تُقاوم عوامل التّعرية، لذلك تصير الجبال بعد نشوئها ومرور أحقاب من الزّمن عليها صلبة مُندمجة وقائمة مُنتصبة، وقد تنمحي الجبال بالتّعرية وتصير أراضي مبسوطة وطيئة. وأشياء أُخرى قد تكتشف ببحوث عِلْميّة ستأتي في المستقبل، -والله أعلم-)[1].

ويقول الشّيخ عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾[2] أي: "جعلناها ذات امتداد في بُعدين مُتقابلين منها، كتمدّد السّقاء، وهو ظرف الماء المتّخذ من الجِلد، وهو ما يُسمّى بالقِرْبَة"[3]. "وقد يكون

---

(1) **يُنظر**: الميدانيّ، عبد الرّحمن: **براهين وأدلّة إيمانيّة**، ص300-305.

(2) سورة ق: الآية (7).

(3) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م3، ص50. م11، ص38-39. **يُنظر**: نفسه، م3، ص40.

المراد بالمدّ الإمداد بالعناصر الصّالحة لنفع النّاس، بالأرزاق وغيرها من مطالب الحياة الدّنيا، كالمعادن المختلفة"[1].

ويقول –أيضاً– عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾[2] (إنّ القَسَم بطَحْو الأرض فيه دلالة على كرويّتها، ودورانها حول نفسها، ودورانها في مدار حول الشّمس، وهذا ما أثبتته الدّراسات العِلْميّة الإنسانيّة إثباتاً قطعيّاً؛ حيث أثبتت أنّ الأرض كُرة كبيرة ليست كاملة الاستدارة، وأنّها تدور حول نفسها دورة كاملة في كلّ يوم، وأنّها تدور في مدار حول الشّمس دورة كاملة في كلّ سنة شمسيّة)[3].

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾[4] ، يقول: "إنّ الأرض تدور بسرعة حول محورها باتّجاه الشّمس، وهذه الحركة الدّورانيّة السّريعة تجعل الشّمس في نظر سكّان الأرض كأنّها هي التي تتحرّك من الشّرق إلى الغرب مُسبّبة حدوث النّهار واللّيل على الأرض، وجانب النّهار على الأرض هو الجانب المواجه للشّمس، وأمّا اللّيل فيكون في الجانب الآخر الذي لا تكون الشّمس مُواجهة له. وبدوران الأرض حول نفسها باتّجاه الشّمس، تكون الشّمس ذات مشارق على الأرض لحظة فلحظة، وكلّ ساكن من الأرض يرى الشّروق الذي يكون على الأرض التي يسكنها، ومن يسكن أبعد منه في اتّجاه الغرب، يرى على أرضه شروقا آخر، ونظيره في المقابل الغروب"[5].

ولقد دلّت المكتشفات العِلْميّة "أنّ الأرض مع دورانها حول نفسها ودورانها حول الشّمس يميل محورها بمعدّل 40 قدم فقط من أصل طول هذا المحور البالغ 40 مليون قدم، وأنّ المَيَلان هو سبب طول النّهار

(**1**) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م3، ص40.

(**2**) سورة الشّمس: الآية (6).

(**3**) **يُنظر**: الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م2، ص315–317. **قلت**: جاءت كلمة الطّحْوِ والدّحْوِ في كتب اللّغة على معنيين: البَسْط، والدّفْع. وقد رجّح الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ الثّاني، فقال: "قد رجعت إلى كتب اللّغة فوجدت أنّ كلمة: طَحَا يَطْحُو طَحْواً، وطَحَى يَطْحى طَحْياً، تأتي بمعنى دَفَعَ، وللمطابقة بين مُقرّرات العلوم الإنسانيّة القطعيّة، وبين المعنى اللّغويّ لفعلَيْ: طَحَا ودَحَا، ترجّح لديّ أنّ المراد الدّفع بالطّحو والدّحو. وهذا الدّفع ينجم عنه حركتان عادة: الأولى: حركة الشّيء حول نفسه؛ إذ يتدحرج. والثّانية: حركة الشّيء في مسير ليبلغ الغاية المرادة". **يُنظر**: نفسه.

يقول ابن منظور: (طَحَا: طَحَاه طَحْواً وطُحُوّاً: بَسَطَهُ. وطَحَى الشَّيْءَ يَطْحِيه طَحْياً: بَسَطَه أَيضاً. والطَّحْو كالدَّحْو، وَهُوَ البَسْطُ، وَفِيهِ لُغَتَانِ طَحَا يَطْحُو وطَحَى يَطْحَى. والطَّاحِي: المُنْبَسِطُ. ومنه القومُ يَطْحَى بعضُهم بَعْضًا أَي يَدفَع). **يُنظر**: ابن منظور، محمّد: **لسان العرب**، باب الواو والياء من المُعتلّ، فصل الطّاء المهملة، ج15، ص4–5.

(**4**) سورة الصّافات: الآية (5).

(**5**) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م11، ص550.

وقصر اللّيل في نصف الكرة الشّماليّ وعكسه في الشّتاء، ولولا مَيَلان هذا المحور لانعدمت الفصول الأربعة على سطح الكرة الأرضيّة"[1].

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾[2] يقول الشّيخ: "ولـمّا كانت حركة دوران الأرض حول نفسها في مُقابلة الشّمس، تعمل بنظام ثابت دقيق، كان ما يبتعد عن مُواجهة الشّمس من الأرض بتأثير حركة الدّوران، يبتعد عنه الضّوء شيئاً فشيئاً، وتظهر ظُلمته شيئاً فشيئاً، بمثابة الجسم الأسود المظلم الذي ينسلخ عنه الجلد الأبيض المضيء، فيعود إلى ظُلمته الأصليّة. فالعبارة القرآنيّة جاءت مُعبّرة بإيجاز بالغ تعبيراً دقيقاً جدّاً، مُشيراً إلى عدّة حقائق. **الأولى**: أنّ الأرض مُظلمة هي وما حولها من الجوّ بحسب الأصل. **الثّانية**: أنّ ضياء النّهار الذي يظهر على الأرض، إنّما يأتيها من ضياء الشّمس، ويكون في الجهة التي تُقابل الشّمس منها. **الثّالثة**: أنّ النّهار يبتعد شيئاً فشيئاً بمقدار نسبة حركة الدّوران، ويكون هذا من الجهة التي يبدأ فيها ظهور اللّيل شيئاً فشيئاً، كما ينسلخ جلد الحيوان عنه شيئاً فشيئاً. **الرّابعة**: أنّ هذه الظّاهرة تستلزم أن تكون حركة الأرض في اتّجاه الشّمس حركة دوران حول نفسها. وهذه الحقائق هي التي أثبتتها الدّراسات العِلْميّة الإنسانيّة، وأكّدتها العلوم المعاصرة، ولم تكن معروفة للنّاس من قبل. هذه العبارة تُؤكّد أنّ الأرض مُظلمة هي وما حولها من الجوّ بأصل تكوينها، وأنّ الضّياء هو الذي يأتي من الخارج فيُغطّي أصل ظُلمتها؛ إذ يكشف سطوحها، فإذا ذهب عنها الضّياء عادت إلى أصل ظُلمتها"[3].

وبعد أن بيّنت ما انتهى إليه الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ في خلق الأرض حقيقة واستقراراً، كان لا بدّ من بيان ما توصّلت إليه الدّراسات والمكتشفات العِلْميّة حول الأرض، ومساحتها، وحقيقة استوائها.

يقول محمّد الغمراويّ: (إنّ الإنسان لا يكاد يستطيع أن يتصوّر كيف تكون الحياة على الأرض لو لم تكن هناك جاذبيّة بين الأرض، وبين ما عليها، فإنّ كلّ شيء على الأرض مُتأثّر بجذب الأرض إيّاه، فلولا الجاذبيّة ما كان للأجسام على الأرض ثقل ولا وزن، ولطارت هذه الأجسام عن الأرض بالحركة، ثمّ لم تَعُد إليها بعد، فلولا جذب الأرض الهواء الجوّيّ مثلًا، لفارقها لشدّة حركة جزئياته، ولصارت الأرض في النّهاية لا هواء فيها ولا جوّ لها، ولانعدمت الحياة على سطح الأرض بانعدام الهواء، وجذب الأرض هو الذي

---

(1) محمّد علي، محمّد سامي: **الإعجاز العِلْميّ في القرآن**، ص58-59.

(2) سورة يس: الآية (37).

(3) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م6، ص116-117. **يُنظر**: نفسه، م7، ص96-97.

ينزل الله به المطر من السّحاب، وإلّا لبقي السّحاب مُعلّقاً مهما كبرت قطرات مائه، ولفارقها بخاراً مع الهواء، ولجفّت جميع المياه من الأرض في النّهاية، فلا يكون عليها بحر ولا نهر، ولانعدمت الحياة فيها بانعدام المياه. والجاذبيّة: هي القوّة التي يُجري الله –سبحانه– بها الأنهار سيلاً من أعالي الجبال إلى سطح البحر، والإنسان كثيراً ما يستغلّ قوّة اندفاع المياه بفعل الجاذبيّة من علوّ إلى أسفل عند المساقط والشّلالات؛ بل من عيون الخزّانات، فيُسلّط تلك القوّة على آلات تُحرّكها وتُديرها لتوليد الكهرباء وغير ذلك. كما سخّر الله –سبحانه– الجاذبيّة للإنسان في إجراء الأنهار إلى سطح البحر، سخّرها له –أيضاً– في كبح جماح البحر ومنعه من أن يطغى بمائه الأُجاج على النّهر العذب أو على اليابسة، فهي دائماً تحبسه في مُستقرّه الذي هو أقرب مواطن سطح الأرض إلى مركز الأرض، فكأنّما البحر ملجم بالجاذبيّة، كلّما همّ بالهجوم على اليابسة من الأرض بفعل المدّ أو الرّيح، أو حركة الأرض، جذبته قدرة الله بلجام الجاذبيّة من خلف، فيعود إلى موطنه الذي كتب عليه أن يبقى به مُقيّداً بقيد الجاذبيّة)[1].

ولقد أشار منصور حسب النّبيّ إلى أنّ قرار الأرض، يعني: (الجاذبيّة التي أودعها الله في الكون ضمن قانون عامّ شامل يعمل في الكون كلّه؛ حيث أنّ الكائنات كلّها تتجاذب، وإن لم نرَ القوّة الرّابطة بين المتجاذبين، إلّا أنّنا تعرّفنا عليها من نتيجه أثر الأشياء الكبيرة في الصّغيرة) [2]. ويمكن القول: إنّ قوّة الجاذبيّة تزداد بازدياد كتلة الأشياء، وتنقص بنقصانها، كما أنّها تزداد بنقص المسافة، وتقلّ بازديادها، فهي قانون عامّ بين جميع الأشياء كبيرها وصغيرها، فالكلّ يتجاذب وإن لم يظهر إلّا أثر الكبير في الصّغير، فالشّمس تجذب الأرض، والأرض تجذب القمر؛ بل وتجذب كلّ شيء قريب منها بقوّة نشعر بها جميعاً، والإنسان سجين الجاذبيّة؛ لأنّه لا يستطيع أن يرتفع عن الأرض؛ لأنّها تجذبه إليها، والإنسان يجذب الأرض إليه، ومن فضل الله علينا أنّ الجاذبيّة الأرضيّة قد احتفظت لنا بغلاف جوّيّ يُحيط بأرضنا، ولولا الجاذبيّة لهرب الهواء وانعدمت الحياة على كوكبنا.

من خلال هذه الدّراسات والمكتشفات العِلْميّة حول الأرض يتّضح لنا أنّ ما يكشفه الله للنّاس من آيات كونيّة بالوسائل العِلْميّة، فتظهر مُطابقتها لما جاء في النّصوص القرآنيّة، أو في بيانات الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم–، يدلّ على أنّ القرآن تنزيل من ربّ العالمين، وأنّه حقّ لا ريب فيه. وهذا ما بدأ الباحثون يُنقبّون عنه، ويعطونه عنوان: التّفسير العِلْميّ في القرآن.

---

(1) **يُنظر**: الغمراويّ، محمّد: **في سُنن الله الكونيّة**، ص29–30.

(2) **يُنظر**: حسب النّبيّ، منصور: **الكون والإعجاز العِلْميّ للقرآن الكريم**، ص60–61.

وفي شأن عدد الأرضين، أشار الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ في معرض تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾[1] إلى أنّ الله –تعالى– قد أعلمنا أنّ طبيعة الأرض التي هي مُستقرّنا في هذه الحياة الدّنيا تُشبه طبيعة السّماوات، ثمّ استشهد بالآية المدنيّة من سورة الطّلاق: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ﴾[2]، وعلّق عليها بقوله: "ويكفي لتحقيق المماثلة أن تكون طبيعة الأرض في تكوينها، وفي كونها مخلوقة لله –عزّ وجلّ– شبيهة للسّماوات في ذلك، أمّا العدد فلا تُشترط المماثلة فيه، فلا يلزم أن توجد سبع أرضين إحداهنّ أرضنا هذه، إذ يلزم أن تكون السّماوات السّبع فوقهنّ طباقاً –أيضاً–، كما هو حال أرضنا، ولا داعي للسّبح الخياليّ الذي لا دليل عليه من نصّ المبلِّغ المعصوم"[3].

وكلام الشّيخ يتّحد معنًى ومضموناً مع سيّد قُطُب؛ إذ يقول: "والسّماوات السّبع لا علم لنا بحقيقة مدلولها وأبعادها ومساحتها، وكذلك الأراضي السّبع، فقد تكون أرضنا هذه التي نعرفها واحدة منهن والباقيات في علم الله، وقد يكون معنى مثلهن أنّ هذه الأرض من جنس السّماوات فهي مثلهن في تركيبها أو خصائصها. وعلى أيّة حال فلا ضرورة لمحاولة تطبيق هذه النّصوص على ما يصل إليه عِلْمنا؛ لأنّ عِلْمنا لا يحيط بالكون، حتّى نقول على وجه التّحقيق: هذا ما يريده القرآن، ولن يصحّ أن نقول هكذا إلّا يوم يعلم الإنسان تركيب الكون كلّه عِلْماً يقيناً"[4].

أمّ ما ذكره أهل العِلْم التّجريبيّ فيكمن في (أنّ الأرض عبارة عن كرة، وأنّ باطنها يتألّف من نواة، وسطح الأرض عبارة عن قشرة أرضيّة رقيقة جدّاً مُقارنة بحجم الأرض وبينهما طبقة ثالثة هي الوشاح؛ لكن هذه النّظريّة لم تدم طويلاً بسبب الاكتشافات الجديدة في عِلْم الأرض، فالقياسات والاختبارات الحديثة أظهرت أنّ المادّة الموجودة في نواة الأرض ذات ضغط هائل يبلغ أكثر من 3 ملايين مرّة الضّغط على سطح الأرض، وهذا يعني أنّ قلب الأرض صلب جدّاً، وتُحيط به طبقة سائلة ذات درجة حرارة عالية جدّاً؛ فضلاً عن أنّ في باطن الأرض طبقتين وليس طبقة واحدة، أي طبقة صلبة في المركز تُحيط بها طبقة سائلة. ثمّ تطوّرت أجهزة القياس لدى العلماء، حتّى أظهرت تمايزاً واضحاً بين أجزاء الأرض الدّاخليّة، فلو نزلنا تحت القشرة الأرضيّة لرأينا طبقة أُخرى من الصّخور الملتهبة هي الغلاف الصّخريّ، ثمّ تأتي بعدها

(**1**) سورة الفرقان: الآية (2).

(**2**) سورة الطّلاق: الآية (12).

(**3**) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م6، ص337.

(**4**) قُطُب، سيّد: **في ظلال القرآن**، م6، ج28، ص3606.

ثلاث طبقات أُخرى مُتمايزة من حيث الكثافة والضّغط ودرجة الحرارة)[1]. ولهذا وجد العلماء أنفسهم أمام ما قرّره القرآن الكريم أنّ الأرض سبع طبقات، ووجدوا أنّ الذّرّة تتألّف من سبع طبقات، وهذا يُؤكّد وحدة النّظام الذي يحكم الكون. وطبقات الأرض السّبعة تختلف اختلافاً جذريّاً من حيث التّركيب، والكثافة، ودرجة الحرارة، ونوعيّة المادّة المكوّنة منها.

بعد هذا البيان الذي عرضت فيه لما ذكره الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ في آيات خلق الأرض، يُمكن القول: إنّ الشّيخ لم يتطرّق في تفسيره إلى طبقات الأرض، ولم يُشر إليها عند تفسيره للآيات المتضمّنة إشارة عِلْميّة حول الأرض، ولعلّ ذلك يعود إلى تفسيره للقسم المكّيّ من سور القرآن الكريم؛ فضلاً عن أنّه ليس كتاب علوم، ولا يُشبه أيّ كتاب عِلْميّ من العلوم الطّبيعيّة التّجريبيّة؛ لكنّه تكلّم عن الجاذبيّة التي تتمتّع بها كثافة الأرض التي هي أحد الشّروط اللّازمة للحياة، وعن التّقلّصات التي تنتاب سطح الأرض، وعن حركة الأرض وما ينتج عنها؛ بيد أنّه لم يخُض في تحقيق عدد طبقات الأرض، وعزا ذلك لعدم وجود نقل صحيح أو صريح من الكتاب أو السّنّة. وقد جاءت الدّراسات لتؤكّد بعضاً ممّا ذهب إليه الشّيخ، وهذا دليل على صلته الدّائبة بالعِلْم وما وصل إليه.

كما اتّفق الشّيخ وغيره على بيانهم لمعنى الأرض، وبيّنوا منافع الأرض المتعدّدة من الأشياء المتولّدة فيها، واختلاف بقاع الأرض فمنها رخوة وصلبة ورمليّة، وفي كونها خازنة للماء، ووجود العيون والأنهار فيها؛ بيد أنّ العِلْم الحديث تطرّق إلى بيان مساحة الأرض ومنسوب عُمقها وأنّها ليست تامّة الاستقرار، وحقيقة التّوازن بين تضاريس الأرض وأنّها تكوّنت بفعل النّيازك الحديديّة، ودور عمليّات الحتّ والتّعرية في شكل الأرض، وذكروا قوّة الجاذبيّة والتي لم يتعرّض لها الشّيخ إلّا يسيراً.

ويتّفق الشّيخ مع ما ذهب إليه العِلْم الحديث عند بيانه لأسباب اختلاف أحوال الأرض، من: حركة الأرض، وسرعة دورانها، ووجود الجبال، ودورانها حول نفسها، وتكوّن الفصول الأربعة، واللّيل والنّهار، وتعدّد مشارقها ومغاربها، ودور عمليّات الحتّ والتّعرية في شكل الأرض وتكوينها. ولم يُبيّن الشّيخ طبقات الأرض السّبعة التي تعرّض لها العِلْم الحديث، ولم يتطرّق إلى بيان المعادن والعناصر التي تحتويها قشرة الأرض؛ حيث ذكر العلماء سُمك هذه الطّبقات بدقّة، وبيان نسبة وجود كلّ معدن في الأرض إلى المعدن الآخر.

(1) **يُنظر**: موقع موسوعة الكحيل للإعجاز العِلْميّ، على الرّابط الآتي: http://kaheel7.com

المطلب السّادس– التّفسير العِلْميّ لآيات خلق الرّياح والجبال:

الرّيح من الظّواهر الطّبيعيّة التي تُعبّر عن نفسها تعبيراً واضحاً في البيئة الصّحراويّة والجبليّة وغيرهما، وترتبط بحياة أهلها ارتباطاً وثيقاً بما تحمل من خير أو شرّ، وبما لها من أثر في السّحاب والمطر الذي تتوقّف عليه حياتهم إلى حدّ بعيد. ومن هنا كان اهتمام العرب بها: عرفوا مهابَّها وأوقاتها، ودرجات مرورها، وآثارها، فأطلقوا عليها الألفاظ التي تُعبّر عن مظاهر هذا الاختلاف. وكان هذا موضع اهتمام العلماء الذين قاموا بجمع اللّغة وتدوينها.

يقول الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ: إنّ الرّياح "جمع ريح، وهو الهواء إذا تحرّك، والرّيح اسم جنس"(1)، "وهي إحدى آيات الله في كونه، وهي آية عجيبة ذات أحداث كُبرى في الكون، فمنها ما يأتي بالنّفع العظيم، ومنها ما يأتي بالتّدمير والعذاب الأليم"(2). وهو بذلك يُطابق ما ذهب إليه أهل اللّغة؛ إذ يقولون: (الرِّيحُ: نَسِيم الْهَوَاءِ، وَكَذَلِكَ نَسيم كُلِّ شَيْءٍ، وَهِيَ مُؤَنَّثَةٌ؛ والرِّيحُ وَاحِدَةُ الرِّياح، وَقَدْ تُجْمَعُ عَلَى أَرْواح؛ لأَن أَصلها الْوَاوُ وإِنّما جاءَت بِالْيَاءِ لِانْكِسَارِ مَا قَبْلَهَا)(3).

وقد وردت الآيات المتعلّقة بالرّياح في كتاب الله –تعالى– في تسعة وعشرين موضعاً(4)، وقد تتبّعتها في تفسير الشّيخ؛ حيث تعرّض للمكّيّ منها بالتّفسير والبيان، من خلال دراسة تدبّريّة تكامليّة شاملة للنّصوص القرآنيّة وفق ترتيب النّزول، وعقد لها مُلحقاً خاصّاً بها من ملاحق تدبّر سورة المرسلات، أطلق عليه اسم: حول الرّياح في القرآن المجيد. فقال: "جاء في القرآن المجيد خمسة وعشرون نصّاً موزّعة في السّور حول الرّياح، وفي هذا الملحق أستعرضها بشيء من التّدبّر على وفق ترتيب نزول سورها، مع استنباط وظائفها المادّيّة والمعنويّة ما تيسّر لي ذلك"(5). ثمّ لخّص ما جاء عن الرّياح في القرآن الكريم بقوله: "أخذاً من التّتبّع السّابق للنّصوص القرآنيّة التي جاء فيها بيان عن الرّياح، باستقراء شامل، وتدبّر فيه بعض السّبْر باتّجاه العُمق، أُقدّم التّلخيص التّالي: **أوّلاً**: الرّياح ذوات تصاريف بتصريف الله لها، فهو جلّ جلاله يُوجّهها

---

(1) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م11، ص42.

(2) نفسه، م6، ص536.

(3) **يُنظر**: ابن منظور، محمّد: **لسان العرب**، باب الحاء، فصل الرّاء المُهملة، ج2، ص455. **يُنظر**: الجوهريّ، إسماعيل: **الصّحاح تاج اللّغة وصحاح العربيّة**، ج1، ص367.

(4) **يُنظر**: عبد الباقي، محمّد: **المُعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، ص414.

(5) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م2، ص621.

بحكمته، على ما يشاء بسلطان ربوبيّته لكلّ ما سواه، وجوهاً مُختلفة، بصفات ومُرادات مُتنوّعة تنوّعاً كثيراً. **ثانياً**: الرّياح تختلف اختلافاً كثيراً في صفاتها: فهي تختلف باختلاف نسب عناصر الغازات فيها. وتختلف باختلاف نسب بخار الماء فيها. وتختلف باختلاف ما تحمل من أشياء. وتختلف باختلاف درجات الحرارة والبرودة فيها. وتختلف باختلاف شدّة السّرعة والحركة وضعفهما حتّى السّكون. وتختلف باختلاف نوع حركتها في الجوّ: فقد تكون أُفقيّة، وقد تكون عموديّة من الأعلى إلى الأسفل، أو من الأسفل إلى الأعلى، وقد تكون بمستوى سطح الأرض، أو بحدود مستوى الأشجار، أو فوق ذلك حتّى السّحب فما فوقها، وقد تكون مُرسلة بخطوط مائلة من الأعلى إلى الأسفل، أو من الأسفل إلى الأعلى، باحتمالات كثيرة يصعب حصرها. ومنها رياح كونيّة في عوالم النّجوم والمجرّات. **ثالثاً**: الرّياح ذوات آثار نافعة أو ضارّة، بحكمة الرّبّ مُصرّفها"[1].

ثمّ ذكر تأثيراتها النّافعة، فقال: "فمن تأثيراتها النّافعات بحكمة الله وأمره، ما يأتي: إثارتها المياه وحملها لبخار الماء وتكوين السّحب، وسوقها لإنزال الأمطار، على البلاد والأراضي التي يأمر الله بإغاثتها وإحيائها. فإذا جاءت كانت ناشرة، ومُبشرّة برحمة الله. وإثارتها للسّحاب، وبسطه، وجمعه، وتفريقه، على مراد الله وأمره الحكيم. وحملها اللّقاحات، للنّباتات، وللسّحاب، وحملها للرّوائح الزّكيّة. وإجراؤها للسّفن في البحر، بأمر الله، وعلى مُقتضى حكمته. وتذريتها لأشياء نافعة، إذ تنقلها من أمكنة في الأرض إلى أمكنة أُخرى. وتأديتها وظيفة نصر أولياء الله على أعدائه، بأمر ربّها. إلى غير ذلك من أُمور فيها نفع عظيم للنّاس"[2].

ثمّ ذكر تأثيراتها الضّارّة، فقال: "ومن تأثيراتها الضّارّات بحكمة الله وأمره، ما يأتي: أن تكون صَرْصَراً عاتية باردة فتُهلك وتُدمّر. وأن تكون قاصفة للأشجار والصّواري. وأن تأتي مُصفرّة مُنذرة بالهلاك. وأن تأتي عاصفة تحمل ما خفّ على سطح الأرض، فتُحدث بعض الضّرر. وأن تأتي هاوية من أعلى إلى أسفل، ومائلة إلى أعماق الوديان، فترمي، وتُحطّم وتُدمّر. وأن تأتي حافرة ومُقتلعة للأشياء، وناسفة إلى الأعلى، ثمّ رامية بالأشياء ومُحطّمة لها. وأن تأتي شديدة عنيفة فتضرب البحار، وتجعل أمواجها كالجبال يصدم بعضها بعضاً، وتُغرق السّفن التي تجري عليها. إلى غير ذلك من صور تأتي بالبلاء العذاب والعقاب، بحسب حكمة الله في عباده"[3].

---

(1) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م2، ص661-662.

(2) نفسه، م2، ص662.

(3) نفسه، م2، ص662-663.

ثمّ لخّص وظائف تصريف الرّياح، بقوله: "حين نتفكّر في وظائف تصريف الرّياح يتبيّن لنا أنّها تشتمل على الوظائف الآتية: **الوظيفة الأولى:** أن تكون سبباً لإمداد الأحياء المتنفّسة بالأكسجين اللّازم لحياتها. **الوظيفة الثّانية:** أن تكون سبباً لتحقيق أزراق الأحياء على الأرض، بتكوين المطر، وإنزاله، وبحمل عناصر اللّقاح للنّباتات وللسّحب، وأن تكون سبباً لتحقيق منافع كثيرة للنّاس كإجراء السّفن، وحمل الطّائرات، وسوق السّحاب. **الوظيفة الثّالثة:** أن تكون سبباً لامتحان النّاس بالنّعم، أو بالمصائب والمكاره. **الوظيفة الرّابعة:** أن تكون سبباً لعقاب مُستحقّي العقاب المعجّل، حتّى مستوى الإهلاك الماحق المدمّر. **الوظيفة الخامسة:** أن تكون سبباً لتأييد المؤمنين، ونصرهم على الكافرين، أو صرف كيد الكافرين عن المؤمنين. **الوظيفة السّادسة:** أن تكون مُسخّرة لبعض عباد الله المرسلين، كما كانت مُسخّرة لسليمان –عليه السّلام–، إذ سخّر الله له الرّيح الرُّخاء، والرّيح السّريعة التي غُدوّها شهر ورواحها شهر، والرّيح العاصفة. **الوظيفة السّابعة:** أن تكون مُذكّرة بالله –جلّ جلاله–، وبعظيم صفاته؛ إذ هي آية من آياته في تصاريفها ذوات الآثار العظيمة والجسيمة والخطيرة. **الوظيفة الثّامنة:** أن تكون مُنذرة بعقاب الله وعذابه، لكلّ من يفعل مثل أفعال مَن أُهلكوا في سالف الأيّام بأنواع منها. وأن تكون مُنبّهة على عدل الله وجزائه المؤجّل إلى يوم الدّين. إلى غير ذلك من وظائف يستطيع المتفكّر المتدبّر أن يكتشفها بالبحث والتّأمل"[1].

كما أنّه استشهد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[2]، في معرض تفسيره لسورة المرسلات –في الملحق نفسه–، مُعلّقاً عليها بقوله: "أبان الله –عزّ وجلّ– في هذه الآية أنّ تصريف الرّياح في الكون من آياته العظيمة، فقد ذكرها سبحانه مع آية خلق السّماء والأرض، وآية نظام حركة الأرض ضمن المجموعة الشّمسيّة التي بها يحدث نظام اختلاف اللّيل والنّهار، مع ما في الأرض من آيات جليلات، وآية أنظمة الماء، والأوزان النّوعيّة للأشياء، والطّفو، والرّيح، والحركة التي بها تجري الفلك في البحر، وآية الدّورة المائيّة، ونظام تحلية الماء بالتّبخّر، والاجتماع في السّحاب، ثمّ هطوله مطراً على ما يشاء الله بحكمته ولمن يشاء، وآية دورة الحياة النّباتيّة، وآية خلق أصناف الأحياء التي تدبّ على الأرض، وآية نظام السّحاب المسخّر وفق مقادير الله وأوامره الحكيمة بين السّماء العُليا والأرض. فالرّياح، وتسخيرها، وتصريفها في الأماكن والأزمنة، وتصريف أنواعها الكثيرة الرُّخاء والعاصف والقاصف والمدمّرة وغير ذلك،

---

(1) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م2، ص663-664.

(2) سورة البقرة: الآية (164).

بحسب الأغراض النّفعيّة للأحياء، والتّذكيريّة بعناصر إيمانيّة للنّاس، والتّحذيريّة والإنذاريّة، والعقابيّة الجزائيّة، هي من آيات الله العظيمة في الكون"[1].

أمّا عن أنواع الرّيح وأصنافها ووظائفها، يقول الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[2] (للرّياح أنواع وأصناف ترجع إلى شدّتها، وسرعتها، وطبقات حركتها في الجوّ، ومسيراتها المختلفات، وتعدّد انطلاقاتها مُتسايرة أو مُتعارضة، وجهات انطلاقها من درجات الدّائرة المحيطة بالجهات الأربع. وقد يُرسل الله -عزّ وجلّ- الرّياح مُتنوّعة وهو الغالب، وقد يُرسل الرّيح، أي: نوعاً مُنفرداً من الرّياح ذوات الأنواع والأصناف. والله هو الذي يُرسل الرّياح مُبشّرة بالغيث، ويُرسلها ناشرة السّحب واللّقاحات، وغير ذلك من أُمور تتحقّق بنشرها منافع ومصالح كثيرةٌ للعباد. وإنّ للرّياح وظائف مُتعدّدة وكثيرة، وهي حينما تُؤدّي وظيفة ما من وظائفها في الكون، فإنّها تُقدّم دلالة للمتفكّرين على بعض صفات مُرسِلها بحكمته. وقد وزّع الله -عزّ وجلّ- بيان كثير من وظائف الرّياح في الكون على نيّف وعشرين نصاً وسورة، فمن وظائفها أنّها تحمل للنّاس الإنعام والإكرام، ومن وظائفها أنّها تأتي بنذر القهر والانتقام. والنّصّ هنا، يلفت أنظار المتفكّرين إلى بعض ما تحمل الرّياح من إنعام الله -جلّ جلاله- على عباده رحمة بهم، في تلبية أجلّ مطالبهم في الحياة، ألا وهي قضية الرّزق وتيسير أسبابه)[3].

وعند الرّجوع إلى تفسير القرطبيّ، وجدته يُحيل الكلام إلى سورة البقرة في تفسيره قائلاً: "وقد مضى الكلام في الرّيح في البقرة"[4]؛ حيث أفاض الحديث عن الرّيح، -فمن أراد الاستزادة فليرجع إليه-[5]. أمّا ابن عاشور في تفسيره فلم يخرج عمّا ذكره الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ[6].

وقدجاءت الدّراسات والمكتشفات العِلْميّة لتقرّر أيضاً حقيقة الرّياح بأنّها مُتحرّكة، وأنّ لها وظائف من أجلها خُلقت، منها: نقل الطّاقة، وعناصر الجوّ، والأوبئة، والتّلوّث الجوّيّ من مكان إلى آخر؛ فضلاً عن

---

(1) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م2، ص657.

(2) سورة الأعراف: الآية (57).

(3) **يُنظر**: الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م4، ص303-308.

(4) **يُنظر**: القرطبيّ، محمّد: **الجامع لأحكام القرآن**، ج7، ص228.

(5) **يُنظر**: نفسه، ج2، ص197-200.

(6) **يُنظر**: ابن عاشور، محمّد الطّاهر: **التّحرير والتّنوير**، ج8، ص180-182.

وظيفتها في تكاثف الماء، وتكوين السّحب والغيوم. يقول عبد الدّائم الكحيل: (لقد قام علماء الأرصاد بتجارب طويلة حول آليّة تشكّل الغيوم وكيف ينزل المطر. وبعد وضع نظريّات عِلْميّة عدّة حول هذا الموضوع، تمّ إثبات دور الرّياح في عمليّة تشكّل السّحاب. فالرّياح تحمل بخار الماء من سطح البحار والمحيطات إلى طبقات الجوّ العُليا، ولكن ذرّات الماء هذه تحتاج لتجميع وتكثيف حتّى تتشكّل الغيوم. وهنا يأتي تلقيح الرّياح للسّحاب، فالرّياح تحمل دائماً معها ذرّات الغبار والملح النّاعمة، وهذه الذرّات عندما تصعد إلى الجوّ، ولارتفاع عدّة كيلومترات حيث درجة الحرارة مُنخفضة جدّاً، تتجمّع حولها ذرّات الماء لتشكّل قطرات، وبالنّتيجة تتشكّل الغيوم الثّقيلة التي تزن آلاف الأطنان! لقد وضع الله -تعالى- برحمته قوانين فيزيائيّة تحكم حركة الماء وذوبانه وتبخّره، ولو أنّ قانوناً واحداً اختلّ قليلاً لذهبت المياه جميعها من الأرض وانعدمت الحياة. ثمّ إنّ هذه الرّياح هي لواقح للغيوم، وبسببها ينزل المطر من السّماء، ثمّ إنّ هذا الماء الهاطل هو نقيّ غير ملوّث وصالح للشّرب، وأخيراً هذا الماء يُختزن في طبقات الأرض وقد يمضي على تخزينه ملايين السّنين، إذن في باطن الأرض خزّانات ضخمة للمياه. إنّ هذه الحقيقة الكونيّة لم يكن لأحد عِلْم بها زمن نزول القرآن، فلم يكن أحد يعلم شيئاً عن تشكّل الغيوم، أو عن دور الرّياح، أو عن أهمّيّة تلقيح الرّياح للغيوم، ولكن العِلْم الحديث كشف لنا هذه الحقائق، وجاء ذكرها في كتاب الله جليّة واضحة؛ لتشهد على صدق هذا الكتاب وصدق رسالة الإسلام)[1].

"وقد توصّل العِلْم الحديث إلى أنّ نموّ السّحب، ونزول المطر يتطلّب أن تلقّح الرّياح هذه السّحب بأكداس من جُسيمات مجهريّة تُسمّى (نويات التّكاثف)، ومن أهمّ خواص هذه النّويات أنّها تمتصّ الماء أو تذوب فيه، وتحمل الرّياح كذلك بخار الماء وتلقّح به السّحاب لكي يمطر، وتتمّ العَمَليّة بتجمّع جزئيات الماء المنفصلة والموجودة في الهواء حول نويات التّكاثف العمليّة بتجمّع جزيئات الماء المنفصلة والموجودة في الهواء حول نويات التّكاثف"[2].

وهذا ما ذكره الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ مُفصّلاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾[3]؛ إذ يقول: "نجد لدى علماء البحث العِلْميّ للظّاهرات الكونيّة ما يدلّ على أنّ الرّياح تحمل إلى بخار الماء في السّحب جُسيمات صغيرات تُسمّى (نويات التّكاثف)، وتتألّف هذه النّويات من الغبار، وأملاح البحار، وبعض الموادّ الكيميائيّة المنبعثة من

---

(1) **يُنظر**: موقع موسوعة الكحيل للإعجاز العِلْميّ، على الرّابط الآتي: http://www.kaheel7.com

(2) مُسلم، مُصطفى: **مَباحث في إعجاز القرآن**، ص196.

(3) سورة الحجر: الآية (22).

المصانع وعوادم السّيّارات، وعند تكاثف بخار الماء تنطلق حرارة تجعل السّحب ساخنة، ويُساعد هذا التّسخين على رفع السّحب إلى الأعلى، وبهذا تصير أكثر برودة، وقد فُسّر تكوّن قطرات الأمطار في مثل هذه السّحب بنظريّة الاندماج ونظرية البلّورات الثّلجيّة. ويُسمّى الهواء حول الأرض الغلاف الغازيّ، ويبقى حول الأرض بفعل جاذبيّتها له، وهو يتألّف من 78% من غاز النّيتروجين، و21% من غاز الأكسجين، و1% من غاز الأرجون وغيره من الغازات. ويختلط بهذا الغلاف الغازيّ ممّا ليس منه ذرّات من بخار الماء الذي يتبخّر من المحيطات والبحيرات والأنهار ومن التّربة الرّطبة ومن النّباتات، وكلّ ماء يجفّ من الأشياء على الأرض. ويحمل هذا الغلاف الغازيّ (الهباء الجوّيّ)، وهو جُسيمات صلبة صغيرة جدّاً لا ترى بالأعين، إلّا في مكان مظلم نفذت إليه أشعّة الشّمس من كوّة مثلاً، فيرى بعضه يتطاير في الهواء. وهذا الغلاف الغازيّ، وما يختلط به من بخار ماء، وما يحمله من دقائق الجسيمات الصّلبة، ذو وظائف مُتعدّدة للحياة، باستثناء الملوّثات التي يُضيفها النّاس إلى الجوّ، وهذه الملوّثات تضرّ بصحّة الإنسان وتُؤذي النّباتات والحيوانات وتدمّر موادّ البناء. ومنها: عوادم السّيّارات، وما ينبعث في الجوّ من المصانع والحرائق، وأشدّه ضرراً آثار التّفجيرات الذّرّيّة، والأشعّة الذّرّيّة، وما تُخلّفه أسحلة الدّمار الشّامل"[1].

وبعد هذا البيان عقّب بقوله: "إنّ الرّياح بما تحمل من جُسيمات صلبة صغيرة جدّاً، تكون بمثابة التّلقيح لبخار الماء في السّحاب بوساطة الجسيمات؛ إذ تتكوّن حولها حبّات المطر أو الثّلج أو البَرَد، وعقِب ذلك ينزل الماء من السّماء، ماء عذباً سائغاً للشّاربين والشّاربات، من الإنسان والحيوان والنّبات، وجرت به السّيول والأنهار، واختُزن الكثير منه في باطن الأرض وتجويفها، وكلّ ذلك بتدبير الله –الحكيم– وفعله، فقد أحاط بكلّ شيء عِلْماً"[2].

أرى أنّ هذه الآية دليل على أنّ الرّياح سبب نزول الماء، فكما أنّ للرّياح دوراً مُهمّاً في نقل حبوب اللّقاح إلى أعضاء التّأنيث في الأزهار ليتمّ الأخصاب وتكوين الثّمار، وهذا دور معروف وثابت عِلْميّاً، كذلك لها دور في تلقيح السّحب الحارّة بالسّحب الباردة، ما يزيد التّكاثف وبالتّالي نزول المطر، وتلقيح السّحب موجبة الشّحنة بالسّحب سالبة الشّحنة، وعندها يكون المطر مصحوباً بالبرق والرّعد، وهو صوت تمدّد الهواء النّاجم عن التّفريغ الكهربائيّ.

وبعد هذا البيان الذي عرضت فيه ما ذكره الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ وأئمّة التّفسير من بعده في آيات الرّياح في القرآن الكريم، يمكن القول إنّها مخلوق عظيم من مخلوقات الله –تعالى– تتّصف بالرّقة واللّطافة، يُصرّفها حيث يشاء منفعة للنّاس.

---

(1) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م11، ص42-43.

(2) نفسه، م11، ص43-44.

وجاء العِلْم الحديث ليتّفق مع ما ذهب إليه الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ في بيان أنواع الرّياح، ولكن بشيء من التّفصيل، فجعل منها اللّواقح، ومنها المبشّرات، ومنها الذّاريات. وجاء البيان مُتّفقاً بينما حول كونها سبباً في نزول المطر.

أمّا بالنّسبة إلى الآيات المتعلّقة بالجبال في القرآن الكريم، فقد وردت في تسعة وثلاثين موضعاً[1]، منها ستّة مواضع جاءت بصيغة الإفراد، وقد تتبّعتها في تفسير الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ؛ إذ تعرّض للمكّيّ منها بالتّفسير قائلاً: "إنّ في القرآن المجيد أحد عشر نصّاً يمتنّ الله فيها على عباده بالجبال الرّواسي، عشرة منها مكّيّة، والحادي عشر منها مدنيّ، مُرتّبة بحسب ترتيب النّزول"[2].

والجَبَل لُغة: (اسْمٌ لِكُلِّ وَتِدٍ مِنْ أَوتاد الأَرض إِذا عَظُم وَطَالَ مِنَ الأَعلام والأَطواد، وَالْجَمْعُ أَجْبُل وأَجْبَال وجِبَال)[3]. وقيل: هو "مَا علا من سطح الأَرْض واستطال وَجَاوَزَ التّلّ ارتفاعاً"[4]. واصطلاحاً: هو "مُرتفع عظيم من الأرض قمّته غير مُنبسطة في الغالب"[5]. (وحُدّد هذا الارتفاع بـ (2000) قدم فوق سطح البحر. والجبال قد تكون هرميّة الشّكل لها قمم عالية. وقد تكون مُتّصلة، أو مُتجاورة الأجزاء، أو مُنفصلة، ويُقصد بتعبير الجبال؛ الأراضي التي تبدو مُرتفعة المنسوب لما يجاورها من أراض أُخرى. ويُحدّد بعض الجيولوجيّين بأنّ الجبال تقع عادة فوق منسوب (2000) قدم فوق مستوى سطح البحر، أمّا تلك الأراضي التي تقع أسفل هذا المنسوب فتُعرف باسم التّلال)[6].

ويُعرّف زغلول النّجّار الجبل: "بأنّه كتلة من الأرض ترتفع بارزة فوق ما يُحيطها من اليابسة بشكل واضح، وتحيط بها حوافّ شديدة الانحدار"[7]. وقال: "ويُطلق مُصطلح الجبل عادة على الارتفاعات التي تزيد عن ستّمائة متر فوق مستوى سطح البحر، وإن كان هذا الارتفاع ليس مُحدّداً؛ لأنّه أمر نسبيّ يعتمد

---

(1) **يُنظر**: عبد الباقي، محمّد: **المُعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، ص414.

(2) **يُنظر**: الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م3، ص51.

(3) **يُنظر**: ابن منظور، محمّد: **لسان العرب**، باب اللّام، فصل الجيم، ج11، ص96. **يُنظر**: الزّبيديّ، محمّد: **تاج العروس من جواهر القاموس**، مادّة (جَبَلَ)، ج28، ص174.

(4) مُصطفى، إبراهيم: **المُعجم الوسيط**، ج1، ص105.

(5) مدكو، إبراهيم: **مُعجم الجيولوجيا**، ص266.

(6) **يُنظر**: أبو العينين، حسين: **من الإعجاز العِلْميّ في القرآن الكريم**، ج2، ص150.

(7) النّجّار، زغلول: **من آيات الإعجاز العِلْميّ: الأرض في القرآن الكريم**، ص326-327.

على تضاريس الأرض المحيطة، ففي منطقة سهلة التّضاريس قد يكون نصف هذا الارتفاع مُناسباً للوصف بالجبل. وتوجد الجبال عادة مُتّصلة في أطواف، أو منظومات، أو سلاسل جبليّة طويلة، ولكنّها قد تكون أحياناً على هيئة مُرتفعات فرديّة معزولة"[1].

وفي نشأة الجبال، يقول منصور محمّد حسب النّبيّ: "إنّ الجبال تتكوّن من صخور تصنعها تحرّكات بالقشرة الأرضيّة، نتيجة لضغوط هائلة، تنشأ في طبقات هذه القشرة في شتّى الاتّجاهات، وهذه الضّغوط تنشأ غالباً من تحوّل الطّاقة الحراريّة المختزنة في باطن الأرض إلى طاقة ميكانيكيّة تُؤدّي بدورها إلى أحد الاحتمالين: إحداث كسر بالقشرة، فتحدث فتحات تصل ما بين جوف الأرض وسطحها، فتسمح بخروج حمم مُنصهرة من الصّخور والمعادن مع غازات وأبخرة من فوّهات تُعرف بالبراكين، نظراً لارتفاع الضّغط في باطن الأرض عن خارجها. وإحداث طيّات ينتج عنها انحناء القشرة في تحدّب إلى أعلى في مكان ما، يُصاحبه تقعّر في انخفاض جزء آخر من القشرة إلى أسفل. ولا شكّ أنّ هذه الضّغوط تسمح بإنتاج نتوءات على هيئة جبال أو هضاب، ترتفع مثلاً لعدّة كيلومترات فوق مساحات قد تبلغ آلاف الكيلومترات المربّعة، ضغوط قويّة عارمة ذات طاقة جبّارة تفوق الوصف والخيال"[2].

أرى أنّ كلام حسب النّبيّ يتّسق وكلام الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ؛ إذ يقول الشّيخ عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾[3]: "أي وألقينا في الأرض جبالاً ثوابت رواسخ ثبتت قشرتها. ولعلّ في كون الجبال مُلقاة إلقاء إشارة إلى أنّ الأرض كانت مُمدّدة كالسّقاء، ثمّ حصلت فيها تفجُّرات بركانيّة، نجمَ عنها ترامي حمم بركانيّة في الجوّ، وألقيت هذه الحمم في الفجوات التي أحدثتها البراكين العظمى، فكانت الجبال الرّواسي"[4].

ويقول الشّيخ عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾[5] إنّها "عبارة تدلّ على أنّ الرّبّ –جلّ جلاله– حين أرسى الجبال في مواضعها من الأرض، ألقاها إلقاء بنقلها من مواضع في الأرض، وطرحها في الأمكنة المختارة لغَوْصِها ضمن قشرة الأرض، والضّغط عليها كما تُضرب الأوتاد لتدخل في باطن الأرض، وبتوالي الضّغوط غاصت الجبال التي أُلقيت؛ حتّى صار الغائص منها والمثبّت

---

(1) النّجّار، زغلول: **من آيات الإعجاز العِلْميّ: الأرض في القرآن الكريم**، ص326-327.

(2) حسب النّبيّ، منصور: **الكون والإعجاز العِلْميّ للقرآن الكريم**، ص170.

(3) سورة ق: الآية (7).

(4) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م3، ص51.

(5) سورة النّحل: الآية (15).

لقشرة الأرض من الميدان أكثر من الظّاهر فوق سطح الأرض منها"[1]. أي أنّ للجبال جذوراً تُضرب إلى أعماق الأرض، ولا يبرز منها فوق سطح الأرض إلّا القليل، بينما جذورها راسخة في باطن الأرض. يقول محمّد راتب النّابلسيّ: "الجبل وَتَدٌ، ثلثاه مغروس في الأرض عبر طبقاتها المتعدّدة، وفي أثناء الدّوران لا تزاح الطّبقات المتباينة بعضها عن بعض بسبب أنّ وَتداً، وهو الجبل يربطها جميعاً. فكلّ جبل ثلثه فوق الأرض، وثلثاه تحتها، فجبال همالايا التي فيها أعلى قمّة، وهي قمّة إيفرست 8880م، هذا هو الثلث الظّاهر، ولكن ضعفي هذا الارتفاع مغروز تحت الأرض كالوَتد"[2]. ويقول زغلول النّجّار: "وقد ثبت أنّ كلّ نتوء على سطح الأرض له امتداد في داخلها يتراوح بين 10-15 ضعف ارتفاع هذا النّتوء فوق مستوى سطح البحر، وكلّما زاد هذا الارتفاع الخارجيّ لتضاريس الأرض زادت امتداداته الدّاخليّة أضعافاً كثيرة، وهكذا تثبت الجبال على سطح الأرض بانغراسها في غلافها الصّخريّ، وطفوها في نطاق الضّعف الأرضيّ"[3].

يقول الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ﴾[4] "وَصَفَ الله -عزّ وجلّ- الجبال في الأرض بأنّها رواسي، وبأنّها شامخات، وفي ذكر هذين الوصفين إشارة إلى عناية الله بعباده في الأرض، فرسوّ الجبال، ورسوخها في مواضع من الأرض مُختلفة، مُثبّت لقشرة الأرض من أن تكون عرضة دواماً للتّشقّقات، والزّلازل، والتّحرّك، والاضطراب بتأثير الغليان النّاري الفوّار النّاشر للغازات الضّاغطة في باطن الأرض"[5]. وذلك بعد أن وضّح المعنى اللّغويّ لكلّ من الرّواسي وشامخات، واشتقاقهما؛ إذ يقول: "الرّواسي من الجبال الثّوابت الرّواسخ، وأرسى الله الجبال يُرسيها، أي: ثبّتها وجعلها راسخات. وشامخات جمع شامخة، أي: عالية مُرتفعة، تقول لغة: شَمَخَ الجبل، يشمخ شموخاً، أي: علا وارتفع"[6]. وقال أيضاً في موضع آخر من تفسيره: "المراد بالرّواسي الجبال في الأرض، فمن صفاتها أنّها ثابتة راسخة ذات عمق في الأرض يجعلها راسية، وفي إيراد الجمع إشارة إلى تنوّع الجبال في تكوينها وفي صفاتها"[7]. "والتّوجيه لظاهرة الجبال، وكيف رفعت عن سطح اليابسة، يدلّ على أنّها من الظّاهرات

---

(1) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م13، ص534.

(2) النّابلسيّ، محمّد: **موسوعة الإعجاز العِلْميّ في القرآن والسّنّة آيات الله في الآفاق**، ص141.

(3) النّجّار، زغلول: **من آيات الإعجاز العِلْميّ: الأرض في القرآن الكريم**، ص225.

(4) سورة المرسلات: الآية (27).

(5) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م2، ص582-583. م11، ص702.

(6) نفسه، م2، ص582.

(7) نفسه، م9، ص133-134.

الكونيّة في الأرض، القائمة على حركات عجيبات، ذوات إتقان في الخلق، وتدبير مُدهش، أدّى إلى ظهورها على سطوح اليابسة، وتحقيق منافع جليلة ومُتنوّعة لسكّان الأرض عليها"[1].

وقد ذكر الشّيخ منافع الجبال للنّاس عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ﴾[2]، وقوله أيضاً: ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾[3]، فقال: "هي مخازن للمياه العذبة، ومن صخورها يقتطعون لمبانيهم، وعليها يبنون قصورهم وحصونهم، وعلى مرتفعاتها يستمتعون بنزهاتهم، وفي مغاراتها يتحصّنون ويحتمون، وبها يدرأ بعضهم عن نفسه بأس بعض"[4]. كما ذكر ما للجبال من آثار نافعة للأرض وسكّانها؛ إذ يقول: "ولعلماء البحوث العِلْميّة في الأرض دراسات كشفت لهم بعض عجائب الإتقان الرّبانيّ الذي نتج عنه ارتفاع الجبال، وكشفت لهم المنافع لوجود الجبال في الأرض. وألتقط ممّا ذكره علماء الأرضيّات من منافع الجبال ما يلي:

1. سلاسل الجبال هي المتحكّمة في المناخ، وتدفّق مياه المناطق المجاورة لها.
2. وهي ذوات أسباب نافعة لما يعيش عليها من نباتات وحيوانات؛ إذ تساعدها في أرزاقها وإقامتها.
3. والجبال مصدر عظيم للمعادن ولكثير من كنوز الأرض، فمُعظم المصادر المعدنيّة في العالم هي من أقاليم جبليّة.
4. وللجبال تأثير على نشاطات الإنسان، وأُسلوب معيشته في تنقّله ومواصلاته، وأماكن إقامته والتّرويح عن نفسه.
5. والجبال تحمي اليابسة من الانقلاب التي يمكن أن تحدث بسبب هياج الأمواج في المياه التي تتجاوز مساحتها في البحار 70% من مساحة اليابسة، أو بسبب تقلّبات كونيّة أُخرى.
6. وللجبال تأثير قويّ في حركات الهواء وتساقط الأمطار والثّلوج ونحوها.
7. وللجبال تأثير في توفير المياه لكثير من الأراضي البعيدة، وهي مخازن لكثير من مياه الأرض المحفوظة على شكل ثلوج على ظهور بعضها وأحواض في بطون بعضها.

---

(1) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م13، ص282-283.

(2) سورة النّمل: الآية (61).

(3) سورة الغاشية: الآية (19).

(4) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م2، ص583.

إلى غير ذلك من منافع كبيرة لسكّان الأرض بسبب كون الجبال مُنتصبة بالشّكل التي هي عليه في الأرض"[1]. فمن نعم الله –تعالى– علينا أن سخّر الجبال لحفظ توازن الأرض من الاضطرابات والتّقلّبات، وظهورها في مواقع مُختلفة من الأرض وبأشكال مُتفاوتة، كلّه بتقدير العزيز العليم.

هذا، وقد وضّح زكريّا بن محمّد القزوينيّ[2] كيفية تكوّن الجبال، وذكر أنّ لُزوجة الطّين وأثر حرارة الشّمس فيه سبب لتكوين الحجر، والسّبب في ارتفاع الجبال حدوث الزّلزال. ثمّ ألمح عن فوائد الجبال. وقال: (إنّ من أعظم فوائدها حفظ الأرض من المَيد، ولولا ارتفاع الجبال لعمّ الماء الكرة الأرضيّة، ولو لم تكن الجبال لكان وجه الأرض مُستديراً أملس، تغطّيها مياه البحار من جميع جهاتها، ولبطلت الحكمة المودعة في المعادن والنّباتات والحيوانات؛ لذا اقتضت الحكمة الإلهيّة وجود الجبال. وإنّ لوجود الجبال دوراً في الماء العذب السّائح على وجه الأرض الذي هو مادّة حياة النّبات والحيوان، وذلك لأنّ سبب هذا الماء انعقاد البخار في الجوّ، فيصير سحاباً، والجبال الشّامخة في المشرق والمغرب، والجنوب والشّمال تمنع الرّياح أن تسوق البخار؛ بل تجعلها مُنحصرة حتّى يلحقها البَرَد فيصير مطراً أو ثلجاً، والجبال في أجرامها مغارات، وأهوية، كهوف، تبقى الأمطار فيها مخزونة، وتخرج من أسافل الجبال من منافذ ضيّقة، وهي العيون)[3].

والجبال الرّواسي تحفظ توازن الأرض فلا تميد ولا تضطرب، وحفظ التّوازن يتحقّق في صور شتّى، فقد يكون توازناً بين الضّغط الخارجيّ على الأرض والضّغط الدّاخليّ في جوفها، وهو يختلف من بقعة إلى بقعة، وقد يكون بروز الجبال في موضعها مُعادلاً لانخفاض الأرض في موضع آخر، وهذا ما ذهب إليه العِلْم الحديث في "أنّ توزيع الجبال توزيعاً دقيقاً مُحكماً على سطح الأرض يُؤدّي إلى استقرارها مع دورانها، وذلك لئلّا تضطرب الأرض في أثناء الدّوران. وإنّ الجبال تُضاعف مساحة الأرض أربعة أضعاف، وتُلطّف الأجواء، ولها وظائف لا يعلمها إلّا الله –تعالى–"[4].

---

(1) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م13، ص282–283. **يُنظر**: نفسه، م9، ص133–134.

(2) **هو**: زكريّا بن محمّد بن محمود القزوينيّ، الأنصاريّ، أبو يحيى، مُؤرّخ، جغرافيّ، من القضاة. من تصانيفه: عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، وآثار البلاد وأخبار العباد. تُوفّي سنة 682هـ. **يُنظر**: كحّالة، عمر: **مُعجم المؤلّفين**، ج4، ص183.

(3) **يُنظر**: القزوينيّ، زكريّا: **عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات**، ص138–140.

(4) النّابلسيّ، محمّد: **موسوعة الإعجاز العِلْميّ في القرآن والسّنّة آيات الله في الآفاق**، ص142–143.

يقول الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾[1] "أي: وترى الجبال أيّها الرّائي أيّاً كنت حالة كونك تراها جامدة، أي: مُتماسكة لا حركة لذرّتها، ولا سير لها في جملتها، وهي في واقع حالها تمرّ مرّ السّحاب، الذي تتحرّك ذرّاته تحرّكاً داخليّاً، ويسير في جملته من موقع إلى موقع في السّماء. وكذلك حال الجبال، وسائر ما في الأرض، إذ ذرّات كلّ شيء تتحرّك حركات في دوائر وأفلاك مُقفلة، وجملة الأرض مع جبالها تمرّ سائرة في دورة يوميّة حول نفسها، وفي دورة سنويّة حول الشّمس. هذا ما أثبتته العلوم الكونيّة، التي توصّل علماء البحث العِلْميّ إلى بعض حقائقها، بعد أكثر من ثلاثة عشر قرناً من نزول القرآن المجيد على محمّد بن عبد الله –صلّى الله عليه وسلّم–، فكانت اكتشافاتهم العِلْميّة الصّحيحة مُطابقة للدّلالات القرآنيّة، التي ما كان باستطاعة مُتدبّري القرآن السّابقين أن يدركوها، إذ لم تكن لديهم الوسائل المعرفيّة التي يدركون بها الواقع الكونيّ على حقيقته، ومُشاهدة الظّواهر لا تدلّ عليها"[2].

يقول محمّد متولّي الشّعراويّ: (ونفهم من هذا القول الكريم –أي الآية الكريمة السّابقة– أنّ حركة الجبال ليست ذاتيّة؛ بل تابعة لحركة الأرض كما يتحرّك السّحاب تبعاً لحركة الرّياح. وشاء سبحانه أن يجعل الجبال رواسي مُثبّتات للأرض كي لا تميد بنا؛ فلا تميل يَمْنة أو يَسْرة أثناء حركتها. وتظنّها ثابتة، وتحكم عليها بعدم الحركة؛ وليس الأمر كما تظنّ؛ لأنّها تتحرّك وتمرّ كما يمرّ السّحاب، لكنّك لا تشعر بهذه الحركة ولا تلاحظها؛ لأنّك تتحرّك معها بنفس حركتها)[3].

ويقول الزّمخشريّ: "تجمع الجبال فتسير كما تُسيّر الرّيح السّحاب، فإذا نظر إليها النّاظر حسبها واقفه ثابتة في مكان واحد، وهي تَمُرُّ مرّاً حثيثاً كما يمرّ السّحاب. وهكذا الأجرام العظام المتكاثرة العدد إذا تحرّكت لا تكاد تتبيّن حركتها"[4].

وعند تأمّل الآية الكريمة جيّداً وتدبّرها أجد أنّها تتحدّث عن حركة الجبال تحديداً، وليس عن حركة الأرض بشكل كامل، فالأرض عندما تدور حول محورها فإنّ كلّ شيء يدور معها: الإنسان، والحيوان، والبحار والأشجار، وغير ذلك. وقد وضّح الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ المعنى العِلْميّ الذي يحتمله

---

(1) سورة النّمل: الآية (88).

(2) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م9، ص197–198.

(3) **يُنظر**: الشّعراويّ، محمّد: **تفسير الشّعراويّ**، ج12، ص7669. ج17، ص10858.

(4) الزّمخشريّ، محمود: **الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل**، ج3، ص387.

النّصّ القرآنيّ، فتحدّث عن دقّة النّظام في الكون. وهذا ما يؤكّده عبد الدّائم الكحيل؛ إذ يقول: (للجبال حركات عدّة، أهمّها: حركة أُفقيّة مع ألواح الأرض. فالجبال تتحرّك وتمرّ وتُدفع بنتيجة التّيّارات الحراريّة للطّبقة التي تلي جذور الجبال. وحركة عموديّة بنتيجة التّيّارات الحراريّة -أيضاً-، والتي تُساهم في رفع الجبل وخفضه عدّة مليمترات كلّ سنة. وهناك حركة اكتشفت حديثاً، ففي عام 2006 وُجد أنّ الأمطار الهاطلة بالقرب من الجبال، تختزن في خزّانات ضخمة تحت الجبال، وتُؤثّر على جذور الجبال، وتُسبّب للجبال تآكلاً مقداره 10 ملّيمتر كلّ سنة، فتغيّر سلوك الجبال من حيث الحركة، وتُؤثّر على حركة الألواح التي تحمل هذه الجبال، وبالتّالي يمتدّ التّأثير ليصل إلى جذور الجبال)[1].

إذن الحقيقة التي يُقرّرها العلماء اليوم هي أنّ الجبال تمرّ وتتحرّك، وأحياناً تعكس اتّجاه حركتها، وسبب هذه الحركة أنّها تُدفع بوساطة التّأثيرات الحراريّة الباطنيّة للأرض، تماماً كما تدفع الرّياح الغيوم، ولكن حركة الجبال لا يمكن إدراكها مباشرة، ولكن تأثيراتها تظهر خلال ملايين السّنين. وهذا يتواءم مع كلام الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ -رحمه الله-.

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾[2]، يقول الشّيخ: "إنّ هذه الأية تتعلّق بظاهرة الألوان في الأكوان. واختلاف الألوان اختلافاً كثيراً وعجيباً في الثّمرات إحدى آيات الله في كونه، ومعلوم أنّ أصناف الزّهور والورود هي من الثّمرات، وفي الثّمرات الأُخرى ألوان عجيبة تميّز كلّ نوع وكلّ صنف منها، وكذلك اختلاف الألوان في الجبال والصّخور، وتلحق بها الرّمال والأتربة وسائر عناصر الأرض. وكذلك اختلاف الألوان في النّاس والدّواب والأنعام، ويلحق بها سائر الأحياء، كالطّيور والأسماك وأنواع الفراش وخشاش الأرض والحشرات. إنّ آيات الله -عزّ وجلّ- في اختلاف الألوان في الأكوان، من الظّواهر الكونيّة الدّالّة على ربوبيّة الله في الكون، وعلى وحدته في ربوبيّته ومعلوم أنّ توحيده في ربوبيّته يستلزم عقلاً توحيده في إلهيّته، فهو المستحقّ وحده في الوجود كلّه أن يعبد، فلا إله بحقّ إلّا هو"[3].

ويقول منصور محمّد حسب النّبيّ: "أمّا ما يخصّ الجبال بهذه الآية فهو إشارة إلى التّفكير في سبب اختلاف ألوانها الذي يعود إلى اختلاف الموادّ التي تكوّن صخورها، فالجبال البيضاء تتكوّن أساساً من الطّباشير والحجر الجيريّ، والجبال السّوداء بها المنجنيز والفحم، والحمراء بها الحديد، وغير ذلك من الجبال

---

(1) **يُنظر**: موقع موسوعة الكحيل للإعجاز العِلْميّ، على الرّابط الآتي: http://kaheel7.com

(2) سورة فاطر: الآية (27).

(3) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م7، ص144.

النّاريّة التي تتكوّن من الجرانيت والبازلت، والتي تحتوي على عروق الحديد والنّحاس والذّهب، وغير ذلك من معادن تُؤدّي إلى تعدّد ألوان الجبال وأنواعها. كما أنّ الآية تُشير إلى وحدانيّة الخالق، بدليل خروج ثمرات مُختلفة الألوان رغم ارتوائها بماء واحد. ووجود الجبال حمر وبيض وسود، يرجع أصلها إلى أرض واحدة، كانت في الأصل قطعة من الشّمس، أي كانت والسّماء رتقاً واحداً. ووجود النّاس والدّواب بأنواع مُختلفة رغم أصلها الواحد في الخليّة، وبهذا فإنّ وراء التّباين في تلك الأحوال جميعها وحدة الأصل، ممّا يُشير إلى الله –تعالى الواحد القهّار–"[1].

أرى أنّ الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ لم يتعرّض إلى تصنيف الجبال وأقسامها، والصّخور وألونها؛ بل اكتفى بالإشارة إلى ذلك. أمّا العِلْم الحديث فذكر تصنيف الصّخور حسب ألوانها، على النّحو الآتي: "صخور تتراوح ألوانها بين اللّونين الأبيض والأحمر: وهي الصّخور الحامضيّة وفوق الحامضيّة، وتشمل عائلة الصّخور الجرانيتيّة. وصخور تتراوح ألوانها بين اللّونين الأبيض والأحمر من جهة والألوان الدّاكنة من جهة أُخرى، ويغلب عليها الألوان الرّماديّة، وهي الصّخور الموصوفة بالوسطيّة، وتضمّ عائلة الصّخور الدّايوراتيّة. وصخور تميل ألوانها إلى الدّكنة حتّى السّواد: وهي الصّخور القاعديّة وفوق القاعديّة، وتشمل عائلتي الجابرو والبريدوتايت. وهذا التّصنيف لم يصل إليه العلماء إلّا في العقود المتأخّرة من القرن العشرين بعد مُجاهدة استغرقت آلاف السّاعات من البحث المضني"[2].

وبعد هذا البيان الذي عرضت فيه لما ذكره الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ في آيات خلق الجبال، يُمكن القول: إنّ الشّيخ أشار إلى كيفيّة نشوء الجبال، وتكوّن الصّخور وألوانها التي جاءت المكتشفات العِلْميّة المعاصرة؛ لتُؤكّد أنّ حقيقة اختلاف التّركيب الكيميائيّ هو سبب اختلاف درجات لونها. ثمّ ذكر الشّيخ منافع الجبال وأهمّيّتها، وأشار إلى حركة الجبال وسببها ودورها في حفظ توازن الأرض، وهو ما أكّدته –أيضاً– الدّراسات والمكتشفات العِلْميّة الحديثة اليوم، كما أكّدت ما قرّره الشّيخ من أنّ للجبال امتدادات داخل القشرة الأرضيّة؛ فضلاً عن أنّ ما ذهب إليه الشّيخ في معنى الرّواسي والشّامخات، جاء مُتّسقاً مع ما ذهب إليه غيره من العلماء.

وبناء على ذلك، فإنّي أُؤكّد قيمة الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ وتفسيره في جانب المكتشفات والحقائق العِلْميّة الحديثة، وعلى حرصه على بيان ما أنعم الله –تعالى– عليه من حقائق عِلْميّة، أكّدها العِلْم الحديث اليوم.

---

(1) حسب النّبيّ، منصور: **الكون والإعجاز العِلْميّ للقرآن الكريم**، ص169.

(2) النّجّار، زغلول: **من آيات الإعجاز العِلْميّ: الأرض في القرآن الكريم**، ص332–334.

المبحث الثّاني

التّفسير العِلْميّ لآيات الله –تعالى– في الإنسان

الإنسان: اسم يُطلق على كلّ من الذّكر والأُنثى من بني آدم –عليه السّلام–، وقد جاءت الإشارة إليه في القرآن الكريم (90) مرّة، منها: (18) مرّة بلفظ إنس، و(65) مرّة بلفظ الإنسان، مُعرّفاً بالألف واللّام، و(5) مرّات بلفظ أُناس، ومرّة واحدة بلفظ كلّ من: أناسيّ، وإنسيّا[1].

وقد وضع العلماء الإنسان قيد البحث، فاهتمّوا بموضوع خلقه، وألّفوا فيه كُتباً عديدة قديماً وحديثاً؛ وذلك ليدخلوا إلى عالمه الخاصّ، فيُبصروا خباياه، ويُدركوا كيانه، فتنفتح أمامهم الأبواب؛ للولوج إلى حقيقة خلقه، وبالتّالي يُقرّون بالخالق سبحانه، قال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾[2]. **وهذا ما سأعرضه من خلال كلام الشّيخ –رحمه الله– والدّراسات العِلْميّة المُعاصرة، مُظهراً غزارة عِلْمه وسعة أُفقه، ومدى تطابق كلامه والحقائق العِلْميّة.**

المطلب الأوّل– التّفسير العِلْميّ لآيات خلق الإنسان:

يُعدُّ خلق الإنسان من آيات الله العظيمة، خاصّة إذا عَلِمنا أنّ كلّ طور من هذه الأطوار يُعدُّ آية في ذاته، كما أنّ إخبار الله –تعالى– عن هذه الأطوار والمراحل في القرآن الكريم يُعدّ من الإعجاز العِلْميّ، لاسيّما أنّ العِلْم الحديث لم يتوصَّل إلى هذه الأطوار إلّا منذ سنوات قليلة. وقد صدق الله –تعالى–؛ إذ يقول: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾[3]، فتعبير القرآن الكريم بهذه العبارة هو تعبير موجز ينطوي على معانٍ جمّة يعجز الإنسان عن وصفها.

وقد تتبّعت آيات خلق الإنسان في تفسير الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ، فوجدته يتعرّض للمكّيّ منها بالتّفسير والبيان، من خلال دراسة تدبّريّة تكامليّة شاملة للنّصوص القرآنيّة وفق ترتيب النّزول، وكذلك عقد لها مُلحقاً خاصّاً بها من ملاحق تدبّر سورة الطّارق، أطلق عليه اسم: حول بيان بعض أطوار خلق الإنسان في القرآن. فقال: "ضمن منهج القرآن في تجزئة الأفكار حول موضوع واحد، وتوزيع البيانات

---

(1) **يُنظر:** عبد الباقي، محمّد: **المُعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، ص119–120.

(2) سورة الذّاريات: الآية (21).

(3) سورة التّين: الآية (4).

حولها على نصوص مُتعدّدة منه، أتابع تدبّر النّصوص الواردة بشأن توجيه الفكر للنّظر في أطوار خلق الإنسان في القرآن"[1].

وسوف أتناول عَمَليّة خلق الإنسان من خلال تفسيره؛ لبيان سنّة التّدرّج في الخَلْق، مُشيراً إلى بعض الحقائق واللّطائف؛ لأقف على آيات الله وقدرته في خلق الإنسان، مُقرّاً ومُعترفاً بعظمة القرآن الكريم، المعجزة الخالدة إلى يوم الدّين، والذي وصف لنا عَمَليّة الخَلْق بتفصيل وإعجاز. فعند تفسير قوله تعالى: ﴿* وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[2]، يقول الشّيخ: "الإنشاء: الإحداث المصحوب بالتّكامل المتدرّج غالباً، يُقال لغة: أنشأ الشّيء إنشاءً، أي: أحدثه إحداثاً مصحوباً بالتّكامل المتدرّج. ويُقال لغة: نَشَأَ الشّيءُ نَشْأً، ونُشُوءاً، ونَشْأة، أي: حَدَثَ وتَجدّد. فأبان صالح -عليه السّلام- لقومه بهذا مظهراً من مظاهر ربوبيّة الله لهم، وهو إنشاؤهم من الأرض. أمّا خلق آدم أبي البشر، فقد كان من طين (تراب وماء)، وهذه معلومة موروثة في النّاس من عهد آدم -عليه السّلام-. وأمّا ذُريّته من بعده، فمن المعلوم لدى كلّ النّاس أنّ المادّة التي تتكوّن منها الأجنّة مخلوقة في الذّكور والإناث من الدّماء، والدّماء مخلوقة من الغذاء النّباتيّ أو الحيوانيّ، وكلّ ذلك منشؤه من الماء والتّراب، وهما من عناصر الأرض"[3].

وهذا ما ذكره -أيضاً- عند تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾[4]؛ إذ يقول: "هو الذي خلقكم من طين، أي: من ماء وتراب على اختلاف عناصره من الأرض. أمّا خلق جسد آدم من طين، فقد جاءت بشأنه بيانات قرآنيّة كثيرة، وهو من الأُمور المبيّنة في كلّ ما أنزل الله من كُتب، وعلى لسان كلّ المرسلين والأنبياء، منذ عهد آدم -عليه السّلام-، فلا يجحدها جاحد. وأمّا خلق زوجه وذريّاتهما، فهم مخلوقون -أيضاً- من طين تَبَعاً له، ويُضاف إلى هذه التّبعيّة، أنّ جسد كلّ واحد منهم مخلوق من طين تحوَّل بخلق الله -تبارك وتعالى- إلى غذاء، فدماء، فنُطف، فأجنّة، وكان نماؤها وبقاؤها مُستمدّاً من الغذاء الذي هو طين مُتحوّل، إذا حُلّلت عناصره، وعُزل بعضها عن بعض عاد تُراباً وماء، والطّين مرحلة من مراحل التّكوين التّطويريّ"[5].

---

(1) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م2، ص621.

(2) سورة هود: الآية (61).

(3) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م10، ص432.

(4) سورة الأنعام: الآية (2).

(5) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م11، ص153.

وقال أيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾[1]، (أي: إنّي سأخلق مخلوقاً جديداً بشراً من ماء وتراب مُختلطين، وباختلاطهما يصيران طيناً. وقد ذكر أنّ البشر، هو: الإنسان، وسُمّي بشراً لكون بشرته غير مستورة بشعر أو غيره)[2]. وهذه الآية كما يقول منصور محمّد حسب النّبيّ: "تُصرّح بأنّ الأصل الذي خلق الله منه آدم –عليه السّلام–، هو: الطّين الذي هو مزيج من الماء والتّراب"[3].

يقول أبو حيّان: "أنشأكم، أي: اخترعكم وأوجدكم، وذلك باختراع آدم أصلهم، فكان إنشاء الأصل إنشاء للفرع. وقيل: من الأرض باعتبار الأصل المتولّد منه النّبات، المتولّد منه الغذاء، المتولّد منه المنيّ ودم الطّمث، المتولّد منهما الإنسان"[4]. وقال في موضع آخر من تفسيره: "إنّ الإنسان مخلوق من المنيّ ومن دم الطّمث المتولّدين من الأغذية، والأغذية حيوانيّة أو نباتيّة، فثبت تَولّد الإنسان من النّباتيّة، وهي مُتولّدة من الطّين، فكلّ إنسان مُتولّد من الطّين وهذا أقرب إلى الصّواب"[5].

ويذكر الطّبريّ المقصود من الآية، فيقول: "إنّ النّاس وَلَدُ مَنْ خَلَقَهُ مِن طين"[6]. ويقول ابن عاشور نحواً من ذلك: ومعنى خلقكم من طين: "أنّه خلق أصل النّاس وهو البشر الأوّل من طين، فكان كلّ البشر راجعاً إلى الخَلْق من الطّين"[7].

ويقول طنطاوي جوهريّ: "إنّ جسم الإنسان مُركّب من عناصر الأرض، وإذا حُلّل جسم الإنسان وجدت العظم فيه فسفور وجير، وفي العين رمل مصنوع من موادّ أُخرى تكوّن الجسم الزّجاجيّ منها، ولولا الحديد ما صلُح الدّم الحيوانيّ، ولمّا اجتمعت وانتظمت واتّحدت أحدث الله فيها سرّه المصون، وعِلْمه المكنون، ونفخ فيه من الرّوح، وأنزل العِلْم. وجسم الإنسان مُركّب من عناصر الأرض: الماء والهواء والمعادن،

---

(1) سورة ص: الآية (71).

(2) **يُنظر**: الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م3، ص626.

(3) حسب النّبيّ، منصور: **الكون والإعجاز العِلْميّ للقرآن الكريم**، ص321.

(4) أبو حيّان، محمّد: **البحر المُحيط في التّفسير**، ج6، ص175.

(5) **يُنظر**: نفسه، ج4، ص431.

(6) الطّبريّ، محمّد: **جامع البيان في تأويل القرآن**، ج11، ص255.

(7) ابن عاشور، محمّد الطّاهر: **التّحرير والتّنوير**، ج7، ص130.

وهي لا تعقل، ولا تحسّ، ولا تُبصر، فلمّا اجتمعت نُظّمت بأبدع نظام، وقُسّمت ورُتّبت وهُندست وجُعلت بمقياس"[1].

وبناء على ذلك، يقول الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ: "إنّنا في عصورنا التي ارتقت فيها العلوم الكونيّة لا نجد صعوبة في إدراك هذه الحقيقة؛ لأنّنا صرنا نعلم أنّ الجنين إنّما يتكوّن بخلق الله من النّطفة، وإنّ النّطفة إنّما تتكوّن بخلق الله من الدّم، وإنّ الدّم في أجساد النّاس إنّما يتكوّن بخلق الله من الطّعام والشّراب، وإنّ الطّعام الذي يأكله النّاس من الحيوان أو النّبات مصدره نبات الأرض، وإنّ المصدر لكلّ ذلك التّراب والماء"[2]. وقد ذكر معنى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾[3]، فقال: أي: "من ماء الرّجل، وهو: المنيّ القليل الحقير الضّعيف"[4].

بالتّالي فإنّ الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ يؤكّد على مصدر تولّد الإنسان من طين -تراب وماء-، وأنّ النّطفة مُتولّدة من الأطعمة والأشربة التي يتناولها الإنسان. وهذه حقيقة أكّدتها الدّراسات العِلْميّة الحديثة اليوم-كما سيظهر لاحقاً-، من أنّ الإنسان مخلوق من النُّطفة ودم الطّمث، وأنّهما مُتولّدان من الدّم المتولّد من الأغذية المختلفة، وأنّ جميع الأغذية مُتولّدة من الطّين، فيكون تولّد الإنسان من طين، وهو أسلوب استدلال وتوضيح رائع يمتاز به الشّيخ؛ بل وجدته عند تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[5] يذكر أطوار خلق الإنسان البارزة، ومراحل تكوينه التّطويريّ، فيقول: (إنّ عمليّات الخَلْق الرّبّانيّ التّطويريّة مُسايرة لأصغر الوحدات الزّمنيّة، التي تُجَزّأ بها الثّانية إلى مليارات الأجزاء بحساب سرعة الضّوء. **الطّور البارز الأوّل**: خلق الإنسان من تراب، وهذا الطّور يُدركه النّاس من الأغذية التي يُعتبر التّراب مادّتها العُظمى، مع الماء والضّوء، فيتحوّل التّراب نباتاً، فيأكله الحيوان والإنسان، فيتحوّل لحماً ودماً، ومن الدّم تكون نُطف المنيّ الذي يكون منه بدء خلق الإنسان. **الطّور البارز الثّاني**: طور النُّطفة، وهي نُطفة المنيّ الذي يتكوّن الجنينُ من حُوَينٍ هو واحد من مئات الملايين أمثاله في الدّفقة الواحدة، بحسب مُقرّرات علماء الأحياء، حين التقائه بالبُيَيْضة التي تهبط من

(**1**) جوهريّ، طنطاوي: **الجواهر في تفسير القرآن الكريم**، ج4، ص9-10.

(**2**) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م13، ص719-720.

(**3**) سورة المرسلات: الآية (20).

(**4**) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م2، ص576.

(**5**) سورة غافر: الآية (67).

مِبيض الأنثى. **الطّور البارز الثّالث:** طور العَلَقَة، وهي قطعة من الدّم الغليظ المتماسك التي يتطوّر إليها الجنين بعد اندماج حُوَين الذّكر بنواة بُيَيْضة الأُنثى. **الطّور البارز الرّابع:** طور خُروج الجنين من بطن أمّه طفلاً، وهو المولود الحديث الولادة، ويستوي فيه المذكّر والمؤنّث. **الطّور البارز الخامس:** طور بلوغ الإنسان أشُدّه، وهو اكتمال النّموّ الإنسانيّ. **الطّور البارز السّادس:** طور بلوغ الإنسان مرحلة الشّيخوخة، التي قد يعقبها ويتّصل بها الهرَم)[1].

هذا، وقد علّل الشّيخ مجيء حرف العطف (ثمّ)، "بأنّ طور النُّطفة، أو العَلَقَة، أو خروج الجنين من بطن أُمّه طفلاً يكون بعد أطوار كثيرة، لا يُدرك مقدارها العِلْم الإنسانيّ مهما بلغت وسائله"[2]. وقال أيضاً: "أشدّ كلّ شيء: اكتمال تناميه بحسب صفاته القابلة للاكتمال، والاكتمال في النّموّ البشريّ، يتناول مُختلف القوى والصّفات الجسديّة والفكريّة والنّفسيّة، على وفق الهبات الفطريّة التي فطر الله –عزّ وجلّ– كلّ نفس عليها"[3].

أقول: إنّ ما ذهب إليه الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ من بيان لهذه المراحل، إنّما يدلّ على علوّ كعبه في التّفسير، وسعة عِلْمه واطّلاعه. وإنّ هذه المراحل إنّما هي بقدرة الله –تعالى– وحده، ولا يعرف كينونتها إلّا هو؛ لذا يقول الشّيخ: "لا يُدرك مقدارها العِلْم الإنسانيّ مهما بلغت وسائله"[4].

وقد بيّن الشّيخ معنى النُّطفة لغة واصطلاحاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾[5]، فقال: "النُّطفة: هي إحدى أطوار الإنسان، وهي نُقطة الماء الصّغرى التي تكون عند تلقيح الحُوَين من مَنِيِّ الذّكر للبُيَيْضة المستقبِلة له، والمنفصلة عن مكان نشأتها في المرأة عند بدء الطّريق إلى الحمل، وتحوّلها إلى نُطفة أمشاج. والنُّطفة تُطلق لغة على القليل من الماء الصّافي، وعلى القطرة من الماء أو

(**1**) **يُنظر:** الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م12، ص412–415. م13، ص713.

(**2**) نفسه، م12، ص413.

(**3**) نفسه، م12، ص414.

(**4**) نفسه، م12، ص413.

(**5**) سورة النّحل: الآية (4).

العرق، وعلى الدّفقة من المَنِيّ"[1]. وقال في موضع آخر من تفسيره: "والمراد بالنُّطفة ماء الرّجل الذي هو المنيّ، وأُطلق عليه لفظ النُّطفة لقلّة مقداره"[2]، واستشهد بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾[3].

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[4]، قال: "في هذه الآية بيان أحد الأطوار التي خلق الله بها جسد آدم –الإنسان الأوّل– الذي اشتقّ الله منه زوجه حوّاء، وبعد ذلك جعل كلّ النّاس من ذرّيّاتهما، ونسلاً لهما"[5]. "وفي هذا الطّور كانت قد تحوّلت طينة جسد آدم –عليه السّلام– بخلق الله –جلّ جلاله– فصارت حمأً مسنوناً، ثمّ جفّت فصارت صَلصالاً، وإذ خلق الله –جلّ جلاله– آدم من طين فذريّاته كذلك؛ لأنّهم من نسله"[6]. كما بيّن الشّيخ المقصود بكلّ من: الصّلصال، والحمأ، والمسنون، فقال: "الصّلصال: الطّين اليابس الذي إذا نُقر بشيء أعطى صوتاً فيه ترجيع، والحَمَأ: الطّين الأسود المُنتن، والمسنون: المصقول المُمَلَّس"[7].

وقد دلّت الدّراسات العِلْميّة إلى أنّ أصل الإنسان ومعدنه إنّما هو من طينة هذه الأرض ومن معدنها؛ حيث أنّ (تركيب جسم الإنسان يُشبه في مجموعه التّركيب الكيميائيّ لتراب الأرض المختلط بالماء –أي الطّين– مع زيادة واضحة في عناصر الأكسجين، والهيدروجين، والكربون، والفوسفور في جسم الإنسان، وذلك لغلبة الماء فيه (54% إلى أكثر من70%)، وهذه الحقيقة كما تنطبق على الإنسان الأوّل أبينا آدم –عليه السّلام– تنطبق على جميع نسله الذين كانوا في صُلبه لحظة خلقه، والذين ورث كلّ فرد منهم شيئاً من هذا التّراب الأوّليّ، وهذا الشّيء الموروث من الأب الأوّل ينمو على دماء أُمّه وهو في بطنها، ودماؤها مُستمّدة من غذائها المُستمدّ أصلاً من عناصر الأرض، ثمّ بعد ولادته يُفطم على لبن أُمّه، أو على لبن غيرها من المُرضِعات، أو على ألبان الحيوانات المباحة، وكلّ ذلك مُستمدّ أصلاً من تراب الأرض، وبعد فطامه يتغذّى الطّفل على كلّ من نبات الأرض، وعلى المباحات من المنتجات الحيوانيّة، وكلّها مُستمدّة

---

(1) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م13، ص515.

(2) نفسه، م2، ص518.

(3) سورة القيامة: الآية (37).

(4) سورة الحجر: الآية (26).

(5) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، ج11، ص49.

(6) نفسه، ج11، ص50.

(7) نفسه، ج11، ص49–50.

أصلاً من عناصر الأرض، وهذه حقائق عِلْميّة لم تتّضح لأصحاب العلوم المُكتسبة إلّا في العقود المُتأخّرة من القرن العشرين)[1].

ومن الأدلّة المشاهدة والمحسوسة الدّالّة على الخلق من الأرض، ما بيّنه النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم– في سنّته، أنّ آدم خُلق من تراب الأرض؛ إذ يقول: {إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ. جَاءَ مِنْهُمُ الْأَبْيَضُ وَالْأَحْمَرُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالْخَبِيثُ، وَالطَّيِّبُ وَالسَّهْلُ، وَالْحَزْنُ وَبَيْنَ ذَلِكَ}[2]. فيدلّ هذا الحديث الاختلاف الواضح بين النّاس في اللّون والطّباع والميول، فلمّا كان أصل الإنسان من تراب الأرض، الذي يختلف لوناً، وسهولة، ووعورة، وطيباً وخبثاً، كان الإنسان كذلك.

ومن هنا، أرى أنّ الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ يذكر الحقيقة العِلْميّة مُتطابقة مع ما وصل إليه العِلْم الحديث؛ بيد أنّ الدّراسات العِلْميّة أضافت بعض الحقائق العِلْميّة ومنها: أنّ جسم الإنسان يتكوّن من عناصر توجد في التّراب والماء، فيكون هذا دليلاً على سعة علم الشّيخ ودقّة بيانه ومدى اهتمامه بإبراز الجانب العِلْميّ في تفسيره. إضافة إلى أنّ الخلق من تراب الأرض ينطبق على نسل أبينا آدم –عليه السّلام– جميعاً، فهم من صُلبه، وكلّ واحد منهم عناصر جسمه من عناصر الأرض، والإنسان وهو في بطن أُمّه يتغذّى على دمها المُستمدّ من الغذاء الذي تأكله، وهو مُستمدّ أصلاً من تراب الأرض، ثمّ ينمو من بعد فطامه على ما يتناوله من طعام مُستمدّ أصلاً من تراب الأرض، وبالتّالي فكلّ ما قاله المفسّرون هو من باب اختلاف التّنوّع الذي تسعه ألفاظ القرآن الكريم المعجزة بشهادة الكشوف العِلْميّة الحديثة، وبهذا وجدت من المفسّرين من جمع شيئاً من ذلك بقوله: "إن التّراب أصل خِلقة أوّل آبائكم، وأوّل موادّ أبدانكم"[3].

---

(1) **يُنظر**: موقع الدّكتور زغلول النّجّار، على الرّابط الآتي: http://www.elnaggarzr.com

(2) رواه التّرمذي في سننه من حديث أبي موسى الأشعريّ –رضي الله عنه–، وقال عنه: هذا حديث حسن صحيح. ورواه ابن حنبل في مُسنده من حديث أبي موسى الأشعريّ –رضي الله عنه–، وصحّحه شعيب الأرنؤوط بقوله: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشّيخين. التّرمذيّ، محمّد: **سنن التّرمذيّ**، ج5، ص54، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم–، باب: ومن سورة البقرة، حديث رقم: 2955. ابن حنبل، أحمد: **مُسند الإمام أحمد بن حنبل**، ج32، ص353، مُسند الكوفيّين، حديث رقم: 19582.

(3) البيضاويّ، عبد الله: **أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل**، ج4، ص30.

المطلب الثّاني– التّفسير العِلْميّ لآيات مراحل خلق الإنسان:

لقد كان اكتشاف المراحل المتنوّعة والمتتابعة التي يمرّ بها الجنين من المسائل الصّعبة والمعقّدة في تاريخ عِلْم الأجنّة، ومَرَدُّ ذلك الحجم المتناهي في الصّغر لمراحل الجنين، وبخاصّة في الأسابيع الأولى من الحمل، ولعدم تيسّر مشاهدته أو فحصه في مُستقرّه داخل الرّحم دون تقنية خاصّة؛ فضلاً عن عدم الإدراك الصّحيح لقرون طويلة قبل اكتشاف الأدوات الحديثة التي وضّحت دور كلّ من الذّكر والأُنثى في تكوين الجنين.

وعندما نظرت في تفسير الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ وجدته يُبيّن مراحل خلق الإنسان عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾[1]، ويذكر أنّ الإنسان يتقلّب في مراحل سبعة، هي: (**المرحلة الأولى: السُّلالة،** وهي ما اسْتُلّ من الشّيء وانتُزع برفق، كانتزاع الشّعرة من العجين الطّريّ اللّيّن. وهكذا تُستلّ أغذية النّباتات من الطّين، أي: من الماء المختلط بعناصر تراب الأرض، وهكذا تُستلّ عناصر بناء الأجساد من الأغذية، وهكذا تُستلّ النّطفة المنويّة من الجسد ضمن نظام عجيب مُدهش يشتمل على آيات معجزات باهرات. **المرحلة الثّانية: النّطفة،** وهي: القليل من الماء، والمراد بها في الآية: مَنِيّ الرّجل؛ حيث يجعلها الله –تعالى– في قرار، أي: مكان يثبت فيه الشّيء، وهو المكان الذي يثبت فيه جزء صغير من النُّطفة بعد تلقيحها لبُيَيْضة المرأة، في جدار الرّحم بعناية الله ورعايته. مكين: أي: ثابت مُتمكّن بألطاف الله من المكان الذي هو فيه، وإذا كان القرار الذي تُجعل فيه النُّطفة مكيناً كانت هي ثابتة فيه بعناية الله وحفظه. **المرحلة الثّالثة: العَلَقة،** فبعد أن جعل الله –تعالى– النُّطفة في قرار مكين، ومرّ فاصل زمنيّ نسبيّ، أظهرَ من أطوار الخلق أنْ خلق النُّطفة علقة، وقبل أن تصل إلى طور العلقة مرّت في أطوار بعدد أصغر من الوحدات الزّمنيّة التي مرّت فيها ما بين النُّطفة والعلقة، وكذلك ما بين كلّ طور وطور ذكره الله –عزّ وجلّ– لظهوره. والعلقة: قطعة من الدّم الغليظ المتماسك)[2]. وقال في موضع آخر من تفسيره: "العَلَقَة في اللّغة: قطعة الدّم المتجمّد، وهي في فهم الأطبّاء المعاصرين المرحلة التي تتحوّل إليها النُّطفة الأمشاج، فتكون شيئاً يعلق بجدار الرّحم ويتشبّث فيه،

(**1**) سورة المؤمنون: الآية (12–16).

(**2**) **يُنظر**: الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، ج14، ص426–427.

وهذه تكون مُحاطة بالدّم المتخثّر المتجمّد"[1]. (**المرحلة الرّابعة: المُضغة،** وهي: القطعة التي تمضغ من لحم وغيره، والمراد بها في الآية: قطعة فيها تماسك ما كاللّحم؛ إذ لم يمض فاصل زمنيّ طويل؛ حتّى جاء طور خلق الله العلقة مُضغة. **المرحلة الخامسة: العظام،** فعقب وصول الجنين إلى طور المضغة؛ خلق الله المضغة عظاماً، وهذا ما يمكن أن يطّلع عليه متابعو البحث في الأجنّة. **المرحلة السّادسة: اللّحم،** وعقب وصول الجنين إلى الطّور الذي تكون به عظاماً، كسا الله –جلّت قدرته– العظام لحماً. **المرحلة السّابعة: خلقاً آخر،** وبعد فاصل زمنيّ نسبيّ أنشأ الله –جلّت قدرته– الجنين خلقاً آخر، ويظهر أنّ هذا الخلق الآخر هو نفخ الرّوح فيه، وجعله إنساناً، بعد أن كان ينمو نموّاً شبيهاً بالنّموّ النّباتيّ. فتبارك الله أحسن المصوّرين والمقدّرين)[2]. ثمّ عقّب بقوله: "ولعلماء الأحياء من مُختلف التّخصّصات دراسات مُستفيضات حول إتقان خلق الإنسان، والأطوار التي يمرّ خلقه بها، وما جاء في القرآن مُطابق للحقائق الثّابتة التي توصّل علماء الكونيّات إليها"[3].

ولقد زاد ابن عاشور على كلام الشّيخ، فقال: (وهذه السّلالة، هي: ما يُفرزه جهاز الهضم من الغذاء حين يصير دماً، فدم الذّكر حين يمرّ على غُدّتي التّناسل (الأُنثيين) تُفرز منه الأُنثيان مادّة دُهنيّة شحميّة تحتفظ بها، وهي التي تتحوّل إلى مَنيّ حين حركة الجماع، فتلك السّلالة مُخرجة من الطّين؛ لأنّها من الأغذية التي أصلها من الأرض...)[4]. ولقد ذكر طنطاوي جوهريّ تفاصيل خلق الإنسان، وهو كلام طويل، لا يتّسع المقام إليه، مخافة الإطالة، والخروج عن فحوى الرّسالة، –فليُرجع إليه–[5].

وقد اكتشف العِلْم الحديث (أنّ تكوين الإنسان من ناحية العناصر التي تتعاون في تركيبه هي بالدّرجة الأولى من الماء؛ حتّى لَيُقال ليس الإنسان سوى برميل صغير من الماء مع عناصر معدنيّة أُخرى. إذن الإنسان هو: تراب وماء، وتتكوّن سلالته وفق هذه المعادلة)[6]، "والقرآن الكريم قد أعطى الحيوان المنويّ والبُيَيْضة اسم السّلالة، وهي التّسمية الأبلغ والأسهل والأصحّ عِلْمياً؛ إذ إنّها تعني النّخبة المستخلصة

(**1**) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، ج2، ص519.

(**2**) **يُنظر**: نفسه، ج14، ص427.

(**3**) نفسه، ج14، ص428.

(**4**) **يُنظر**: ابن عاشور، محمّد الطّاهر: **التّحرير والتّنوير**، ج18، ص22–25.

(**5**) **يُنظر**: جوهريّ، طنطاوي: **الجواهر في تفسير القرآن الكريم**، ج1، ص97–109.

(**6**) **يُنظر**: كنجو، خالص: **الطّبّ محراب للإيمان**، ص59–62.

والمنسلّة من الشّيء، وهي صفات الحيوان المنويّ والبُيَيْضة وميّزاتهما"[1]. ثمّ (يبدأ طور النُّطفة منذ الحمل، وينتهي مع بدء طور العَلَقة)[2]، "وحالما يتمّ التّخصيب وتتكوّن النُّطفة الأمشاج من الحيوان المنويّ والبُيَيْضة تصنع يد القدرة الإلهيّة للبُيَيْضة الملقّحة جداراً سميكاً مُصمتاً لا يمكن لأيّ حيوان منويّ آخر اختراقه، كما أنّها تخلع عنها تاجها المشعّ الذي كان يُغري الحيوانات المنويّة بالاقتراب منها"[3]. "ومنذ تلك اللّحظة تبدأ بالعمل الجادّ الطّويل، تتحرّك النُّطفة الأمشاج بوساطة الأهداب المبطّنة لقناة الرّحم وتقلّصات جدار الرّحم التي تدفع البُيَيْضة الملقّحة وتمنعها من التّراجع إلى الوراء"[4]. (ثمّ يأتي طور العَلَقة؛ حيث يتعلّق الجنين برحم أُمّه؛ ليتغذّى من دمها، ومنذ هذه المرحلة حتّى الولادة يعيش في مُحيط مائيّ مُعلّقاً برحم أُمّه بواسطة الحبل السُّرّيّ، ثم يأتي طور المضغة؛ حيث يبدو الجنين فيه كقطعة لحم ممضوغة، ويظهر عليه اكتمال بعض كتله البدنيّة، وينتهي مع بدء طور العظام، وفيه تتحوّل الأنسجة الغضروفيّة إلى أنسجة عظميّة، ثمّ يأتي طور اللّحم، فتُكتسى العظام بالعضلات، وأخيراً طور التّسوية، وهو إعطاء الشّكل الإنسانيّ للجنين)[5].

يقول الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ: "التّسوية: إحكام مقادير أجزاء المخلوق المصوّر، وجعله يتدرّج مُتكاملاً؛ حتّى يبلغ الغاية المقضية له في خطّة التّكوين، وتكون التّسوية بإعطاء كلّ شيء خلقه بالعدل، أي: بإعطاء كلّ عُضو وكلّ جزء من أجزاء المخلوق أو المصنوع من العناصر والصّفات، ما يجعله صالحاً مُؤدّياً وظيفته دون زيادة ولا نقصان"[6]؛ "عِلْماً بأنّ الأطوار التي يمرّ بها خلق الإنسان إنّما تتمّ بعمليّات خلق مُتتابع لا بالتّلقائيّة السّببيّة"[7].

هذا، وقد جاءت مُؤلّفات أهل العِلْم الحديث، زاخرة بما أدّت إليه دراستهم، وأكّدوا أنّ المقصود بالجدار المكين، هو: الرّحم. لذلك، يقول الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ: "إنّ الله -عزّ وجلّ- جعل

---

(1) الشّريف، عدنان: **من عِلْم الطّبّ القرآنيّ الثّوابت العِلْميّة في القرآن الكريم**، ص166-167.

(2) **يُنظر**: الشّريف، عدنان: **من عِلْم الطّبّ القرآنيّ الثّوابت العِلْميّة في القرآن الكريم**، ص37.

(3) البار، محمّد: **خلق الإنسان بين الطّبّ والقرآن**، ص198.

(4) توفيق، محمّد: **دليل الأنفس بين القرآن الكريم والعِلْم الحديث**، ص103.

(5) **يُنظر**: الشّريف، عدنان: **من عِلْم الطّبّ القرآنيّ الثّوابت العِلْميّة في القرآن الكريم**، ص51-61.

(6) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م2، ص519.

(7) نفسه، م3، ص298.

الجنين في قرار مكين إلى قدر مُحدّد في خطّة التّكوين، أي جعله بعد اللّقاح عالقاً في مكان استقرار مُلائم لحفظه في رحم الأُمّ؛ حتّى يستكمل نضجه، ويُولد طفلاً مُستوفياً كامل شروط الحياة على الأرض"[1].

كما أنّ العِلْم الحديث جاء ليؤكّد أنّ هناك فترة زمنيّة بين مرحلة النُّطفة ومرحلة العَلَقة، هذه الفترة تزيد على أُسبوعين، حيث يتباطأ فيها نموّ الجنين؛ لأنّ هذه المرحلة مرحلة انغراز النُّطفة في جدار الرّحم، والجنين في هذه المرحلة لا ينمو، ولكنّه يُوطّد طرائق امتصاصه للغذاء من الرّحم، ولا يكون في هذه المرحلة إلّا كقرص من الخلايا المنتظمة على شكل صفّين متوازيين. وقد تقدّم هذا العِلْم في السّنوات الأخيرة تقدّما كبيراً، حتّى أصبح بإمكان الأطبّاء والعلماء أن يُصوّروا الجنين وهو في الرّحم في مراحل نموّه وتطوره، ويقول العِلْم الآن: (إنّه يزيد عدد النّطاف المنويّة في اللّقاء الزّوجيّ على ثلاثمئة مليون، وكلّ نطفة لها رأس، ولها عنق، ولها ذيل، وتسبح في سائل يُغذّيها، ويُسهّل حركتها، ويتّجه هذا العدد الكبير إلى البُيَيْضة كي تُلقّح بحيوان واحد من ثلاثمئة مليون نُطفة، فتختار البُيَيْضة نُطفة واحدة، وبعد تلقيح البُيَيْضة بالنّطفة تنقسم إلى مئة قسم، وهي في طريقها على الرّحم. وممّا يُعلم أنّ العلوم الحديثة أشارت إلى أنّ القرار المكين هو الرّحم، ويقع في الوسط الهندسيّ تماماً من جسم المرأة، فلو أُخذ خطّ منتصف طوليّ، وخطّ منتصف عرضيّ لكان موقع الرّحم في تقاطع الخطّين، وقد سُمّي الرّحم قراراً؛ لأنّه يُفرز مادّة لاصقة إذا جاءت البُيَيْضة الملقّحة إلى الرّحم التصقت في جداره، فهو قرار لها، وليس ممرّاً، ثمّ إنّ في الرّحم عدداً من الأوعية الدّموية يفوق حدّ التّصوّر، كلّها تمدّ هذه البُيَيْضة الملقّحة بالدّم ليتغذّى الجنين، ولينمو في سرعة تعدّ أسرع ما في جسم الإنسان من نسيج في تكاثره وانقسامه، وقد أُحيط هذا الجنين بسائل يمتصّ كلّ الصّدمات، والأغرب من هذا أنّ الرّحم كلّه مُعلّق في حوض المرأة بأربطة إلى أقطار الحوض، فالرّحم سائب، والجنين سائب، وبين الرّحم والجنين سائل يمتصّ كلّ الصّدمات، كلّ هذا الشّرح ينطوي تحت قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾)[2].

وعند قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾[3] ذكر الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ معنى الكَبَد، وهو: "الشّدّة والمشقّة والضّيق ومُعاناة كلّ ذلك أو بعضه"[4]، وأسهب في الحديث عنها. ثمّ تطرّق إلى (أنّ الإنسان كابدت جرثومته الأولى سباقاً عنيفاً بينها وبين الملايين من أمثالها وأشباهها، حتّى استطاعت أن

---

(1) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م3، ص290.

(2) **يُنظر**: النّابلسيّ، محمّد: **موسوعة الإعجاز العِلْميّ في القرآن والسّنّة آيات الله في الإنسان**، ص85-89.

(3) سورة البلد: الآية (4).

(4) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م3، ص182.

تشقّ طريقها إلى الحياة الإنسانيّة. وحين تطوّرت بقضاء الله وقدره وخلقه، صارت جنين إنسان، كابدت مشقّات السّجن المحدود، والقيد المشدود، في بطن الأُمّ. ولمّا تكامل الجنين ونضج، وأراد الله –عزّ وجلّ– له أن يتنسّم نسيم الحياة على الأرض الواسعة، كابد مشقّات النّفوذ من المضايق الشّديدة عند الولادة. وما أن دبّ على ظاهر الأرض حتّى أحاطت به مشقّات أكبر حجماً، وأكثر عدداً، وأشدّ قسوة. وكلّما تدرّج في أطوار النّموّ عظُمت أمامه العقبات، وتطلّبت منه الحياة مُكابدة أعظم؛ لتحصيل الرّزق، ودفع المخاطر والآلام، وللمسابقة والمنافسة مع النّظراء، للحصول على أكثر نصيب من متاع الحياة الدّنيا...)[1].

أرى أنّ كلام الشّيخ جاء شبيهاً لكلام فخر الدّين الرّازيّ[2]، في حين جاءت بعض أقوال المفسّرين قاصرة على بيان أنّ الكَبَد هو الشّدّة والمشقّة[3]. كما أرى أنّ الشّيخ وضّح مراحل خلق الإنسان والتي تُقرّر أنّ بداية الخلق من تراب جميع الأرض، ثمّ من نُطفة. وجاءت الدّراسات العِلْميّة لتفصّل بعض ما أجمله الشّيخ، فحدّدت مكان الرّحم بالنّسبة لجسم المرأة وعدد الأربطة وأدوارها في حفظ الجنين من السّقوط، وبيّنت دور الغلاف المحيط بالجنين، ودوره في تزويد الجنين بكلّ ما يحتاجه مادّيّاً من طعام وشراب، ومعنويّاً من حماية ومنعه من السّقوط والمحافظة عليه. وأشارت الدّراسات إلى أنّ أقسى أنواع عظام الإنسان حوض المرأة، وأنّها قادرة بإرادة خالقها على منع الجنين من السّقوط وحمله، وعلى السّماح له بالخروج متى شاء الله –تعالى–. وإنّ التّوضيح الذي قدّمه لمعنى (كَبَد)؛ ليدلّ على أنّ المشقّة ملازمة للإنسان، من مراحل خلقه الأولى حتّى الوفاة. وفي هذا أرى أنّ ما جاء به الشّيخ يتّفق في مُجمله مع ما أدّت إليه المكتشفات العِلْميّة الحديثة.

المطلب الثّالث– التّفسير العِلْميّ لآيات الظّلمات الثّلاث:

ورد مُصطلح الظّلمات الثّلاث في القرآن الكريم، وفُسّر بأقوال عديدة وردت عن أهل العِلْم والتّفسير، وسأبيّن المراد منه في هذا المطلب، مُظهراً رأي الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ؛ إذ يقول عند تفسير قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي

---

(1) **يُنظر**: الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م3، ص183–185.

(2) **يُنظر**: فخر الدّين الرّازيّ، محمّد: **مفاتيح الغيب–التّفسير الكبير**، ج31، ص166.

(3) **يُنظر**: الطّبريّ، محمّد: **جامع البيان في تأويل القرآن**،ج24، ص433–435. **يُنظر**: ابن كثير، إسماعيل: **تفسير القرآن العظيم**، ج8، ص392–393. **يُنظر**: القرطبيّ، محمّد: **الجامع لأحكام القرآن**، ج20، ص62–63. **يُنظر**: أبو حيّان، محمّد: **البحر المُحيط في التّفسير**، ج10، ص481. **يُنظر**: ابن عاشور، محمّد الطّاهر: **التّحرير والتّنوير**، ج30، ص350–352.

بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾[1] "دلّ الفعل المضارع (يخلقكم) على عَمليّات الخلق الرّبّانيّ المتتابَع، الذي يكتشف علماء الأجنّة منه الأطوار التي يظهر فيها تغيّر مشهود في الجنين، وهو في الحقيقة خلق مُتتابَع. وقد جاءت عبارة: ﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ لبيان أنّ كلّ تغيّر في أحوال الجنين مهما قلّ ولو كان نموّاً، هو خلق جديد، من بعد خلق سابق له، ومنه نستفيد أنّ عَمليّات الخلق الرّبّانيّ مُتتابعة في الكائنات، مع أصغر الوحدات الزّمنيّة، ولكلّ قسم لا يقبل عقلاً القسمة من ذرّات هذا الكون كلّه. وقد أبان علماء الأجنّة هذه الظّلمات الثّلاث مرسومة بالصّور، ومُحدّدة بالأسماء"[2]. ثمّ وجدته ينقل من كتاب: خلق الإنسان بين الطّبّ والقرآن، لمحمّد علي البار؛ إذ يقول: "أنقل هنا من كتاب: خلق الإنسان بين الطّبّ والقرآن، للدّكتور محمّد علي البار: إذا دقّقنا النّظر في الأغشية المحيطة بالجنين وجدناها ثلاثة: غِشاء السَّلى، أو الأَمنيون، ويُحيط بالجنين مباشرة. وغِشاء الكُوريون (الغِشاء المَشيميّ). والغِشاء السّاقط، وهو غِشاء الرّحم الذي يسقط بعد الولادة أو الإجهاض، وسُمّي بالسّاقط؛ لأنّ الرّحم يُسقطه مع الأغشية"[3].

ثمّ علّق بقوله: "وقد سمّاها الله في الآية ظلمات؛ لأنّ كلّ غشاء منها يُحدث نسبة من الظّلمة، وكون كلّ منها مُحيطاً بالجنين على التّتابُع، فالجنين مُحاط بما يُحدِث ظلمات ثلاث، ومعلوم بالبداهة أنّ الظّلمة ذات نسب بعضها أشدّ من بعض، فكلّما زادت الحجب زادت نسبة الظّلمة في مكان تراه الأبصار بسبب ضوء أو نور يُظهره"[4].

وقد ذكر بعض المفسّرين أنّ الظّلمات الثّلاث، هي: (ظُلمة البطن، وظُلمة الرّحم، وظُلمة المشيمة، فلجدار البطن ظلمة، ثمّ تليها ظُلمة جدار الرّحم، ثمّ ظُلمة الأغشية المحيطة)[5]. أمّا الدّراسات العِلْميّة الحديثة فقد أشارت إلى أنّ الظّلمات الثّلاث، هي: "ظُلمة الرّحم: وهو المكان الذي ينشأ الإنسان فيه. وظُلمة المبيض: وهو المكان الموجود في حوض الأنثى على جانبي الرّحم. وظُلمة الخصية: التي تتولّد النّطاف

(**1**) سورة الزّمر: الآية (6).

(**2**) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م12 ص162.

(**3**) نفسه، م12، ص162-163. **يُنظر**: البار، محمّد: **خلق الإنسان بين الطّبّ والقرآن**، ص423، 427.

(**4**) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م12، ص163.

(**5**) **يُنظر**: فخر الدّين الرّازيّ، محمّد: **مفاتيح الغيب–التّفسير الكبير**، ج26، ص424. **يُنظر**: ابن كثير، إسماعيل: **تفسير القرآن العظيم**، ج7، ص76. **يُنظر**: القرطبيّ، محمّد: **الجامع لأحكام القرآن**، ج15، ص236. **يُنظر**: قُطب، سيّد: **في ظلال القرآن**، ج24، ص3039. **يُنظر**: ابن عاشور، محمّد الطّاهر: **التّحرير والتّنوير**، ج23، ص334.

الذّكريّة فيها. وأنّه لا يُمكن أن يتمّ الخلق كاملاً قويّاً دون تشويه إلّا إذا تمّ في جوّ مُظلم؛ لأنّ الخلايا الابتدائيّة لا تعيش في نور الشّمس؛ بل تجفّ أو تتشوّه أو تموت"[1].

هذا، وقد ذكر محمّد علي البار فوائد السّائل الأمنيونيّ الموجود داخل غِشاء السَّلى، أو الأمنيون: فقال: "وللسائل الأمنيونيّ فوائد جمّة لا يُمكن الاستغناء عنها في تكوين الجنين ونموّه في الرّحم، ونجملها فيما يلي:

أ– تغذية الجنين لاحتوائه على موادّ زُلاليّة، وسكّريّة، وأملاح غير عُضويّة يمتصّها الجنين، ممّا يُساعد على تغذيته ونموّه.

ب– حماية الجنين ووقايته من الصّدمات المفاجئة، والحركات العنيفة، والسّقطات التي تتعرّض لها الأُمّ.

ت– يسمح للجنين بالحركة الكاملة داخل الرّحم.

ث– يحتفظ للجنين بدرجة حرارة ثابتة تقريباً، فهو مُكيّف جيّد لا تزيد حرارته ولا تقلّ إلّا في حدود ضئيلة جدّاً.

ج– يمنع هذا السّائل الجنين من الالتصاق بالغشاء الأمنيون، لأنّ الالتصاق من الأسباب المؤدّية إلى حدوث تشوّهات في الجنين"[2].

وقد أضاف محمّد راتب النّابلسيّ فائدتين اثنتين، فقال: "إنّ هذا السّائل نفسه يُسهّل الولادة، وهو الذي يُعين على الانزلاق، وتوسيع الأماكن التي سوف يمرّ منها الجنين. وهذا السّائل حينما يسبق الجنين إلى الخارج يُطهّر، ويُعقّم المجرى لئلّا يُصاب الجنين بالتّسمم"[3]. وأمّا غشاء الكوربون (المشيميّ): فقد ذكر محمّد علي البار أنّه يتركّب من طبقتين: "خارجيّة: بها زغابات وخملات كثيرة تنتقل بواسطتها الأغذية والأكسجين من الأُمّ إلى الجنين، كما ينتقل ثاني أُكسيد الكربون من الجنين إلى دمّ الأُمّ. وداخليّة: تُغطّي كيس الصّفارة، وتشتمل على مبدأ ظهور الأوعية الجنينيّة الخارجيّة"[4].

(**1**) محمّد علي، محمّد سامي: **الإعجاز العِلْميّ في القرآن**، ص123–125.

(**2**) البار، محمّد: **خلق الإنسان بين الطّبّ والقرآن**، ص423، 424.

(**3**) النّابلسيّ، محمّد: **موسوعة الإعجاز العِلْميّ في القرآن والسّنّة آيات الله في الإنسان**، ص92.

(**4**) **يُنظر**: البار، محمّد: **خلق الإنسان بين الطّبّ والقرآن**، ص425.

وذكر أنّ الغشاء السّاقط (مُكوّن من الغشاء المُخاطيّ المُبطّن للرّحم، وهو رقيق وينمو نُموّاً هائلاً بتأثير هرمونات الحمل، فتزيد ثخانته من نصف ميلّيمتر عند بدء الطّهر من الحيض إلى ثمانية ميلّيمترات آخر الدّورة الشّهريّة وقُبيل الحيض، ويُقسم حسب موقعه من الرّحم إلى:

أ– الغشاء السّاقط الموجود بقاعدة الرّحم بين الجنين والرّحم، ويُسمّى بالغشاء السّاقط القاعديّ.

ب– الغشاء المحفظيّ؛ لأنّه كالمحفظة أو الكبسولة التي تُغطّي الجنين.

ت– الغشاء السّاقط الجداريّ، وهو يُغطّي بقيّة جدار الرّحم) [1].

أرى أنّ ما ذكره الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ في بيان المعنى المقصود من الظّلمات الثّلاث، إنّما هو التزام بما توصّلت إليه المكتشفات العِلْميّة والدّراسات الحديثة، ولقد تباينت آراء العلماء وأقوالهم فيها، فمنهم من أطلق عليها الظّلمات التزاما بما ذكره ربّ العالمين في كتابه العزيز، ومنهم من سمّاها أغشية ثلاثة مُختلفة، لها صفات ومميّزات، وتقوم بأدوار مُختلفة. وقدجاءت الدّراسات لتُضيف إلى ما ذكره الشّيخ من فوائد هذه الأغشية أو الظّلمات الثّلاث، ودورها في حفظ الجنين والدّفاع عنه، وتزويده بما يحتاج من أُمور مادّيّة ومعنويّة.

المطلب الرّابع– التّفسير العِلْميّ لآيات تكوين جنس الجنين:

من المعروف بأنّ الحيوانات المنويّة تنقسم إلى قسمين: القسم الأوّل يحمل الكروموسوم –الصّبغيّ– الذّكريّ، والقسم الثّاني يحمل الكروموسوم –الصّبغيّ– الأُنثويّ، وتتواجد الحيوانات المنويّة الذّكريّة والأُنثويّة في السّائل المنويّ مُتجاورة لبعضها البعض بأعداد مُتفاوتة لكلّ منها، بحيث تبدأ هذه الحيوانات المنويّة سباقاً نحو البُيَيْضة حال قذفها في الرّحم، وتكون الفرصة الأكبر لاختراق البُيَيْضة وتلقيحها مُلكاً للحيوانات المنويّة الأسرع في السّباحة والحركة؛ حيث يخترق أوّل حيوان منويّ يصل إلى البُيَيْضة جدارها اللّيّن، والذي يتحوّل تلقائيّاً إلى جدار منيع حال اختراق الحيوان المنويّ الأسرع له مانعاً باقي الحيوانات المنويّة من اختراقه، والسّؤال الأهمّ هنا كيف يتمّ تحديد جنس الجنين ذكراً أم أُنثى؟ وإلى مَنْ ترجع المسؤوليّة في تحديد ذلك؟ هذا ما سأتعرّض إليه في هذا المطلب –إن شاء الله تعالى–.

---

(1) **يُنظر**: البار، محمّد: **خلق الإنسان بين الطّبّ والقرآن**، ص427.

يقول الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ۝٤٥ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ﴾[1] "نفهم من قول الله –عزّ وجلّ– الإشارة إلى حكمة الله العظيمة في خلق الزّوجين، اللّذين انعقدت بانجذاب بعضهما إلى بعض الرّوابط الأُسريّة، وكانت بذلك شبكة التّرابط الاجتماعيّ، وامتدّت من وحدة الأصل، وتلاقي الأزواج، وتفرّع الأنسال، شجرة النّسب الإنسانيّة ذات الفروع والأغصان المتداخلة المتشابكة. ونفهم منه أيضاً أنّ الذّكر والأُنثى كليهما يخرجان من نطفة الرّجل، فلا علاقة لبُيَيْضة المرأة بتحديد كون الجنين ذكراً أو أُنثى، وهذه الحقيقة من حقائق التّكوين الرّبّانيّ لم يعرفها علماء الأحياء والأطبّاء وعلماء الأجنّة إلّا مُتأخّراً، فهي من أمثلة الإعجاز العِلْميّ في القرآن. ونفهم من قول الله –عزّ وجلّ– ﴿إِذَا تُمۡنَىٰ﴾ أي: إذا تُقذف في الرّحم، أنّ الوقت الذي يتمّ عنده توجيه الحُوَين الذّكر، أو الحُوَين الأُنثى من النُّطفة المنويّة، ليكون هو قرين بُيَيْضة الأُنثى، ولينعقد منهما الجنين هو وقت قذف النُّطفة في الرّحم، وهذا هو الذي اكتُشف بالوسائل العِلْميّة التّجريبيّة"[2].

(ولقد وجد العِلْم الحديث أنّ تحديد الجنس ذكراً أم أُنثى إنّما يعود إلى الأيّام الأُولى من تخلّق الإنسان، وبالضّبط في اللّحظة التي التقى فيها الحيوان المنويّ بالبُيَيْضة، فلقد وجد أنّ الحيوانات المنويّة تحوي من الصّبغيّات (23) صبغيّاً، ووجد أنّ الحيوانات المنويّة نوعان من ناحية حمل الصّفات الجنسيّة: فقسم يحمل صبغيّاً يرمز له (X)، وصبغيّاً آخر يرمز له (XY)، كما وُجد أنّ الذّكر تحتوي خلاياه على (23) زوجاً من الصّبغيّات: (22) زوجاً منها تتعلّق بالصّفات الجسميّة، والزّوج الأخير يتعلّق بالصّفات الجنسيّة، وهو مُكوّن من اجتماع صبغيّ (X) مع صبغيّ (Y). وهكذا فإنّ صبغة الذّكر الجنسيّة هي (XY)، بينما وُجد أنّ الأُنثى لا تحتوي إلّا نوعاً واحداً من الصّبغيّات الجنسيّة هي (X) فقط، ووُجد أنّ الصّيغة الجنسيّة في خلايا الأُنثى، هي كما يلي: (23) زوجاً منها (22) زوجاً للصّفات الجسميّة و(XX) الزّوج الأخير للأُنوثة. وبالتّالي فإنّ نطاف الذّكر هي المسؤولة عن تحديد نوع الجنين الذّكر أو الأُنثى؛ لأنّها تحمل الصّبغيّات المتغايرة)[3].

ومن هذا الشّرح البسيط تتبيّن لنا حقيقة مُهمّة، وهي أنّ الذّكر هو الذي يُحدّد جنس الجنين بفضل الحيوانات المنويّة مُتغايرة الصّيغة، فإذا التحم حيوان منويّ يحيوي صيغة (X) كان الجنين أُنثى؛ لأنّ البُيَيْضة بطبيعة الحال تحمل صيغة (X)، فتكون النّتيجة هي الصّيغة الجنسيّة (XX)، وهي صيغة الأُنثى، بينما إذا التقى حيوان منويّ يحمل الصّبغيّ (Y) كان الجنين ذكراً؛ لأنّ الصّيغة ستكون (XY)، وهي صيغة الذّكر.

(**1**) سورة النّجم: الآية (45–46).

(**2**) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، ج2، ص160.

(**3**) **يُنظر**: كنجو، خالص: **الطّبّ محراب للإيمان**، ص76–77. **يُنظر**: محمّد علي، محمّد سامي: **الإعجاز العِلْميّ في القرآن**، ص119–120.

وصدق الله –تعالى– حينما قال: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾[1]، فالآية هنا تُشير إلى أنّ تحديد الجنس يعود للنُّطف عند الذّكر، وهي حقيقة عِلْميّة كشف العِلْم الحديث عن سرّها. ولهذا قال الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ: "جاء التّصريح باسم النُّطفة، وأنّها من مَنيّ الرّجل"[2]، "وجعل من المنيّ الذي يقذفه الرّجل كلا الزّوجين الذّكر والأُنثى، وهذا ما قرّرته البحوث الإنسانيّة أخيراً؛ إذ اكتشف علماء البحث الكونيّ في نشأة تكوين الجنين، أنّ بُيَيْضة المرأة وسط صالح للتّلقيح بِحُوَينٍ ذكر أو بِحُوَينٍ أُنثى. وأنّ نطفة الرّجل هي التي تحمل الحُوينات من النّوعين: الذّكور والإناث، فإذا سبق حُوَين الذّكر بقضاء الله وقدره جاء الجنين ذكراً، وإذا سبق حُوَين الأُنثى بقضاء الله وقدره جاء الجنين أُنثى، والأمر يخضع في أصل التّكوين لأمر الله التّكوينيّ"[3]. "وهذه حقيقة أثبتها العِلْم المعاصر، فنُطفة الرّجل هي الحاملة للقاحات الذّكورة والأنوثة، وبُيَيْضة المرأة حياديّة صالحة لاستقبال لقاح الذّكر من نُطفة الرّجل، أو لقاح الأُنثى، وهذا اللّقاح حُيَيْوين صغير جدّاً مُذّكر أو مُؤنّث"[4].

هذا، وقد أشارت الدّراسات العِلْميّة إلى (أنّ بُيَيْضة المرأة هي أكبر خليّة إنسانيّة؛ إذ يبلغ قُطرها مائتي ميكرون، والسّبب في ذلك: أن البُيَيْضة تحتوي على 23 كروموسوماً –صبغيّاً–، والحيوان المنويّ يحتوي على 23 كروموسوماً، فإذا اتّحدا أصبحت البُيَيْضة تحمل 46 كروموسوماً)[5]. "كما أنّه لا يُمكن أن تكون المرأة مسؤولة عن ذكورة اللّاحقة رغم أنّها تُسهم فيها بأمشاجها؛ لأنّ كروموسوم الذّكر (XY)، وكروموسوم الأُنثى (XX)، وإنّ الصّبغيّ (Y) يوجد في الذّكر ولا يوجد في الأُنثى"[6]. "ومع هذا كلّه فهذا جزء سبب ليس بموجب، والسّبب الموجب مشيئة الله، فقد يُسبّب بضدّ السّبب، وقد يُرتّب عليه ضدّ مقتضاه، ولا يكون في ذلك مُخالفة لحكمته، كما لا يكون تعجيزاً لقدرته، وقد أشار في الحديث إلى هذا بقوله: {أَذكرٌ

---

(1) سورة القيامة: الآية (36–39).

(2) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م2، ص159.

(3) نفسه، م2، ص520–521.

(4) نفسه، م3، ص288.

(5) **يُنظر**: البار، محمّد: **خلق الإنسان بين الطّبّ والقرآن**، ص173.

(6) الجميليّ، السّيّد: **الإعجاز الطّبّيّ في القرآن**، ص50.

أم أُنثى}[1]، وقد قال تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[2]، فأخبر سبحانه أنّ ذلك عائد إلى مشيئته، وإنّه قد يهب الذّكور فقط، والإناث فقط، وقد يجمع للوالدين بين النّوعين معاً، وقد يُخلّيهما عنهما معاً، وأنّ ذلك كما هو راجع إلى مشيئته، فهو مُتعلّق بعلمه وقدرته"[3].

أرى أنّ الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ أوجز في تفسيره ما أدّت إليه المكتشفات العِلْميّة المعاصرة من خلق النُّطفة: الذّكر، الأُنثى، وكيفيّة تكوينها، ولم يذكر الصّفات التي تحملها النُّطفة؛ لتكون ذكراً أو أُنثى- الأمشاج-، وذلك لأنّ كلمة الأمشاج وردت في سورة الإنسان، وهي مدنيّة، في قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾[4]، فالشّيخ لم يُكمل تفسيره ليُبيّن لنا المقصود منها -حسب اعتقادي-؛ بيد أنّه بيّن نشأة تكوين الجنين، وذكر مكان تكوّنه في رحم المرأة، وهو ما جاء العِلْم الحديث ليؤكّده. وبالتّالي أرى أنّ كلام الشّيخ لا يخرج عن القواعد والضّوابط الموضوعة لقبول التّفسير العِلْميّ.

المقصود بالأمشاج: الخلايا الذّكريّة والخلايا الأُنثويّة قبل أن يندمجا لتكوين اللّاقحة[5]. والأمشاج في اللّغة من (المَشْجُ والمَشِجُ والمشَجُ والمَشِيجُ: كُلُّ لَوْنينِ اخْتلَطا، وَقِيلَ: هُوَ مَا اخْتَلَطَ مِنْ حُمْرَةٍ وَبَيَاضٍ، وَقِيلَ: هُوَ كُلُّ شَيْئَيْنِ مُخْتَلِطَيْنِ، وَالْجَمْعُ أَمْشاجٌ. والأَمشاجُ الأَخلاطُ؛ يُرِيدُ الأَخْلاطَ النّطفةَ؛ لأَنها مُمْتَزِجةٌ مِنْ أَنواعٍ، وَلِذَلِكَ يُولَدُ الإِنسان ذَا طَبائعَ مُختلفةٍ. والمَشِيج مَاءُ الرَّجُلِ يَخْتَلِطُ بماءِ المرأَة. وَيُقَالُ: نُطْفَةٌ أَمْشاجٌ لِمَاءِ الرَّجُلِ يَخْتَلِطُ بِمَاءِ المرأَةِ ودَمِها)[6]. يقول الله -تعالى-: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ

---

(1) رواه البخاريّ عن أنس بن مالك -رضي الله عنه-، ورواه مُسلم عن عامر بن واثلة -رضي الله عنه-. البخاريّ، محمّد: **الجامع المُسند الصّحيح المُختصر من أُمور رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- وسُننه وأيّامه**، ج8، ص122، كتاب القدر، باب في القدر، حديث رقم: 6595. مُسلم، مُسلم: **المُسند الصّحيح المُختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-**، ج4، ص2037، كتاب القدر، باب كيفيّة خلق الآدميّ في بطن أُمّه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، حديث رقم: 2645.

(2) سورة الشّورى: الآية (49-50).

(3) ابن قيّم الجوزيّة، محمّد: **التّبيان في أقسام القرآن**، ص343.

(4) سورة الإنسان: الآية (2).

(5) الحنّاويّ، كمال الدّين: **مُعجم مُصطلحات الأحياء**، ص193.

(6) **يُنظر**: ابن منظور، محمّد: **لسان العرب**، باب الجيم، فصل الميم، ج2، ص367. **يُنظر**: ابن سِيدَه، علي: **المُحكم والمُحيط الأعظم**، ج7، ص253.

فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾[1]. يقول الفرّاء: "الأَمْشاجُ: الأخلاط، ماء الرّجل، وماء المرأة، والدّم، والعَلَقة"[2]. ويقول الطّبريّ: أمْشاج، يعني: "أخلاط، وهو اختلاط ماء الرّجل بماء المرأة"[3]. ويقول ابن كثير: "أمشاج، أي أخلاط، والمشج والمشيج: الشّيء المختلط بعضه في بعض، قال ابن عبّاس: يعني ماء الرّجل وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا، ثمّ ينتقل بعد من طور إلى طور وحال إلى حال ولون إلى لون، والأمشاج هو اختلاط ماء الرّجل بماء المرأة"[4].

كما "أنّ البُيَيْضة الملّقحة خليّة لها نواة عليها صبغيّات، وفيها المورثات، وإنّ عدد هذه المعلومات التي تحتويها المورثات كبير جدّاً، عُرف من هذه المورّثات حتّى الآن ثمانمائة مورّث فقط، هذه المورّثات في الحُوَين تتفاعل مع المورثات في البُيَيْضة، وتنشأ البُيَيْضة الملقّحة من مورّثات الحُوَين، ومورّثات البُيَيْضة، وهذا ما عناه ربّنا –سبحانه وتعالى– حينما قال:﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾"[5].

وعند قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾[6]، يقول الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ: "إنّ في عبارة ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ تذكير للإنسان ممّ خُلق، واختير في هذا التّذكير من مراحل نشأته مرحلة الماء الدّافق، وهي مرحلة وسطى من مراحل أطوار خلقه، وهذه المرحلة معروفة لكلّ إنسان بلغ الحُلُم"[7]. وقد بيّن الشّيخ المقصود منه، فقال: "الماء الدّافق: هو مَنيّ الذّكر الذي يخرج مُنصبّاً مقذوفاً بموجات من الصّبّ مُتتابعة، وسمّاه الله ماء؛ لأنّه نوع من أنواع المياه ذوات الخلائط المختلفة، وأُطلق عليه في نصوص أُخرى اسمه المعروف وهو كلمة: مَنيّ"[8]. وقال أيضاً: وعبارة

يُنظر: الجوهريّ، إسماعيل: **الصّحاح تاج اللّغة وصحاح العربيّة**، ج1، ص341. **يُنظر**: الزّبيديّ، محمّد: **تاج العروس من جواهر القاموس**، مادّة (مَشَجَ)، ج6، ص214.

(**1**) سورة الإنسان: الآية (2).

(**2**) الفرّاء، يحيى: **معاني القرآن**، ج3، ص214.

(**3**) الطّبريّ، محمّد: **جامع البيان في تأويل القرآن**، ج24، ص88–89.

(**4**) ابن كثير، إسماعيل: **تفسير القرآن العظيم**، ج8، ص292.

(**5**) النّابلسيّ، محمّد: **موسوعة الإعجاز العِلْميّ في القرآن والسّنّة آيات الله في الإنسان**، ص92.

(**6**) سورة الطّارق: الآية (5–7).

(**7**) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م3، ص265.

(**8**) نفسه، م3، ص265–266.

﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ "أبانت أنّ الماء الدّافق (المنيّ) الذي يقذفه الذّكر يخرج من مكان ما بين الصّلب والتّرائب"[1]. ثمّ ذكر معنى كلّ من الصّلب والتّرائب. فقال: "الصّلب: هو العمود الفقريّ وهو الفقرات العظميّة في الظّهر من لدن الكاهل إلى عَجْب الذَّنَب، وجمع صُلب أَصْلاب وأَصْلُب. والتّرائب هي عظام الصّدر، وأعلاها موضع القلادة من الصّدر الواحدة منها: تَريبة"[2].

ثمّ عقّب الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ بقوله: "أمّا كون الماء الدّافق يخرج من بين الصّلب والتّرائب، فهو من الخفايا العِلْميّة التي جعلها الله –عزّ وجلّ– من الكنوز القرآنيّة المدّخرة لتكون إعجازاً عِلْميّاً فيه، يُكتشف حين يتوصّل الباحثون العِلْميّون إلى حقيقته التّكوينيّة في الواقع. وقد وقع كثير من المفسّرين الأقدمين في الخطأ لدى تفسير هذه العبارة، فقالوا: من صلب الرّجل وترائب المرأة؛ إذ لم تكن الحقيقة العِلْميّة معلومة لهم، حتّى يُفسّروا النّصّ بها، وإن كان المنهج العمليّ يقضي بأن نقول فيما نجهل حقيقته: الله أعلم بمراده. وغاية ما يُمكن قوله فيما نجهل حقيقته طرح الاحتمالات التي يُمكن أن يدلّ عليها النّصّ دون جزم بواحد منها، وترك التّحديد لما تثبته الحقائق العِلْميّة التي تُكتشف بالوسائل الإنسانيّة. فالله –عزّ وجلّ– قد جعل في كتابه كنوزاً إعجازيّة ادّخرها للعصور المستقبلة التي تأتي بعد عصر التّنزيل، وهي تُكتشف تباعاً مع تقدّم المعارف الإنسانيّة التي يُلهم الله النّاس البحث عنها، والوصول إلى معرفة حقيقتها، ولو كانوا من الكافرين به"[3]. وفي هذا دليل على أنّ الشّيخ يلتزم بضّوابط التّفسير العِلْميّ.

وقال الشّيخ –أيضاً–: "أضاف هذا البيان وصفين للماء الذي يخلق الله منه الإنسان: الوصف الأوّل: أنّه ماء دافق، أي: يخرج دَفْقاً على طريقة القذف المَوْجيّ المتدافع، لا على طريقة السَّيلان، ولا على طريقة الرَّشْح. الوصف الثّاني: أنّه يخرج من بين الصّلب والتّرائب. وقد أثبتت الدّراسات العِلْميّة المعاصرة هذه الحقيقة العِلْميّة، وأبانت التّطابق بين البيان القرآنيّ، والحقائق العِلْميّة حول هذا الموضوع"[4].

وقد نقل ما كتبه محمّد علي البار في كتابه: خلق الإنسان بين الطّبّ والقرآن، حول المنيّ؛ حيث قال: "تقول الآية الكريمة: إنّ الماء الّدافق يخرج من بين الصّلب والتّرائب. ونحن قد قُلنا: إنّ هذا الماء المنيّ إنّما يتكوّن من الخصية ومُلحقاتها، كما تتكوّن البُيَيْضة في المبيض لدى المرأة. فكيف تتطابق الحقيقة العِلْميّة مع

---

(1) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م3، ص266.

(2) نفسه.

(3) نفسه، م3، ص267.

(4) نفسه، م3، ص290.

الحقيقة القرآنيّة؟ إنّ الخصية والمبيض إنّما يتكوّنان من الحَدَبَة التّناسليّة بين صُلب الجنين وترائبه. والصّلب هو: العمود الفقريّ، والتّرائب هي: الأضلاع -أي أضلاع الصّدر-. وتتكوّن الخصية والمبيض في هذه المنطقة بالضّبط -أي بين الصّلب والتّرائب-، ثمّ تنزل الخصية تدريجيّاً حتّى تصل إلى كيس الصَّفَن -خارج الجسم- في أواخر الشّهر السّابع من الحمل، بينما ينزل المبيض إلى حوض المرأة ولا ينزل أسفل من ذلك. ومع هذا فإنّ تغذية الخصية والمبيض بالدّماء والأعصاب واللَّمْف، تبقى من حيث أصلها -أي من بين الصُّلب والتّرائب-. فشريان الخصية أو المبيض يأتي من الشّريان الأبهر -الأَورطيّ البطنيّ- من بين الصّلب والتّرائب، كما أنّ وريد الخصية يَصُبّ في المنطقة نفسها. ويَصبّ الوريد الأيسر في الوريد الكلويّ الأيسر، بينما يَصبّ وريد الخصية الأيمن في الوريد الأجوف السّفليّ. وكذلك أوردة المبيض وشريانها تَصبّ في المنطقة نفسها -أي بين الصّلب والتّرائب-، والأعصاب المغذّية للخصية أو المبيض تأتي من المجموعة العصبيّة الموجودة تحت المعدة من بين الصّلب والتّرائب. وكذلك الأوعية اللَّمفاويّة تَصبّ في المنطقة نفسها -أي بين الصّلب والتّرائب-. فهل يبقى بعد هذا شكّ في أنّ الخصية أو المبيض إنّما يأخذان تغذيتهما وأعصابهما من بين الصّلب والتّرائب؟ فالحيوانات المنويّة لدى الرّجل أو البُيَيْضة لدى المرأة إنّما تستقي موادّ تكوينها من بين الصّلب والتّرائب، كما أنّ منشأها ومبدأها هو من بين الصّلب والتّرائب. والآية الكريمة إعجاز كامل؛ إذ تقول: ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾، ولم تَقُل من الصّلب والتّرائب، فكلمة (بين) ليست بلاغيّة فحسب، وإنّما تُعطي الدّقّة العِلْميّة المتناهية"[1].

ثمّ علّق الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ بقوله: "بعد هذا التّحقيق العِلْميّ الذي يكشف التّوافق الكامل بين ما جاء في القرآن المجيد، وما تقرّره الدّراسات العِلْميّة الإنسانيّة حول كون الماء الدّافق يخرج من بين الصّلب والتّرائب، لا بدّ أن تدفعنا الدّوافع الإيمانيّة إلى الخضوع الكامل لجلال الله الرّب الخالق، والإذعان الكامل إلى أنّ القرآن المجيد كلام الله -جلّ جلاله-، وتباركت أسماؤه وصفاته. إنّه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. وما على المتدبّرين إلّا أن يُحسنوا تدبّره، أو يتريّثوا حتّى يُهيّئ الله -تبارك وتعالى- وسائل بيان ما جهلوا أو خفي عليهم أو اشتبه عليهم منه، فقد تكفّل جلّ وعلا ببيانه"[2]. (وهذه الحقيقة لم تُعرف للباحثين العِلْميّين إلّا بعد نزول الخبر بها بما يزيد على

---

(1) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م3، ص268-269. **يُنظر**: البار، محمّد: **خلق الإنسان بين الطّبّ والقرآن**، ص116.

(2) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م3، ص269-270.

ثلاثة عشر قرناً، هي من دقائق الإعجاز العِلْميّ في القرآن، ولا يُخبر عنها بصدق إلّا العليم بها، وهو واضع خطّتها، وخالقها، وواضع خطّة الوجود كلّه، ويخلق كلّ شيء في أجله المحدّد له)[1].

وعند قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾[2]، يُبيّن الشّيخ معنى المنيّ، "وهو سائل أبيض غليظ تسبح فيه الحيوانات المنويّة، يخرج من القضيب إثر جماع أو نحوه، ومنشؤه إفرازات الخصيتين، ويختلط به إفراز الحُوَيصلتين المنويّتين، والبروستاتة، وغدد المَبال –مجرى البول–"[3]. ثمّ ذكر المقصود من المنيّ عند الأطبّاء، فقال: "المنيّ عند الأطبّاء يُطلق على الإفرازات التّناسليّة للرّجل، تُفرزها الخُصية، والبروستاتا، والحُوَيصلة المنويّة، وهو مكوّن من عُنصرين: الحيوانات المنويّة، التي تتكوّن من القنوات المنويّة في الخصية. والسّائل الذي يحمل الحيوانات المنويّة، ويُغذّيها، وهي تسبح فيه حتّى تصل إلى الرّحم، ويحميها من الإفراز الحامضيّ القاتل لها في المهبل. والدّفقة الواحدة من المنيّ تحمل مائتي مليون حيوان منويّ فأكثر، والذي يُلقّح البُيَيْضة حيوان منويّ واحد للجنين الواحد بسب العادة. وفي الرّحلة الطّويلة التي تسعى الحيوانات المنويّة لاجتياز مسافتها، من المهبل، فعنق الرّحم، فالرّحم، فقناة الرّحم لتلتقي بالبُيَيْضة، تهلك الأعداد الكثيرة منها، ولا تصل منها إلى قرب جدار البُيَيْضة إلّا مئات منها، وبالمشيئة الرّبانيّة يختار بحسب العادة واحد منها، لاختراق جدار البُيَيْضة، وتحجز البقيّة عن الاختراق فتهلك. والذّكورة والأُنوثة في الجنين تأتيان من الحيوان المنويّ الملقّح، الآتي من الزّوج الذّكر، فإذا كان ذكراً تكوّن الجنين ذكراً، وإذا كان أُنثى تكوّن الجنين أُنثى بقضاء الله وقدره، ومحض مشيئته واختياره.

وقد اكتشف متابعو البحث من علماء الأجنّة، في أواخر القرن التّاسع عشر الميلاديّ، وفي القرن العشرين، عجائب مُذهلة في مَنيّ الرّجل، وبيوض المرأة، وفي التّراتيب والتّدابير الرّبانيّة، التي يتحقّق بها إنشاء الجنين، حتّى ولادته طفلاً، وتناميه إلى أن يكون إنساناً كاملا، ما يدلّ دلالة قطعيّة على أنّ مُنزل القرآن هو خالق الأكوان، وهو العليم بما خلق وبرأ وأنشأ"[4].

---

(1) **يُنظر**: الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م3، ص271–272.

(2) سورة الواقعة: الآية (58).

(3) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م8، ص481. **يُنظر**: البار، محمّد: **خلق الإنسان بين الطّبّ والقرآن**، ص110–114.

(4) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م2، ص236–237. م8، ص481–482. **يُنظر**: البار، محمّد: **خلق الإنسان بين الطّبّ والقرآن**، ص110–114.

هذا، وقد أشارت الدّراسات أنّ النّطفة تنقسم إلى ثلاثة أنواع: "النّطفة المذكّرة: وهي الحيوانات المنويّة الموجودة في المنيّ، والتي تُفرزها الخُصية. والنّطفة المؤنّثة: وهي البُيَيْضة التي يفرزها المبيض مرّة في الشّهر. والنّطفة الأمشاج: وهي النُّطفة المختلطة من الحيوان المنويّ الذي يُلقّح البُيَيْضة"[1].

أرى أنّ الشّيخ عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميدانيّ لا يتطفّل على ما ليس له فيه اختصاص؛ وكان أميناً في نقله من ذوي الاختصاص، وهذا ما أكّده بقوله: "لا أُريد أن أتطفّل على ما ليس لي فيه اختصاص، ولكن أنقل ما كتبه باحث عالم مسلم طبيب ذو اختصاص في هذا الفنّ"[2]. وحديثه عن حقيقة الماء الدّافق في جسم كلّ من الرّجل والمرأة، لدليل على عظيم مكانته العِلْميّة، ومواكبته للتّطوّر العِلْميّ، وقد جاءت الدّراسات العِلْميّة مؤكّدة كلام الشّيخ لمراحل الخلق وتكوّن الماء ومصدره، وأضافت أنّ النُّطفة تنقسم إلى ثلاثة أقسام، وكشفت عن الفترة الزّمنيّة بين كلّ مرحلة وأُخرى في منتهى الدّقّة والبيان.

(**1**) البار، محمّد: **خلق الإنسان بين الطّبّ والقرآن**، ص109.

(**2**) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م3، 268. **قلت**: يقصد بقوله: هذا الفنّ: الدّكتور محمّد علي البار.

الفصل الخامس

تقويم ومقارنة

المبحث الأوّل: مكانة الشّيخ عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميدانيّ العِلْميّة.

المبحث الثّاني: القيمة العِلْميّة لتفسير الشّيخ عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميدانيّ.

المبحث الأوّل

مكانة الشّيخ عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميدانيّ العِلْميّة

قد أثنى على الشّيخ معاصروه، ومَن جاء بعدهم بالثّناء الحسن، ووصفوه بالأوصاف العِلْميّة التي تدلّ على علوّ قدره وشأنه. وممّن شهد له بالتّقدم في العِلْم، والتّوسّع في المعارف زوجته[1]؛ حيث وصفته بأنّه "مدرسة خاصّة قائمة بذاتها في عِلْمه ومنهجه، تأليفاً ومنحى، وابتكاراً واستنباطاً، وتحليلاً وربطاً"[2]، "ثمّ إنّ طائفة من أساتذة الجامعة كانوا ينادونه بـ (شيخنا)، ويُجلّونه؛ لعِلْمه وسعة أُفقه، ويُلقّبونه بألقاب عِلْميّة، وتربويّة، وتوجيهيّة، قلّ مَنْ أُطلقت عليه؛ حتّى إنّ بعضهم دعاه بـ (غزاليّ عصره)، وآخر بأنّه (أبو الغزو الفكريّ والثّقافة الإسلاميّة)، وبعضهم وصفه بقوله: جمع فأوعى، وكتب فوعّى. وقال له أحد زملائه من الأساتذة الفضلاء بعد أن قرأ في كتبه: لقد أَعَدْتَ صياغتنا من جديد يا شيخنا"[3].

وقال بعضهم عنه أيضاً: "مَن يقرأ كُتبه يتعلّم كيف يُفكّر، ويُصاغ صياغة على أُسس دينيّة حكيمة، وعقليّة منطقيّة سليمة. ووصفه آخرون بأنّه كنز من كنوز هذا العصر. وقيل عنه أيضاً: إنّه يغرف من مَعين المعقول، ويغوص بحثاً عن دُرر المنقول"[4].

ويقول محمّد المجذوب: "وقد شهدت معه بعض المؤتمرات في مكّة المكرّمة، والهند، والمدينة المنوّرة، واستمعت إلى مُناقشاته التي تنمّ عن تَمكّن عالم، ورهافة أديب وشاعر"[5].

ويقول مجد مكّيّ[6]: "لقد حظيت بالتّعرّف إلى فضيلة الشّيخ منذ قدومي إلى مكّة المكرّمة سنة 1400هـ، وحضرت بعض دروسه ومُحاضراته في الجامعة، وقرأت أكثر كُتبه، وانتفعت بها انتفاعاً كبيراً، ثمّ كثُرت زياراتي له، واتّصالي به، بعد تفرّغه من عمله الجامعيّ، وتوجّهه لتفسيره التّدبّريّ. فكنت أزوره في كلّ أُسبوع بمنزله بمكّة المكرّمة، وقد زرته بصحبة كثير من العلماء وطلبة العِلْم، وكنّا نلقى منه كلّ حفاوة

---

(1) عائدة راغب الجرّاح، أستاذة في جامعة أمّ القرى سابقاً.

(2) الجرّاح، عائدة: **عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ العالم المُفكّر المُفسّر، زوجي كما أعرفه**، ص21.

(3) نفسه، ص46.

(4) نفسه، ص46.

(5) المجذوب، محمّد: **علماء ومُفكّرون عرفتهم**، ج3، ص62.

(6) **هو**: مجد بن أحمد بن سعيد مكّيّ، أحد أبرز علماء أهل السّنّة والجماعة ومن المتخصّصين بعلوم الحديث النّبويّ، ولد في مدينة حلب في سورية. من مُؤلّفاته: مُقدّمات الشّيخ عليّ الطّنطاويّ، والتّعريف بكتاب معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر للميدانيّ، والمعين على تدبّر الكتاب المبين. **يُنظر**: موقع ويكيبديا الموسوعة الحرّة: **ترجمة مجد مكّيّ**، على الرّابط الآتي: https://ar.wikipedia.org

وتكريم، ونستفيد من توجيهاته التّربويّة، وفوائده العِلْميّة. وبعد عودته إلى دمشق استمرّت صلتي به، وكنت أتّصل به إلى دمشق أطمئنّ عن صحّته وعطائه، فأجده مُستبشراً مُتفائلاً فرحاً. وحدّثني عن اللّمحات التّدبّريّة التي استنبطها من سورة العنكبوت، وأفاض في حديثه عمّا يفتح الله -عزّ وجلّ- عليه من حُسن تدبّر لكتابه العظيم، وما وهبه من همّة وعزم ونشاط على مُتابعة الكتابة فيه، وكنت أدعو الله -سبحانه- له بتمام العافية والتّوفيق؛ لإتمام تدبّره لكتاب الله -سبحانه-. ولكن حال الأجل دون تحقيق الأمل، ولئن لم يتمّ الشّيخ تفسيره، فقد قدّم بما كتب ثروة عِلْميّة ضخمة، وزاداً تدبريّاً وفيراً، ورسم منهجاً فريداً لتذوّق كلام الله وحُسن تدبّره"[1].

ويقول محمّد علي دولة[2]: "تَخلّق الشّيخ الميداني بأخلاق الإسلام، ونال نصيباً كبيراً من مكارم الأخلاق، كان مُتواضعاً، لطيف المعشر، ودَوداً بَشوشاً، مُخلصاً في علمه -إن شاء الله-؛ إذ كان يعزو كلّ فضل وتوفيق إلى الله، وكان يريد بعمله وجه الله -عزّ وجلّ-، ولا يريد أن يُمدَح وأن يُطرَى بما ألّف وكتب. وقد دُعي لحفل تكريم في دار عامرة اشتُهرت بتكريم العلماء والفُضَلاء في جدّة، وكنت المكلَّف بتبليغه هذه الدّعوة، فقال لي: لا أحبّ أن يمدحني النّاس، وإنّما أريد أن يتقبّل الله عملي، فقلت: إنّ هذا الحفل يستفيد منه كثير من النّاس من عِلْمك ورأيك، وسوف تُسأل أسئلة عديدة وتجيب عنها، فقال لي: هل تضمن لي أن لا أُمدح؟ قلت: لا، فقال: إذن لا أُريد حفل التّكريم هذا!" [3].

---

(1) **يُنظر**: موقع رابطة العلماء السّوريّين، تحت عنوان: **الشّيخ عبد الرّحمن حبنكة الميداني-من أعلام المُفسّرين في العصر الحاضر**، على الرّابط الآتي: https://islamsyria.com

(2) **هو**: هو الشّيخ العالم الدّاعية النّاشر محمّد علي دولة. من مواليد مدينة الكسوة في غوطة دمشق. أسّس دار القلم للطّباعة والنّشر والتّوزيع بدمشق. من مُؤلّفاته: قصص من حياة الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- وأصحابه، ولتفسدنّ في الأرض مرّتين، والعلّامة الشّيخ عبد الرحمن حبنكة قصّة حياة ومسيرة عِلْم وجهاد. تُوفّي سنة 2016م. **يُنظر**: موقع رابطة أُدباء الشّام، **ترجمة محمّد علي دولة**، على الرّابط الآتي: http://www.odabasham.net

(3) **يُنظر**: موقع إشراقات، تحت عنوان: **العلاّمة الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة قصةُ حياة ومسيرة عِلْم وجهاد**، على الرّابط الآتي: http://ishrakat.com

المبحث الثّاني

القيمة العِلْميّة لتفسير الشّيخ عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميدانيّ

"معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر"

تتبيّن القيمة العِلْميّة لهذا التّفسير بقيمة التّفسير ذاته، فهو من أشرف وأجلّ العلوم؛ لارتباطه بكتاب الله تعالى –القرآن الكريم–، قال السّيوطيّ: "وقد أجمع العلماء أنّ التّفسير من فروض الكفايات وأجلّ العلوم الثّلاثة الشّرعيّة"[1]. كما تتبيّن لنا قيمته –أيضاً– بقيمة مُؤلّفه المعروف بقدره ومكانته العِلْميّة وثناء العلماء عليه، وبعُلوّ كعبه في العِلْم، ورسوخه في التّفسير، وبكثرة مُؤلّفاته وتنوّعها.

ثمّ إنّ العِلْم بحر واسع، لا يُمكن لأيّ إنسان الإحاطة به من كلّ جوانبه، دون الوقوع في نقص أو خطأ، مهما أُوتي من قوّة الذّكاء والعقل؛ لأنّ الكمال لله –تعالى–، وكلّ مأخوذ من قوله ومتروك إلّا المعصوم –صلّى الله عليه وسلّم–، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[2]، كما أنّ وقوع المفسّر في أخطاء أمر طبيعيّ؛ ذلك لأنّ النّقص قد يعتري الإنسان، ولا يجوز لنا أن ننزّه أيّ مُفسّر، وأيّ عالم مهما كانت درجته من العِلْم عن الوقوع في الخطأ، ولا بدّ من عرض نتاجه وفكره على قواعد التّفسير[3]، ونرى كيف كان تفسيره للقرآن الكريم، وما هي مزاياه؟ فنسجّلها، وما هي الملاحظات عليه؟ فنلتمس له العذر فيما أخطأ فيه؛ لاسيّما إن كان الباعث والمقصد سليمين، وبعيدين عن تأييد فكرة مُنحرفة، أو نُصرة فرقة ضالّة، أو غير ذلك من الأُمور الباطلة.

وفي ضوء الدّراسة السّابقة لطريقة الشّيخ ومنهجه في التّفسير، وكيفيّة تناوله للقضايا العِلْميّة –الكونيّة والإنسانيّة– تتّضح القيمة العِلْميّة لتفسيره؛ إذ يُعدّ من المؤلّفات المتميّزة في التّفسير. **ويمكن إبراز هذه القيمة من ناحيتين: الأولى– مزايا تفسيره:**

1. الجهد العِلْميّ المبذول فيه، فقد أولاه من وقته وإخلاصه وجهده قدراً كبيراً، تمثّل لنا في عِلْمه الغزير، وفهمه الدّقيق. إضافة إلى يُسر العبارة وسهولة الأسلوب، ممّا يسهل فهمه على العامّ والخاصّ. "فقد حرص الشّيخ على أن يُلبس فكرته ما يُلائمها من الألفاظ؛ ليكون المضمون

---

(1) السّيوطيّ، عبد الرّحمن: **الإتقان في علوم القرآن**، ج4، ص199.

(2) سورة الإسراء: الآية (85).

(3) **يُنظر**: العنزيّ، عبد الله: **المقدّمات الأساسية في علوم القرآن**، قواعد التّفسير، ص392-429. **يُنظر**: الطّيّار، مُساعد: **فصول في أُصول التّفسير**، ص118-126. **يُنظر**: زرزور، عدنان: **مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه**، ص224-229.

مُطابقاً للقالب اللّفظيّ، دون زيادة تُوقعه في الحشو الغثّ الذي يُعتبر من فضول الكلام، ودون نقص يجعله خديجاً"[1].

2. الاعتماد على القراءات الصّحيحة المتواترة عن الأئمّة العشرة، دون غيرها من القراءات الضّعيفة أو الشّاذّة.
3. التّحلّي بالأدب الرّفيع والاستقلاليّة في بناء الرّأي، والتّحرّر من التّبعيّة الفكريّة عند مُناقشة أقوال السّابقين من مُفسّرين ونحويّين، وغيرهم، فلم ينشغل الشّيخ بالتّرصّد لأخطاء الآخرين؛ بل التزم باحترام الرّأي الآخر.
4. إبراز الوَحدة الموضوعيّة للسّورة، وذلك بتتبّع الآيات القرآنيّة ذات الدّلالات المشتركة في الموضوع الواحد، وتفسيرها بما يتناسب ووَحدة موضوع السّورة، وهذا اللّون من التّفسير[2] بدا وضحاً في تفسير الشّيخ؛ حيث كان يجمع الآيات القرآنيّة المُتعلّقة بموضوع واحد ويدرسها دراسة تدبّريّة تأمّليّة، مُطبّقاً ما قرّره من قواعد في كتابه (قواعد التّدبّر الأمثل لكتاب الله –عزّ وجلّ–،)[3]، فيبدأ بعرض الآيات، ثمّ بيان للمفردات القرآنيّة، ثمّ بالمعنى العامّ للآيات، ذاكراً أسباب النّزول، والقضايا اللّغويّة التي تخدم النّصّ القرآنيّ، إلى غير ذلك من القضايا، ممّا يُثري الموضوع ويُحيط بجوانبه كافّة. يقول الشّيخ: "إنّ أُسلوب القرآن قائم على توزيع عناصر موضوع واحد في سور مُتعدّدة، فإذا جُمعت هذه العناصر تكامل منها الموضوع الكلّيّ المُراد بيانه، وهذا الأسلوب مع

---

(1) الجرّاح، عائدة: **عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ العالم المُفكّر المُفسّر، زوجي كما أعرفه**، ص26.

(2) **أقول:** إنّ هذا اللّون من التّفسير يُطلق عليه التّفسير الموضوعيّ، "وهو عِلْم يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنيّة من خلال سورة أو أكثر". مُسلم، مُصطفى: **مَباحث في التّفسير الموضوعيّ**، ص16. وعرّفه عبد السّتّار، فقال: "هو عِلْم يبحث في قضايا القرآن الكريم، المتّحدة معنى أو غاية، عن طريق جمع آياتها المتفرّقة، والنّظر فيها، على هيئة مخصوصة، بشروط مخصوصة لبيان معناها، واستخراج عناصرها، وربطها برباط جامع". سعيد، عبد السّتّار: **المدخل إلى التّفسير الموضوعيّ**، ص20. وهذا التّعريف شبيه بالسّابق؛ ولكن مع توسّع في التّعريف. ويرى الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ أنّه: "لم تتّضح بعدُ معالمه وعناصره وشروطه بصورة تطبيقيّة، ولا بمنهاج مرسوم حتّى يترسّم الباحثون خطوطه وخطواته تدبّراً وجمعاً واستنباطاً". الميدانيّ، عبد الرّحمن: **نوح –عليه السّلام–، وقومه في القرآن المجيد، دراسة في طريق التّفسير الموضوعيّ**، ص5.

(3) **يُنظر:** الميدانيّ، عبد الرّحمن: **قواعد التّدبّر الأمثل لكتاب الله –عزّ وجلّ–**، ص13–44. **القاعدة الأولى:** حول ارتباط الجملة القرآنيّة بموضوع السّورة، وارتباطها الموضوعيّ بما تفرّق في القرآن المجيد. **والقاعدة الثّانية:** حول وَحدة موضوع السّورة القرآنيّة، وغيرها. **يُنظر:** الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م2، ص499–501، حول حبّ العاجلة في النّصوص القرآنيّة. م2، ص621–664، حول الرّياح في القرآن المجيد. م6، ص672–683، حول ما جاء من صفات عباد الرّحمن في سائر القرآن. م7، ص420–493، حول التّدبّر التّكامليّ للنّصوص القرآنيّة بشأن مريم –عليها السّلام–. وغير ذلك من الموضوعات المبثوثة في ثنايا التّفسير. على سبيل المثال.

التّكامل الدّقيق هو من عناصر إعجاز القرآن. ومن فوائد هذا التّوزيع التّركيز على العنصر المختار في البيان الذي يُساق فيه، مع التّذكير بأصل الموضوع الكلّيّ المُوزّع، والتّخلّص من ركاكة التّكرير، وإبعاد المتدبّر عن الملل والسّأم فيما لو جُمعت له كلّ العناصر حول موضوع واحد في نصّ واحد"[1].

5. التّفسير العِلْميّ للآيات التي تتضمّن حقيقة عِلْميّة وفق ضوابط مُعيّنة قام بوضعها، وهذا ظاهر في تفسيره عند مجيء القضايا العِلْميّة المختلفة -كما ظهر سابقاً-؛ حيث يقوم الشّيخ بتدبّرها بمقتضى ما ثبت من الحقائق العِلْميّة الثّابتة التي لا تقبل النّقد ولا التّعديل، ولا يُمكن أن يتطرّق إليها التّغيير أو التّبديل؛ لأنّ الآيات القرآنيّة حقائق ثابتة، فلا تُفسّر إلّا بحقائق ثابتة.

الثّانية- الملاحظات على تفسيره:

ظهر لي من خلال قراءتي لتفسير الشّيخ، وبعد البحث والدّراسة، بعض الملاحظات التي تُؤخذ عليه، عِلْماً بأنّها لا تُقلّل من شأن التّفسير وصاحبه، ولا من مكانته العِلْميّة بين التّفاسير، ولكنّني كباحث ينبغي عليّ تقويم تفسيره -حسب عِلْمي وقدرتي المتواضعَين، عِلْماً بأنّني لم أصل إلى وصل إليه من العِلْم والمعرفة؛ حتّى أُقيّم تفسيره-؛ أمّا الملاحظات، فهي:

1. استخدام طريقة تفسير القرآن الكريم حسب ترتيب النّزول، التي لا جدوى لها ولا قيمة في ظلّ عدم وجود ترتيب ثابت يستند إلى روايات قويّة ووثيقة؛ حيث يعتمد كلّ مفسّر على الاجتهاد في ذلك، الأمر الذي يُؤدّي إلى اختلاف في النّتائج التي يُتوصّل إليها. إضافة إلى أنّ حجم الفائدة المرجوّة من اتّباع هذه الطّريقة، مُقارنة مع صُعوبتها، وعدم إمكانها، أو الاطمئنان إلى نتائجها، تكاد تكون ضيئلة. أضف إلى ذلك حجم المحاذير والمخاطر المترتّبة عليها.
2. قيام الشّيخ بتفسير السّورة كاملة باعتبار نزول صدرها، دون النّظر في نزول باقي آياتها، فهل هذا يُعدّ مراعاة لترتيب النّزول؟
3. كثرة الإحالات التي تقطع مُتابعة القارئ، وتجعله يستصعب من الرّجوع إلى الكتب التي تتعلّق بالموضوع؛ لعدم امتلاكه إيّاها، أو لندرة وجودها، ولاسيّما عند تفسيره للقضايا العِلْميّة التي تضمّنها القرآن الكريم.
4. وجود آيات مكّيّة في سور مدنيّة؛ إذ إنّه لم يثبت بالرّواية ولا بالدّراية وجود آيات مكّيّة في سور مدنيّة التّنزيل، ولعلّ الشّيخ -رحمه الله تعالى- قد نصّ على ذلك من باب المقابلة؛ لوجود آيات مدنيّة في سور مكّيّة؛ إذ لا يُعقل البتّة بقاء الآية المكّيّة مُعلّقة دونما سياق تُضمّ إليه، إلى أن تنزل

(1) الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م1، ص47.

السّورة المدنيّة فتنتقل إليها، فهذا ممّا يُخالف هدي النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- في إرشاد كتبة الوحي إلى وضع الآيات في أماكنها التي أمر الله -تعالى- بها إبّان تنزّلها.

5. إيقاع القارئ في حيرة من أمره أمام معرفة المكّيّ والمدنيّ؛ حيث لم يذكر الشّيخ الضّابط بينهما وخصائصهما، واقتصر على الزّمانيّ منهما دون المكانيّ[1]. والكلام الذي ذكره الشّيخ في معرفتهما عامّ، وفتح هذا الباب قد يُؤدّي إلى إشكالات كثيرة، لاسيّما أن خصائص المكّيّ والمدنيّ ليست قطعيّة، ولا يخلو واحد منها من استثناءات، فكيف يكون سبب النّزول حاكماً في تفسير الآيات القرآنيّة.
6. إيراد أحاديث نبويّة كثيرة في تفسيره دون تخريج لها، أو إحالتها إلى المصدر[2].
7. الإسهاب في بعض الرّوايات والأخبار، دون الحكم عليها، كما في قصّة أصحاب الفيل في سورة الفيل[3].
8. التّوسّع في ملاحق بعض السّور، مثل: سورة الطارق[4]، وسورة القمر[5]، وسورة الجنّ[6]، وسورة يس[7]، وسورة الفرقان[8]، وسورة فاطر[9]، وسورة الشّعراء[10]،وسورة النّمل[11]، وغير ذلك.

---

(1) **قلت**: ثمّة مذهبان مشهوران في ضابط المكّيّ والمدنيّ: الضّابط الزّمانيّ: أنّ المكّيّ هو ما نزل قبل الهجرة، والمدنيّ هو ما نزل بعد الهجرة. وهذا هو أشهر الاصطلاحات في المكّيّ والمدنيّ. والضّابط المكانيّ: أنّ المكّيّ هو ما نزل بمكّة ولو بعد الهجرة، والمدنيّ ما نزل بالمدينة. **يُنظر**: السّيوطيّ، عبد الرّحمن: **الإتقان في علوم القرآن**، ج1، ص37-38. **يُنظر**: عتر، نور الدّين: **علوم القرآن الكريم**، ص55-56.

(2) **يُنظر**: الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م1، ص25. م2، ص302. م3، ص92. م4، ص38. م6، ص75. م7، ص544. م8، ص38. م10، ص45. م11، ص320. م12، ص161. م13، ص426. م15، ص290. وغير ذلك كثير.

(3) **يُنظر**: نفسه، م2، ص9-14.

(4) **يُنظر**: نفسه، م3، ص286-310.

(5) **يُنظر**: نفسه، م3، ص440-460.

(6) **يُنظر**: نفسه، م5، ص647-706.

(7) **يُنظر**: نفسه، م6، ص227-292.

(8) **يُنظر**: نفسه، م6، ص690-742.

(9) **يُنظر**: نفسه، م7، ص247-353.

(10) **يُنظر**: نفسه، م8، ص735-775.

(11) **يُنظر**: نفسه، م9، ص211-320.

9. غياب التّوثيق العِلْميّ في مُعظم التّفسير، واضطراب صيغته في المواطن التي يُوثّق فيها وتعدّدها، فتارة وجدت الشّيخ يُوثّق في الهامش توثيقاً شاملاً: اسم الكتاب ومُؤلّفه، والجزء، والصّفحة، والطّبعة إن وُجدت[1]، وأُخرى يكتفي بذكر اسم الكتاب فقط[2]، وتارة يُوثّق في المتن توثيقاً يقتصر فيه على اسم الكتاب ومُؤلّفه، وأحياناً يذكر الجزء والصّفحة[3]، وكثيراً ما يترك ذلك كلّه.

10. لم يُورد الشيّخ –رحمه الله تعالى– تمهيداً لتفسيره، يوضّح فيه الخطّة التي سار عليها فيه، ولم يبنِ الجانب النّظريّ من علم التّدبّر أو علم التّفسير وأُصوله، الذي أخذ على عاتقه بناء منظومته الفكريّة عليهما. كان الأولى به بسط الحديث عنهما في تمهيد بسيط يستفتح به كتابه، قبل الشّروع بعرض الآيات والسّور القرآنيّة وتفسيرها؛ حتّى يبني أرضيّة متينة للذي عُني به.

(**1**) **يُنظر مثلاً**: الميدانيّ، عبد الرّحمن: **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، م1، ص336. م2، ص172. م3، ص593. م4، ص129. م6، ص564. م7، ص96.

(**2**) **يُنظر مثلاً**: نفسه، م1، ص457. م2، ص600. م3، ص332. م4، 78. م5، ص298. م6، ص201. م7، ص194.

(**3**) **يُنظر مثلاً**: نفسه، م1، ص151. م3، ص567. م4، ص552. م7، ص189.

الخاتمة

الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على أشرف الخلق والمرسلين سيّدنا محمّد -صلّى الله عليه وسلّم-، وعلى آله وصحبه أجمعين. الحمد لله -تعالى- أن أتمّ عليّ نعمته، بأن وفّقني لإنهاء رسالتي العِلْميّة المتواضعة، والانتهاء من رحلتي العِلْميّة في رياض تفسير الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ، أتفيّأ ظلاله، وأقطف من ثماره، وأتنسّم عبيره، فلك يا ربّي الحمد والشّكر أوّلاً وأخيراً؛ حتّى ترضى، وإذا رضيت، وبعد الرّضا، وأسأله -سبحانه- أن يجعل فيها القبول، والفائدة للنّاس أجمعين. كما أنّني خلصت فيها إلى نتائج وتوصيات مُفضية إلى ثبات ويقين:

أوّلاً- النّتائج: أهمّ النّتائج التي توصّلت إليها، هي:

1. يُعدّ الشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ من أبرز علماء أهل السّنّة والجماعة، المتمسّكين بعقيدة السّلف، ولا ينصب العِداء للخَلَف.
2. علوّ كعب الشّيخ ورسوخ كفّه في علوم القرآن الكريم، وبخاصّة في عِلْم التّفسير.
3. اعتماد الشّيخ على كُتب التّفسير السّابقة، وعلى كُتب في العلوم المختلفة في تفسيره، واهتمامه بالقضايا اللّغويّة، من: نحويّة وبلاغيّة، وغيرها؛ إضافة إلى القضايا العِلْميّة، ممّا جعل له شخصيّة في التّفسير مُستقلّة.
4. إنّ البيئة التي عاش فيها الشّيخ مع العِلْم والدّعاة، كان لها الأثر في صبغ عقله بالصّبغة العِلْميّة، ومُؤلّفاته خير شاهد على ذلك.
5. بنى الشّيخ طريقته في تفسيره على ترتيب النّزول، وهي طريقة ظنّيّة مُحتملة غير مُنضبطة.
6. احتواء تفسير الشّيخ على قضايا عِلْميّة كثيرة، مُتفاوتة في التّفصيل والإيجاز والتّكرار.
7. استنباط تعريف موجز جامع مانع للتّفسير العِلْميّ، من خلال تعريفات المفسّرين السّابقين والمعاصرين، وغيرهم من العلماء؛ إذ إنّ التّفسير العِلْميّ مصطلح حديث قد يُوهم القارئ بأن ما عداه من أنواع التّفاسير ليست عِلْميّة، فالأولى تقييده بالعِلْميّ التّجريبيّ، الخاضع للتّجربة والمشاهدة والملاحظة.

8. إنّ المُراد بالتّفسير العِلْميّ التّجريبيّ للقرآن الكريم، هو: زيادة إيضاح معنى الآيات القرآنيّة ذات المضامين العِلْميّة، بالحقائق العِلْميّة التّجريبيّة قطعيّة الثّبوت، وتوسيع مدلولاتها، بقدر الطّاقة البشريّة، وفق ضوابط مُعيّنة.

9. إنّ التّفسير العِلْميّ للحقائق العِلْميّة القرآنيّة يُساعد على فهم القرآن الكريم وتدبّره؛ بشرط أن يكون وفق الحقيقة العِلْميّة قطعيّة الثّبوت، أمّا إذا وقع توافق بين حقيقة قرآنيّة وبين نظريّة عِلْميّة، فيمكن الاستفادة منها، والاستئناس بها في فهم مدلول الآية القرآنيّة، وفي هذه الحالة تكون الآية دليلاً على صحّتها. أمّا إذا وقع تعارض بينهما، رُفضت النّظريّة؛ لأنّ العِلْم الشّرعيّ بالنّقل آكد من العِلْم بالعقل.

10. استحالة التّصادم بين الحقيقة القرآنيّة والحقيقة العِلْميّة قطعيّة الثّبوت، وإذا حصل تعارض بينهما، فعندها يجب تمحيص الحقيقة العِلْميّة، ومعرفة مدى حقيقتها؛ إذ إنّ الأمر يرجع إلى أحد أمرين: إمّا جهل لُغويّ في اللّغة العربيّة، وإمّا جهل عِلْميّ.

11. إنّ التّفسير العِلْميّ للحقائق العِلْميّة في القرآن الكريم يجب أن يكون وفق الضّوابط والشّروط التي وضعها العلماء المتخصّصون في التّفسير، ممّا يجعل التّفسير صحيحاً موافقاً للعِلْم الحديث، ولا يتناقض معه.

12. من الضّوابط العِلْميّة الأصيلة في التّعامل مع التّفسير العِلْميّ للحقائق العِلْميّة القرآنيّة، احترام قُدسيّة كلام الله -تعالى-، واعتبار القرآن الكريم متبوع لا تابع، وأصل يُرجع إليه، وما الحقائق العِلْميّة الثّابتة إلّا مُطابقة لما جاء فيه.

13. بيان الفرق بين كلّ من: التّفسير العِلْميّ والإعجاز العِلْميّ، والحقيقة العِلْميّة والنّظريّة العِلْميّة.

14. إنّ الآيات التي تتحدّث عن الكون والإنسان تأخذ حيّزاً لا بأس به في القرآن الكريم.

15. إنّ المصطلحات التي تتحدّث عن خلق كلّ من: الكون والإنسان تمتاز بالدّقّة الفائقة، وهي أدقّ من مُصطلحات العصر، ممّا لفت أنظار العلماء، وأثار دهشتهم.

ثانياً– التّوصيات:

1. استكمال دراسة القضايا العِلْميّة من تفسير الشّيخ وتهذيبها؛ إذ قصُرت الرّسالة على بعض منها: السّماء، والأرض، والإنسان.
2. القيام بدراسة عِلْميّة تُقارن بين آراء الشّيخ في تفسيره الذي أودع فيه خُلاصة رأيه وعُصارة فكره، وآراء من سبقه، أو من جاء بعده من أهل التّفسير.
3. تخريج الأحاديث الواردة في تفسير الشّيخ تخريجاً عِلْميّاً، والتّنبيه على ما فيه من أحاديث ضعيفة وموضوعة؛ حيث وقفت على بعضها، وإن كانت قليلة.
4. الحرص على مطالعة تفسير الشّيخ، والإقبال عليه دراسة وبحثاً وإفادة.
5. التّأسّي بأخلاق الشّيخ في حُبّه للعِلْم، وتقديره للعلماء، وتأدّبه معهم، واجتهاده في الوصول إلى الحقائق، وبعده عن التّعصّب المذهبيّ.
6. بذل مزيد من العناية في الدّراسات الخاصّة بكتاب الله –تعالى–، والتي تُعمّق الإيمان في القلوب.
7. العمل على تقوية العلاقة بين المفسّرين، وبين علماء الإعجاز العِلْميّ؛ ليستفيد كلّ منهم من الآخر في الوصول إلى فهم صحيح صريح للقرآن الكريم.
8. أهمّيّة اطّلاع المتخصّصين في التّفسير على ما يكتبه المتخصّصون في الإعجاز العِلْميّ؛ للاستفادة والاستزادة منه في تفسير القرآن الكريم.
9. ضرورة رجوع علماء الإعجاز العِلْميّ إلى المفسّرين قبل الجزم بدلالات قرآنيّة؛ حتّى لا يقع الخطأ في فهم مدلول الآية القرآنيّة، كي لا يُؤتى الإسلام من قبلهم.
10. عدم إجازة أيّ كتاب في التّفسير العِلْميّ إلّا بعد إحالته للهيئة العالميّة للإعجاز العِلْميّ في القرآن والسّنّة، وأخذ رأيها العِلْميّ في صلاحيته.

وبعد هذا الجهد المتواضع، فإنّني لا أدّعي أنّني قد أعطيت الموضوع حقّه، أو وفّيته ما يستحقّه، فأنّى لمثلي ذلك؛ ولكن حسبي أنّني قد بذلت جُهدي، وأفرغت وسعي مع قلّة بضاعتي، فإن أصبت فمن الله –تعالى–، فله الحمد والشّكر، وإن جانبني الصّواب فمن تقصير نفسي غير المقصود، ومن الشّيطان،

فأسأل الله –تعالى– العفو والمغفرة، وما توفيقي إلّا بالله –العليّ العظيم–، عليه توكّلت، وإليه أُنيب. وصلّ اللّهمّ على سيّدنا محمّد، وبارك عليه، وعلى آله وصحبه الطّيّبين الطّاهرين.

اللّهمّ عَلِّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما عَلَّمتنا، وزدنا عِلماً، واجعل أعمالنا خالصة لوجهك الكريم.

سبحانك اللّهمّ وبحمدك، نشهد أن لا إله إلّا أنت، نستغفرك ونتوب إليك.

قائمة المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.
2. إبراهيم، محمّد إسماعيل: **القرآن وإعجازه العِلْميّ**، دار الفكر العربيّ.
3. ابن الضُّريس، محمّد بن أيّوب (ت 294هـ): **فضائل القرآن وما أُنزل من القرآن بمكّة وما أُنزل بالمدينة**، تحقيق: غزوة بدير، دار الفكر، الطّبعة الأُولى، دمشق، 1408هـ-1987م.
4. ابن العربيّ، محمّد بن عبد الله (ت 543هـ): **أحكام القرآن**، تحقيق: محمّد عبد القادر عطا، دار الكتب العِلْميّة، الطّبعة الثّالثة، لبنان، 1424هـ-2003م، عدد الأجزاء (4). **قَانون التَّأويل**، تحقيق: محمّد السّليمانيّ، مُؤسّسة علوم القرآن، الطّبعة الأُولى، بيروت، 1406هـ-1986م.
5. ابن العِماد، عبد الحيّ بن أحمد (ت 1089هـ): **شذرات الذّهب في أخبار من ذهب**، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، الطّبعة الأُولى، دمشق، 1406هـ-1986م، عدد الأجزاء (11).
6. ابن القاصح، عليّ بن عثمان (ت 801هـ): **سراج القارئ المُبتدي وتذكار المُقرئ المُنتهي (وهو شرح منظومة حرز الأماني ووجه التّهاني للشّاطبيّ)**، تحقيق: عليّ الضّبّاع، مطبعة مُصطفى البابيّ الحلبيّ، الطّبعة الثّالثة، مصر، 1373هـ-1954م.
7. ابن الملقّن، عمر بن عليّ (ت 804هـ): **العقد المذهّب في طبقات حملة المذهب**، تحقيق: أيمن نصر الأزهريّ وآخرون، دار الكتب العِلْميّة، الطّبعة الأُولى، بيروت، 1417هـ-1997م.
8. ابن حجر العسقلانيّ، أحمد بن عليّ (ت 852هـ): **تقريب التّهذيب**، محمّد عوامة، دار الرّشيد، الطّبعة الأُولى، سوريا، 1406هـ-1986م.
9. ابن حنبل، أحمد بن محمّد (ت 241هـ): **مُسند الإمام أحمد بن حنبل**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مُؤسّسة الرّسالة، الطّبعة الأُولى، بيروت، 1421هـ-2001م، عدد الأجزاء (45).
10. ابن خُزَيمة، محمّد بن إسحاق (ت 311هـ): **صحيح ابن خُزَيمة**، تحقيق: محمّد مُصطفى الأعظميّ، المكتب الإسلاميّ، 1424هـ-2003م، عدد الأجزاء (4).
11. ابن خلكان، أحمد بن محمّد (ت 681هـ): **وفيّات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان**، تحقيق: إحسان عبّاس، دار صادر، الطّبعة الأُولى، بيروت، 1971م، عدد الأجزاء (7).
12. ابن سِيدَه، عليّ بن إسماعيل (ت 458هـ): **المُحكم والمُحيط الأعظم**، تحقيق: عبد الحميد هنداويّ، دار الكتب العِلْميّة، الطّبعة الأُولى، بيروت، 1421هـ-2000م، عدد الأجزاء (11).

13. ابن عاشور، محمّد الطّاهر بن محمّد (ت 1393هـ): **التّحرير والتّنوير –تحرير المعنى السّديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد–**، الدّار التّونسيّة، تونُس، 1984هـ، عدد الأجزاء (30).

14. ابن عطيّة، عبد الحقّ بن غالب (ت 541هـ): **المُحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحقيق: عبد السّلام عبد الشّافي محمّد، دار الكتب العِلْميّة، الطّبعة الأُولى، بيروت، 1422هـ، عدد الأجزاء (6).

15. ابن فارس، أحمد بن فارس (ت 395هـ): **مُعجم مقاييس اللّغة**، تحقيق: عبد السّلام محمّد هارون، دار الفكر، 1399هـ-1979م، عدد الأجزاء (6).

16. ابن فرحون، إبراهيم بن عليّ (ت 799هـ): **الدّيباج المُذهّب في معرفة أعيان علماء المذهب**، تحقيق: محمّد الأحمديّ، دار التّراث، القاهرة، عدد الأجزاء (2).

17. ابن قيّم الجوزيّة، محمّد بن أبي بكر (ت 751هـ): **التّبيان في أقسام القرآن**، تحقيق: محمّد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت. **حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح**، مطبعة المدنيّ، القاهرة. **الفروسيّة**، تحقيق: مشهور بن حسن، دار الأندلس، الطّبعة الأُولى، السّعوديّة، 1414هـ-1993م.

18. ابن كثير، إسماعيل بن عمر (ت 774هـ): **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: محمّد حسين شمس الدّين، دار الكتب العِلْميّة، الطّبعة الأُولى، بيروت، 1419هـ، عدد الأجزاء (9). **قصص الأنبياء**، تحقيق: مُصطفى عبد الواحد، مطبعة دار التّأليف، الطّبعة الأُولى، القاهرة، 1388هـ-1968م، عدد الأجزاء (2).

19. ابن منظور، محمّد بن مكرم (ت 711هـ): **لسان العرب**، دار صادر، الطّبعة الثّالثة، بيروت، 1414هـ، عدد الأجزاء (15).

20. ابن هشام، عبد الملك بن هشام (ت 213هـ): **السّيرة النّبويّة**، تحقيق: مُصطفى السّقّا وآخرون، مطبعة مُصطفى البابي الحلبيّ وأولاده، الطّبعة الثّانية، مصر، 1375هـ-1955م، عدد الأجزاء (2).

21. أبو البقاء الكفويّ، أيّوب بن موسى (ت 1094هـ): **الكلّيّات مُعجم في المُصطلحات والفروق اللّغويّة**، تحقيق: عدنان درويش وآخرون، مُؤسّسة الرّسالة، بيروت.

22. أبو العينين، حسين: **من الإعجاز العِلْميّ في القرآن الكريم، في ضوء الدّراسات الجغرافيّة الفلكيّة والطّبيعيّة**، مكتبة العبيكان، الطّبعة الأُولى، الرّياض، 1416هـ-1996م، عدد الأجزاء (2).

23. أبو حيّان، محمّد بن يوسف (ت 745هـ): **البحر المُحيط في التّفسير**، تحقيق: صدقي محمّد جميل، دار الفكر، بيروت، 1420هـ، عدد الأجزاء (10).
24. أبو داوود، سليمان بن الأشعث (ت 275هـ): **سُنن أبي داوود**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، دار الرّسالة العالميّة، 1430هـ-2009م، عدد الأجزاء (7).
25. أبو زيد، بكر بن عبد الله (ت 1429هـ): **مُعجم المناهي اللّفظيّة وفوائد في الألفاظ**، دار العاصمة، الطّبعة الثّالثة، الرّياض، 1417هـ-1996م.
26. أبو شُهبة، محمّد بن محمّد (ت 1403هـ): **المَدخل لدراسة القرآن الكريم**، مكتبه السّنّة، الطّبعة الثّانية، 1423هـ-2003م.
27. أحمد، حنفي: **التّفسير العِلْميّ للآيات الكونيّة في القرآن**، دار المعارف، الطّبعة الثّالثة، القاهرة.
28. الأدنه وي، أحمد بن محمّد: **طبقات المُفسّرين**، تحقيق: سليمان بن صالح الخزّيّ، مكتبة العلوم والحكم، الطّبعة الأُولى، السّعوديّة، 1417هـ-1997م.
29. إسماعيل، محمّد بكر (ت 1426هـ): **دراسات في علوم القرآن**، دار المنار، الطّبعة الثّانية، 1419هـ-1999م.
30. آل إسماعيل، نبيل بن محمّد: **العناية بالقرآن الكريم وعلومه من بداية القرن الرّابع الهجريّ إلى عصرنا الحاضر**، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشّريف بالمدينة المنوّرة.
31. الألبانيّ، محمّد ناصر الدّين (ت 1420هـ): **ظلال الجنّة في تخريج السّنّة**، المكتب الإسلاميّ، الطّبعة الأُولى، بيروت، 1400هـ-1980م، عدد الأجزاء (2).
32. الألوسيّ، محمود (ت 1270هـ): **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني**، إحياء التّراث العربيّ، بيروت، عدد الأجزاء (30).
33. البار، محمّد علي: **خلق الإنسان بين الطّبّ والقرآن**، الدّار السّعوديّة، الطّبعة الرّابعة، السّعوديّة، 1403هـ-1983م.
34. الباز، محمّد عبّاس: **مَباحث في علم القراءات مع بيان أُصول رواية حفص**، دار الكلمة، الطّبعة الأُولى، القاهرة، 1425هـ-2004م.
35. الباقلّانيّ، محمّد بن الطّيّب (ت 403هـ): **الانتصار للقرآن**، تحقيق: محمّد عصام القضاة، دار ابن حزم، الطّبعة الأُولى، بيروت، 1422هـ-2001م، عدد الأجزاء (2).

36. البخاريّ، محمّد بن إسماعيل: **الجامع المُسند الصّحيح المُختصر من أمور رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– وسُننه وأيّامه (صحيح البخاريّ)**، تحقيق: محمّد زهير بن ناصر النّاصر، دار طوق النّجاة، الطّبعة الأُولى، 1422هـ، عدد الأجزاء (9).

37. بدر، أحمد: **أُصول البحث العِلْميّ ومناهجه**، المكتبة الأكاديميّة، 1994م.

38. البُستانيّ، بُطرس: **مُحيط المُحيط، قاموس مُطوّل للّغة العربيّة**، مكتبة لبنان، بيروت، 1987م.

39. بورباب، محمّد وآخرون: **الإعجاز العِلْميّ في القرآن والسّنّة**، منشورات هيئة الإعجاز العِلْميّ في القرآن والسّنّة لشمال المغرب، الطّبعة الأُولى، 1434هـ-2013م.

40. بوكاي، موريس: **القرآن الكريم والتّوراة والإنجيل والعِلْم، دراسة الكتب المقدّسة في ضوء المعارف الحديثة**، مكتبة مدبولي، الطّبعة الأُولى، القاهرة، 2004م.

41. البيضاويّ، عبد الله بن عمر (ت 685هـ): **أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل**، تحقيق: محمّد عبد الرّحمن المرعشليّ، دار إحياء التّراث العربيّ، الطّبعة الأُولى، بيروت، 1418هـ، عدد الأجزاء (5).

42. التّرمذيّ، محمّد بن عيسى (ت 279هـ): **الجامع الكبير–سنن التّرمذيّ**، تحقيق: بشّار عوّاد، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، 1998م، عدد الأجزاء (6).

43. التُّنْبُكْتي، أحمد بابا بن أحمد (ت 1036هـ): **نيل الابتهاج بتطريز الدّيباج**، تقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، دار الكاتب، الطّبعة الثّانية، طرابلس، 2000م.

44. توفيق، محمّد عزّ الدّين: **دليل الأنفس بين القرآن الكريم والعِلْم الحديث**، دار السّلام، الطّبعة الثّانية، القاهرة، 1418هـ-1998م.

45. الجرّاح، عائدة راغب (ت 2002م): **عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ العالم المُفكّر المُفسّر، زوجي كما أعرفه**، دار القلم، الطّبعة الأُولى، دمشق، 1422هـ-2001م.

46. الجرجانيّ، عليّ بن محمّد (ت 816هـ): **التّعريفات**، تحقيق: جماعة من العلماء بإشراف النّاشر، دار الكتب العِلْميّة، الطّبعة الأُولى، بيروت، 1403هـ-1983م.

47. الجميليّ، السّيّد: **الإعجاز الطّبّيّ في القرآن**، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1990م.

48. الجوهريّ، إسماعيل بن حمّاد (ت 393هـ): **الصّحاح تاج اللّغة وصحاح العربيّة**، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطّار، دار العِلْم للملايين، الطّبعة الرّابعة، بيروت، 1407هـ-1987م، عدد الأجزاء (6).

49. جوهريّ، طنطاوي: **الجواهر في تفسير القرآن الكريم، المشتمل على عجائب وبدائع المكوّنات، وغرائب الآيات الباهرات**، مُصطفى البابي الحلبيّ وأولاده، الطّبعة الثّانية، مصر، 1350هـ، عدد الأجزاء (25).

50. حاجي خليفة، مُصطفى بن عبد الله (ت 1067هـ): **سُلّم الوصول إلى طبقات الفحول**، تحقيق: محمود عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة إرسيكا، إستانبول، 2010م، عدد الأجزاء (5). **كشف الظّنون عن أسامي الكتب والفنون**، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، 1360هـ-1941م، عدد الأجزاء (2).

51. الحارثيّ، أحمد بن حسن: **الأحاديث النّبويّة التي استُدلّ بها على الإعجاز العِلْميّ في الإنسان والأرض والفلك، جمعاً ودراسة**، الجامعة الإسلاميّة بالمدينة المنوّرة، الطّبعة الأُولى، المملكة العربيّة السّعوديّة، 1431هـ-2010م.

52. حسب النّبيّ، منصور محمّد: **الكون والإعجاز العِلْميّ للقرآن الكريم**، دار الفكر العربيّ، الطّبعة الثّانية، القاهرة، 1991م.

53. الحنّاويّ، كمال الدّين: **مُعجم مُصطلحات الأحياء (نبات-حيوان-تصنيف-وراثة)**، المكتبة الأكاديميّة، القاهرة، 1990م.

54. الخالديّ، صلاح عبد الفتّاح: **البيان في إعجاز القرآن**، دار عمّار، الطّبعة الثّالثة، الأُردنّ، 1992م. **تعريف الدّارسين بمناهج المُفسّرين**، دار القلم، الطّبعة الثّانية، دمشق، 1429هـ-2008م.

55. خان، وحيد الدّين: **الإسلام يتحدّى، مدخل عِلْميّ إلى الإيمان**، تحقيق: عبد الصّبور شاهين، مكتبة الرّسالة، الطّبعة الأُولى، بيروت، 1974م.

56. الدّاوديّ، محمّد بن عليّ (ت 945هـ): **طبقات المُفسّرين**، دار الكتب العِلْميّة، بيروت، عدد الأجزاء (2).

57. دُوزِي، رينهارت بيتر (ت 1300هـ): **تكملة المعاجم العربيّة**، نقله إلى العربيّة وعلّق عليه: محمَّد سَليم النعَيميّ وآخرون، دار الرّشيد، الطّبعة الأُولى، الجمهوريّة العراقيّة، 1980م، عدد الأجزاء (11).

58. ديب، كمال: **تاريخ سوريّة المعاصر من الانتداب الفرنسيّ إلى صيف 2011م**، دار النّهار، الطّبعة الثّانية، بيروت، 2011م.

59. الذّهبيّ، محمّد بن أحمد (ت 748هـ): **تذكرة الحُفّاظ**، دار الكتب العِلْميّة، الطّبعة الأُولى، بيروت، 1419هـ-1998م، عدد الأجزاء (4). **سير أعلام النّبلاء**، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرون، مُؤسّسة الرّسالة، الطّبعة الثّالثة، 1405هـ-1985م، عدد الأجزاء (25). **العبر في خبر من غبر**، تحقيق: محمّد السّعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العِلْميّة، بيروت، عدد الأجزاء (4).

60. الذّهبيّ، محمّد حسين (ت 1398هـ): **التّفسير والمُفسرون**، مكتبة وهبة، الطّبعة السّادسة، القاهرة، 1416هـ-1995م، عدد الأجزاء (3).

61. الرّاغب الأصفهانيّ، الحسين بن محمّد (ت 502هـ): **المُفردات في غريب القرآن**، تحقيق: صفوان عدنان الدّاوووديّ، دار القلم، الطّبعة الأُولى، دمشق، 1412هـ.

62. الرّوميّ، فهد بن عبد الرّحمن: **اتّجاهات التّفسير في القرن الرّابع عشر**، رئاسة إدارات البحوث العِلْميّة، الطّبعة الأُولى، المملكة العربيّة السّعوديّة، 1407هـ-1986م، عدد الأجزاء (3).

63. الزَّبيديّ، محمّد بن محمّد (ت 1205هـ): **تاج العروس من جواهر القاموس**، تحقيق: مجموعة من المحقّقين، دار الهداية، عدد الأجزاء (40).

64. الزّجّاج، إبراهيم بن السّريّ (ت 311هـ): **معاني القرآن وإعرابه**، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، الطّبعة الأُولى، بيروت، 1408هـ-1988م، عدد الأجزاء (5).

65. زرزور، عدنان محمّد: **مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه**، دار القلم، الطّبعة الثّانية، دمشق، 1419هـ-1998م.

66. الزّرقانيّ، محمّد عبد العظيم (ت 1367هـ): **مَناهل العرفان في علوم القرآن**، مطبعة عيسى البابي الحلبيّ وشركاه، الطّبعة الثّالثة، عدد الأجزاء (2).

67. الزّركشيّ، محمّد بن عبد الله (ت 794هـ): **البُرهان في علوم القرآن**، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة، الطّبعة الأُولى، 1376هـ-1957م، عدد الأجزاء (4).

68. الزّركليّ، خير الدّين بن محمود (ت 1396هـ): **الأعلام**، دار العِلْم للملايين، الطّبعة الخامسة عشر، 2002م، عدد الأجزاء (8).

69. الزّمخشريّ، محمود بن عمرو (ت 538هـ): **الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل**، دار الكتاب العربيّ، الطّبعة الثّالثة، بيروت، 1407هـ، عدد الأجزاء (4).

70. الزّندانيّ، عبد المجيد وآخرون: **تأصيل الإعجاز العِلْميّ في القرآن والسّنّة**، المكتبة العصريّة، بيروت، إصدار هيئة الإعجاز العِلْميّ في القرآن والسّنّة، 1408هـ-1987م.

71. زيدان، محمود فهمي: **الاستقراء والمنهج العِلْميّ**، دار الجامعات المصريّة، الإسكندريّة، 1977م.

72. السّاعاتيّ، إلياس بن أحمد: **إمتاَعُ الفُضَلاء بتَراجِم القرّاء فِيما بَعدَ القَرن الثّامن الهجريّ**، تقديم: الشّيخ محمَّد تميم الزّعبيّ، دار النّدوة العالميّة، الطّبعة الأُولى، 1421هـ-2000م، عدد الأجزاء (2).

73. سعيد، عبد السّتّار: **المدخل إلى التّفسير الموضوعيّ**، دار الطّباعة والنّشر الإسلاميّة، القاهرة، 1046هـ-1985م.

74. سقّا، مرهف عبد الجبّار: **التّفسير والإعجاز العِلْميّ في القرآن الكريم، ضوابط وتطبيقات**، تقديم: نور الدّين عتر وآخرون، دار محمّد الأمين، الطّبعة الأُولى، دمشق، 1431هـ-2010م.

75. السّلواديّ، حسن عبد الرّحمن: **محمّد عزّة دروزة وتفسيره المُسمّى التّفسير الحديث**، دار الفرقان، عمّان، 1438هـ-2017م.

76. السّيوطيّ، عبد الرّحمن بن أبي بكر (ت 911هـ): **الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1394هـ-1974م، عدد الأجزاء (4). **الإكليل في استنباط التّنزيل**، تحقيق: سيف الدّين عبد القادر الكاتب، دار الكتب العِلْميّة، بيروت، 1401هـ-1981م. **بُغية الوعاة في طبقات اللّغويّين والنّحاة**، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصريّة، لبنان، عدد الأجزاء (2). **تناسق الدّرر في تناسب السّور**، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العِلْميّة، الطّبعة الأُولى، بيروت، 1406هـ-1986م. **طبقات الحُفّاظ**، دار الكتب العِلْمية، الطّبعة الأُولى، بيروت، 1403هـ. **طبقات المُفسّرين العشرين**، تحقيق: علي محمّد عمر، مكتبة وهبة، الطّبعة الأُولى، القاهرة، 1396هـ. **مُعجم مقاليد العلوم في الحدود والرّسوم**، تحقيق: محمّد إبراهيم عبادة، مكتبة الآداب، الطّبعة الأُولى، القاهرة، 1424هـ-2004م.

77. شحاتة، عبد الله: **آيات الله في الكون -تفسير الآيات الكونيّة بالقرآن الكريم-**، نهضة مصر، الطّبعة الثّانية، القاهرة، 2003م.

78. الشّدي، عادل بن عليّ: **التّفسير العِلْميّ التّجريبيّ للقرآن الكريم: جذوره وتطبيقاته والموقف منه**، مدار الوطن، الطّبعة الأُولى، الرّياض، 1431هـ-2010م.

79. الشّريف، عدنان: **من عِلْم الطّبّ القرآنيّ الثّوابت العِلْميّة في القرآن الكريم**، دار العِلْم للملايين، الطّبعة الأُولى، بيروت، 1990م.
80. الشّعراويّ، محمّد مُتولّي (ت1418هـ): **تفسير الشّعراويّ–الخواطر**، مطابع أخبار اليوم، 1997م، عدد الأجزاء (20). **مُعجزة القرآن**، دار أخبار اليوم، عدد الأجزاء (10).
81. شلبي، هند: **التّفسير العِلْميّ للقرآن الكريم بين النّظريّات والتّطبيق**، تُونس، 1405هـ–1985م.
82. الشّنّاويّ، عبد العزيز محمّد: **الدّولة العثمانيّة دولة إسلاميّة مُفترى عليها**، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، 1980م، عدد الأجزاء (4).
83. الشّيبانيّ، عمرو بن أبي عاصم (ت287هـ): **كتاب السّنّة**، المكتب الإسلاميّ، الطّبعة الأولى، بيروت، 1400هـ–1980م، عدد الأجزاء (2).
84. الصّالح، صبحي: **مَباحث في علوم القرآن**، دار العِلْم للملايين، الطّبعة الرّابعة والعشرون، 2000م.
85. الصّبّاغ، محمد بن لطفي: **لمحات في علوم القرآن واتّجاهات التّفسير**، المكتب الإسلاميّ، الطّبعة الثّالثة، بيروت، 1410هـ–1990م.
86. الصّفديّ، خليل بن أيبك (ت 764هـ): **الوافي بالوفيّات**، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وآخرون، دار إحياء التّراث، بيروت، 1420هـ–2000م، عدد الأجزاء (29).
87. الصّوّاف، محمّد شريف: **موسوعة الأُسر الدّمشقيّة، تاريخها، أنسابها، أعلامها**، بيت الحكمة، الطّبعة الثّانية، دمشق، 1431هـ–2010م، عدد الأجزاء (3).
88. الطّبريّ، محمّد بن جرير (ت 310هـ): **جامع البيان في تأويل القرآن**، تحقيق: أحمد محمّد شاكر، مُؤسّسة الرّسالة، الطّبعة الأُولى، 1420هـ–2000م، عدد الأجزاء (24).
89. الطّيّار، مُساعد بن سليمان: **فصول في أُصول التّفسير**، دار ابن الجوزيّ، الطّبعة الثّانية، 1423هـ. **مفهوم التّفسير والتّأويل والاستنباط والتّدبّر والمُفسّر**، دار ابن الجوزيّ، الطّبعة الثّانية، المملكة العربيّة السّعوديّة، 1427هـ.
90. عبّاس، فضل حسن وآخرون: **إتقان البُرهان في علوم القرآن**، دار النّفائس، الطّبعة الثّانية، الأُردنّ، 1436هـ–2015م، عدد الأجزاء (2). **إعجاز القرآن الكريم**، دار الفرقان، الطّبعة الرّابعة، الأُردنّ، 1422هـ–2001م. **قصص القرآن الكريم**، دار النّفائس، الطّبعة الثّالثة، الأُردنّ، 1430هـ–2010م.

91. عبد الباقي، محمّد فؤاد: **المُعجم المُفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، دار الحديث، القاهرة، 1414هـ-1994م.

92. عتر، نور الدّين محمّد: **علوم القرآن الكريم**، مطبعة الصّبّاح، الطّبعة الأُولى، دمشق، 1414هـ-1993م، عدد الأجزاء (2).

93. العقّاد، عبّاس محمود (ت 1383هـ): **عبقريّ الإصلاح والتّعليم الأستاذ الإمام محمّد عبده**، مكتبة مصر، الجمهوريّة العربيّة المتّحدة. **الفلسفة القرآنيّة**، مُؤسّسة هنداوي للتّعليم والثّقافة، القاهرة، 1366هـ-1947م.

94. العلويّ، جاسم حسن: **العالم بين العِلْم والفلسفة**، المركز الثّقافي العربيّ، الطّبعة الأُولى، الدّار البيضاء، 2005م.

95. عمر، أحمد مختار وآخرون (ت 1424هـ): **مُعجم اللّغة العربيّة المُعاصرة**، عالم الكتب، الطّبعة الأُولى، 1429هـ-2008 م، عدد الأجزاء (3).

96. العنزيّ، عبد الله بن يوسف: **المُقدّمات الأساسية في علوم القرآن**، مركز البحوث الإسلاميّة ليدز، الطّبعة الأُولى، بريطانيا، 1422هـ-2001م.

97. الغزاليّ، محمّد بن محمّد (ت 505هـ): **إحياء علوم الدّين**، دار المعرفة، بيروت، عدد الأجزاء (4). **جواهر القرآن**، تحقيق: محمّد رشيد رضا القبّانيّ، دار إحياء العلوم، الطّبعة الثّانية، بيروت، 1406هـ-1986م. **كيف نتعامل مع القرآن؟**، نهضة مصر، الطّبعة السّابعة، مصر، 2005م.

98. الغماريّ، أحمد بن محمّد: **مُطابقة المخترعات العصريّة لما أخبر به سيّد البريّة**، دار الطّباعة المحمّديّة، الطّبعة السّادسة، القاهرة، 1391هـ-1971م.

99. الغمراويّ، محمّد أحمد: **الإسلام في عصر العِلْم**، مطبعة السّعادة، الطّبعة الأُولى، مصر، 1393هـ-1973م. **في سنن الله الكونيّة**، مطبعة لجنة التّأليف، الطّبعة الأُولى، 1355هـ-1936م.

100. فخر الدّين الرّازيّ، محمّد بن عمر (ت 606هـ): **مفاتيح الغيب-التّفسير الكبير**، دار إحياء التّراث العربيّ، الطّبعة الثّالثة، بيروت، 1420هـ، عدد الأجزاء (32).

101. الفرّاء، يحيى بن زياد (ت 207هـ): **معاني القرآن**، تحقيق: أحمد يوسف النّجاتي وآخرون، دار المصريّة، الطّبعة الأُولى، مصر، عدد الأجزاء (3).

102. الفيروزآبادي، محمّد بن يعقوب (ت 817هـ): **القاموس المُحيط**، تحقيق: مكتب تحقيق التّراث في مُؤسّسة الرّسالة، مُؤسّسة الرّسالة، الطّبعة الثّامنة، بيروت، 1426هـ-2005م.

103. الفيّوميّ، أحمد بن محمّد (ت 770هـ): **المصباح المنير في غريب الشّرح الكبير**، المكتبة العِلْميّة، بيروت، عدد الأجزاء (2).

104. قدّوريّ، غانم: **مُحاضرات في علوم القرآن**، دار عمّار، الطّبعة الأُولى، عمّان، 1423هـ-2003م.

105. القرضاويّ، يوسف: **كيف نتعامل مع القرآن العظيم**، دار الشّروق، الطّبعة الثّالثة، القاهرة، 1421هـ-2000م.

106. القرطبيّ، محمّد بن أحمد (ت 671هـ): **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق: أحمد البردونيّ وآخرون، دار الكتب المصريّة، الطّبعة الثّانية، القاهرة، 1384هـ-1964م، عدد الأجزاء (20).

107. القزوينيّ، زكريّا بن محمّد (ت682): **عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات**، مُؤسّسة الأعلميّ، الطّبعة الأُولى، بيروت، 1421هـ-2000م.

108. القُضاة، محمّد أحمد وآخرون: **مُقدّمات في علم القراءات**، دار عمّار، الطّبعة الأُولى، عمّان، 1422هـ-2001م.

109. القطّان، منّاع بن خليل (ت 1420هـ): **مَباحث في علوم القرآن**، مكتبة المعارف، الطّبعة الثّالثة، 1421هـ-2000م.

110. قُطُب، سيّد: **التّصوير الفنّيّ في القرآن**، دار الشّروق، الطّبعة الخامسة عشرة، القاهرة، 1422هـ-2001م. **في ظلال القرآن**، دار الشّروق، الطّبعة الثّانية والثّلاثون، القاهرة، 1423هـ-2003م. عدد المجلّدات (6).

111. كحّالة، عمر بن رضا (ت 1408هـ): **مُعجم المُؤلّفين**، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، عدد الأجزاء (13).

112. كنجو، خالص جلبي: **الطّبّ محراب للإيمان**، مُؤسّسة الرّسالة، الطّبعة الثّانية، 1402هـ، عدد الأجزاء (2).

113. لاشين، موسى شاهين: **اللآلئ الحسان في علوم القرآن**، دار الشّروق، الطّبعة الأُولى، القاهرة، 1423هـ-2002م.

114. اللّالكائيّ، هبة الله بن الحسن (ت 418هـ): **شرح أُصول اعتقاد أهل السّنّة والجماعة**، تحقيق: أحمد بن سعد بن حمدان الغامديّ، دار طيبة، الطّبعة الثّامنة، السّعوديّة، 1423هـ-2003م، عدد الأجزاء (9).

115. اللّوح، عبد السّلام حمدان: **الإعجاز العِلْميّ في القرآن الكريم**، آفاق للطّباعة والنّشر، الطّبعة الثّانية، غزّة، 1423هـ-2002م.

116. المجذوب، محمّد (ت 1999م): **عُلماء ومُفكّرون عرفتهم**، دار الشّواف، الطّبعة الرّابعة، الرّياض، 1412هـ، عدد الأجزاء (3).

117. مجموعة من العلماء والباحثين: **الموسوعة العربيّة العالميّة**، مُؤسّسة أعمال الموسوعة، الطّبعة الثّانية، الرّياض، 1419هـ-1999م، عدد الأجزاء (30).

118. المحتسب، عبد المجيد عبد السّلام: **اتّجاهات التّفسير في العصر الرّاهن**، مكتبة النّهضة الإسلاميّة، الطّبعة الثّالثة، عمّان، 1402هـ-1982م.

119. محمّد علي، محمّد سامي: **الإعجاز العِلْميّ في القرآن**، دار المحبّة، الطّبعة الأُولى، دمشق، 1993م.

120. مدكو، إبراهيم: **مُعجم الجيولوجيا**، الهيئة العامّة لشؤون المطابع الأميريّة، الطّبعة الثّانية، القاهرة، 1402هـ-1982م.

121. المرعشلي، يوسف: **نثر الجواهر والدّرر في علماء القرن الرّابع عشر، وبذيله عِقد الجوهر في علماء الرّبع الأوّل من القرن الخامس عشر**، دار المعرفة، الطّبعة الأُولى، بيروت، 1427هـ-2006م. عدد الأجزاء (2).

122. المزّيّ، يوسف بن عبد الرّحمن (ت 742هـ): **تهذيب الكمال في أسماء الرّجال**، تحقيق: بشّار عواد معروف، مُؤسّسة الرّسالة، الطّبعة الأُولى، بيروت، 1400هـ-1980م، عدد الأجزاء (35).

123. مُسلم، مُسلم بن الحجّاج (ت 261هـ): **المُسند الصّحيح المُختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-** (**صحيح مُسلم**)، تحقيق: محمّد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، عدد الأجزاء (5).

124. مُسلم، مصطفى: **مَباحث في إعجاز القرآن**، دار القلم، الطّبعة الثّالثة، 1426هـ-2005م. **مَباحث في التّفسير الموضوعيّ**، دار القلم، الطّبعة الرّابعة، 1426هـ-2005م.

125. مُصطفى، إبراهيم وآخرون: **المُعجم الوسيط**، دار الدّعوة، عدد الأجزاء (2).

126. المصلح، عبد الله بن عبد العزيز: **الإعجاز العِلْميّ في القرآن والسّنّة، تاريخه وضوابطه**، دار جياد، الطّبعة الثّالثة، المملكة العربيّة السّعوديّة، 1432هـ-2011م.

127. مهلهل الياسين، جاسم بن محمّد وآخرون: **الجداول الجامعة في العلوم النّافعة**، مُؤسّسة الرّيّان، الطّبعة الثّالثة، بيروت، 1431هـ-2010م.

128. الميدانيّ، أحمد بن محمّد (ت 518هـ): **مجمع الأمثال**، تحقيق: محمّد مُحيي الدّين، دار المعرفة، بيروت، عدد الأجزاء (2).

129. الميدانيّ، عبد الرّحمن حسن (ت1425هـ): **أجنحة المكر الثّلاثة وخوافيها: التّبشير–الاستِشراق–الاستعمار، دراسة وتحليل وتوجيه (ودراسة منهجيّة شاملة للغزو الفكريّ)**، دار القلم، الطّبعة الثّامنة، دمشق، 1420هـ–2000م. **الأخلاق الإسلاميّة وأُسسها**، دار القلم، الطّبعة الخامسة، دمشق، 1420هـ–1999م. **الأمثال القرآنيّة، دراسة وتحليل وتصنيف ورسم لأصولها وقواعدها ومناهجها**، دار القلم، الطّبعة الأُولى، دمشق، 1400هـ–1980م. **براهين وأدلّة إيمانيّة**، دار القلم، الطّبعة الأُولى، دمشق، 1408هـ–1987م. **الحضارة الإسلاميّة أُسسها ووسائلها وصور من تطبيقات المُسلمين لها ولمحات من تأثيرها في سائر الأُمم**، دار القلم، الطّبعة الأُولى، دمشق، 1418هـ–1998م. **صراع مع الملاحدة حتّى العظم**، دار القلم، الطّبعة الخامسة، دمشق، 1412هـ–1992م. **الصّيام ورمضان في السّنّة والقرآن، دراسة في طريق بحوث فقه الكتاب والسّنّة**، دار القلم، الطّبعة الأُولى، دمشق، 1407هـ–1987م. **العقيدة الإسلاميّة وأُسسها**، دار القلم، الطّبعة الثّانية، بيروت، 1399هـ–1979م. **قواعد التّدبّر الأمثل لكتاب الله –عزّ وجلّ–**، دار القلم، الطّبعة الرّابعة، دمشق، 1430هـ–2009م. **كواشف زيوف**، دار القلم، الطّبعة الثّانية، دمشق، 1412هـ–1991م. **الكيد الأحمر، دراسة واعية للشّيوعيّة وجذورها وأفكارها وخرافة حتميّاتها وأحلام وعودها الكاذبة وواقع تدميرها الثّوريّ الحقود الحسود وجحيم تطبيقاتها**، دار القلم، الطّبعة الأُولى، دمشق، 1400هـ–1980م. **معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**، دار القلم، الطّبعة الأُولى، دمشق، 1427هـ–2006م. **نوح –عليه السّلام–، وقومه في القرآن المجيد، دراسة في طريق التّفسير الموضوعيّ**، دار القلم، الطّبعة الأُولى، دمشق، 1410هـ–1990م. **الوالد الدّاعية المُربّي الشّيخ حسن حبنّكة الميدانيّ قصّة عالم مُجاهد حكيم شجاع**، دار البشير، الطّبعة الأُولى، جدّة، 1423هـ–2002م.

130. النّابلسيّ، محمّد راتب: **موسوعة الإعجاز العِلْميّ في القرآن والسّنّة آيات الله في الآفاق**، دار المكتبي، الطّبعة الثّانية، دمشق، 1426هـ–2005م. **موسوعة الإعجاز العِلْميّ في القرآن والسّنّة آيات الله في الإنسان**، دار المكتبي، دمشق، 1426هـ–2005م.

131. النّجّار، زغلول راغب: **مدخل إلى دراسة الإعجاز العِلْميّ في القرآن الكريم والسّنّة المطهّرة**، دار المعرفة، الطّبعة الأُولى، بيروت، 1430هـ–2009م. **من آيات الإعجاز العِلْميّ: الأرض في القرآن الكريم**، دار المعرفة، الطّبعة الأُولى، بيروت، 1428هـ–2005م. **من آيات**

الإعجاز العِلْميّ: السّماء في القرآن الكريم، دار المعرفة، الطّبعة الثّانية، بيروت، 1428هـ-2005م.

132. النّسفيّ، عبد الله بن أحمد (ت 710هـ): **مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل**، تحقيق: يوسف علي بديوي، دار الكلم الطّيّب، الطّبعة الأُولى، بيروت، 1419هـ-1998م، عدد الأجزاء (3).

133. النّوويّ، يحيى بن شرف (ت 676هـ): **صحيح مُسلم بشرح النّوويّ**، ضبط وتوثيق: صدقي محمّد جميل العطّار، دار الفكر، بيروت، 1415هـ-1995م، عدد الأجزاء (18).

134. نويهض، عادل: **مُعجم المُفسّرين (من صدر الإسلام وحتّى العصر الحاضر)**، مُؤسّسة نويهض الثّقافيّة، الطّبعة الثّالثة، بيروت، 1409هـ-1988م، عدد الأجزاء (2).

135. ياغي، إسماعيل أحمد: **الدّولة العثمانيّة في التّاريخ الإسلاميّ الحديث**، مكتبة العبيكان، الطّبعة الأُولى، الرّياض، 1416هـ-1996م.

136. ياقوت الحمويّ، ياقوت بن عبد الله (ت 626هـ): **مُعجم الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب**، تحقيق: إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلاميّ، الطّبعة الأُولى، بيروت، 1414هـ-1993م، عدد الأجزاء (7).

137. يوسف، محمّد خير رمضان: **تتمّة الأعلام للزّركليّ**، دار ابن حزم، الطّبعة الثّانية، بيروت، 1422هـ-2002م. **تكملة مُعجم المُؤلّفين**، دار ابن حزم، الطّبعة الأُولى، بيروت، 1418هـ-1997م.

الرّسائل الجامعيّة

1. صبرا، نادي حسن: **منهج عبد الرّحمن حبنّكة في التّفسير**، رسالة ماجستير في التّفسير، الجامعة الأُردنيّة، الأُردنّ، 2006م.
2. عبد الرّازق، منى رفعت: **مراحل خلق الإنسان في آيات القرآن الكريم**، رسالة ماجستير في أُصول الدّين، جامعة النّجاح الوطنيّة، فلسطين، 1424هـ-2003م.

المواقع الإلكترونيّة

1. الشّبكة العنكبوتيّة على موقع (يوتيوب): **مُقابلة مع الشّيخ عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميدانيّ**، بعنوان: حديث الذّكريات، في برنامج علماء مُبدعون، إعداد: الأُستاذ جاسم محمّد المطوّع، بتاريخ 2001/10/3م، على الرّابط الآتي:
https://www.youtube.com
2. موقع إشراقات، على الرّابط الآتي: http://ishrakat.com
3. موقع الدّكتور زغلول النّجّار، على الرّابط الآتي: http://www.elnaggarzr.com
4. الموقع الرّسميّ للمكتبة الشّاملة، على الرّابط الآتي: http://shamela.ws
5. موقع الشّيخ يوسف القرضاويّ، على الرّابط الآتي: https://www.al-qaradawi.net
6. موقع الهيئة العالَمِيّة للإعجاز العِلْميّ في القرآن والسّنّة، على الرّابط الآتي:
https://www.eajaz.org
7. موقع جامعة الزّهراء، على الرّابط الآتي: https://alzahraa-university.com
8. موقع رابطة أُدباء الشّام، على الرّابط الآتي: http://www.odabasham.net
9. موقع رابطة العلماء السّوريّين، على الرّابط الآتي: http://islamsyria.com
10. موقع رابطة علماء الشّام، على الرّابط الآتي: http://www.rocham.org
11. موقع شبكة الألوكة، على الرّابط الآتي: http://www.alukah.net
12. موقع مُلتقى أهل التّفسير، على الرّابط الآتي: https://vb.tafsir.net
13. موقع منارات للعلوم الشّرعيّة والدّعويّة، على الرّابط الآتي:
http://www.manaratweb.com
14. موقع مُؤسّسة القدس للثّقافة والتّراث، على الرّابط الآتي:
http://alqudslana.com
15. موقع موسوعة الكحيل للإعجاز العِلْميّ، على الرّابط الآتي:
http://www.kaheel7.com
16. موقع موسوعة النّابلسيّ للعلوم الإسلاميّة، على الرّابط الآتي:
http://www.nabulsi.com
17. موقع نسيم الشّام، على الرّابط الآتي: http://www.naseemalsham.com
18. موقع ويكيبديا الموسوعة الحرّة، على الرّابط الآتي: https://ar.wikipedia.org

فهرس الآيات القرآنيّة

الآية	السّورة ورقم الآية	رقم الصّفحة
﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ﴾	سورة البقرة: الآية (221)	**7**
﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ﴾	سورة البقرة: الآية (44)	13
﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ﴾	سورة البقرة: الآية (164)	148
﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾	سورة آل عمران: الآية (185)	20
﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا﴾	سورة المائدة: الآية (48)	57
﴿وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي﴾	سورة المائدة: الآية (110)	112
﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ﴾	سورة الأنعام: الآية (2)	161
﴿أَرَءَيۡتَكُمۡ﴾	سورة الأنعام: الآية (40)	42
﴿الٓمٓصٓ﴾	سورة الأعراف: الآية (1)	66
﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾	سورة الأعراف: الآية (19)	66
﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾	سورة الأعراف: الآية (54)	136-112-91
﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا﴾	سورة الأعراف: الآية (57)	149
﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾	سورة الأعراف: الآية (157)	53
﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾	سورة الأعراف: الآية (163)	60
﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾	سورة يونُس: الآية (5)	132
﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾	سورة يونُس: الآية (26)	39
﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾	سورة هود: الآية (1)	72
﴿* وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ﴾	سورة هود: الآية (61)	161
﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ﴾	سورة يوسُف: الآية (4)	137
﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾	سورة الحجر: الآية (22)	150
﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾	سورة الحجر: الآية (26)	165
﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ﴾	سورة النّحل: الآية (4)	164
﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾	سورة النّحل: الآية (15)	153

﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾	سورة النّحل: الآية (16)	136
﴿وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾	سورة الإسراء: الآية (4)	67
﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾	سورة الإسراء: الآية (85)	186
﴿* مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾	سورة الكهف: الآية (51)	127
﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾	سورة مريم: الآية (4)	51
﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾	سورة الأنبياء: الآية (30)	126
﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ﴾	سورة الأنبياء: الآية (104)	128
﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ﴾	سورة المؤمنون: الآية (12-16)	167
﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾	سورة المؤمنون: الآية (86)	128
﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾	سورة الفرقان: الآية (2)	144-116
﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾	سورة الفرقان: الآية (32)	78
﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ﴾	سورة الفرقان: الآية (33)	82
﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا﴾	سورة الفرقان: الآية (61)	120
﴿لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا﴾	سورة الفرقان: الآية (73)	42
﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا﴾	سورة النّمل: الآية (61)	155
﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾	سورة النّمل: الآية (88)	157
﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا﴾	سورة العنكبوت: الآية (17)	112
﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ﴾	سورة الرّوم: الآية (38)	48
﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾	سورة لقمان: الآية (10)	114
﴿أُكُلٍ خَمۡطٖ﴾	سورة سبأ: الآية (16)	49
﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ﴾	سورة فاطر: الآية (12)	56
﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾	سورة فاطر: الآية (27)	158
﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾	سورة يس: الآية (37)	142
﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾	سورة يس: الآية (38-40)	130
﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ﴾	سورة يس: الآية (78-79)	41
﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾	سورة الصّافات: الآية (5)	141
﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾	سورة الصّافات: الآية (6)	121

﴿ * وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ﴾	سورة ص: الآية (21-22)	53
﴿ إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ﴾	سورة ص: الآية (71)	162
﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ﴾	سورة ص: الآية (73)	41
﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾	سورة الزّمر: الآية (6)	172
﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾	سورة الزّمر: الآية (10)	20
﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾	سورة غافر: الآية (67)	163
﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ﴾	سورة فُصّلت: الآية (11)	124
﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾	سورة الشّورى: الآية (11)	115
﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾	سورة الشّورى: الآية (49-50)	177
﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا ﴾	سورة ق: الآية (6)	120-116
﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾	سورة ق: الآية (7)	153-140
﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾	سورة ق: الآية (38)	53
﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ﴾	سورة الذّاريات: الآية (7)	128
﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾	سورة الذّاريات: الآية (21)	160
﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾	سورة الذّاريات: الآية (47)	123-118
﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾	سورة النّجم: الآية (1)	136
﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴾	سورة النّجم: الآية (45-46)	175
﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾	سورة القمر: الآية (1)	66
﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا ﴾	سورة القمر: الآية (12)	66
﴿أَمۡ يَقُولُونَ نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ ۝٤٤ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ﴾	سورة القمر: الآيتان (44-45)	58
﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾	سورة القمر: الآية (46)	58

﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾	سورة الواقعة: الآية (8)	67
﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾	سورة الواقعة: الآية (12)	42
﴿وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾	سورة الواقعة: الآية (21)	42
﴿وَحُورٌ عِينٞ﴾	سورة الواقعة: الآية (22)	42
﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ﴾	سورة الواقعة: الآية (58)	181
﴿۞فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾	سورة الواقعة: الآية (75)	137
﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾	سورة الطّلاق: الآية (12)	144
﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا﴾	سورة نوح: الآية (15-16)	123-120
﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ﴾	سورة القيامة: الآية (16-19)	78
﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾	سورة القيامة: الآية (36-39)	176
﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ﴾	سورة القيامة: الآية (37)	165
﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ﴾	سورة الإنسان: الآية (2)	178-177
﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ﴾	سورة المرسلات: الآية (9)	117
﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾	سورة المرسلات: الآية (20)	163
﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ﴾	سورة المرسلات: الآية (27)	154
﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾	سورة النّازعات: الآية (30)	102
﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾	سورة التّكوير: الآية (1)	132-103
﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾	سورة الانفطار: الآية (2)	137
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾	سورة الانشقاق: الآية (6)	15

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ﴾	سورة البروج: الآية (1)	115
﴿فَتَنُواْ﴾	سورة البروج: الآية (10)	63
﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ﴾	سورة الطّارق: الآية (5-7)	178-55
﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ﴾	سورة الغاشية: الآية (18)	123
﴿وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ﴾	سورة الغاشية: الآية (19)	155
﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾	سورة البلد: الآية (4)	170
﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ۝١٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾	سورة البلد: الآيتان (18-19)	67
﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾	سورة الشّمس: الآية (2)	134
﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾	سورة الشّمس: الآية (5)	123
﴿وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾	سورة الشّمس: الآية (6)	141
﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾	سورة التّين: الآية (4)	160
﴿فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾	سورة العلق: الآية (17-18)	39
﴿ضَبۡحًا﴾	سورة العاديات: الآية (1)	49

فهرس الأحاديث النّبويّة

طرف الحديث	رقم الصّفحة
أَذَكَرٌ أم أُنثى	177-176
إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ	166
إنّ الله يبعث يوم القيامة مُنادياً يُنادي	39
الحمد لله نحمده ونستعينه	ذ
لا يشكر الله من لا يشكر النّاس	ب